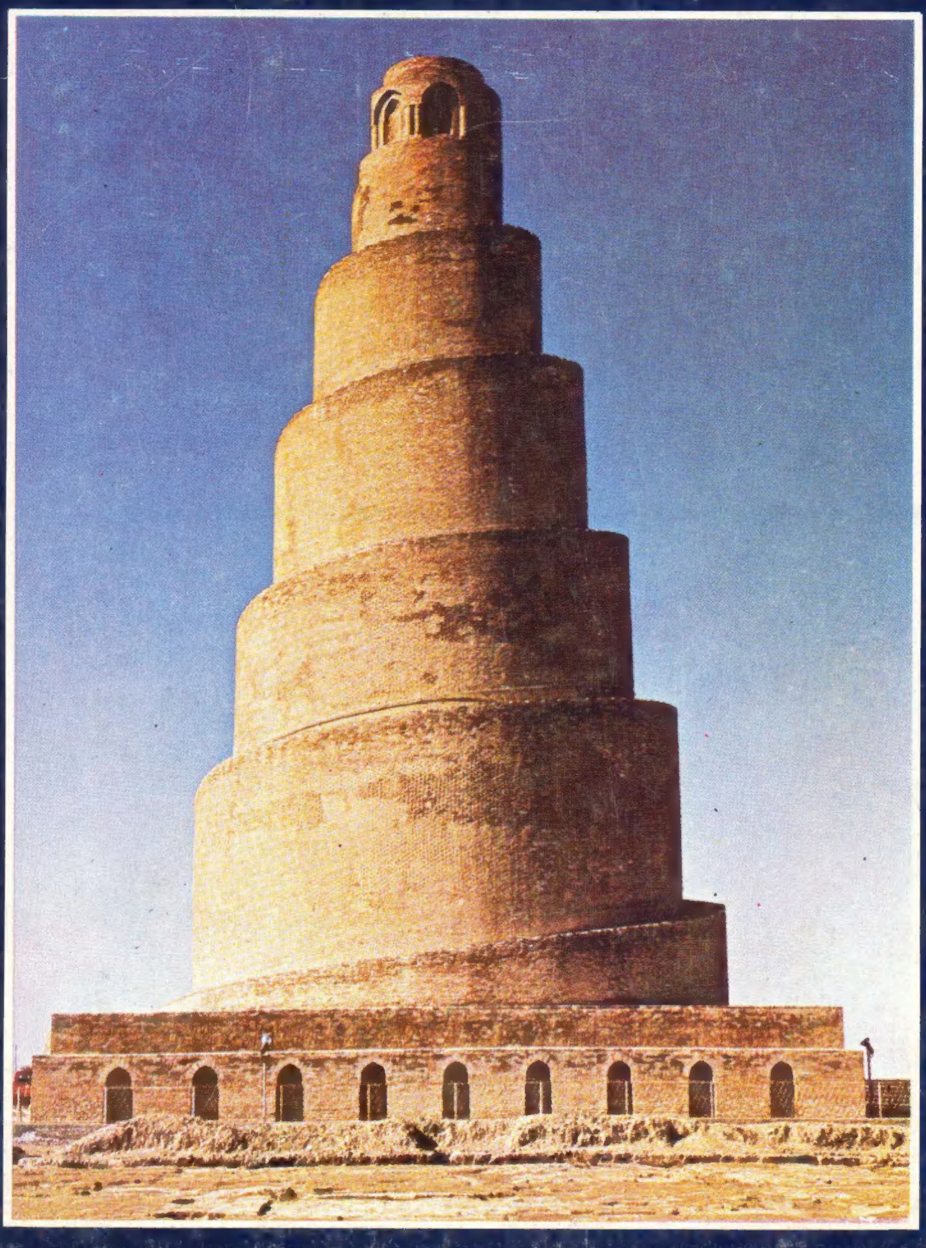
الآثار الإسلامية الأولى

تأليف : ك . كريزويل

نقله إلى العربية : عبد الهادي عبلة

استخرج نصوصه وعلق عليه : أحمد غسان سبانو



دار قتيبة - دمشق

الآثار الإسلامية الأولى

يُعتبر ك. كريزويل أفضل من عمل في ميدان تاريخ العمارة الاسلامية.
ويُعتبر كتابه هذا الأول في بابه والأهم
وقد جاء نتيجة جهوده التي استغرقت أكثر من خمسين عاماً من البحث والتقصي والتجوال في سائر أنحاء الوطن العربي والعالم الإسلامي.



دار قتيبة
للطباعة والنشر والتوزيع

الآثار الإسلامية الأولى

تأليف: ك. كريزويل

نقله إلى العربية: عبد الهادي عبلة
استخرج نصوصه وعلق عليه: أحمد غسان سبانو

نشر وتوزيع
دار قتيبة - دمشق

الطبعة الاولى

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

مطبعة خالد بن الوليد

٣٠٠٠

الآثار الإسلامية الأولى

المقدمة

الفن قديم قدم التاريخ وهو وليد الحضارات المتعاقبة على مر العصور وكانت بداياته حينما خطا الانسان القديم اولى خطواته في هذا العالم الرحب الوسيع وظهرت رسوم انسان الكهوف وادواته وهندسة بناءه القديمة شاهدة على ان الفن ظاهرة انسانية استقل بها الانسان كاستقلاله بالكثير من خصائصه التكوينية الانسانية .

والبحث في تاريخ الفن قديم جدا الا ان البحث العلمي المبرمج وفق مناهج وضوابط مدرسية لم يبدأ قبل القرن السادس عشر وذلك على يد المؤرخ اللاتيني (فاساري) وهو استاذ مؤرخي الفن . وقد أخرج كتاباً ضخماً ضمنه تراجم رجال العمارة الايطالية .

ثم اصدر (ماندر) كتابه (المشاهدات) وفي عام ١٦٧٥ اصدر (يواخيم فون ساندرت) كتاب « اكاديمية العمارة والنحت والتصوير » ثم اصدر برنارد دي مونغاكو كتابه الهام عام ١٧٤٥ . ثم ظهر فيما بعد كتاب (شنازه)من وضع نخبة من العلماء الالمان .واصدر انطونشبرنجر كتابه الذي يعتبر مفخرة كتب تاريخ الفن العام .

وظهرت بوادر تقسيم تاريخ الفن في بعض هذه الكتب وكان التقسيم حسب العصور حينا وحسب مراحل كل عصرحينا آخر ثم حسب الشعوب وحسب الديانات وحسب الاقاليم واخيرا بحسب الاشخاص

ومراحل التطور الفني عند كل فنان . وبنفس الوقت قسمت الفنون الى فن العمارة وفن النحت والتصوير والنمنمات والتزيين وغير ذلك .

وقد بدأت دراسات الفن الاسلامي تنتشر بعد انتشار الاستشراق في أوروبا . وقام المستشرقون بدراسة الفنون الاسلامية على مختلف ميادينها واشكالها وفي مختلف اصقاعها . الا ان ملاحظة هامة ظهرت اثناء دراساتهم لسائر ميادين الفنون الاسلامية هي عمق التأثير الاسلامي واتساعه وازالته للفوارق بين البيئات المختلفة ذات الاصول المتباينة والتأثيرات المختلفة ضمن اطار عام ولو اختلفت بعض جزئياته .

من ذلك يقول « ارنست كونل » في مقدمة كتابه «الفن الاسلامي» (ان وحدة العقيدة الدينية في العالم الاسلامي اقوى تأثيرا منها في العالم المسيحي ذلك لان الاسلام قضى على الفوارق الناشئة عن اختلاف الاجناس والتقاليد ، وعنى بتوجيه شؤون الفكر والآداب والعادات في مختلف البلاد . وكان الامر بنشر القرآن بلغته الاصلية العربية وحدها مما جعل لها وللتعاليم القرآنية سيادة مطلقة في العالم الاسلامي كله،فكان ذلك في مقدمة العوامل التي ادت الى ابتداع كثيرمن الفنون وازدهارها).

وقد بلغ عمق التأثير الاسلامي وتأثير الرسول ﷺ ان قال الدكتور مايكل هارت صاحب كتاب المائة الاوائل (ان الفتوحات العربية التي تمت في القرن السابع استمرت لتلعب دورا هاما في تاريخ البشرية حتى يومنا هذا ، وان هذا الاتحاد الفريد الذي لانظير له للتأثير الديني والدنيوي معا مما يخول محمدا ﷺ ان يعتبر اعظم شخصية مفردة ذات تأثير في تاريخ البشرية) . وقد شهدنا هذا التأثير في فنون العمارة الاسلامية فصحيح ان مسجد الرسول الاول الذي بني عام ٦٢٢ م كما يقول الدكتور عفيف بهنسي في كتابه (الفن العربي الاسلامي في بداية

تكوينه) (قد وضع مخطط المساجد فيما بعد وكان على وجه الدقة سقيفة اقيمت على طرف من اطراف الصحن ، وهي مبنية من الاغصان والطين مرتكزة على جذوع النخيل ، وهكذا فان هذا المسجد الاول لم يكن ليحمل اية صيغة معمارية ، الا انه حدد المخطط الاولي لمسجد المستقبل بأجزائه الاساسية ، وهي الصحن الواسع جدا ، والحرم ذو الاعمدة الذي يحاذي الصحن ويكون امتدادا له من جهة القبلة ، والحرم قاعة عريضة جدا ، وقليلة العمق ، اذ تحدد نسب ابعادها مع نظام الصلاة الجماعية •) •

وتتلمس التأثير الاسلامي وتعاليمه الاجتماعية في هندسة البيوت والقصور والحمامات فيما يفرضه من محافظة وانغلاق على كل متطفل في سبيل اعطاء راحة وحرية داخلية للساكنين •

ونرى ابتعاد الهندسة والزخرفة والنحت والتصوير الاسلامي في أول الامر عن تمثيل الاشكال الانسانية متجها نحو الزخارف الهندسية والنباتية •

ولم يبدأ الفن الاسلامي من الصفر فقد كان في منطقتنا العربية مزدهرا من بدايات النشاط الانساني وان ازدهاره الكبير منذ مطلع الالف الثالث قبل الميلاد مع بدايات تكون المدن والمجتمعات المتحضرة الكبيرة وضمن اطار وميدان واسع في مختلف اصقاع امتنا العربية من الجنوب في اليمن وحتى شمال العراق وسوريا ومن مصر والشمال الافريقي غربا وحتى اقاصي بلادنا شرقا • وضمن استمرارية وتطور متنام انتشر عبر مراحل التاريخ الى سائر انحاء العالم •

وفي فترة ما كان العالم واقعاً ضمن اطار نفوذ ساساني شرقي ،

واغريقي روماني غربي ، استمر نحو الف عام ، انتج تأثيرات جديدةلفننا المحلي القديم ، الا انه لم يصبغه بالصبغة الساسانية الشرقية البحتة او الكلاسيكية الغربية البحتة . بل تطور ونما فأخذ وأعطى .

وكان لفناننا ومهندسنا العربي في الغرب شهرة واتتاجا لا يمكـن تجاهله ونظره إلى آثار روما تشهد ان اكثر اوابدها الحالية تعود لفناننا السوري أبو لودور الدمشقي .

وقد كانت الدراسات الاولى لفننا الاسلامي قد تمت من قبـل المستشرقين وقد درج هؤلاء على اعتبار ان الفن الكلاسيكي ويقصدون في ذلك الفن اليوناني والروماني هو اساس الفنون معممين بذلك حقيقة واقعة عندهم الا انها مختلفة في المدى والاتساع عندنا وقد تأثر بعض كتابنا في هذا الاتجاه فكانت نظرتهم الى الفن وخاصة في بلاد الشام على انه حصيلة تأثيرات غربية . واخذ المستشرقون يبحثون عن اصول غربية لكل اوابدنا التي وجدت في فترة القرون الستة الاولى الميلادية . مع ان فن البناء عندنا لـه اصوله القديمة التي سبقت اليونان والرومان . بل اعطت اليونانوالرومان فمعابدنا وابنيتنا ومخططاتمدننا التيظهرت قبل واثناء الفترة اليونانية والرومانية يؤيد ذلك فاين اصول اهرامات مصر في الغرب أو معبد بعلبك أو أوابد تدمر وزقورات بلاد الرافدين وجنائنها المعلقة .

وفي كتابنا الذي نقدم له وهو الآثار الاسلامية المبكرة وهو يحمل اسما انكليزيا اشتهر به :

A short Account of Early Muslim Architecture

للبروفسور كريزويل اشهر من ان يعرف وهـو وان كان يعطي اهتماما اكبر للتأثيرات الغربية اذ يبين حسب وجهة نظره هذه كيف ولد

فن العمارة الاسلامية . مبينا التأثيرات الحضارية التي اثرت على ولادته والعناصر الاساسية التي سببت تكونه . متأثرا بالمواقع الاولى للخلافة الاموية في سوريا آخذا التأثيرات الهلنستية في تقاليد فنون العمارة المسيحية السورية الشائعة قبل الفتح الاسلامي .

وعند انتقال الخلافة الى العباسيين وتحول العاصمة الاسلامية الى بغداد كان التغير في التأثير مشابها للتغير في التأثير الذي نتج عن تحول العاصمة الرومانية من روما الى القسطنطينية فأصبح كل شيء اكثر شرقية فزادت التأثيرات الفارسية على حساب التأثيرات الهلنستية وبذلك تراجع التأثير السوري وضعف مداه .

وعلى هذا الاساس ظهر الفن الاسلامي العباسي الذي اتسع نطاق تأثيره حتى سمرقند شمالا والى البحرين جنوبا وحتى مصر غربا . بينما انحرف الفن الهلنستي الاموي نحو اسبانيا (الاندلس) تابعا عبد الرحمن الداخل والآلاف من أهل الشام الذين لحقوا به .

ان هذا الكتاب الذي هو اختصار لكتابه الكبير الذي صدر بمجلدين كبيرين في اوكسفورد عامي ١٩٣٢ و١٩٤٠ . يعتبر من اهم الكتب التي تناولت هذا البحث وهو مصدر هام لكل من كتب في هذا الموضوع .

فمن هو كريزويل :

البروفسور كيبل ارشيبلد تشارلس كريزويل ، ولد في بريطانيا عام ١٨٧٩ ودرس في معاهد وستمنسر ويعتبر من اعظم العلماء المتخصصين في العمارة الاسلامية .

فقد بدأ في دراسة العمارة الاسلامية عام ١٩١٠ . وبدأ في دراسته للعمارة الاسلامية على الواقع منذ عام ١٩١٦ حينما ارسل الى مصر ضمن قوات السلاح الجوي البريطاني واثناء معارك ١٩١٨ ارسل ضمن القوات المرسلة الى الشرق الى دمشق وحمص وحماة وحلب وبعد رحيل القوات البريطانية عن سورية في نهاية عام ١٩١٩ تحول الى فلسطين . وبعدها تفرغ لدراسة العمارة الاسلامية في مصر . في مراحلها المبكرة .

وفي عام ١٩٣١ عين استاذا للعمارة الاسلامية في جامعة القاهرة حيث انشأ معهد الآثار الاسلامية التابع لكلية الآداب فيها . وبقي مديرا له حتى نهاية عام ١٩٥١ وبعدها شغل منصب استاذ العمارة الاسلامية بالجامعة الامريكية في القاهرة . وقد انتخب عضوا في الاكاديمية البريطانية عام ١٩٤٧ .

ونحن اذ نقدم الكتاب لقراء العربية وان اختلفت بعض وجهات نظرنا مع ماذهب إليه المؤلف الا ان هذا لاينقص من القيمة الكبيرة للكتاب وهو يفتح ميدانا رحبا للباحثين والمؤرخين والمهتمين بفنون البناء من ناطقي الضاد .

القسم الأول

العصر الأموي

الفصل الأول

فجــر الاسلام

عند ظهور الاسلام يبدو أن جزيرة العرب لم تكن تملك أي شيء جدير باسم فن العمارة إذ أن نسبة ضئيلة جدا من السكان كانت تعرف حياة الاستقرار وتعيش في مساكن لاتزيد عن الاكواخ إلا قليلا ،والذين يعيشون في بيوت من اللبن يسمون آهــل الحضر ، أما البدو الــذين يعيشون في خيام من وبر الجمال فيسمون أهل الوبر .

في حياة محمد (ﷺ) كان الحرم في مكة مؤلفاً من بنــاء صغير مستطيل الشــكل لا سقف لــه ، لــه أربعــة جدران أعلى من ارتفاع الانسان بقليل حسب رواية ابن هشام [1] أو حوالي ٩ أذرع (حوالي ٤ر٥ م) حسب روايــة الازرقي[2] مبنية من الحجــارة العاديــة دون ملاط (مونة) . كان الحرم مستطيل الشكل أطوال جوانبه ــ حسب رواية الازرقي ــ ٣٢ ذراعا (شمال ــ شرق) . و ٢٢ ذراعا (شمال ــ غرب) . و ٣١ ذراعا (جنوب ــ غرب) و ٢٠ ذراعا (جنوب ــ شرق). وداخل هذا البناء يقع بئر زمزم المقدس . هذا الحرم الصغير المعــروف

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٠٩/١

(٢) الازرقي : هو محمد بن عبد الله الازرقي ، مؤرخ يماني الاصل : وكتابه أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار .

بالكعبة يقوم في أسفل الوادي الذي تحيط به منازل مكة الملتصقة به والتي توجب على عمر (رضي الله عنه) أن يهدم الكثير منها عندما أراد أن يحيطه بساحة كبيرة تتسع للحجاج المؤمنين .

إعادة بناء الكعبة :

نظرا لوضع الكعبة في الجاهلية أوجب إعادة بنائها عندما كان عمر محمد (ﷺ) ٣٥ عاما أي في عـام ٦٠٨ م . واستخدمت قريش خشب سفينة محطمة ووظفت نجـارا وبناء يسمى (بقيم) كان علـى السفينة ليساعدهم على إعادة بنائها . ويقول الازرقي إن بناء الكعبة الجديدكان طبقة من الحجر يليها طبقة أخرى من الخشب حتى السقف بحيث كان هناك ١٦ طبقة من الحجر و١٥ طبقة من الخشب أي ٣١ طبقة أولها وآخرها من الحجر . وهذا يجعل كلام الازرقي مفهوما عندما يقول أن (بقيم) كان نجارا وبناء " « فلكي يقيم المرء مثل هذا البناء عليه أن يكون نجارا وبناءاً معا » . وكانت الجدران على الارجح مغطاة بطبقة من الجص لانه يبدو من وصف الازرقي لحرق الكعبة عام ٦٨٣ م أن الناس اكتشفوا لاول مرة وبدهشة أن الجدران كانت مبنية جزئيا من الخشب . وارتكز السقف على ٦ سواري منظمة في صفين كل منهما مؤلف من ٣ سواري . والارتفاع الاجمالي للبناء ١٨ ذراعا مما يجعل ارتفاع كل طبقة ٣١ سم تقريبا . ويقول الازرقي إن السقف والجدران والاعمدة مغطاة بصور الانبياء والاشجار والملائكة . وعلى العمود الاقرب الى الباب صورة إبراهيم وعلى عمود آخر صورة مريم العـذراء ويسوع على ركبتها . ورواية الازرقي هذه لا يعرفها إلا القليل رغم أهميتها فمن المستحسن أن أذكر أن الازرقي المتوفى عام ٨٥٨م هوأقدم مؤرخي مكة .وتاريخه مبني على المادة التي جمعها جده قبل نهاية القرن الثامن الميلادي .

الأصول المعمارية :

من أين يمكن أن يأتي هذا الطراز الملفت للنظر في البناء وهو الطبقات المتتالية من الحجر والخشب ؟ بالتأكيد ليس من بلاد كالجزيرة العربية حيث يندر الخشب . لابد أنه تطور في بلاد كثر فيها الخشب وفي هذه البلاد على وجه الدقة ـ الحبشة ـ يمكن العثور على أمثلة كثيرة لهذا الفن الغريب في البناء مثل كنيسة دبرأدامو وكنيسة دبر الييانوس وكنيسة إمراهانا كريستوس وكنيسة أسمراء ولكن أقدم هذه الكنائس ـ لسوء الحظ ـ لايعود إلى أبعد من القرن التاسع . ومع ذلك فبالامكان البرهنة على أن هذا الفن كان يستخدم في الحبشة قبل هذا التاريخ أي في الوقت الذي تم فيه نحت المسلات الحجرية الهائلة والمنحوتة من حجر واحد في أكسم . إنها ذات قطع عرضي مستطيل ومنحوتة لتشبه المنائر المتعددة الطوابق والفن الذي وصفناه له ما يماثله على الحجر . وكبرها التي سقطت وتكسرت يبلغ ارتفاعها ٣ر١١ مترا ومستدقة الطرف نحو الاعلى حتى تنتهي الى شكل هلال وهو رمز إله الحرب (مهرم) في الحبشة . وبما أن الملك إيزانا ـ قسطنطين الحبشي ـ اعتنق المسيحية في القرن الرابع وجعلها دين الدولة فإن ذلك يستتبع بالتالي أن أقصى تاريخ ممكن لهذه المسلات هو القرن الرابع الميلادي .

ولذلك فإن لدينا كل المبررات لنؤكد أن الفن الخاص المستخدم في بناء الكعبة أتى من الحبشة والاكثر من ذلك فإن الدكتور (إنو ليتمان) يقول لي ان (بقيم) هي على الارجح اختصار لكلمة إبنا قوم ـ والصيغة الحبشية هي هباكوك ـ مما يدل على أن النجار والبناء المستخدم في بناء الكعبة هو على الارجح حبشي .

الهجرة إلى المدينة وبناء بيت محمد (ص) :

عندما هاجر محمد (ﷺ) إلى المدينة في عام ٦٢٢ م كنتيجة لعداء المشركين المكيين بنى بيتالنفسه وعائلته ،وهو بناء طيني مساحته حوالي ١٠٠ ذراع مربع ترتفع جدرانه ٧أذرع ورواق فيالجانب الجنوبي مبني من جذوع النخل كأعمدة لحمل السقف المؤلف من سعف النخل والطين. ومقابل الجانب الخارجي من الجدار الشرقي بنيت حجـرات صغيرة لنسائه وكلها تفتح إلى الساحة . ولدينا وصف لهذه الحجرات حفظه ابن سعد [1] نقله عن رجل يسمى عبد الله بن زيد الذي رآها قبلهدمها بناء على أوامر الوليد بن عبد الملك في عام ٧٠٧ م .

[كانت هناك أربعة بيوت [2] من الطين وشقق مفصولة بعضهاعن بعض بأغصان النخل المغطاة بالطين وأربعة بيوت أخرى مصنوعة مـن أغصان النخل المغطاة بالطين دون تقسيمها إلى غـرف . وعلى الابواب ستائر من القماش الشعري الاسود وكـل ستارة طولها ثلاثـة أذرع وعرضها ثلاثة أذرع . وباستطاعة المرء لمس السقف بيديه .

وفي الزاوية الجنوبية الغربية من المسجد تقع الصفة وهي رواق بالجانب الشمالي ويستخدم كمأوى للمهاجرين الفقراء الذين هاجروا من مكة ولهذا السبب عرفوا بأهل الصفة] .

هكذا كان بيت الرسول في المدينة . ولم يرغب في تغيير هـذه

---

(١) الطبقات لابن سعيد ٢٤٦/١ ، وعبـد الله بن زيد هـو الصحابي الانصاري الخزرجي توفي سنة ٦٣ هـ / ٦٨٣ م . الاعلام ٢١٩/٤ .

(٢) البيت المقصود به هنا الغرفة الصغيرة .

الاوضاع إذ لم يكن هناك أي اهتمام في إقامة الابنية والاعتناء بزخارفها .

في هذه الفترة كانت الطائف المدينة الوحيدة في الحجاز المحاطة بأسوار . وعندما هوجمت المدينة في عام ٥ هجرية (٦٢٧) ميلادي لم تكن محاطة بسور ولذلك أمر محمد (ﷺ) بحفر خندق لحمايتها . وصاحب هـذه الفكرة هو سلمان الفارسي ، وكان لتنفيذها مفاجـأة قويـة لانه لم يسمع أحـد من قبل بمثل ذلك . وكلمة خنـدق التي أطلقت فارسية الاصل . وقد أحيطت المدينة بالجدران بعد ذلك لاول مرة عام ٦٣ هـ (٦٨٢) .

القبلة :

في البدء صلى محمد (ﷺ) باتجاه القدس وكان اليهود في تلك الفترة يشكلون مجتمعا قياديا في المدينة . ولتمكين الاسلام من الانتشار هناك كان من الواضح وجوب الوصول الى اتفاقية معهم إما بتحويلهم الى الاسلام أو باجلائهم عن المدينة . إن اعتناقهم الاسلام سيكون نصرا كبيرا بينما يعتبر العداء لهم خطرا كبيرا على الدعوة الاسلامية ، ولذلك علق أهمية كبيرة على أسلام اليهود وقدم إليهم تنازلات كبيرة . ورغبهم بشتى الاساليب . غير أن اليهود أظهروا عداءهم المطلق لكل مساعيه وأصبحت العلاقات معهم أشد توترا في السنة الثانية للهجرة وفي النهاية قرر قطع الصلة معهم .

وأول مظاهر هذا القرار كان تغيير القبلة . هجـر فكرة القدس كمركز للعالم واستبدل بها الكعبة . وأتى التغيير مفاجئا [1] . كـان

---

(١) هذا التفسير إنما يضعه المستشرقون لتفسير الكثير من الظواهر والاحكام التي انزلت على النبي ﷺ والتي لايستطيعون لهـا ادراكاً أو تفسيرا .

محمد (ﷺ) في المصلى خارج المدينةوبعد إتمامالركعة الثانية نزلعليه الوحي للتوجه نحو مكة في المستقبل وعندها مباشرة تلا الآية المذكورة في السورة الثانية من القرآن . بعدها توجه نحو الجنوب وتبعه جمهور المصلين ومنذ ذلك التاريخ عرف هذا المصلى بمسجد القبلتين .

ويعتبر آرنولد هذه الحادثةذات أهمية بالغة فيقول : « هذاالتغيير في الاتجاه أثناء الصلاة ذو أهمية أكبر مما يبدو للوهلة الاولى . كانت بحق بداية الحياة القومية للاسلام : اعتبرت الكعبة في مكة مركزا دينيا لكل المسلمين كما كانت منذ زمنسحيق محجكلقبائل الجزيرة العربية. كما كان إدخال عادة العرب القديمة بالحج إلى مكة ضمن دائرة التعاليم الاسلامية ذات أهمية لاتقل عن تغيير القبلة . والحج هو الفرض الذي على المسلم أن يؤديه مرة في العمر على الاقل » .

المآذن :

لم يعرف الاسلام المآذن أثناء حياة محمد (ﷺ) وعندما أتـى الرسول وأتباعه إلى المدينة صلوا دون أذان . وعندما علموا أناليهود يستعملون البوق ،والمسيحيين يستعملون الناقوس أرادوا أنيكون لهم شيء مشابه ولذلك أمر محمد (ﷺ) بلالا أن يؤذن للصلاة من أعلى سنطح في المنطقة .

وفاة النبي صلى الله عليه وسلم

لم يحدث أي تغيير في بيت محمد (ﷺ) حتى وفاته في ٨حزيران

(١) وهي : « قدنرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام » . سورة البقرة الآية ١٤٤ .

عام ٦٣٢ م ، ودفن في الغرفة التي شغلها أثناء حياته ولم يصبح منزلـه مسجدا بعد ، إذ أن عملية التحول هذه لم تتم بسرعة ، ويبدو أنه بقي منزلا بعد وفاة الرسول لأن عائشة زوج النبي (ﷺ) وبنت أبي بكـر استخدمته بعـد مبايعة أبيها بالخلافـة كما استخدمه محمد (ﷺ) . وظل منزلا حتى عام ٦٥٥ م ، وقد قتل الخليفة عثمان في غرفة قريبة من الغرفة التي دفن فيها النبي محمد (ﷺ) ، ويعتبر (كيتاني) أن التغيير الاساسي حدث عندما نقل علي (رضي الله عنه) مركـز الخلافـة الى الكوفة في عام ٦٥٧ م وتضاءلـت أهمية المدينة إلى مدينـة إقليمية . وعندها حـول احفاد الرسول وثيقي الصلة به هذا المنزل الى حرم لانه المكان الذي نزل فيه أكثر من نصف القرآن والمكان الـذي كان منزله لاكثر من عشرة أعوام وفي الختام مدفنه ، على أية حال تم تحويله الى مسجد عام ٦٧٤ م .

انتخاب ابي بكر :

بعد وفاة النبي (ﷺ) انتخب أبو بكر خليفة ، ويجب أن تتذكر أنه حتى ذلك التاريخ لم تكن هناك فتوحات خارجية حيث استغرقت حروب الردة سنة كاملة قبل البدء بالحملات خارج الجزيرة ، ولكن الاصطدامات مع القبائل العربية على حدود سورية والعراق سرعان ماأدت إلى الحملات الكبرى ضد الامبراطورية البيزنطية من جهة والامبراطورية الساسانية من جهة أخرى ، وفي نهاية عام ٦٣٧ م كانت سورية والعراق بأكملهما في أيدي العرب المسلمين وتبع ذلك فتح مصر .

ولنفهم كيفية ولادة فن العمارة الاسلامية ولنشرح تطورها الاولي وثنائيتها لابد من دراسة ظروف الفتح العربي ، فالتقدم العربي كـان مروحيا ، في البداية اتبع تقريبا الخط الذي اتبعته سكة حديـد الحجاز

فيما بعد ، ثم اتجهت مجموعة إلى اليسار باتجاه القدس وثانية باتجاه دمشق بينما اتجهت الثالثة مقدار ٤٥° إلى اليمن لفتح العراق ووصلت نهر الفرات عند الموقع الذي أقيمت فيه البصرة .

كان الرجال الذين شكلوا هذه الجيوش من البدو ولكن حتى رجال الحضر المكيين والمدنيين لم يكونوا يعرفون شيئا عن الفن أو العمارة . وسرعان ماوجدوا أنفسهم في بيئتين ثقافيتين مختلفتين تماما . فالذين دخلوا سورية وجدوا أنفسهم في منطقة خضعت للتأثير الهيلينستي لفترة تقارب الالف عام منذ أيام الاسكندر الاكبر وحتى الفتح العربي عام ٨ ــ ٦٣٧ م . والذين دخلوا العراق (وفارس بعد فترة وجيزة) وجدوا أنفسهم في منطقة خضعت للتأثير الفارسي لفترة أطول .

ولم تكن التقاليد الثقافية فقط مختلفة بل الظروف المادية أيضا . فسورية كانت بلاد مواد البناء الرائعة ، فالحجر الكلسي السوري يعتبر من أفضل الانواع ويقاوم العوامل المناخية ويكتسب لونا كهرمانيا عند تعرضه لها ، كما أن أخشاب الارز متوفرة بكثرة لان لبنان لم يكن قد تجرد من غاباته . وبالتالي فان فاتحي القرن السابع وجدوا أنفسهم في بلاد ذات أبنية رائعة ــ كنائس من الحجر المنحوت المربع في مداميك يبلغ ارتفاعها ٩٠ سم وأروقة من الاعمدة الرخامية وسقوف مثلثية من خشب الارز وواجهات مزخرفة بلوحات الرخام المربعة وملونة بالموزاييك الزجاجي فوق خلفية ذهبية براقة .

وفي الثقافة الأخرى وجدوا الابنية الآجرية وأحياناً مؤلفة من الآجر الطيني وأحياناً من القناطر وأحياناً سقوفاً مسطحة من جذوع النخل وسعفه والطين .

تحويل الكنائس إلى مساجد :

في تلك الايام الاولى عندما يفتح المسلمون مدينة في سورية كانوا يأخذون إحدى كنائسها ويحولونها إلى مسجد أو انهم يقسمون إحدى الكنائس ففي حمص مثلا أخذوا ربع كنيسة القديس يوحنا . وفي حلب ـ حسب رواية البلاذري ـ أخـذوا نصف الكنائس . كيف تحولت الكنيسة إلى مسجد ؟ يستطيع المرء أن يتعرف بسهولة . ففي سورية تتجه القبلة باتجاه الجنوب بينما تتجـه الكنائس نحو الشـرق . وبمثـل هذه الحالة كان من الضروري فقط إغلاق المدخل الغربي (أو ثلاثـة مداخل) وفتح مداخل جديدة في الجدار الشمالي والصلاة في الأجنحة . ويمكن الاستدلال على صحـة هـذه النظريـة بمسجد حمـاه الكبير حيث تحولت الواجهة الغربية من كنيسة العظماء الى مسجد في عـام ٧ ـ ٣٦٦ وتشكل الآن الجانب الغربي من حرم المسجد وأبوابها الثلاثة الغربية تحولت إلى نوافذ بينما المدخل الآن من الشمال .

الوضع في ايران والعراق :

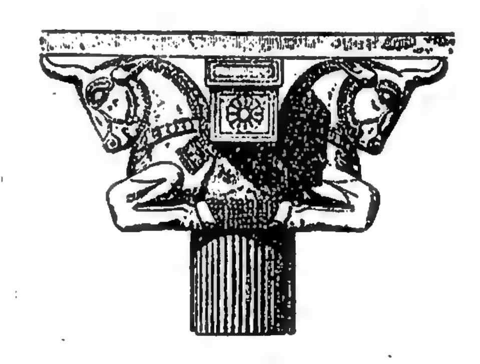
في إيران يبدو أن المسلمين استخدموا الأبنيـة القائمة أيضاً لأن المقدسي[٢] يقول « مسجد الجمعة في اصطخر مبني حسب طراز المساجد الجامعة في سورية ذات الأعمدة المستديرة . وفوق قمة كل عمود توجد بقرة ويقولون إن المسجد كان سابقاً معبد النار » ومـن الاشارة الى الأعمدة التي تنتهي بالأبقار أجزم أنه كان سابقاً قاعة الأبادانا قاعة ملوك

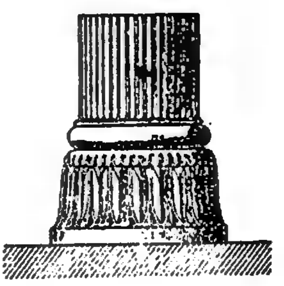
---

(١) فتوح البلدان لابي الحسن احمد بن يحيى البلاذري ، ص١٣٧ .

(٢) المقدسي : احسن التقاسم

الفرس وهي ذات سقف مسطح قائم على أعمدة ذات رؤوس مزدوجة الثيران (شكل ــ ١) .





(شكل ــ ١) أعمده ذات رؤوس مزدوجة الثيران (ساسانية)

في مدينة قزوين يعرف مسـجد الجمعة الاول « بمسجد الثور » وهو المسجد الذي بناه محمد بن الحجاج (توفي ٧١٠ م) . وهذا أيضاً يشير إلى استعمال الاعمدة الفارسية القديمة وربما أيضاً بالتحويل الفعلي لقاعة الأبادانا .

ولكن الوضع في العراق مختلف لأن العرب هنا بنوا المدن الجديدة (الشيء الذي لم يفعلوه في سورية) مما جعل من غير الممكن استعمال الأبنية القائمة وتوجب عليهم بناء الامكنة بأنفسهم ورغم أنه لم يبق أي من هذه المساجد الاولية حتى اليوم فقد وصلت الينا أوصاف العديد منها .

فأي نـوع من الابنية كانت المساجد الاولى في هـذه المدن الاسلامية الاولـى ؟

في البصرة التي أنشئت عام ٦٣٥ م يخبرنا البلاذري[١] أن المسجد قد اختط وأن المسلمين صلوا بدون أي بناء • وحسب روايـة أخرى يذكرها البلاذري أحيط المسجد بحاجز من القصب • وفي الكوفة التي أنشئت عام ٦٣٨ م كان المسجد الاول بمثل بداية مسجد البصرة إذ أن حدوده قد رسمت بواسطة رجل يرمي سهماً باتجاه القبلة وآخراً باتجاه الشمال وآخراً إلى الغرب ورابعاً إلى الشرق ، وهكذا تكونت ساحة مربعة طول كل ضلع من أضلاعها مرمى سهمين • هذه الساحة لايحيط بها سور بل خندق فقط والسمة المعماريـة الوحيدة هي الظلة (الرواق المسقوف) بطول ٢٠٠ ذراع على طول الجانب الجنوبي • كانت الاعمدة من الرخام المأخوذ من بعض آبنية الامراء اللخميين في الحيرة على بعد ٤ أميال تقريباً هذه الظلة مفتوحة من جميع الجوانب بحيث يستطيع المصلي ـ حسب رواية الطبري[١] ـ رؤية دير هند وبوابة المدينة المعروفة بباب الجسر • وعلى الجانب الجنوبي ـ يفصلها عـن المصلى شارع ضيـق ـ بنيت دار الإمارة لامير الجند سعد بن أبي وقاص • وضمن دار الإمارة قـام بيت المال • في إحدى الليالي حفر بعض اللصوص فجوة في الجـدار وسرقوا المال فكتب سعد إلى الخليفة عمر يخبره بالواقعة ويصف لـه طوبوغرافية المكان فأجابه عمر طالباً منه نقـل المسجد حتى يلاصق دار الإمارة « لأن المسجد مأهول بالناس ليلاً ونهـاراً وهم أفضل حارس لكنزهم » •

---

(١) فتوح البلدان ص ٣٤١ •

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٩٠ ـ ٥٩٧ •

من المهم أن نلاحظ أننا نجد في هذا الوقت مجمعاً مكوناً من مسجد مربع ودار الإمارة المبنية تجاه جانبه الجنوبي وسيستمر ذلك لأكثر من قرنين رغم أنه يعود بأصوله إلى حقيقتين هامشيتين : تحديد المسجد برمي السهام وواقعة السطو •

المسجد الاول في القدس :

لا يحدثنا أحد من المؤرخين العرب الاوائل مثل البلاذري والطبري عن بناء مسجد في القدس عند استسلامها لعمر عام ٦٣٧ م رغم أن أقوال المؤرخين المسيحيين مثل ثيوفانيس والياس النصيبي وميخائيل السوري تذكر بناء المسجد والتفاصيل الاسطورية المرافقة • ولكن ليس هناك أي شك بأن بناءاً بدائياً شيد في هذا الوقت لأن أركولف الذي قدم حاجا الى بيت المقدس حوالي ٦٧٠م يقدم لناوصفاًله فيقول : «ولكن في ذلك المكان المشهور حيث كان المعبد قائماً بروعته وهو واقع في جوار الجدار من جهة الشرق يتردد المسلمون على مسجد رباعي الشكل بنوه بصورة بدائية بوضع العوارض الكبيرة على بعض بقايا الآثار ويقال إن هـذا المكان يتسع لثلاثة آلاف رجل دفعة واحدة » •

ويمكن تسمية هذا المسجد بالمسجد الاقصى الاول • أما هذه الآثار فلا بد أنها آثار رواق هيرود الملكي الذي هدمه جيش تيتس عام ٧٠ م[1]

---

(١) لا صحة لهذه الفرضية التي اتى بها كريزويل ويؤيد عدم صحتها ان الحفريات التي تمت في هذه الايام لم تعثر على أي دليل للمعبد المزعوم .

وحسب رواية يوسيفوس يتألف المكان من رواق ثلاثي الاجنحة يمتد بطول الجانب الجنوبي من منطقة المعبد • كان على شكل باسيليكا تمتد اجنحتها الجانبية بعرض ٣٠ قدماً وارتفاع ٥٠ قدماً بينما الجناح الاوسط بنصف هذا العرض وضعف هذا الارتفاع مما يعني احتمال وجود كنيسة وكان هناك ١٦٢عموداً من النوع الكورنثي قائمه في أربعة صفوف يلتصق الصف الجنوبي منهـا بالجدار الخارجي بينما يشكل الصف الشمالي الواجهة المطلة على الفناء •

ويخبرنا يوتيكيوس قصة غريبة تتعلق بالاستيلاء على القدس ترينا أن المسلمين الاوائل لم يهتموا بمكان صلاتهم • فيقول : إن عمر رضي الله عنه زار باسيليكا قسطنطين وصلى في قمة السلم الذي يؤدي إلى المدخل وبعد ذلك ذهب الى بيت لحم وصلى في الحانية القبلية من كنيسة المهد ويضيف أن المسلمين في أيامه (عام ٩٣٩ م) استولوا على نصف مجـاز باسيليكا قسطنطين في القدس •

المسجد الاول في مصر :

بـدأ فتح مصر في عام ١ ـ ٦٤٠ م وتـم بناء مسـجد عمرو في الفسطاط في شتاء عام ٢ ـ ٦٤١ م وهنا أيضاً لدينا أقوال شاهد العيان أبو سعيد سلف الحميري (التي سجلها لنا المقريزي)[١]الذي حضر في أحد الأيـام التي أمّ فيها عمرو صلاة الجمعة • كان المسجد صغيراً وبدائياً أبعـاده (٥٠ × ٣٠) ذراعاً أي (٢٩ × ١٧) متراً • ولـه بابان في كل

---

(١) الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار تاليف أحمد بن علي المقريزي . انظر الجزء الثاني صفحة ٦٣ وما بعدها

جانب ماعدا جانب القبلة . السقف منخفض جداً وهناك صحن داخلي . الأرض ليست مرصوفة بل مغطاة بالحصى ورغم صغره فإن مساحته تمنع سقفه بالعوارض . الشاهد لايعلمنا عن كيفية حمل السقف ولكن ليس هناك أي شك أن جذوع النخل استعملت كأعمدة لحمل العوارض المكونة من جذوع النخل المغطاة بالسعف والطين[1] كما كان عليه الحال في منزل محمد ﷺ في المدينة قبل عشرين عاماً . الجدران لم تكن مغطاة بالجص بل مبنية من الآجر الطيني .

بناء المقصورة :

يقول ابن خلدون[2] ما يلي« أما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سياجاً على المحراب فيحرفوه عما يليه وأول من اتخذها معاوية بن أبي سفيان حين طعنه الخارجي . وقيل أول من اتخذها مروان بن الحكم (٤ ــ ٦٨٣) حين طعنه اليماني ... » .

ومع قبول هذا التعليل فإن لامنس يشير الى أن التاريخ ٤٤ هـ (٥ ــ ٦٦٤ م) الذي يذكره اليعقوبي سابق لمحاولة قتل معاوية ويبطل تعليل ابن خلدون . ومع القبول بذلك فإن الحقيقة باقية وهي أن ثلاثة من الخلفاء الاربعة الاوائل قتلوا في المسجد ولذلك فإن لدى معاوية أسباباً قوية (قبل عام ٦٦٤ م) لاتخاذ مثل هذه الخطوة . وكل المقصورات

(١) لانوافق المؤلف على هذه الملاحظة فهو يعمم طراز البناء المستخدم في المدينة والذي اعتمد مواد البناء المتوفرة ففي المدينة يمكن استخدام جذوع النخل وسعفه والطين أما في مصر فهناك مواد أولية افضل ومغايرة عما في المدينة لذلك فلا يعقل أن يستخدموا نفس المواد .

(٢) مقدمة ابن خلدون صفحة ٢٦٩

الـائمـــة هي ستائر مفتوحة من المشربية وأقدمهــا مقصورة القــيروان (النصف الاول من القرن الحادي عشر) •

مسجد البصرة الكبير اعيد بناؤه عام ٦٦٥ م :

لا نسمع في سورية في هذا الوقت عن أي نشاط للبناء وهذا مرده بلا شك إلى أن المسلمين في معظم المدن إما اقتسموا أو استولوا علــى كامل الكنائس الرئيسية • ولكن الأحوال في بلاد مابين النهرين مختلفة لانشاء مدينتين جديدتين هما البصرة والكوفة ويبدو أن فــن العمارة الاسلامية يبدأ بالتقدم من هنا أثناء حكم زياد بن أبيه الذي عيّن والياً على البصرة عام ٦٦٥ م •

كان المسجد في تلك الأيام ــ في رأي (ولهاوزن) منتدى الاسلام الاول ومكان اجتماعهم حيث تتخذ القرارات المتعلقة بالمجتمع الاسلامي• ولذلك نرى الخلفاء في أول أيــام خلافتهم والولاة الذين يصلون إلى عواصم أقاليمهم يذهبون مباشرة إلى المسجد لمقابلة رعاياهم الجدد وبعد مراسم التنصيب هذه يباشرون في ممارسة مهامهم الجديدة • وإذا كانت هناك رسائل هامة للنقل أو كانت هناك ضرورة للتأثير في الرأي العام للموافقة على اتخاذ إجراء ما يتم الاجتماع العام في المسجد دون الانتظار ليوم الجمعة • ولنأخذ مثالاً على ذلك في محاكمة خالدبن الوليد في حمص • نقرأ أن ممثل الخليفة استدعى خالداً من قنسرين ودعا الناس للاجتماع في المسجد الكبير واعتلى المنبر وبدأ المحاكمة •

وزياد ــ الذي كان خبيراً بالروح المتمردة للمدن العراقية ــ أدرك جيداً أهمية المسجد السياسية ، ذلك المكان الهام الذي تركزت فيه في ذلك الوقت الحياة السياسية والاجتماعية للامبراطورية العربية • وفي

نفس الوقت شعر بأن مساجد القبائل خطر عليه وبالتالي رغبته في تزيين وتوسيع المسجد الكبير حتى يطغي على مساجد القبائل بروعته وأبعاده بحيث يجذب الجميع إليه .

ويقول البلاذري إن زياداً وسّع المسجد كثيراً مستعملاً الآجـر والملاط واستعمل خشب الساج لسقفه . ويرتكز سقف الحرم على خمسة صفوف من الأعمدة التي جلبت أحجارها من جبل الاهواز . والارض مفروشة بالحصى لأن أيدي المصلين كانت تغطى بالغبار أثناء الصلاة مما جعلهم ينفضون الغبار بالتصفيق بعد الصلاة ، وفي الوقت نفسه نقل زياد المسكن الرسمي من الجانب الشمالي الشرقي إلى الجانب القبلي للمسجد قائلاً « لايجوز للإمام أن يتجاوز الناس » .

مسجد الكوفة الكبير اعيد بناؤه عام ٦٧٠ م :

يقول الطبري[1] أن زياداً استدعى بنائي الجاهلية قائلاً إنه يرغب في تشييد بنـاء فريـد . فأجابـه أحد بنائي كسرى أنـه لا يمكن تحقيق ذلك إلا باستعمال أعمدة من جبل الأهواز بعد تجويف طبلاتها وحفرها وخلطها بالرصاص ووضع الأوتاد الحديدية . على أن يكون ارتفاع السقف ٣٠ ذراعاً . وبناه بأروقة جانبية وأروقة خلفية . وقد أدهش ارتفـاع السقف كل من شاهده وعندها قال زياد « هذا ماكنت أبتغي ولكنني لم أستطع التعبير عن ذلك » ويقـول ابن جبير[2] الذي رأى المسجد عام ١١٨٤ في وصفه « وهو جامع كبير ، في الجانب القبلي منه خمسة أبلطة ، وفي سائر الجوانب بلاطان . وهذه البلاطات على أعمدة

(١) تاريخ الطبري ٥ / ٢١٦ ـ ٢٢٦
(٢) رحلة ابن جبير /١٦٨

من السواري الموضوعة من صم الحجارة ، المنحوتة قطعة على قطعة ، مفرغة بالرصاص ، ولا قسي عليها ، على الصفة التي ذكرناها في مسجد رسول الله ، ﷺ ، وهي في نهاية الطول ، متصلة بسقف المسجد ، فتحار العيون من تفاوت ارتفاعها ، فما أرى في الارض مسجداً أطول اعمدة ولا اعلى سقفاً » ومن الواضح أن نظام سقفه يشبه قاعدة الأعمدة لملوك فارس القدماء .

توسيع مسجد عمرو وإدخال المئذنة عام ٦٧٣ م :

بعدمضي ٢٢ عاماً على بناء المسجد شكا الناس أن مسجد عمرو أصبح صغيراً جداً ولذلك أمر الخليفة الوالي التاسع لمصر مسلّمة بأن يوسعه . يقول الكندي[1] تصريحاً أن مسلّمة بن مخلد هدم ما بناه عمرو[2] ووسّه باتجاه (شمالي ــ شرقي)و(شمالي ــ غربي) مضيفاً فناء في الاتجاه الأخير . كما أنه غطى الجدران بالجص وفرش أرضه بالحصر بدلاً من الحصا .

يقول المقريزي[3] إن الخليفة معاوية أمر مسلمة ببناء الصوامع للأذان . وهكذا بنى مسلمة أربع صوامع على أركان المسجد الأربعة وكان بذلك أول من بناها في المسجد إذ لم يعمل مثلها قبلة . وهذه أول إشارة الى المئذنة .

---

(١) كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٣٨ لابي عمر محمد بن يوسف الكندي المصري :

(٢) وذلك سنة ثلاث وخمسين للهجرة .

(٣) الخطط للمقريزي ٨٥/٢

ماهي هذه الصوامع الاربعة ؟ إن الخليفة الذي أمر ببنائها كان يحكم من دمشق حيث يصلي المسلمون عندئذ في الفناء المقدس لمعبد سوري . هذا الفناء هو الآن بالطبع الجامع الأموي الكبير . في أيام الفتح العربي كان للفناء أربعة أبراج مربعة ذات ارتفاع متوسط واحد في كل ركن . هذه الأبراج أصبحت المآذن الاولى لأن ابن الفقيه[1] يشير إليها هكذا عام (٩٠٣) رغم علمه بأنها أقدم من الإسلام . ويقول المسعودي[2] « إن الوليد لم يغير الصوامع عندما بنى المسجد الكبير وهي تستخدم للأذان حتى اليوم » . ولذلك هناك أسباب كثيرة تدعونا للاعتقاد بأن الصوامع الأربعة التي بناها مسلمة من الأبراج الاربعة في أركان فناء المعبد في دمشق .

استخدمت ثلاث كلمات في اللغة العربية للدلالة على المآذن (مئذنة صومعة ـ منارة) . الاولى مشتقة من الأذان وتعني ببساطة مكان الأذان . ويبدو أن الثانيـة هي الاسم الذي أطلقه العرب على أبـراج الرهبان النساك . وعلى كل أبراج الكنائس السورية والمنارات المبنية قبل القرن الثالث عشر مربعة ومن المهم أن نلاحظ في هذا المجال أن هـذه الكلمة مستعملة في شمال أفريقيا حيث المنارات دائماً تقريباً من هـذا الطراز . وقد حملها العرب إلى اسبانيا ودخلت اللغة الاسبانية بصيغة ZOMA . والكلمة الثالثة (المنارة) تعني حرفياً مكان اشتعال النـار ولهذا السبب استخدمت للاشارة إلى الفنارات التي اشتعلت النار في قمتها ليلاً ثم للإشارة الى المنارات عامة وبالقياس للاشارة الى أبـراج المساجد . وكلمة MINARET مشتقة منها .

(١) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلـدان لابي بكر أ مد بن محمد الهمزاني المعروف بابن الفقيه ١٠٦ ــ ١١٢

(٢) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ١٦٦/٣

وفاة معاوية عام ٦٨٠ م :

حذر معاوية قبل وفاته من الحسين وعبد الله بن الزبير . وثبت أن هذا التحذير له مايبرره لأن الأول قصد الكوفة بعد بضعة شهور بقصد تنصيب نفسه خليفة للمسلمين فأوقف في كربلاء ومات بعد بضعة أيام في ظروف مأساوية . هذه الحادثة ولدت رد فعل لصالح آل علي ـ ورد الفعل هذا نما بسرعة وأدى في النهاية إلى سقوط العائلة الأموية في عام ٧٥٠ م . وكانت النتيجة المباشرة أن عبد الله بن الزبير نصب نفسه منافساً في مكة مما دعا يزيد لإرسال جيش احتل المدينة عام ٦٨٣ م وبعدها زحف الى مكة . وبعد حصار دام شهرين اندلعت النار في الكعبة (وقد رأينا سابقاً أنها بنيت من الحجر والخشب) ثم هدمت وبعد موت يزيد رفع الحصار وبقي ابن الزبير خليفة منافساً لخليفة دمشق .

إعادة بناء الكعبة عام ٦٨٤ م :

زاد ابن الزبير في بناء الكعبة عام ٦٨٤ م عرّض جدرانها ذراعين وكلها من الحجر . ويقول المسعودي[1] أن الموزاييك الزجاجية أخذت من كنيسة في صنعاء في اليمن كان قد بناها أبرهة الحبشي أثناء غزوه في أواسط القرن السادس . وهذا أقدم مثال على استعمال الموزاييك في الاسلام لأنه يسبق قبة الصخرة بسبع سنوات . وقد استخدمه الفرس في إعادة بناء الكعبة لأن كتاب الأغاني يذكر « الفرس هم الذين يغنون بالفارسية عند بنائهم للكعبة لعبد الله بن الزبير » .

---

(١) مروج الذهب ١٦٦/٣

الخلاصـــة :

يبدو أن العرب قبل الإسلام لم تكن لديهم سوى مفاهيم بسيطة المبناء ، وأن كعبتهم قبل عام ٦٠٨ لم تكن أكثر من جدران أربعـــة تعلو بقدر قامة الانسان وتحيط ببئر زمزم المقدس وأنهـــم في الايام الاولى للاسلام لم يجلبوا للبلاد المفتوحة أي فن عمارة إسلامية سوى مايخدم متطلبات صلواتهم . في هذا الوقت كانت تسعة أعشار السكان من البدو الرحل الذين يرون أرفع فن عمارة إسلامية في خيمة وبـــر الجمال . من الواضح كما يقول ريتشموند « أن ثروتهم المعمارية قبل البدء بالفتوحات تكفي لمجرد التعبير البسيط عن حاجاتهم» . وبكلمات أخرى كانت الجزيرة العربية تشكل فراغاً معمارياً كاملاً تقريبا وأن كلمة « عربي » يجب ألا تستعمل للاشارة الى العمارة الاسلامية . فالمساجد الاولى في معسكرات الفتح شبه البدوية مثل الكوفـــة والبصرة والفسطاط كانت في منتهى البساطة وفي سورية كانت المساجد الاولى كنائس محوّلة أو مقسومة . في الحقيقة ليس هناك مايدعونا الى الاعتقاد بأن أي مسجد قـــد بني في ســـورية حتى عصـــر الوليد (٧٠٥ ــ ٧١٥) أو ربمـــا عبد الملـــك (٦٨٥ ــ ٧٠٥) . ولمدة جيل كامل بقي العرب غير متأثرين بالطموحات المعمارية ولم يظهروا أية رغبة لاستخدام المواهب المعمارية المتطورة لدى الشعوب الاخرى . وعندما شعروا بهذه الطموحات كان ذلك لأسباب سياسية . وعندما التفتوا للمعماريين الفرس على جبهة مابين النهريـــن (في الكوفة) والمعماريين السوريين على الجبهة السورية . وسندرس الآن الأبنية الرائعة التي يتوجب علينا أن نشهد بالفضل فيها للسوريين .

الفصل الثاني

قبة الصخرة

سبب بنائها :

رأينا أن عبد الله بن الزبير بقي خليفة منافسا في مكة . ولما كان عبد الملك يرغب في منع انتشار سلطة ابن الزبير في سورية عبر جماهير الحجاج العائدين وبعضهم من الخارجين عن سلطته لذلك قرر منع السوريين من الحج وإبدال الكعبة بالصخرة .

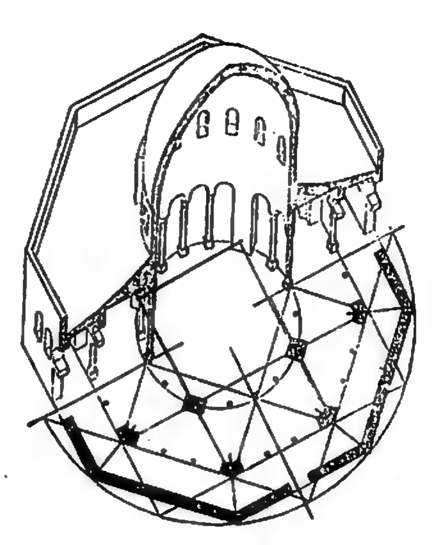
والصخرة كتلة غير منتظمة من الصخر الطبيعي في وسط منطقة المسجد في القدس والمعروفة اليوم باسم قبة الصخرة . إنها في الحقيقة قمة (جبل موريا) ، أبعادها (١٨× ١٣) وأقصى ارتفاع لها فوق أرض قبة الصخرة حوالي (١ر٥) م . وتحت الصخرة كهف مساحته حوالي ٤ر٥ م٢ وفتحته في السقف قطرها حوالي (١) م . هناك أسباب تدعو للاعتقاد بأن الصخرة هي «الصخرة القلقة» التي أشار إليها بوردو الشهير الذي كان حاجاً عام (٣٣٣) م والتي أتى إليها اليهود في أيامه مرة كل عام «ليمسحوا رؤوسهم بالزيت ويبكوا ويمزقوا ثيابهم ثم يرحلوا» وأنها كانت الأساس الحقيقي لمذبح القرابين المحروقة ، والكهف تحتها هو «التجويف أو الحفرة تحت المذبح » التي تلقت دم الضحايا مختلطا بالماء المستخدم للاغتسال .

كانت القدس تعتبر المكان الذي قام منه محمد (ﷺ) بمعراجه الى السماء ، ومن الممكن أن الصخرة اعتبرت المكان الفعلي نظرا لانها أعلى نقطة في منطقة المعبد . ويشير اليعقوبي (٨٧٤ م) إلى ان عبد الملك أمر بمنع الحج إلى مكة : إن هذه الصخرة التي يقال ان رسول الله وضع قدمه عليها عندما ارتقى للسماء ستكون لكم بديلا عن الكعبة .ثم بنى عبد الملك قبة فوق الصخرة ... واتخذ الناس عادة الطواف حول الصخرة كما كانوا يطوفون حول الكعبة .

أما المقدسي الذي كتب بعد قرن (٩٨٥) فيعطينا سببا آخراً ربما يكون أحد العوامل في القضية رغم أن تبرير اليعقوبي هو السبب الرئيسي لانه يلائم تماما الوضع السياسي حينئذ . والمقدسي الذي يظهر أن لديه عقلا منفتحاً جدا يقول لعمه في أحد الايام أنه من الافضل لو أن المبالغ الضخمة من المال التي تنفق على المساجد صرفت على طرق القوافل وحصون الحدود . ولكن عمه أجاب أن سورية التي احتلها المسيحيون لفترة طويلة مليئة بالكنائس الساحرة الجمال والمشهورة بفخامتها مثل كنيسة القيامة وكنيستي الصعود والقيامة وان الوليد بنى المسجد الكبير في دمشق لمنع المسلمين من الشغف بالكنائس . وينتهي الى القول . « وبالطريقة نفسها لاحظ الخليفة عبدالملك عظمة كنيسة القيامة وروعتها، وخشي أن تبهر عقول المسلمين لذلك شيد فوق الصخرة قبة يمكن رؤيتها هناك » .

الوصف :

نظرا لان قبة الصخرة هي أقدم الآثار الاسلامية الباقية فمن المهم جدا أن نعرف بدقة مظهرها الاصلي وسأحاول الآن وصفها كما كانت أيام عبد الملك . إنها بناء دائري وتتألف في التحليل الاخير من قبة خشبية



شكل (٢)

مقطع ومسقط لبناء قبة الصخرة

قطرها (٢٠ر٤٤) م قائمة فوق رقبة عالية فيها ١٦ نافذة وترتكز على أربع دعائم واثني عشر عمودا موضوعة في دائرة تكفي للاحاطة بالصخرة ومرتبة بحيث تنتصب كل ثلاثة أعمدة بين كل دعامتين • وهكذا تتشكل دائـرة مركزية ارتفاعها يساوي قطرها تقريباً ، هذه الدائرة من الاعمدة والدعائم قائمة في وسط مثمن كبير يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه حوالي (٢٠ر٦٠) م ويتألف من ٨ جدران ارتفاعها ٩ر٥٠ م (ما عدا حاجز السقف الـذي يبلغ ارتفاعه ٢ر٦ م) • من الخارج هناك سبع مشربيات في كل جانب • ولكن المشربيات المجاورة للزوايا وعددها ١٦ تعتبر تجويفا أصماً • والبقية تخترق جزءها العلوي ٥ نوافذ وهناك باب عرضه ٢ر٦ وارتفاعه ٤ر٣ م ، في كل من جوانب المثمن الاربعة التي تقابل النقاط الاساسية ، وبالتالي فإن النافذة الوسطى فوق الباب على هذه الجوانب أصغر بكثير مـن النوافذ الاخرى • ولما كان الفراغ بين الدائرة والمثمن كبيرا بحيث لا يمكن

سقفه بعارضة واحدة . فإن هناك مثمنا وسيطا مؤلفا من ٢٤ قوسا تحملها ٨ دعائم و ١٦ عموداً مرتبة بحيث ينتصب كل عموين بين كل دعامتين . هذا المثمن الوسيط قائم بين الاثنين ليساعد في حمل السقف . والممران اللذان ينشآن عن هذا التصميم (اللوحة ٢) كانا بالطبع للطواف حول الصخرة المقدسة . إنهما مغطيان بسقف منحدر قليلا من الخشب مسقوف بالرصاص . والداخل مضاء بـ ٥٦ نافذة مرتبة كما يلي : . في كل جانب من جوانب المثمن و١٦ في الرقبة . والمجموع يتفق مع ما ذكره ابن الفقيه عام ٩٠٣ م .

تصميم المخطط :

يلاحظ أن هناك اختلافا كبيرا في عرض الممرين رغم أن التوقع هو الدعامات الوسيطة يجب أن تتركز في الوسط بين الدائرة الداخلية والمثمن الخارجي . هذا الاختلاف تشرحه نظرية ماوس وهو أحد الشواهد الهامة عليها . ففي رأيه أن المخطط هو نتيجة مربعين متقاطعين محصورين في الدائرة التي يشكلها الطرف الخارجي للبناء الدائري . وأضلاع هذين المربعين لدى تمديدها تحدد بتقاطعها زوايا الرواق المثمن (شكل ٢) وجوانب هذا المثمن لدى تمديدها تشكل مربعين آخرين يمكن ادخالهما في دائرة ترسم من نفس مركز البناء الدائري ، والمثمن المحصور في هذه الدائرة وذو الاضلاع الموازية للمثمن السابق يحدد الجانب الخارجي من المبنى . هذه الطريقة يمكن بالطبع أن تنعكس . فإذا أعطينا الدائرة الخارجية يمكن رسم مثمن في داخلها ، وهذا سيعطينا الجدران الخارجية للمبنى . والمربعان المتقاطعان المرسومان ضمن نفس الدائرة سيعطيان بتقاطعهماجوانب المثمن الوسيط ، وموقع الدعائم الاربعة للحلقةالداخلية يمكن إيجاده بوصل زوايا المثمن كما هو واضح في الشكل . ولكني أعتقد أن الطريقة الاخرى هي المتبناة لاننا سنرى أنه ليس هنالك من

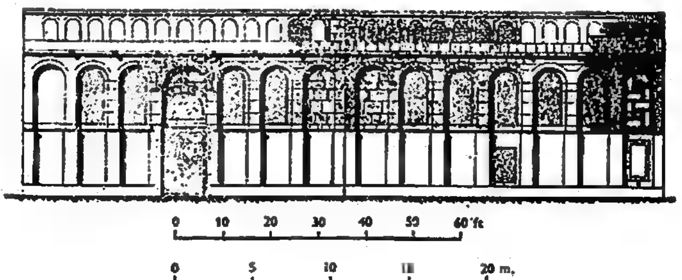
شك في أن قطر قبة كنيسة القيامة قد اتخذ مقياساً للمشروع بكامله .

ولكني قانع في أن (ماوس) ليس محقا تماما في اتخاذ خارج الدائرة . فإذا أخذنا الخط المركزي للدعائم وهو ليس نفس الشيء والمقاييس الفعلية للبناء تتراوح من ١/٣٦٦ الى ١/٩٨٠ . وهذا دليل كاف فسنحصل على توافق أقرب . وبتبني ذلك تكون الفروق بين النظرية أكيدة على أن المقاييس الفعلية لم تكن عشوائية .

وبالتالي فإن كل جزء من البناء متعلق بكل جزء آخر وفق نسبة محددة وأن الانسجام العجيب في داخله هو أول مايدهش المشاهد . ويصفه (هارتمان) بأنه « عمل تام الانسجام » . ويقول (هايتر لويس): هناك رشاقة في النسب لاتوجد في أي بناء عرفته . وقد أعجب (فان برشين) ، بطابع الفخامة والجلال الناتج عن المخطط الواضح البسيط والخطوط المنسجمة في عمارتها .

الجدران الخارجية :

لقد كشف جزء من هذه الجدران لفترة بسيطة أثناء الاصلاحات في عام ٤ ــ ١٨٧٣ م ، ومرة أخرى قبل بضعة سنوات . إنها مبنية من الحجر



(شكل ــ ٣) قبة الصخرة ــ بناء الواجهة الغربية والجنوبية الغربية

في مداميك ارتفاعها ٨٠ سم . والفجوات السبعة الطويلة الضيقة الغائرة على كل وجه وجد فوقها أقواس نصف دائرية رغم أنها مستورة في عام ١٥٥٢ م بطبقة من الخزف المزخرف وذات إطار بارز قليلا .

النوافذ :

إن لها مصبعة مزدوجة : واحدة خارجية تشكل جزءا من الخزف المزخرف وهي بالتالي تعود إلى إصلاحات السلطان سليمان عام ١٥٥٢م. وواحدة داخلية جميلة جدا وتعود أيضا الى اصلاحات السلطان سليمان، ولكن بعضها بدائل لاحقة ،. ولم يبق حتى الآن أي من النوافذ الاصلية ولكن ، بفضل أبحاث (ريتشموند) الدقيقة من الممكن الآن تحديد موضعها في عمق الجدار والنافذة نفسها . فعمق الجدار ١٫٣٠ مترا ، وقد وجد على سطح إحدى فتحات النوافذ بقايا من الموازييك الزجاجي الذي كان أصلا يغطي النصف العلوي من الجدران الخارجية . هذا الجزء كان محاطا على حافته الداخلية بمجموعة من القطع الزجاجية بخط مستقيم لمسافة ٢٣ سم من حافة القوس الخارجية . هذا الخط يحدد اتصال الموزاييك بالوجه الخارجي للنافذة الاصلية . والغطاء الرخامي للداخل يدخل في فتحة النافذة إلى مسافة ٩٢ سم ويتوقف على بعد ١٥ سم من خط موزاييك ، والنافذة الاصلية ربما كانت من الرخام المشبك مثل نوافذ دمشق لابد أن تكون سماكتها ١٥ سم على الاقل حول الجوانب وليس بالضرورة النافذة بكاملها . وهكذا وجد على خارج النافذة جانب قليل سمكه ٢٣ سم مغطى بالموزاييك وعلى داخل النافذة جانب عمقه أربع أضعاف الجانب الخارجي ومغطى بالرخام . وفتحات الالواح مملوءة بالزجاج لان ابن الفقيه [1] يقول في وصف القبة :

(١) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ١٠١ .

« وسقوفها بالذهب الاحمر في دور حيطانها ، وفي أعلاها ستة وخمسون بابا مغطاة بأنواع الزجاج » ولكن ما الذي شغل مكان مصبعات الخزف المزخرف الحالي ؟ لحسن الحظ لدينا وصف العمري[1] (١٣٤٤) الذي يقول أن هناك مصبعات من الحديد ولذلك لابد أن ضوءا قد نفذ إلى الداخل أكثر من الآن .

حاجز السقف :

مباشرة فوق المدماك الموجود فوق أقواس الفجوات يوجد مدماك خيطي ناتيء مثبت فيه ميازيب رصاصية على مسافات متساوية بمعدل ٦ ميازيب في كل وجه .

وقد ظهر أثناء أعمال ١ ــ ١٨٧٣ م أن حاجز السقف على كل جانب فوق هذه النقطة مزخرف بـ ١٣ كوة صغيرة على هيئة نصف قبة بقيت محجوبة منذ عام ١٥٥٢ م بطبقة الخزف المزخرف التي أمر بها السلطان سليمان . هذه الكوى الصغيرة يذكرها صراحة العمري[2] الذي يقول : « ومن أعلى الميازيب حائط ارتفاعه أربعة أذرع مكسو بالفص بالصفة المذكورة » [الذي يكسو الجدار تحته] . وعلى كل جانب من المثمن يوجد ١٣ محرابا مصغراً.هذه الكوى (١٠ بدلا من ١٣) تظهر بوضوح أيضا في رسوم (إرهارد رويش) من اترخت الذي رافق (فيلكس فابري وبريد نباخ) إلى القدس عام ١٤٨٣ م .

---

(١) مسالك الابصار في ممالك الامصار لابن فضل الله العمري الجزء الاول ١٤٠ ــ ١٥٢ .

(٢) مسالك الابصار للعمري ص ١٤٠ .

أروقة المداخل

نبدأ بالمدخل الشمالي والمدخل الشرقي لانهما على ما يبدو تعرضا لاقل التغبيرات ، كل منهما يشكل بروزا عرضه أكثر من ٩ أمتار بقليل وطوله ٢ر٨ مترا . في الوسط هناك باب خلفه قنطرة دهليزية عرضها حوالي ٢ر٥ مترا تؤدي إلى الباب في الجدار الرئيسي ، وإلى اليمين واليسار توجد غرفة صغيرة ليست أصلية كما هو واضح لان الاعمدة الاربعة التي تحمل القنطرة في المدخل الشمالي مطمورة في الجدران أما في المدخل الشرقي فلا تزال القنطرة تحتفظ بزخارفها الاصلية من الطلاء الذهبي والموزاييك الزجاجية الملونة على أي شيء كانت ترتكز القنطرة على عوارض خشبية مقطعها حوالي ٤٢ سم² وطول ١ر٧٧ مترا بين كتلتي الارتكاز .

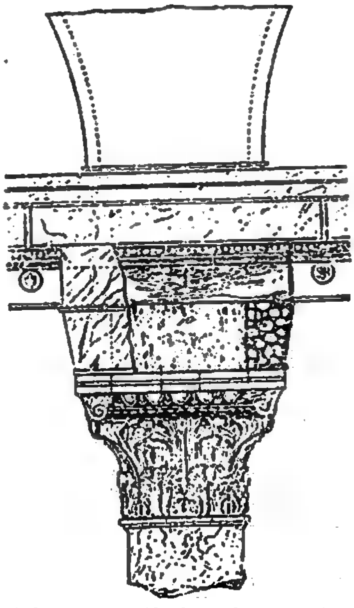
لا يوجد هنا سوى ثلاثة أعمدة مطمورة في الجدران ولكن رؤوسها مكشوفة . وكانت هناك أربعة أعمدة في النصف الايسر في أيام العمري دون ذكر الموقع ، إذا افترضنا وجود اربعة أعمدة في النصف الآخر أيضا فيبدو من المرجح أن زوجا منها في كل جانب حمل العارضة التي ترتكز عليها القنطرة وأن زوجا آخر في كل جانب حمل العارضة الاخرى التي يرتكز عليها السقف المسطح المغطى بالرصاص ، وبالتالي فإن رواق المدخل مفتوح بكامله ، وأعتقد أن القنطرة الدهليزية في الوسط كانت مغطاة بسقف مثلثي (جملوني) يشبه السقف الذي نراه على المدخل الجنوبي . والمدخل الغربي تغير كثيرا لعدم وجود الاعمدة ولوجود كتابة تحت الغطاء فوق الباب تعبر عن إصلاحها من قبل السلطان العثماني عبد الحميد [الاول] عام ١١٩٤ هـ (١٧٨٠ م) وهي متوافقة مع طرازها الزخرفي العثماني الاول في النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

المداخل الاربعة :

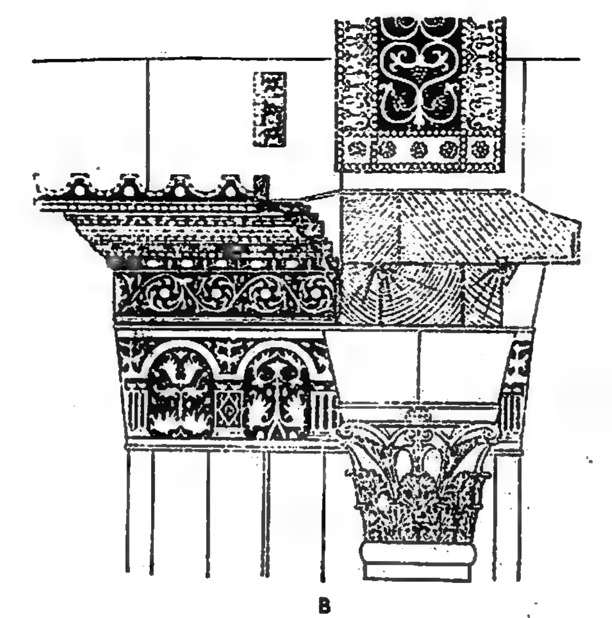
يبلغ عرض المداخل ٢ر٦ مترا وارتفاعها ٣ر٤ مترا وفوق كل منها نافذة ذات قوس نصف دائري . وكل نافذة مزخرفة في قسمها الاسفل بقشرة معدنية من البرونز أو النحاس المزخرف . وتظهر تنوعا من التصميمات وخصوصا لفائف الكرمة وأوراقها وعناقيد العنب والاقنثا (لوحة ٤) . ورؤوس المسامير ظاهرة هنا وهناك فلا بد من وجود ألواح خشبية تحت النافذة لتثبيت هذه المسامير ، والاجزاء البارزة من هذا التصميم مذهبة ، وخلفية الجزء الاوسط مدهونة بالاسود والحدود الخارجية خضراء فاتحة ، والابواب الحالية المصفحة تعود فقط الى السلطان سليمان . أما في أيام المقدسي (٩٨٥) فقد كانت الابواب من الخشب المزخرف بالنقوش . يقول : إنها هدية والدة الخليفة المقتدر (٨٠٩ ــ ٨٣٢) ولذلك فلم تكن الابواب الاصلية التي لانملك عنها أية معلومات .

داخل القبة :

عند دخولنا نشهد منظرا ذا جمال رائع ذي لوحات رخامية براقة وأعمدة رخامية ذات تيجان مذهبة وفسيفساء . خضراء ، زرقاء ، مذهبة، عرق اللؤلؤ (لوحة ٢/٣) .وأمامنا مباشرة توجدالاقواس الثلاثةلجانب من المثمن المتوسط ترتكز على عمودين رخاميين تنتصب بين العضادتين الركنيتين المغطاتين بالرخام . وفوق تيجانها المذهبة توجد عارضتا ربط كبيرتين مغطىجانبها السفلي باللوحات المعدنيةالمزخرفة ومدهونةومذهبة مثل العوارض الموجودة فوق مداخل الابواب الاربعة . وجوانب وباطن الاقواس مزخرفة بالفسيفساء البراقة ووراء ذلك الدائرة الداخلية من



(شكل ــ ٤ ــ آ) تفاصيل اتصال العمود مع القوس في قبة الصخرة



(شكل ــ ٤ ــ ب) مقاطع الاتصال بين العمود والقوس في المثمن الاوسط

الدعائم التي نرى عبر أقواسها القبة الخشبية بزخارفها الرائعة من التصاميم والنقوش المطلية بالذهب . إنها تجربة لاتنسى . إذا استدرنا فلاحظ أن الابواب من القمة الى القاعدة مغطاة بألواح الرخام المربعة وتخترقها ٣٦ نافذة جميلة .

الرواق المثمن :

أعمدة هذا الرواق ذات تيجان مختلفة الطراز بعضها كورونثي وبعضها مركب ، والجذوع تختلف في طولها ولكن هذه الحقيقة تسترها الصناديق الرخامية ذات الالواح ، والقواعد المزخرفة التي نراها فوق هذه الصناديق ليست قواعد على الاطلاق بل مجرد أطواق رخامية مثبتة حول الجذع وترتكز على قمة الصندوق .

وأقواس المثمن لاترتكز مباشرة على تيجان الاعمدة . فكل عمود يعلوه مستقر حجري مكعب مرتكز على عارضة خشبية أو رباط يمتد عبر كل صنف من الاعمدة . وكل واحد يتألف من عارضتين موضوعتين جنبا إلى جنب يبلغ عرضهما ٧٦ سم وارتفاعهما ٢٧ سم ، وهاتان العارضتان (اللتان تتقابلان فوق كل كتلة ارتكاز) تتداخلان معا كما نرى في الشكل ـ ٤ . وإن ارتفاع الوجه السفلي من العارضتين عن الارض هو ٦ أمتار . وقد وضع عليها مدماك من الكتل الحجرية يساوي في عمقه عوارض الربط تقريبا وتبلغ السماكة الاجمالية ٦٤ سم . وكتل ارتكاز الاقواس تأتي مباشرة فوق وصلة عوارض الارتباط .

ويغطي الجانب الاسفل والوجه الخارجي من هذه العوارض ألواح معدنية (نحاسية أو برونزية) جميلة الزخرفة إنها مزخرفة بعدد كبير من التصاميم التي تختلف قيمتها الزخرفية كثيرا (لوحة ٨/ب٩) هذا الغطاء

مثبت إلى العوارض بمسامير كبيرة يمكن رؤية رؤوسها هنا وهناك . يوجد ٢٤ عارضة ربط وأحد التصاميم ــ وليس أجملها ــ يتكرر ٩ مرات . والعوارض الخمس عشرة الباقية تحمل تصاميم مختلفة مما يعطينا ١٦ تصميما مختلفا . والاجزاء الناتئة من التصميم مذهبة ،وخلفية الجزء المتوسط مطلية بالاسود والطرف الخارجي بدهان أخضر تماما كما نرى فوق المداخل الاربعة .

وأجمل شيء من وجهة نظري هو التصميم في الجنوب ٢ (لوحة٩/ب) وربما كان ذلك رأي المهندس المصمم أيضا لانه وضعه في وسط الجانب المواجه لمكة المكرمة . هنا نجد لفائف الكرمة التي تخرج من المزهريات في الوسط وتشكل انحناءات لليمين واليسار وكل منها يحتوي على عنقود من العنب وورقة كرمة ذات خمسة رؤوس وهو التصميم الذي سنجده ثانية في زخارف المشتى وسامراء وعلى منبر القيروان (القرن التاسع) وفي دير السرياني (٩١٤) م وفي تاين في ايران . هذا الشريط من الزخارف يجب اعتباره النموذج الاصلي لاهم العناصر في الفن الاسلامي الاول . وفي تصميم آخر توجد شجرة في الوسط بدلا من المزهرية ومملوءة ــ بصورة مشابهة ــ بالحلقات التي تتناوب مع نوع آخر . وفي تصميمين آخرين نرى الحلقات تحتوي على عنصر واحد فقط: عنقود عنب يتناوب مع ورقة الكرمة . وفي تصميم الشمال ٣ لدينا نوع من السلسلة تتشكل بنصف نخيلات وعنقود من العنب يتدلى من رؤوسها (لوحة ٩/أ) ورسوم غريبة تبرز من قواعدها . وما يوجد إلى يسار المركز يوجد أيضا في فسيفساء المثمن المتوسط (لوحة ٧ في السبندل إلى يسار العضادة) . إنه عنصر هام جدا لأنه يتكرر عدة مرات في واجهة المشتى وفي قصر التبا وهو دليل آخر يشير إلى عصرهما الاموي . وكوز الصنوبر يحدث في ساكف آخر وهذا هو العنصر الذي يشكل لدى

توضعه نصف القطري مركز بعض الورديات على باطن أقواس نوافـذ انرواق العرضاني في مسجد دمشق الكبير وفي المشتى أيضا .

والجانب الداخلي من عوارض الربط هـذه يختلف عن الجـانب الخارجي لانه يعامل كمحمول كورنثي غني جـدا في الخشـب مدهون ومذهب (لوحة ٥) وهو يستر عوارض الربط ومدماك الحجر فوقها .

والآن رغم أنني سميت هذه العوارض « عوارض ربط » ــ وهي كذلك فعلا لان وظيفتها حمل الضغط وهو ما يثبته كون النهايات معشقة معا ــ لا بد من التأكيد على أنها تعتبر على وجهها الداخلي كساكفـات لان التأكيد على الافريز الكورنثي المعقد وليس على الاقواس فوقهاالتي تعتبر كأنها مسعفان للاقواس فقط .

وفي هذا المجال لابد أن يدهش المرء لهذا النص لدى العمري[1] : «ارتفاعه خارجا عن القواعد ستة ونصف (أي ذراعا) يعلوهـا بساتل ملبسة بالنحاس الاصفر المنقوش المذهب فوق نقشه يعلو البساتل قناطر بالفص المذهب البديع » . والكلمة التي يستعملها العمري لهذهالعوارض ترينا أنه أدرك تماما النقطة التي ذكرناها في الفقرة الاخيرة لان كلمـة بستل (ج. بساتل) ــ رغم عدم وجودها في القواميس ــ مشتقة مـن كلمة (ايبستوليون) التي يعرفها (ليدل) و(سكوت) بأنها « المحمول أو الساكف فوق صف من الاعمدة » .

---

(١) العمري : مسالك الابصار الجزء الاول ص ١٤١ .

الدائرة الداخلية تحت القبة :

يبلغ عرض أقواس الدائرة الداخلية ١١ر١ متراوهذا يساوي سمك الاسطوانة التي تحملها • إنها ترتكز مباشرة على تيجـان الاقواس دون تدخل كتلة ارتكاز • إنها مدببة قليلا وهو شكل سببه التغطية الرخامية التي تنسب إلى السلطان الناصر محمد (١٣١٨ ــ ١٣١٩) وعـوارض الربط هنا من الخشب مقطعها ٨ ــ ٩ سم٢ •

السقف :

سقف الرواق الداخلي مؤلف من سلسلة من هياكل خشبية مثلثية (من طراز « عمود الملك ») تمتد عوارضها الرئيسية الخارجية حتـى تلاقي الاسطوانة وهي مركبـة على شكل مروحي ومتقاربـة من بعضها والعوارض ترتكز مباشرة على قوائم السقف ولذلك فهي موازية لاوجه المثمن ، والسقف تحتها يتألف من غطاء خشبي مثبت على الوجه الداخلي لقوائم السقف ومزينة جزئيا بالزخارف الغائرة الدائرية متوضعة على بعد نصف قطر من بعضها (لوحة ٢) ومزخرفة بتصاميـم مدهونـة تذكرنا بالاواني الاناضولية في القرن الثامن عشر • هذا السقف ــ حسب رواية دي فوجيه حول النقش تحت الممر الغربي ــ أعيد بناؤه في عام ١١٩٤ هـ (١٧٨٠ م) ومزخرفة بصحون البورسلين بقي بعضها حتى عام ١٨٦٠ م عندما رآها دي فوجيه •

ونظرا لان الرواق الخارجي أضيق كثيرا من الرواق الداخلي فان سقفه يرتكز على عوارض فقط ، وسقفه مختلف تماما ومتفوق جدا على السقف الذي وصفناه أعلاه (٨/ب فوق العارضة) • ليس هنالك افريز

وسطحه المستوي مقسوم إلى حقول مستطيلة ومثلثة مزخرفة بنقـوش ناتئة وبعضها مزخرف بنماذج من النجوم المتداخلة والبعض الآخر برصائع دائرية عظيمة من الرقش العربي المركب من الجص المدهـون والمذهب فوق خلفية من ألياف النخيل فوق الخشب . والعناصر التي يتألف منـه هذا الرقش تعيد إلى الاذهان الزخرفة الحديثة لداخل القبة وقبة المسجد الاقصى أيضا التي تحمل اسم السلطان الناصر محمد والتاريخ ٧٢٨ هـ (٨ ــ ١٣٢٧ م) . ولذلـك لايسعني إلا الاعتقاد بأن سقف الـرواق الخارجي ــ أو على الأقل جزءاً كبيراً منه ــ منسوب إلى هذا السلطان أيضا وهو الذي قام ببعض الاعمال هنا في عام ٩ ــ ١٣١٨ م .

الرقبة :

يبلغ قطرها ٢٠ر٤٤ مترا وارتفاعها من الارض حتى بداية القبة هو تقريبا نفس قياس القطر أي ٢٠ر٤ مترا .وهي مستندة على أربعة دعائم تنشأ من عضائد الدائرة الداخلية وتخرق السقف ويمكن رؤيتها من الخارج. وقطع بنائها أكبر من قطع الاسطوانة ولا ترتبط بها . هل يمكن أن تكون إضافات لاحقة ؟ في الرقبة فوق مستوى السقف توجد ١٦ نافذة بعضها أقدم نوافذ المسجد لان هيكلها الرقشي المتناظر يعود بالتأكيد إلى أعمال ٩ ــ ١٣١٨ م .

القبة الخشبية :

يقول ابن الفقيه[1] الذي رأى القبة الاصلية في عـام ٩٠٣ م أنها

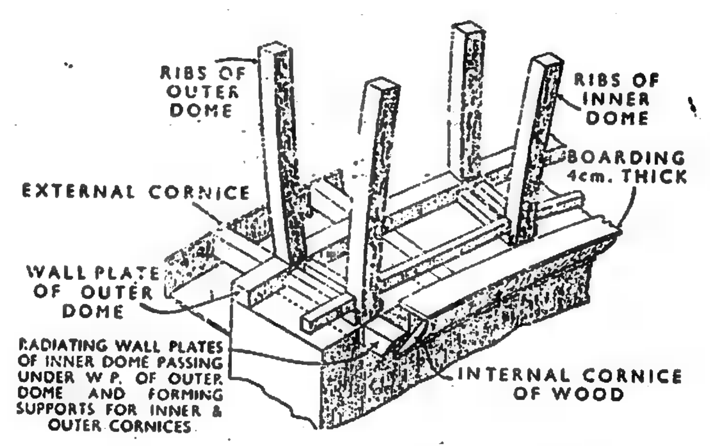
(١) مختصر كتاب البلدان تأليف احمد بن محمود الهمذاني المعروف بابن الفقيه صفحة ١٠١ .

«تتألف من قبة على قبة عليها صفائح الرصاص وصفائح النحاس مذهبة» ويقدم لنا ابن عبد ربه[1] تفاصيل أخرى قائلا أن القبة « عليها ٣٣٩٢ صفيحة ومن فوق ذلك صفائح النحاس مطلية بالذهب يكون عليها ١٠٢١٠ صفيحة » .

والقبة الحالية التي وصفها (ريتشموند) بوضوح تتألف من قبتين مستقلين عن بعضهما . وروافد القبة الخارجية مربوطة ببعضها في قسمها الاسفل بروافد معترضة ومقطع كل واحدة مدبب . وارتفاع القمة فوق مستوى الارض هو ٣٥٫٣٠ مترا وارتفاع الفنيال ٤٫١٠ مترا . يوجد باب صغير عند القاعدة يؤدي إلى الفراغ بين القبتين . وبما أن القبة الداخلية مخروقة بأكملها حول القاعدة بفتحات بين الروافد ومحاطة بأعمدة دائرية صغيرة فإن الممر بين القبتين يشكل شرفة مضاءة من الداخل . والقبتان الداخلية والخارجية مبنيتان بروافد متقاربة . وروافد القبة الخارجية تخرج من اللوح الجداري المتوضع في الجانب الخارجي من الرقبة ويتألف من قطع من الخشب متصلة امتداديا لتشكل حلقة دائرية مستمرة (شكل ــ ٥) وتبرز القبة الداخلية من ألواح جدارية مقطعها ٢١ سم٢ مغمورة عرضيا في الجدار وتمر تحت الالواح الدائرية للقبة الخارجية .ويزيدطول الالواح الجدارية عن سماكة الجدار وتبرز مقدار ٨٥ سم إلى الخارج و٣٥ سم إلى الداخل وتقدم أطرافها الداخلية دعائم لافريز خشبي سميك وأطرافها الخارجية دعائم « للشفة » العريضة المغطاة والتي تقذف بماء المطر بعيداً عن سطح الرقبة وبين الروافد الداخلية قطعة ربط . في كل قبة ٣٢ رافدة تلتقي في القمة

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ص ٢٩٧ .



شكل (٥) قطع من الخشب متصلة امتداديا
اقامة القبة المزدوجة على الرقبة

على شكل لوح دائري وكل قبة مبنية من ثلاثة أقسام أحدها فوق الآخر وروافد الجزء السفلي من القبة الخارجية موصولة بالتصالب ، وعلى الوجه الداخلي من القبة الداخلية يثبت غطاء خشبي بالمسامير وهو يحمل الزخارف الجصية المدهونة والمذهبة التي ترى من الداخل ، وروافد القبة الخارجية مغطاة بالخشب المغطى بالحديد ، قبل حوالي ٤٠ سنة كانت هناك أربع نقوش على روافد القبة (اختفت اثنتان منها)؛ من الواضح أن الهدف منها مواجهة النقاط الاصلية الاربعة التي بنى الخليفة الفاطمي الزاهر القبة بموجبها في عام ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م) بعد أن سقطت القبة الاصلية عام ٤٠٧ هـ (٧ ـ ١٠١٦ م) ، فلماذا هذا التأخير الذي يمتد لستة أعوام ؟ ربما لان السنوات الاربعة الاولى توافق الفترة التي اتخذ خلالها جنون الخليفة الفاطمي الحاكم أعنف صوره وكان لابد من توقف الاصلاح حتى استلام الخليفة الزاهر للحكم .

القبة الحالية ذات فنيال من البرونز أو الصفر ارتفاعه ١٠ر٤ مترا وفي قمته هلال ولكن لايمكن أن يعود تاريخه إلى أقدم من ١١٨٧م لأن المؤرخين العرب يشيرون إلى أنه عندما استعيدت القدس من أيدي الصليبيين في تلك السنة كان فوق القبة صليب مذهب أزيل فورا .

الوجه الداخلي للقبة :

هذا الوجه مزخرف بنقوش ناتئة من الرقش العربي في الجص المدهون والمذهب فوق ألياف النخيل المغراة على الالواح الخشبية ،حول القاعدة مباشرة فوق الرواق المفتوح عند قاعدة القبة يوجد شريط من الكتابة بين شريطين متوازيين من الزخرفة يصلهما ببعضهما ثماني حلقات تشكل رصائعا . وقد أظهر (فان برشم) في تحليل رائع أن هذه الكتابات قد عدلت ولكن ليس هنالك أي شك في أن الزخرفة الرائعة للقبة الواسعة تنسب إلى السلطان الناصر محمد في عام ٩ ــ ١٣١٨ م .

الزخرفة :

رغم أن الرقبة والجزء العلوي من الجدران الخارجية مغطاة الآن بتصاميم من القيشاني فإنها كانت في الاصل مغطاة بالذهب والفسيفساء المتعددة الالوان التي يذكرها رئيس دير الرهبان دانيال (١١٠٦ م) وجو ورزبرغ (١١٦٥ م) ويتشود يريك (حوالي ١١٧٢ م) ووليم الصوري أيضا (١١٨٤ م) . وفي عام ١٥٥٢ استبدلها السلطان سليمان بالغطاء القيشاني الحالي . هذا الغطاء رمم عدة مرات مما جعله مختلف النوعية وقد اقترح بعض الباحثين بان هنالك جزءاً منه يعود إلى فترة أقدم من عصر السلطان سليمان . ويجب التأكيد على ذلك ليس صحيحا لان (تشودي) (١٥١٩) يقول : « وسطح الجدران الخارجية من أعمال

الفسيفساء الثمين يماثل حتى كنيسة القديس مارك في البندقية ،وكنيسة القيامة وكنيسة بيت لحم ضمن هذا العمل • ولكن في قبة الصخرة ليست هناك صور ما عدا الاطفال الملائكية المجنحة وبالقرب منها قصر (انظر فسيفساء دمشق ـ لوحة ١٨ و١٩) والمظلات القبابية » •

ويقول (أنطونيو دي آراند) (١٥٣٠ م) • « هذا البناء من الخارج من الوسط إلى الاسفل مغطى كله بالرخام الثمين ومن الوسط إلى الاعلى مزخرف بالفسيفساء الفنيـة ونقوش الازهار واللوحات الجدرانيـة الجميلة » • وأخيرا يصفها (باتاليو دافيرو) (١٥٥٢ م) قائلا : مـن الارض وحتى الوسط مغطاة بألواح كبيرة كلها في لوحة واحدة من أجمل أنواع الرخام البراق • ومن الوسط نحو الاعلى إلى القمة كلها فسيفساء غنية جدا بالتصاميم الكثيرة من الاغصان والورود والازهـار الجميلة الاخرى » •

في هذا العام كانت الجدران الخارجية مغطاة بالجص وفقا للنقش فوق الباب الشمالي •والرقبة كانت قدكسيت بالجص في عام ٦ـ١٥٤٥م• وفي عام ١٥٨٦ م يذكر (زوالارت) قائلا : « •••• مزخرفة من الخارج في القسم العلوي بالقطـع الرخاميـة والقرميد الملون حسـب الطراز الدمشقي وفي القسم السفلي بالرخام الابيض • »

لقد رأينا أن قناطر دهاليز المداخل الاربعة كانت بلا شك مزخرفة بالفسيفساء • أما السطح الداخلي للجدار الخارجي فهو مغطى من القمة إلي القاعدة بقطع الرخام المربعة وشريط من الزخرفة بالاسود والذهـب بعرض ٥٠ سم حول كل الجدران على ارتفاع ٣٫٨٥ مترا •

ومداخل الضوء الأربعة فوق الأبـواب مملوءة بطـرق مختلفة :

فالمدخلان فوق المدخل الشرقي والغربي مملوءان بمصبعات حجرية مؤلفة من شبكة من أنصاف الدوائر المركبة فوقياً مثل كثير من المصبعات الرومانية وهي في الغالب أصلية . والآخران حديثان نسبياً . والكرتان الجنوبية والغربية مركبة ضمن حواشي تشبه زخارفها الغطاء المعدني للعتبات التي تحتها . والعضائد الثمانية للمثمن مغطاة بالرخام والافريز الكورنثي المركب الذي يزين الوجوه الداخليه لعوارض الربط يمتد فوق الوجه الداخلي للعضائد مشكلاً الافريز (اللوحة ــ ٢) الى اليسار وما فوقه كل شيء مغطى بالفسيفساء . وبما أن السطح فوق الأروقة يتألف من سلسلة من الرقع المثلثة نوعاً ما فان الفنان شكل تصاميمه على محور كل عمود . وترتفع فوق كل تاج شجرة خيالية وتمتد نحو اليمين واليسار حسب اتساع السطح وتعطي مايسميه (سترزيفوفسكي) عنصر الشمعدان (لوحة ــ ٥) . إنه ملبس بالمجوهرات والعقود والمدليات وأحياناً بعناقيد العنب .

ولكن في نهاية رواق بجانب كل عضادة حيث يبلغ الفراغ المتبقي نصف الفراغ الموجود فوق الأعمدة تم تبني نظام آخر . فبدل أن يبدأ العنصر من الاسفل يبدأ من قمة القوس وينزل نحو جانب العضادة . إنه يتألف عادة من « قرن الوفرة » يخرج منه ساق يلتف نحو الداخل . في إحدى الحالات (لوحة ٧ الى اليسار) ينتهي التصميم بعنصر سنجده ثانية في قصر الطوبة (لوحة ٣١ ــ آ) كل هذه الزخرفة متوجة بشريط من الكتابة الكوفية طوله حوالي ٢٤٠ متراً وينتهي السطح الجنوبي للرواق بالتاريخ ٧٢ هـ (٦٩١ م) .

والوجهان العريضان من العضائد مزينان بزوج من سوق الاكانتوس تمزجان من جذري الأكانتوس وملبسه بالعقود والمدليات، الخ(لوحة٦و٧)

ولكن الجانبين الضيقين مزخرفان دائماً إما بشجرة طبيعية أو بتشكيل خيالي مؤلف من عناصر متنوعة مركبة فوق بعضها (لوحة ١٠ — ب) وهنا تكمن حقيقة غريبة : توجد ٨ عضائد وبالتالي ١٦ جانباً ، فثمانية متتالية منها مزخرفة بشجرة والثمانية الأخرى بتشكيل غريب ومن ذلك استنتج أن مدرستين من الفنانين ذات مبادىء مختلفة تقاسمت العمل . ولا أستطيع الاحجام عن لفت الانتباه الخاص للتشكيل الجميل في اللوحة ١٠ — آ حيث النخلة التي تعصف بها الرياح متفوقة جداً على النماذج الفسيفسائية البائسة في راڤينا ، ولاحظ أيضاً الشجرة الصغيرة على جانبي الجذع لأننا نجد هنا المبدأ الأساسي للفن الاسلامي — التغطية المتوازنة للفراغ .

وعضائد القبة الاربعة أيضا مغطاة بالرخام على جوانبها الاربعة ولكن جوانبها مزخرفة بالاضافة الى ذلك بالرقع أو الرصائع الزخرفية المذهبة ، وهي مزودة بالأفاريز المفلطحة قليلا والمزخرفة بلفائف الأكانتوس (لوحة — ٢) وفوق هذه النقطة (التي ترتفع ٦٫٩ متراً فوق الارض) مزخرفة بالفسيفساء كما هي الحال في سبندل الأقواس ، ولكن الاقواس مزينة بقطع متناوبة من الرخام الاسود والابيض الذي وضع على مايبدو لإخفاء التلف الذي لحق بالفسيفساء عند الأركان لأنها تقطع النماذج ، ولقد وجدت في عام ١٣٤٤ عندما ذكرها العمري[1] ولذلك فمن المرجح أنها تنسب إلى السلطان الناصر محمد في عام ٩ — ١٣١٨ .

والوجه الداخلي للرقبة مزخرف كما يلي : أولاً هناك غطاء من

---

(١) مسالك الابصار في ممالك الامصار لابن فضل الله العمري الجزء الاول صفحة ١٤٠ .

الرخام يغطي الأقواس وسبندلاتها ، وهذا متوج بشريط من الزخارف التي توافق الزخارف التي تشكل أفاريز عضائد القبة • وفوق ذلك هناك أفاريز ربع دائرية مغطاة بالفسفساء (لوحة ــ ٣) • وفوق هــذا نجد الرقبة الحقيقية المزينة بشريطين عظيمين من الفسيفساء تفصلهما فرزة عظيمة • هذان الشريطان يبلغان ٩٫٤٠ متراً • في الشريط العلوي توجد النوافذ الستة عشرة التي ترتكز عتباتها على الفرزة العظيمة • والشريط العلوي متوج بافريز خشبي يرتكز عليه ــ على ارتفاع ٢٠٫٠٤ متراً من الارض ــ لرواق المصمت عند قاعدة القبة •

المهندس المعمار :

اسم مهندس قبــة الصخرة مجهول وليس هنالك أي شك في أن واجبات رجاء بن حياة الكندي ويزيد بن سلام اللذين يذكران في هذا المجال اقتصرت على الإشراف المالي والإداري • هذا واضح تماماً من قول أبو المعالي المشرف (القرن الثالث عشر) الذي يتحدث عن بنــاء خزينة شــرق قبة الصخرة ووضعها أمرة هذيــن الرجلين • ولا يمكن اعتبارهما كمهندسين معماريين أكثر مما يمكــن اعتبار جعفري تشرسر مهندساً لأنه شغل منصب مشرف على الأعمال عام ١٣٨٩ •

* * *

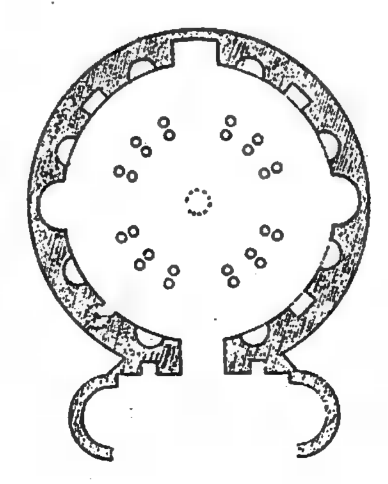
الاصول المعمارية

المخطـط :

ماعدا الاستثناء الوحيد وهو المارنيون في غزة ، لايبدو هناك أي دليل على وجود أي طارمة (بناءمستدير مقبب في سورية أو فلسطين)أقدم من كنيسة القيامة لقسطنطين التي تم بناؤها حوالي عام ٣٣٥ م . ولكن قبل ذلك بوقت طويل وجدت أبنية دائرية في اليونان مثل معبد باليمون في كورنث ، ومعبد أثينا برونيسا في دلفي وثولوس أبيداروس وثولوس دلفي وفيلبيون في أولمبيا . الخ ..

وأصبح البناء الدائري المقبب أكثر الاشكال شيوعا للضريح الروماني بينما سادت في سورية أنواع مختلفة تماماً . ولدينا من الأمثلة الباقية في روما بانتيون هادريان العظم (١٢٠ ــ ١٢٤ م) والنمفايوم في الحدائق الليسينية والمعروف اليوم باسم منيرفا مديكا (٢٥٣ ــ ٢٦٨ م) وماسوليوم القديسة هيلينا (أول القرن الرابع) . والطوارم ذات الأجنحة المتحدة المركز تظهر في القرن الرابع الميلادي . مثل طارمة سانتاكوستانزا (٣٢٤ ــ ٣٢٦) ويبدو أن كنيسة القيامة التي بناها قسطنطين مشتقة مباشرة من هذه الاخيرة والتي بناها قبل بضع سنوات لأنها أيضا تتألف من حلقة مركزية من الدعائم تحمل قبة وتحتوي على رواق بينها وبين الجدار الدائري الخارجي . وترتكز قبة سانتاكوستانزا على حلقة داخلية من الدعائم مؤلفة من ١٢ زوجاً من الأعمدة منتظمة في دائرة . وينتج

الانطباع الصليبي من جعل الاقواس المقابلة للنقاط الاربعة الاساسية أعرض من البقية (شكل ـ ٦) وهذا الانطباع نفسه يحدث في كنيسة القيامة التي لها حلقة داخلية من الدعائم مؤلفة من ١٢ عموداً و ٨ عضائد



(شكل ـ ٦)

روما ـ ضريح سانتاكوستانزا

مرتبة بحيث أن زوجاً من العضائد يتوضع بين كل ثلاثة أعمدة . كل هذه الاعمدة مغلقة الآن بالبناء (وأحد الاعمدة المتكلسة جداً شوهد فعلاً أثنـاء إصلاحات ١٨٦٧) . وهنا أيضا نرى الاقواس المرتكـزة على العضائد والتي تقابل النقاط الاساسية الاربعة أعرض قليلاً من البقية . وهكذا نرى عضادتين ، ثلاثة أعمدة ، عضادتين ، ثلاثة أعمدة . الخ .. والأنتظام في قبة الصخرة هو نفسه تقريباً حيث نرى عضادة . ثلاثة أعمدة الخ .. ودور سورية في هذا التطور اشتمل على النظام الذي بموجبه ثبتت العلاقة بين الدائرة الخارجية والحلقة الداخلية وفق نظام التثليث ، وقد استعمل نظام مماثل (ولكنه مختلف قليلاً) في كنيسة القيامة كما أثبت (ماوس) بينما لم يستعمل مثل هذا النظام في سانتاكوستانزا لأن

الجدار الخارجي ضعف قطر القبة .

رأينا سابقاً أن المقدسي يقول إن قبة الصخرة بناها عبد الملك بن مروان كمنافس لكنيسة القيامة وأن قطر القبة في الاول حوالي ٢٠ر٤٠ متراً مقابل ٢٠ر٤٤ ــ ٢٠ر٤٨ متراً في الثانية ولكن هذا ليس كل ما في الامر : فالتشابه العام بين قبة الصخرة وكنيسة القيامة يمكن الوصول به إلى أبعد من ذلك لأن قبر المسيح ــ حسب رواية يوسفيوس ــ (الذي غطاه البناء منذئذ) في تلك الايام يتألف من كتلة من الصخر الغشيم داخله كهف مرتفع قليلاً في وسط الارضية المرصوفة تحت القبة وهذه الكلمات يمكن أن تصف تماماً قبة الصخرة قبل إحاطتها بحاجز في نهاية القرن الثاني عشر . وبالمقابل فالآثار على الصخرة التي يقال إنها آثار أقدام محمد (ﷺ) عندما عرج الى السماء في معراجه الى السماء تعيد الى الذاكرة الآثار على الصخرة في وسط قبة الصعود على جبل الزيتون التي تعرض على الحجاج بأنها آثار أقدام المسيح ساعة صعوده .

وبالاضافة الى ذلك فان هناك نصاً في (يوتيكيوس) يرينا أن الخليفة الوليد (٧٠٥ ــ ٧١٥) كان ميالاً الى نسخ بعض خصائص الكنائس المسيحية لأنه نقل قبة من النحاس المذهب من كنيسة في بعلبك ووضعها فوق الصخرة . والقبة التي لايمكن بالطبع أن تكون قبة الكنيسة كانت بدون شك مظلة نصف كروية قائمة على أعمدة والتي غطت المعبد في الحقيقة مظلة مذبح .

مداخل الابواب :

هذه المداخل مزودة بعتبات علوية وكوات وهي من الطراز السوري تماماً . في القرن الرابع لديناييت معمودية مار يعقوب في نصيبين المبنية

عام ٣٥٩ م . في القرن الخامس لدينا أمثلة رائعة في كنيسة قلعة سمعان العظيمة وفي دير سمعان وفي القرن السادس نجد نفس الطراز من مداخل الابواب وفوقها الكوات في كنيسة القديس ستيفن في (جوانية) المبنية عام ٥٥٤ م وأيضاً في كنيسة قلب لوزة العظيمة . ولكن كل هذه الامثلة مزينة بالفرزات والزخارف الكلاسيكية . ومداخل الابواب التيتقترب جداً من مداخل قبة الصخرة هي مداخل كاتدرائية بصرى (٣ ــ ٥١٢) وكنيسة القديس جورج في ازرع (٦ ــ ٥١٥)فهنا المداخل متطابقة تقريباً مع مداخل قبة الصخرة لأن البناء بسيط جداً باستثناء أن قوس الكوة في ازرع . وسنرى نفس المدخل في قصر الحير (لوحة ٢٧ ــ آ) وفي المسجد الكبير في قرطبة (لوحة ٤٠ ــ ب) أما أروقة مداخل قبة الصخرة كما كانت في الاصل فمن الواضح من الحفر في بناء كنيسة قلب لوزة أنها كانت مسبوقة برواق مدخل ذي سقف مثلثي .

القبــة الخشبية :

ملاحظة هارتمان بأن القبة الخشبية صفة مذهلة في بلاد كسورية فقــيرة بالخشب وغنية بالحجارة ــ رغم أنهــا صحيحة الآن ــ ليست صحيحة بالنسبة للقرن السابع حين كان لبنان مليئاً بالغابات .

هناك عدة قباب معروفة وأشهرها قبة مارنيون غزة وهو المعبد الذي بني في القرن الثاني الميلادي على شرف مارناس (الاله ــ السمكة) وقد وصل إلينا وصف هذه القبة . والثانية هي قبة كنيسة القيامة التي بناها قسطنطين عام ٣٣٥ م وأحرقها الفرس وأعاد بناءها مودستوس في عــام ٦١٦ ــ ٦٢٨ م ولكن يجب الاعتراف بأن المثال الاخير وربما الاول أيضا هو مخروطي الشكل .

وأبرز مثال للقبة الخشبية قبل الاسلام لابد أنها قبة كنيسة القديس (سمعان العمودي) في قلعة سمعان (التي تبعد ٢٥ ميلاً عن حلب) التي بنيت بعد موته عام ٤٥٩ م ولكن قبل عام ٥٦٠ م وعلى الارجح قبل عام ٥٠٠ م . وهذه الكنيسة تتألف من أربع بازيليكات عظيمة تتصالب مع المثمن المركزي الذي يبلغ قطره ٢٧ متراً . ونظراًلغياب ايه دلائل على وجود قبة المثمن وخصوصاً عبارة (القاعة المكشوفة) التي يستعملها إيفا غريوس الذي زار الكنيسة عام ٥٦٠ م لم يفترض أحد أن بالامكان سقفها بقبة . ولكن بدأ الخلاف عندما تفحص كرنكر عام ١٩٣٣ بعناية البناء المهدم على أرض المثمن كتلة كتلة ووجد لبنات عقد نصف قطرها ٢٠ر٢٠ متراً وتخص النوافذ المزدوجة التي تخرق رقبة المثمن . وتابع أبحاثه عام ١٩٣٨ فوجد عقد لبنات عدة نوافذ أخرى وبقايا أربعة اسقنشات (ركائز لحمل القبة) (التي لابد أنه وجد ثمانية منها لقلب المثمن الى شكل ذي ١٦ جانباً) وعدداً من كتل الافريز الذي شكل قمة المثمن . ووجد أخاديد معترضة محفورة في الافريز عرضها ٢٧ ــ ٣١ سم وعمقها ٢٢ ــ ٢٧ سم المحفورة لارتكاز ألواح الجدران الخشبية العرضانية للقبة الخشبية . تماماً مثلما نجد في قبة الصخرة (شكل ــ ٥) حيث تبلغ أبعادها ٢١ × ٢١ سم فقط وهذا هو الطبيعي لأنها تخص قبة قطرها ٤٤ر٢٠ متراً مقابل حوالي ٢٧ متراً في قلعة سمعان .

وللتوفيق بين تعبير ايفا غريوس (مكشوفة) وبين الحقيقة المحددة باتخاذ الاجراءات لبناء قبة يقترح (كرنكر) أن زلزال ٥٢٦ م المشهور في أنطاكية ربما سبب سقوط القبة .

على أية حال إننا في مأمن حين نقول ــ سواء بنيت القبة بالفعل

أم لا ــ أن المهندس المعماري صمم الكنيسة لتحمل قبة خشبية واتخذ الاجراءات لاقامتها فوق الرقبة بنفس الطريقة التي تم تبنيها بعد ٢٠٠ عام • في القدس •

الزخارف على افاريز عضائد القبة :

لفائف الأكانتوس التي تشكل لولبة في وسطها زهرة صغيرة مزينة لأفاريز عضائد القبة وأيضا الشريط الذي يحيط بداخل الرقبة مباشرة تحت الفسفساء هي كلها نتيجة تطور بدأ في سوريا قبل قرن أو قرنين من الفتح العربي • ويمكن رؤية المرحلة الأولى على افريز في قبر هرمي (القرن الخامس أو السادس) في الباره حيث اللفائف حرة الانسياب ومتصلة (شكل ــ ٧) • هناك افريز خارق الشبه في محراب كنيسة



(شكل ــ ٧) البارة ــ قبر هرمي ــ تفاصيل الافريز

القديس سمعان العموري المذكورة أعلاه • وهناك أمثلة أخرى فوق مداخل الأبواب في مجلايا وعلى البوابة الذهبية والبوابة المزدوجة في القديس ولذلك يمكن اعتبار افريزات قبة الصخرة سورية بحتة •

فسيفساء الكسوة الخارجية :

يمكن أن يبدو مدهشا استعمال هذه الصيغة من الزخرفة في

الخارج . ولكن هذه الميزة ليست جديدة لأن واجهة بازيليكا القديس بطرس القديمة في روما زخرفت بالفسيفساء حوالي عام ٤٥٠ م وهناك مثال من القـرن السادس موجود في بازيليكا بارنزو قـرب تريستا . ولكن المرجح هو أن المسلمين أخذوا الفكرة من كنيسة المهـد في بيت لحم التي كانت واجهتها الغربية مزخرفة في ذلك الوقت على هذا الشكل. ويمكن ذكر مثال سوري آخر في الرصافة [١] حيث يقول ياقوت [٢] ــ مستشهدا بطبيب مسيحي يدعى ابن بطلان ــ : « بيعة عظيمة ظاهـر بالفص المذهب أنشأه قسطنطين بن هيلانة » . الواضح من تحليلنا أن قبـة الصخرة بناء سوري بأكمله .

الاثر الاولي للفتح العربي :

إن الاستنتاج الذي توصلنا إليه متوافق مع ما هو قائم في المجالات الأخرى مـن النشاط الانساني مثـل دواوين الحكومـة والنقـود . فالعرب الذين لم يجلبوا معهم أي جهاز إداري من الجزيرة العربيـة والذين لم يكن لديهم أي شيء يشبهه كانوا على أتم الاستعداد لتبني الادارة التي وجدوها في سورية وفارس وهكذا حدث ان موظفي دوائر الايرادات في سورية استمروا في كونهم من المسيحيين ، ومن الفرس في العـراق وفـارس . يقـول البلاذري [٣] إن اللغـة التـي استعملت في سجلات ضرائب الأراضي في العراق كانت البهلوية حتى قرر الحجاج

---

(١) يقصد بالرصافة هنا رصافة الشـام التي هي غربي الرقـة ، المعروفة برصافة هشام .

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي ٣/٤٧ ــ ٤٨ .

(٣) فتوح البلدان صفحة ٢٩٨ .

استعمال العربية بدلا منها • أما في سورية حيث كانت اللغة اليونانيه هي المستعملة استمر الوضع كذلك حتى عام ٧٠٠ م حين أمر الخليفة عبد الملك باستعمال اللغة العربية • وفي مصر لم يأمر الوالي بكتابة الوثائق الإدارية باللغة العربية بدلا من اليونانية إلا في عام ٧٠٦ م • وحتى هذا الأمر لم يتم تنفيذه في الحال لأن أوراق بردي أفروديتو التي تتألف من رسائل حاكم مصر إلى سكان قرية أفروديتو في الفترة من عام ٧٠٩ إلى عام ٧١٤ مكتوبة باليونانية •

وحدث الشيء نفسه في مجال النقود • فقبل الإسلام وأثناء حياة الرسول ﷺ لم يكن لدى العرب نقود خاصة بهم وكانت النقود المتداولة في الجزيرة العربية إما الدينار البيزنطي أو الدرهم الساساني التي جلبت من العراق وسورية بتجارة القوافل المربحة • وعندما أصبح العرب سادة سورية والعراق وإيران استمروا ـ خلال الأعوام القليلة الأولى ـ باستعمال النقود المألوفة لديهم وبعدها قاموا بتعديلات طفيفة جدا •

في إيران كانت العملة الرسمية هي الدرهم الساساني الذي يحمل على أحد وجهيه صورة الملك مرتديا العمامة الفارسية وعلى الجانب الآخر شخصين واقفين على جانبي معبد النار وعلى الحافة خارج الدوائر الثلاثة هناك نجم وهلال مكرران ثلاث أو أربع مرات • تبنى العرب هذه النقود تاركين كل شيء على حاله واقتنعوا بإضافة « بسم الله » بالخط الكوفي واستعمال التقويم الهجري • واستمرت هذه النقود حتى وضع عبد الملك نهاية لها حوالي عام ٦٩٣ م •

في سورية كانت أول نقود صكها العرب في دمشق عام ١٧ هـ (٦٣٨ م) • تحمل إحداهما صورة هرقل يقف مواجهة بكل رموز

المسيحية ، صليب يعلوه تاج طويل وصليب طويل تسنده اليد اليمنى ، وكرة تحمل الصليب باليد اليسرى ، الخ . ولكن بدلا من الخمس عشرية نجد التاريخ بالتقويم الهجري ٨٠ ثم كتبت الكلمات « بسم الله » بالعربية تدريجياً واختفى الصليب . وفيما بعد صك معاوية (٦٦١ ــ ٦٨٠) الدينار ــ حسب رواية المقريزي ــ وعليها صورته متقلدا السيف . ولكن لم تصلنا أيا من هذه النقود اليوم . وإنما وجدت عدة نقود مشابهة تحمل اسم عبد الملك وبعدها ظهرت النقود العربية الصرفة في عام ٦٩٢ م .

مسجد واسط الكبير :

حتى قبل سنوات قليلة كان الجامع الكبير في دمشق أقدم الجوامع المعروفة . وجامع قصر الحير الثاني في القدم وبعدهما يأتي الجزء القديم من جامع حران (٧٤٤ ــ ٧٥٠ م) . لم يبق أي جامع في العراق من العصر الأموي ولكن قبل حوالي ١٨ عاما طلبت مني دائرة الآثار اقتراح مكانين من العصر الإسلامي يحتمل أن تجري فيهما أعمال التنقيب فاقترحت واسط والكوفة مشيرا إلى أن الأول بناه حاكم العراق الحجاج بن يوسف على أرض بكر في عام ٧٠٣ ــ ٧٠٤ م ومن المعروف أنه بنى مسجدا هناك يبلغ طول ضلعه أكثر من ٢٠٠ ذراعا ومجاور كما كانت العادة في أوائل العصر الاسلامي لدار الإمارة التي تبلغ مساحتها ٤٠٠ ذراعا مربعا .

واسط اليوم مكان مهجور تبعد حوالي ٢٥ ميلا عن كوت العمارة وليس فيها أي سكان . إنهـا تسمى المنارة لأن فيها بنـاء قديما يعود تاريخه إلى القرن الثالث عشر . ذو مدخل على جانبيه مئذنتان . وقد أظهر تفحص المنطقة ما بدا وكأنه ملعب كرة تنس غائر . وبعد التنقيب ظهر أنـه صحن المسجـد وتبلغ مساحتـه ١٠٢٫٨ م^2 . وبعد تقـدم

الحفريات التي امتدت باتجاه الجانب القبلي (الخلفي) من الجامع ولكن لسوء الحظ لم أكتشف دار الإمارة ٠

وبعد فترة من الزمن استؤنفت الحفريات في العمق مما أدى إلى اكتشاف هام وهو أن المسجد المكتشف قام على أنقاض مسجد آخر باتجاه الجنوب الغربي بدلا من التوجه نحو مكة مباشرة وكان الفرق حوالي ٣٣° ٠ هذا الجامع الذي تبلغ مساحته ما يزيد عن ١٠٠ م٢ ارتكز على الأرض البكر ٠ واكتشفت فيه خمس صفوف من الأعمدة يبلغ عددها ١٨ عمودا على الجانب القبلي ، وصف واحد من الأعمدة على كل من الجوانب الأخرى ٠ وقد انتاب القلق المنقبين لأنهم لم يكتشفوا محرابا مقعرا في وسط الجدار القبلي حتى أشرت إلى أن هذا هو ما يجب أن يكون لأن المحراب المقعر وجد لأول مرة عندما أعاد الوليد بناء جامع المدينة ووسعه في عام ٧٠٧ ـ ٧٠٩ م ٠ وقد وجدنا عددا من الأحجار الرملية ذات الرقاب الاسطوانية أثناء التنقيب التي استعملت على ما يبدو في الجامع الثاني ، ولكن الزخارف الساسانية (التي حفر حفر بعض منها وبعضها الآخر كان بسيطا) لم تدع مجالا للشك في انها أخذت من الجامع الأول ٠ ولذلك فإن الأعمدة بنيت برقاب أسطوانية ارتفاعها حوالي نصف متر موصولة بواسطة قضيب حديدي في وسط كل منها تماما كوصف ابن جبير[1] لأعمدة المسجد الكبير الثاني في الكوفة ٠ هذا القضيب مثبت بالرصاص لأن بقايا المعدنين موجودة ٠ وتختلف الأعمدة في القطر من ٩٠ إلى ١١٠ سم ٠

كانت الجدران والأساسات من الآجر المشوي والجص الأحمر ٠

---

(١) رحلة ابن جبير : ١٦٨ ٠

وتتراوح أبعاد الآجر بين ٣٠×٣٠×٦ سم وبين ٢٣×٢٣×٥ سم . أما سمك الجدار فهو ٢٦ر٢ مترا وبرزت الأساسات ١٦ سم نحو الداخل و ١٠ سم نحو الخارج. وعلى الجدران أعمدة ناتئة تتوافق مع صفوف الأعمدة فهي ذات أساسات متصلة عرضها ٥ر١ مترا تمتد في الاتجاهين وتشكل شبكة بينها فراغات مساحتها ٨٠ر٣٠×٥٠ر٣٠ مترا . والأرضية الأولى مؤلفة من آجر أحمر طري مرصوف بصفوف موازية لجوانب البناء .

ولدينا الآن ما نعتبره أقدم مسجد في الاسلام وصلت بقاياه إلينا مسجد لنا مبرراتنا في تسميته الطراز العراقي لأنه يتطابق مع ما أعدنا بناءه في البصرة (٦٦٥ م) والكوفة (٦٧٠ م) والذي سنراه مكررا في بغداد (٧٦٥ م) .

بعد هذا الاكتشاف اقترحت القيام بمحاولة جديدة للعثور على دار الإمارة بالتنقيب خلف جدار المسجد القبلي . وبعد الحفر وجدنا أن الجدار الخلفي للمسجد امتد إلى اليمين واليسار وانتهى ببرج على شكل ثلاثة أرباع الدائرة فوق قاعدة مربعة مساحتها ٢٠ر٨ م٢ ، وبهذا يبلغ الطول الإجمالي ٨ر٢٠٨ مترا . أجزاء من الأساسات وقواعد الأعمدة وجدت مؤلفة من ٣ صفوف من الأعمدة انتهت فجأة في كل طرف عندما وصلت إلى نقطة توافق جدران المسجد . وللأسف لم تستمر الحفريات ولكنا نعرف من المصادر أن دار الامارة ذات أربعة (ثلاثة ؟) مداخل رئيسية يفتح كل منها على شارع عرضه ٨٠ ذراعا ولها قبة خضراء ربما توضعت في وسط البناء والتي بالامكان رؤيتها من مسافات بعيدة والتي تسببت في تسمية البناء « القبة الخضراء » .

الفصل الثالث

أعمال الوليد

المسجد الأقصى الثاني :

متى استبدل المسجد الاقصى الأول ـ البناء المتواضع ـ الذي رآه (أركولف) ؟ لو اخذنا بالمراجع العربية التي تعالج هذه المسألة فإن عبد الملك بن مروان هو باني المسجد الأقصى انجدير بهذا الاسم بينما تنسبه المصادر الاخرى إلى الوليد . لحسن الحظ لدينا الآن مرجعاً أفضل من كل المراجع السابقة التي كتب أقدمها بعد الحادثة بما يزيد عن قرنين . إنني أشير إلى أوراق بردي (أفروديتو) المعاصرة وهي المراسلات الرسمية باليونانية بين قرة بن شارق حاكم مصر من ٧٠٩ إلى ٧١٤ وبين حاكم محافظة أفروديتو في مصر العليا . وورقة البردي رقم ١٤٠٣ تشير إلى إعالة العمال والعمال المهرة المستخدمين في مسجد القدس ... (٣ أشخاص) لمدة ١٢ شهرا ومثلها الورقة رقم ١٤١٤ ورقم ١٤٣٥ المؤرخة في هاثير ٢٠ الخمس عشرية ١٤ سنة ٩٧ (= ٧١٥ ـ ٧١٦ م) . وهكذا ليس هناك أي شك في أن الوليد وليس عبدالملك هوباني المسجد الأقصى الثاني . وسنرى أن من الممكن أن الأروقة ذات الأعمدة الرخامية على يمين ويسار القبة يمكن أن يرجع تاريخها إلى هذه الفترة (لوحة ٢٤) .

الوليد يبني مسجد المدينة ٨٨ ـ ٩٠ هـ (٧٠٧ ـ ٧٠٩ م) :

يقول البلاذري [١] إن الوليد كتب إلى حاكم المدينة يأمره بهدم المسجد واعادة بنائه وأرسل له في نفس الوقت ٨٠ فنانا روميا وقبطيا من سكان سورية ومصر يقول اليعقوبي[٢] أن حجرات زوجات الرسول (ﷺ) الصغيرة التي أطلت على الجانب الشرقي من المسجد قد هدمت وضمت المساحة إلى المسجد . ويقول السمهودي[٣] نقلا عن الواقدي (المتوفي عام ٨٢٣ م) : « الأقباط بنوا الحرم بينما بنى الروم الجوانب» ويقول المقدسي[٤] أن المسجد بني من الحجر المنحوت ويشير الطبري أن أبعاد المسجد هي ٢٠٠ × ٢٠٠ ذراعا . أما ابن جبير الذي رأى المسجد عام ١١٨٣ م فيقول أن الدعائم مؤلفة من أعمدة طويلة جدا ذات أسطوانات موصولة بالقضبان الحديدية المغمورة في الرصاص تماما كما نرى في الكوفة وواسط وبدون أقواس ترتكز عليها . وقد زخرف المسجد الجديد بالألواح الرخامية والفسيفساء الملونة وكان له أربع مآذن في كل ركن واحدة .

ويظهر في هذا الوقت أهم تجديد لأن ابن دقماق والمقريزي (الذي يستشهد بالواقدي الذي توفي عام ٨٢٣ م) يقولان أن أول من بنى محرابا على شكل حنية هو عمر بن عبد العزيز عندما أعاد بناء

---

(١) فتوح البلدان ص ٢١ .

(٢) تاريخه ج ٢ ص ١٩٥ .

(٣) السمهودي : نور الدين (١٤٤٠ ـ ١٥٠٦) صاحب كتاب وفاء الوفا باخبار دار المصطفى .

(٤) المقدسة : آخر التقاسيم في معرفة الاقاليم ١٦٨ .

مسجد المدينة بأمر من الوليد . والنص المأخوذ من السمهودي يساعدنا على شرح هذا التجديد لأنه ظهر في القسم الذي بناه الأنباط وبالتالي يوحي بأصل قبطي . ويستشهد لامانس بنص من مؤلفات السيوطي[1] (القرن الخامس عشر كما يلي : « في بداية القرن الهجري الثاني (أي بعد عام ٧١٥ م بقليل) كان من الممنوع استعماله حسب الاحاديث لأنه من خصائص الكنيسة » . في ٧١٠ – ٧١٢ م أعيد بناء مسجد عمر وتم توسيعه وبهذه المناسبة بنى له محراب على هيئة حنية وهذا هو المثال الثاني في الاسلام . » .



---

(١) السيوطي : جلال الدين (١٤٤٥ – ١٥٠٥) وله طبقات الحفاظ وطبقات المفسرين وغيرهما .

مسجد دمشق الكبير

في عصر الوليد ازداد عـدد المسلمين كثيراً بالهجرة والاسلام مما جعل أول أعمال الوليد بناء مسجد جامع ليس فقط ذا حجم مناسب بل يستطيع في روعته وفخامته منافسة أجمل الكنائس في سورية . وقـد أوضح المقدسي[1] هذه النقطة تماماً (ص ١٨) .

ولذلك بدأ الوليد ــ كما يقول المقدسي ــ جمع الصناع لهـذا الغرض . وهذا مؤكد في حالة مصر بأوراق البردي أمزوديتو التي تقول إحداها : « ادفعوا لاجور النشار لعمله في مسجد دمشق لمـدة ٦ أشهر من الخمس عشرية الثامنة الحالية ٤ صولدسات فقط . كتبت في هاثير السابع ــ الخمس عشرية الثامنة (٣ تشرين الثاني ٧٠٩) » . وورقـة اخرى تقول : « كجزء من الانفاق على ٤٠ مـن الصناع المهـرة لبناء مسجد دمشق » .

ورغم أن كتابة حجـر الاساس لم تعد موجودة فقـد حفظ نصها المسعودي الذي رآها في عام ٩٤٤ . ويقول أن الأمر ببنائه صدر عـن الوليد في عام ٨٧ هـ . ويقول ابن شاكر بان العمل انتهى في عام٩٦ هـ (٥ ــ ٧١٤) أي في السنة التي مات فيها الوليد .

فناء المعبد القديم :

إن أقوال المؤرخين العرب التي مفادها أن الجامـع الأموي الكبير

---

(١) المقدسي : احسن التقاسيم ص ١٥٧ .

كان في الاصل معبداً وثنياً قد تأكدت كثيراً باكتشاف جزء كبير من الفناء الداخلي وبعض بقايا الفناء الخارجي رغم أن المعبد اندثر كليا والمعرفة الدقيقة لهذا الفناء ضرورية إذا أردنا أن نحاول تقريركم من المسجد الحالي يعود للوليد وأن نشرح شكله .

فالفناء الخارجي كان مكاناً كبيراً على شكل شبه منحرف طوله ٣٨٥ متراً من الشرق الى الغرب و ٣٠٥ مترا من الشمال للجنوب . وكان هناك سوق محمي برواق يحيط بالمكان من الداخل وفي الوسط ارتفعت جدران بناء المعبد نفسه وهو هيكل مستطيل ذو جدران داخلها الاعمدة طوله من الشرق الى الغرب ١٥٧ر٥ مترا وعرضه حوالي ١٠٠ مترا من الشمال الى الجنوب . كان هناك برج مربع في كل زاوية ولم يبق منه سليما إلا الجزء الجنوبي الغربي . هذا الهيكل بقي منه الجانب الغربي سليما بالاضافة الى أجزاء كبيرة من الجدار الجنوبي والشرقي وحوالي ٢١ مترا من الشمال . إنه جيد البناء . ارتفاع مداميكه ٨٥ سم ومزينة بالعضائد الجدارية البسيطة . والجزء الغربي سليم وفيه ١٨ عضادة جدارية تبرز حوالي ١٧ ــ ١٨ سم وعرضها الوسطي ١ر٦٤ مترا والمسافة بين كل عضادتين ٣ر٥٧ مترا وارتفاعها من القدم حتى رقبة التيجان ١٠ر٦٢ مترا . والتيجان تبلغ ٥٩ سم وفوقها ثلاثة مداميك أخرى من الحجر . هذا النسق من العضائد يلف الزوايا في كل طرف ويتتابع في الجانبين الشمالي والشرقي ، والجزء العلوي يتراجع الى الداخل عند العضادة الثالثة في كل مرة . هذا التراجع ينطبق على تاج العضادة المعنية لأن الجزء الاسفل من الجدار يستمر في البروز مع تناقصه في الارتفاع وقصر العضائد تماماً كما هي الحال في تدمر . وفي الزاوية برج مربع تقريبا (١١ × ١٢ مترا) ينتصب الى ارتفاع ٩ر٥٥ فوق التيجان .

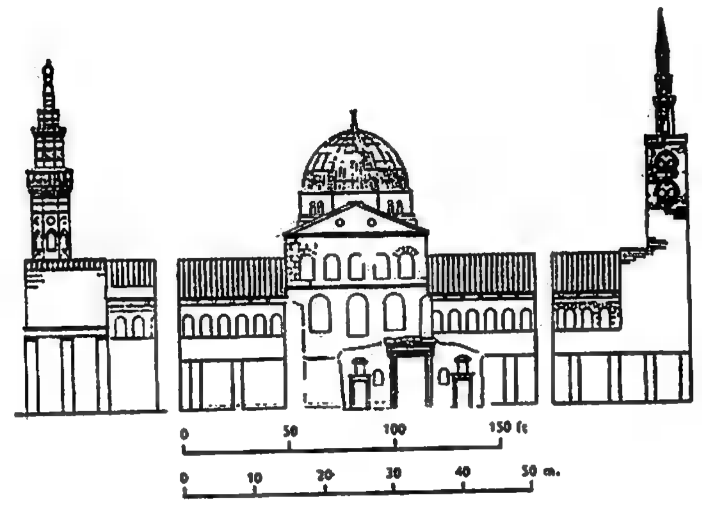
والجزء الجنوبي من الجدار الشرقي أعيد بناؤه ولكن الجـزء الشمالي يرينا أن هذا الجدار لابد وأنه كان يماثل الغربي •

والجزء السفلي من الجدار الجنوبي لسوء الحـظ تغطيه دكاكين السوق لارتفاع ٧ ــ ٨ أمتار ولكــن (ديكي) استطاع تسجيل بعض الملاحظات بعد بضع سنوات من حريق ١٨٩٣ • والى اليمين قليلا مـن الوسط يوجد المدخل المثلث الفتحات الشهير • وقد فحص (ديكي) الوجه الداخلي من هذا الجدار ووجد أن دعامة الجناح الجنوبية الشرقية تداخلت مع فتحة مدخل الباب المركزي بحوالي ٦٧ سم • وسنرى أهمية ذلك فيما بعد •

يقول ابن شاكر ــ واستطاع (ديكي) فيما بعد أن يؤكــد ــ أن المحراب وضع في فتحة مدخل الفتحة الغربية • والجدار الى الشرق من هذا المدخل المثلث مزخرف بالاعمدة التي تشابه أعمدة الجدار الغربي في العرض والمسافات ولكنها تقل عنها في الارتفاع (حوالي ٧٫٣٠ مترا) وتنقصها التيجان • والجــدار ينتهي بإفريز على شــكل قوس مزدوجة مقلوبة عمقه ١٣ سم حول العمود بكامله ويستمر ٣٫١٦ مترا تحت عتبة النافذة • ومعظم الجزء الغربي من هذا الجدار أعيد بناؤه عام ١٣٢٨ •

لنحاول الآن تحديد ارتفاعه الاصلي • هناك عامــلان للتحديد :
(١) مستوى قمــة قوس التخفيف فوق مدخــل الباب المركــزي •
(٢) لفة تاج العمود البارز تحــت البرج الجنوبي الغربي • فالمستوى الادنى المطلوب لتحرير عمود التخفيف في مدخل الباب المركزي والاقصى الممكن إذ توجب إبقاء تاج عمود زاوية البرج محرر هو بالدقة مستوى عتبات النوافذ في الجناحين • ولذلك اعتقد أنــه يمثل القمة العليا لجدار

ساحة المعبد في هذا الجانب وأن لدينا هنا العامل الحاسم الذي حـدد مستوى عتبات نوافذ المسجد .



(شكل ــ ٨) دمشق ــ المسجد الكبير الجانب الجنوبي

وباضافة الى المدخل الثلاثي في الجانب الجنوبي كانت هناك ثلاثة مداخل أخرى ــ واحد في كل جانب ــ والمدخل الرئيسي منها هو بكل وضوح مدخل الجانب الشرقي المعروف بباب جيرون حيث صمم مدخل مركزي كبير ومدخلان جانبيان أصغر منه تحت الرواق المقنطر الذي يبلغ ارتفاعه أكثر من ١٦ مترا وعرضه حوالي ٢٨ مترا يتقدمه سلم بدرجات عريضة .

تاريخ فناء المعبد :

اكتشف (جرمر دوراند) في عام ١٩٠٠ م نقشاً تاريخه ٣٢٧ م يشير الى بناء برج الزاوية الشمالية الشرقية واكتشف (هاناور) نقشاً آخـر على الوجه الخارجي من الجدار الشرقي لفناء المعبد تاريخه ٣٤٩ م . في

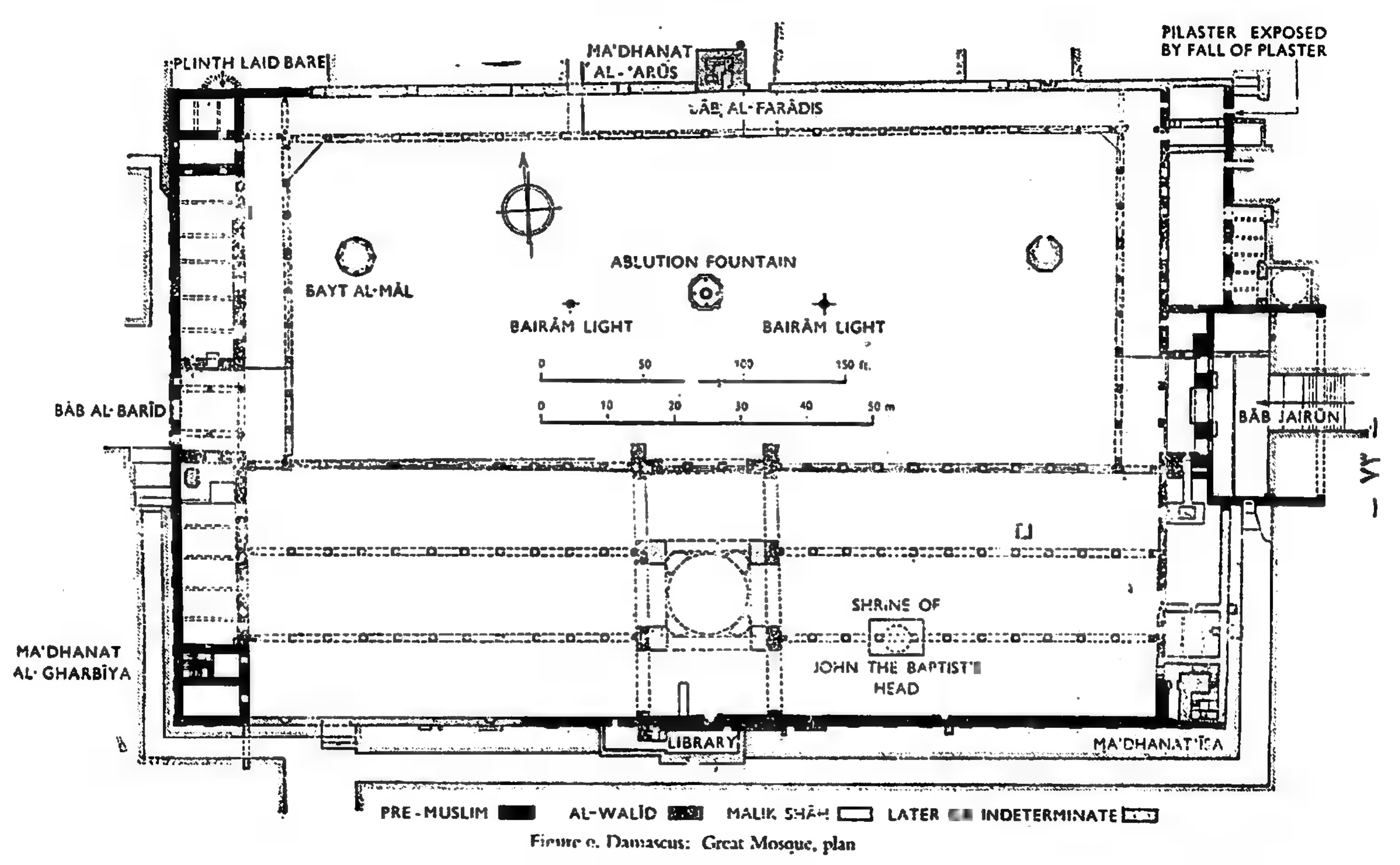


Figure 6. Damascus: Great Mosque, plan

(شكل ــ ٨) دمشق ــ مخطط المسجد الكبير

البدء اعتقد أن هذه التواريخ تعود الى عصر بومبي (الذي بدأ عـام ٦٣ ق٠م) وفي هذه الحالة يقابلان ٥ ــ ٢٦٤ م و ٦ ــ ٢٨٥ م على التوالي وبالنتيجة يكون هناك تناقض تام بين التاريخ الذي تم الوصول اليه على أسس طرازية والتاريخ الذي يعرضه النقشان ٠ ولكن (سيريج) أشار الى أن الفترة السلوقية (التي بدأت عام ٣١٢ ق٠م) هي المستعملة على النقود في دمشق ومن غير المعقول الافتراض أن تقويماً آخـر استعمل للنقوش على المباني العامة وبالتالي فان تاريخ هذين النقشين لابد وأن يقابل ٦ ــ ١٥ م و ٨ ــ ٣٧ م ٠ وبما أن مدخل الحصون المصري الشائع في بترا ومدائن صالح استعمل في سوريا حتى في القرن الاول الميلادي يمكننا أن نقول الأن أنه ليس هناك تناقض بين تاريخ الفناء وفق الاسس الطرازية أو وفق النقوش ٠ وبهذا نستطيع بكل ثقة أن نرجعه الى القرن الاول الميلادي باستثناء المدخل الثلاثي في الباب الجنوبي الذي أدخل فيما بعد لأنه أسمك من بقية الجـدار بمقدار ٧٠ سم ولايرتبط معه بأيـة مماسك ٠

وقبل ترك موضوع فناء المعبد لابـد من الاشارة الـى الغرفتين الطويلتين في كل طرف ٠ فبفضل سقوط قسم كبير من الكسوة الكلسية فوق الالواح الرخامية للردهة الغربية أصبح من الممكن أن نـرى أن هناك انقطاعاً تاماً في المماسك في الزاويتين الغربيتين ٠ وإذا صعدنا الدرج في البرج الجنوبي الغربي فمن الممكن في كل لقتة أن نتأكد من الوحدة بين البناء وبين الجدار الغربي للمعبد ٠ ولذلك فان البرج الشمالي الغربي والبرج الجنوبي الغربي متطابقان مع بناء المعبد ٠ بينما الجـدران التي تشبه شكل (ــا) والتي تشكل الغرف المستطيلة ليست كذلك ٠ وهذا الاستنتاج ينطبق أيضاً علـى الغرفتين المستطيلتين الشرقيتين ٠ فمـن الواضح أن الغرف المستطيلة بناها الوليد الذي أراد أن يحصل علـى شكل داخلي مربع لاتتعداه أبراج الزوايا ٠

المعبد تحول إلى كنيسة :

في عهد ثيودوسيوس (٣٧٩ ــ ٣٩٥) توقفت الطقوس الوثنيـة وسادت المسيحية . يقول مالا لاس (القرن السادس) أن ثيودوسيوس حول المعبد في دمشق الى كنيسة مسيحية كما تسـجل حوليات باشال (حوالي ٦٤٠ م) خبراً مشابهاً . وفي نفس الوقت نقشت ثلاثة نصوص فوق المدخل الثلاثي في الواجهة الجنوبية . ونص النقش الموجود على عتبة نافذة المدخل المركزي على مايلي : « إن مملكتك أيها المسيح مملكة أبدية وسيادتك ستدوم عبر كل الاجيال » وهذه هي رواية السبعونية للترنيمة ١١٤ مع إضافة الترنيمة ٩٠ للمسيح . ولا يزال النقش موجوداً حتى الآن .

المسجد :

دعونا الآن ندرس داخل المعبد القديم الذي أصبح الآن مسجداً . ففي الداخل هناك الصحن،وهو مستطيل يبلغ طوله ١٢٢٫٥ متراً من الشرق إلى الغرب وعرضه ٥٠ مترا في الشرق يتناقص إلى ٤٧٫٨٧ مترا في الجهة الغربية . في الجانب الجنوبي يوجد الحرم الذي يبلغ طوله ١٣٦ مترا ويتجاوز ٣٧ مترا في العمق تشكله ثلاثة صفوف من الأعمدة الموازية للجدار الجنوبي . وهناك رواق عرضاني عريض يمتد من الشمال إلى الجنوب ويقطع الأروقة إلى نصفين متقاربين كل نصف يشتمل على ١١ قوسا . هذه الأقواس المجاورة للصحن ترتكز على دعامات بينما صفوف الاقواس الداخلية ترتكز على أعمـدة رخامية تنتصـب فوق قواعـد مكعبة . والصفوف الداخلية أعيد بناؤها بالكامل بعد حريق ١٨٩٣ الهائل . ويقول السير تشارلز ويلسون الذي رأى الأروقة عام ١٨٦٥ قبل هدمها مايلي :

« في النصف الشرقي هناك تشكيلة من التيجان ، فهناك اثنان ايونيان في الزاوية الجنوبية الشرقية .... والكثير من التيجان الكورنثية المأخوذة من الأبنية الأخرى صغيرة جدا بالنسبة للأعمدة التي ترتكز عليها » .فوق هذه الاروقة هناك صف آخر من الأقواس الصغيرة التي ترتكز على الدعائم . يوجد قوسان صغيران لكل قوس من الاقواس الكبيرة تحتها .

والفتحات المقنطرة التي تشكل الصف الأعلى المجاور للصحن كانت مملوءة بشبكات زخرفية جصية (قبل الحريق) لابد من اعتبارها نوافذ ، وفي الجدار الخلفي من الحرم صف آخر مماثل يبلغ عددها ٤٤ فتحة (باستثناء ٦ في نهاية الرواق العرضاني) . وترتفع عتباتها ٣٣ر١٠ مترا فوق الارض وتقابل حجما وموقعا الفتحات الموجودة فوق صفوف الأروقة الثلاثة . وكل رواق مغطى بسقف مثلث يرتكز مباشرة على الصف العلوي من الأقواس .

الرواق العرضاني :

يتم الدخول بواسطة قوس ثلاثي من الصحن إلى الرواق العرضاني المنحرف قليلا . والقوس يرتكز على عمودين رخاميين . وفي القسم العلوي توجد ثلاث نوافذ . والكل متعمق قليلا داخل هيكل مقنطر كبير مدبب قليلا ومرتفع قليلا . وعلى جانبي المدخل دعامة ضخمة لتخفيف ضغط أقواس الرواق العرضاني . وواجهة الرواق ترتفع إلى مايزيد عن ١٠ أمتار فوق الواجهة على الجانبين ويبلغ ارتفاع افريزها ٦٧ر٢٥ مترا فوق الأرض . وينتهي طرفاه الشمالي والجنوبي بسقف مثلثي ضحل وخلفه سقف أكثر انحدارا من الآجر مما يظهر على زيادة انحدار السقف عما كان عليه في الأصل .

وجوانب الرواق مضاءة بالنوافذ الثلاثة في كل جانب وهي تطل على أسطحة الأروقة . وبما أن هذه الأسطحة قد زيد انحدارها عن الأصل فسنري من اللوحة ١٣ واللوحة ١٤ أن النافذة الرئيسية في كل جانب قد سدت كليا والنافذتان الأخريتان سدتا جزئيا .

والجزء المركزي مغطى بقبة حجرية على سفنشات (ركائز لحمل القبة) ولكن الوضع الحالي ليس هو الأصلي لأن حريق ١٨٩٣ كشف عن وجود صلة عمودية مستقيمة بين قسم الدعامات لأقواس انرواق العرضاني والجزء الحامل للأقواس الرافدة المستعرضة تحت القبة وأن القواعد الأفقية للبناء ليست في نفس المستوى . وهذا معناه أن الرواق في الأصل كان مربوطا شرقا وغربا بواسطة ثلاثة أقواس كبيرة ترتكز على عضائد (٢٤ر١ × ٥٥ر١) مترا تقريبا ومعناه أيضا أنه في تاريخ لاحق شيدت عضائد (٢٤ر٣ × ٥٠ر٢) متراً تقريبا تجاه العضائد الكبرى في القسم الأوسط دون ربطها بها . وقبل هذا فإن القسم الأوسط كالقسمين الآخرين في الرواق لابد وأنه كان مستطيلا وهدف هذه الاضافات هو بالطبع جعله مربعا لكي يحمل القبة . هذا العمل تم في عام ٣ ـ ١٠٨٢ عندما أصلح ملكشاه المسجد بعد حريق ١٠٦٩ لأن أربعة نقوش كوفية متطابقة تقريبا سجلت بناء « هذه القبة وهذه الأقواس وهذه العضائد في عام ٤٧٥ » (٣ ـ ١٠٨٢ م). هذه النقوش حفرت على هذه العضائد وكان بالامكان رؤيتها قبل حريق عام ١٨٩٣ م .

القبة :

ومع ذلك فقد كانت هناك قبة في السابق لأن النابغة الذبياني (الشاعر

بلاط الوليد) يذكرها بصراحة كما يذكرها المقدسي[1] (٩٨٥) الـذي يقول : أنه كانت هناك برتقالة وفوقها رمانة وكلاهما من الذهب في قمة القبة . فعلى ماذا ارتكزت ؟ كانت على مايبدو من الخشب وارتكزت على روافد عرضانية في نفس الطريقة المتبعة في قبة لاشين في جامع ابن طولون.

والقبة التي بناها ملكشاة كانت أيضا من الخشب ويبين وصف ابن جبير لها حين رآها عام ١١٨٤ أنها شابهت كثيرا قبة الصخرة في القدس . وكانت تعرف باسم قبة النسر . يقول ابن جبير : « يشبهه الناس بنسر طائر ، كأن القبة رأسه ، والغارب جؤجؤه ، ونصف جدار البلاط عـن يمين ، والنصف الثاني عن شمال ، جناحاه . وسعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة ، فهم يعرفون الموضع من الجامع بالنسر لهـذا التشبيه الواقع عليه » .[2]

هذه قصة جميلة مخترعة لتعليل التسمية المعضلة . والسبب الحقيقي هو أن الكلمة اليونانية إينوس (النسر) تستعمل أيضا كمصطلح فني بمعنى السقف المثلث وأن هذه الكلمة بمعناها الفني الصحيح استعملها البناؤون السوريون الذين يتكلمون اليونانية والذين استخدمهم الوليد. ولكن بعض العرب الذين اكتسبوا معرفة سطحية باللغة اليونانية ترجموا كلمة (إينوس) بمعناها العادي وبذلك وصلوا إلى التسمية قبة النسر بدلا من ترجمتها بقبة الجمالون أي قبة السقف المثلث . ولكي يشـرح الناس فيما بعد هذه التسمية اخترعوا القصة التي رواها ابن جبير .

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ١٥٨ .

(٢) انظر رحلة ابي جبير الاندلسي ــ دار التراث بيروت ط ١٩٦٨ الصفحـة ٢١٣ .

المحاريب :

في جدار الحرم الجنوبي هناك أربعة محاريب : محراب في النصف الشرقي يسمى محراب الصحابة والمحراب الكبير في نهاية الرواق العرضاني والمحراب الثالث من أجل التناظر في النصف الغربي . يقول ابن شاكر إن محراب صحابة الرسول لم يكن له شكل المحراب حتى زمن الوليد ، وعندئذ أصبح المحراب الاسلامي الثالث في الاسلام . والمحراب الرابع في الطرف الغربي لابد وأنه حديث جدا .

الأروقة حول الصحن :

بنيت هذه الأروقة في طبقتين بصورة مشابهة لأرومة الحرم . وفوق الأروقة سقف خشبي منحدر قليلا نحو الصحن ومغطى بصفائح من الحديد . وتعلو إفريزاتها ١٥ر٣٥ مترا فوق أرض الصحن . وتتألف الطبقة السفلى من ٩ أقواس في الجانب الشرقي و٩ في الجانب الغربي و٢٤ في الجانب الشمالي والفتحات القوسية فوق الأقواس السفلى تقابل في حجمها ومستواها فتحات الحرم باستثناء أنه في كثير من الحالات تدمج بعضها لا يفصل بينها سوى العمود . ولا شك أنها كلها كانت على هذا الشكل . وكل أقواس الطبقة السفلى تقريبا في الجانب الشمالي ترتكز على عضائد ولكن العضائد الشرقية والغربية تتناوب مع زوج من الأعمدة . وأعتقد أن هذا النظام قام أيضا في الجانب الشمالي رغم أنه أعيد بناؤه بالكامل تقريبا على عضائد ، في الحقيقة يذكر ابن عساكر[1] والعمري

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ، المجلدة الثانية ص ٢١ ــ ٢٢

أن أحد بنائي الوليد يقول : « ينبغي أن تبنى فيه قناطر وأن يعقد بعضها الى بعض ، ثم تجعل أساطين وتجعل عمد ،وتجعل فوق العمد قناطر تحمل السقف ويخفف عن العمد البناء ويجعل بين كل عمودين ركن » وهـذا يعطينا الأعداد التالية :

الجهة	العضائد		الأعمدة
الجانب الشرقي	٢		٦
الركن الشمالي الشرقي	١		—
الركن الشمالي الغربي	١		—
الجانب الغربي	٢		٦
الجانب الشمالي	٧		١٦
المدخل الرواقي الشرقي	—		٢
المدخل الرواقي الغربي	—		٤
المجموع ٤٧ دعامة	١٣	+	٣٤

ويقول ابن جبير : « ويستدير بالصحن بلاط ثلاث جهات :الشرقية والغربية والشمالية : سعته عشر خطا ، وعـدد قوائمه سبع وأربعون : منها اربع عشرة من الجص وسائرها سوار . » وعمودا ناقصا عن العدد النظري الذي استخلصته ومن هذا يستنتج المرء أن أحد الأعمدة استبدل بعضادة عند زيارته ومنذ ذلك الوقت استمرت العملية حتى أصبح عـدد الأعمدة ٢٦ وعدد العضائد ٢١ ويبقى المجموع ٤٧ كما كان في حينه .

---

(٢) مسالك الابصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري ١/١٨١

ما سبق يقود المرء إلى التساؤل : هل ارتكزت واجهة الحرم بنفس الطريقة ـ على عضائد تتناوب مع الأعمدة التي استبدلت أم أنها سدت بجدار . لنعد الآن إلى وصف ابن جبير : « من القبلة الى الشمال . وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاثة مستطيلة من الشرق الى الغرب ، سعة كل بلاط منها ثماني عشر خطوة ، والخطوة ذراع ونصف ، وقد قامت على ثمانية وستين عمودا ، منها أربع وخمسون سارية وثماني أرجل جصية تتخللها ، واثنتان مرخمة ملصقة معها في الجدار الذي يلي الصحن . وأربع أرجل مرخمة أبدع ترخيم ، مرصعة بفصوص رخام ملونة ، وقد نظمت خواتيم » .

وهكذا لدينا ٦٨ دعامة منها ٥٤ عمودا و٨ عضائد و٢ + ٤ من الرخام . والآن عدد الدعائم في الحرم الحالي هو كما يلي :

الجهة	الأعمدة	العضائد
الرواقان الداخليان (٤صفوف×١٠أعمدة)	٤٠	ـ
تحت القبة	ـ	٤
مقدمة الرواق العرضاني	٢	٢
المجموع	٤٢	٦
متروك لبقية الواجهة (٢٠دعامة)	١٢	٨

ونظرة سريعة إلى المخطط ترينا ١٠ دعائم على الواجهة في كل من جانبي الرواق العرضاني أي ٢٠ دعامة وهو العدد المطلوب . وعضائد الركن الجنوبي الغربي والركن الجنوبي الشرقي من هذه الدعائم لا بد وأنها كانت عضائد طوال الوقت لأن عليها أن تتحمل ضغط جانب الأروقة

الابنية ذات القباب في الصحن :

توجد في الصحن ثلاثة مباني يهمنا منها البنـاء الغربي فقط لأن البنائين الآخرين حديثان نسبيا . إنه يتألف من غرفة مثمنة عالية بالطبع من الحجارة والآجر بالتناوب وترتكز على ٨ أعمدة ذات تيجان كورنثية يعلوها محمول (طبان) كلاسيكي . والمنطقة المحاطة بالأعمدة تستخدم كحوض يحيط به حاجز وفي الوسط فتحة لا شك أنها من أجل النافورة . وفوق الغرفة المثمنة قبة مغطاة بالرصاص ومدخلها فتحة مربعة في الجانب الشمالي الغربي ولا يمكن الوصول إليها إلا بالسلم . وترتفع ٤٫٦٣ مترا من الأرض حتى الساكف و٩٫٩٥ مترا حتى افريز (طنف) القبة .

يقول المقدسي[١] : « وعلى الميمنة في الصحن بيت مال على ثمانية عمد مرصع حيطانه بالفسيفساء » . ويقول ابن جبير[٢] : « وهي قائمة على ثمانية اعمدة من الرخام ، مستطيلة كالبرج ، مزخرفـة بالفصوص والاصبغة الملونة ، كأنها الروضة حسنا وعليها قبة رصاص كأنها التنـور العظيم الاستدارة ، يقال : إنها كانت مخزنا لمال الجامع » . ويقول أبو البقاء أن مؤسسها الوليد .

دور الوليد :

رغم إجماع المؤلفين العرب على أن الوليد هدم كنيسة القديس يوحنا المعمدان وبنى المسجد كما هو اليوم باستثناء جدران المعبد ورغم أن فيني سبيرز ـ أو من قام بدراسة هذه القضية ـ يقبل بهذا الرأي

(١) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسي ١٥٧ .

(٢) ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .

فان كلا من دوسو وديل وسترز غوفسكي وواتزنجر وولتزونجر ولامانس حاول البرهنة على أن الحرم الحالي ــ باستثناء قبته ــ ليس سوى الكنيسة المشار إليها ٠

قبل البحث في هذه النظريات من المستحسن أن نذكر ملخصا لأقوال ابن جبير (١١٨٤) والعمري (حوالي ١٣٤٠) وابن شاكر (توفي ١٣٦٢) بخصوص الاستيلاء على دمشق ٠ ويدعي الاخير أنه يأخذ عن ابن عساكر (توفي ١١٧٦) ولكنا سنرى أن ذلك يكاد يكون غير صحيح ٠

يقال إن العرب حاصروا دمشق بجيشين الاول بأمره خالد بن الوليد في الشرق والثاني بأمرة أبي عبيدة في الغرب ٠ هذان الجيشان دخلا دمشق في وقت واحد : جيش أبي عبيدة تحت شروط المعاهدة القاضية بأن يترك العرب الكنائس الأربع عشرة ويأخذوا كنيسة القديس يوحنا بينما دخل خالد في نفس الوقت باقتحام الباب الشرقي وتلاقى الجيشان المتقدمان وسط المدينة أو حسب رواية ابن جبير في وسط الكنيسة ٠ وبعد نقاش طويل اتفق على أن يعتبر نصف المدينة قد أخذ حربا والنصف الآخر صلحا ٠ ولذلك أخذ العرب النصف الشرقي من كنيسة القديس يوحنا الذي حولوه إلى مسجد ٠ ويضيف ابن شاكر أن المسلمين صلوا حيث يقوم الآن محراب صحابة النبي تاركين النصف الغربي للمسيحيين وأن المسلمين والمسيحيين دخلوا من نفس البوابة ــ بوابة المعبد الاصلي الواقعة في الجانب الجنوبي حيث يقوم الآن المحراب الكبير ، وأن المسيحيين بعد ذلك اتجهوا غربا للذهاب إلى كنيستهم وأن المسلمين اتجهوا نحو اليمين للذهاب إلى مسجدهم ٠

وسارت الامور على هذه الحال حتى تشرين الثاني عام ٧٠٥م عندما

أما فيما يختص بزخرفة الحرم فيقال لنا بأن الطوق الرخامي ارتفع إلى ضعف طول الانسان وعند هذا المستوى بدأت الكرمة الذهبية الشهيرة التي ذكرها ابن عساكر حيث لابد من الافتراض وجود افريز مزخرف بجذوع الكرمة الطويلة المتماوجة المذهبة أو لفائف الأكانتوس التي تحمل عناقيد العنب تقليدا لبعض زخارف قبة الصخرة ، ويؤكد ذلك الصورة الفوتوغرافية التي صورها ونشرها البارون ڤون اوبنهايم والتي يرينا أن طوقا تتخلله الأطبار المشابهة للموجودة في المدخل الشرقي غطت الجانب الجنوبي من الرواق العرضاني • وفوق ذلك مباشرة طوق لا يتألف من جذوع الكرمة الحقيقية بل من لفائف الأكانتوس التي تحمل عناقيد العنب هنا وهناك كما نجد في بعض الزخارف النباتية الخيالية في قبة الصخرة ولا بد أنها هي الكرمة التي يذكرها ابن عساكر[1] • ولكن بما أن النوافذ ترتفع ١٠ر٣٥ متراً عن سطح الارض فلا بد أنها وجدت في داخل الفسيفساء بدلا من وجودها بين الأطبار كما هي الحال في المدخل الغربي •

وتيجان الأعمدة كانت مذهبة وكما يقول المقدسي حتى الزخارف العليا قوبلت من الجانبين بالفسيفساء •

واليوم كل النماذج الرخامية في الحرم تعود إلى ما بعد حريق ١٨٩٣ وكذلك رخام المدخل الغربي • وقد بقيت مساحة كبيرة من الفسيفساء سليمة على الوجه الخارجي الشمالي للرواق العرضاني تحت السقف المثلث حيث تظهر الأشجار والمقصورات الحدائقية فوق خلفية من الذهب• كما يوجد بعضها في أروقة المدخل الغربي المعمد وعلى أقواس المدخل

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ، المجلدة الثانية صفحة ٣٥

ولكن أروع قطعة هي منظر نهر بردى الذي يبلغ طوله ٣٤٫٥ مترا وارتفاعه أكثر من ٧ أمتار والذي كشفه دولوري على الجدار الخلفي من هذا الرواق المعمد . ويظهر الطرف الأيسر في اللوحة ١٨ .

وعندما أتمه الوليد لا بد أنه كانت هناك مساحة من الفسيفساء أكبر من أي مساحة في أي بناء آخر .

المآذن :

الأبراج المربعة الأربعة على زوايا المعبد استخدمت كمآذن وهي الأولى في الإسلام . يقول ابن الفقيه[1] (٩٠٣) والمئذنة التي بدمشق كانت برجاً للروم في كنيسة يحيى ، فلما هدم الوليد الكنيسة وأدخلها المسجد تركت على حالها .

وعندما حول الوليد المنطقة كلها إلى مسجد ترك هذه الأبراج على حالها . ويقول المسعودي[1] : « وبعدها أتت المسيحية وأصبح كنيسة، وبعدها أتى الاسلام فأصبحت مسجدا بناه الوليد بمتانة والصوامع (أبراج الأركان الأربعة) لم تتبدل وتستخدم للأذان في الوقت الحاضر ». ومن هذه الأبراج الاربعة لم يبق سليما حتى اليوم سوى البرج الشمالي الغربي الذي تعلوه مئذنة بناها السلطان قاتباي في عام ١٤٨٨ م ، أما الأبراج الاخرى فقد اختفت وشيدت في مواقعها مآذن على ما يبدو وفي عام ١٣٤٠ . وفي الجهة الشمالية مئذنة ثالثة يعود تاريخها إلى نهاية القرن الثاني عشر ولكن كانت هناك مئذنة في هذا الوقت شيدت قبل عام ٩٨٥ لأن المسعودي يذكرها .

---

(١) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه صفحة ١٠٨ .
(١) المسعودي

وهذا يبقي ١٨ دعامة . فإذا بدأنا عند عضادة الركن فسنجد : عضادة الزاوية : عمودان : عضادة واحدة : عمودان : عضادة ، وبعد ذلك قوس آخر بدلا من اثنين وبعدها نجد أنفسنا تجاه عضادة الرواق الخارجية . هذا التجميع تؤكده الحقيقة القائلة أن العضائد المعتبرة أصيلة في المخطط يمكن تمييزها (١) بارتفاع مداميكها بينما تلك التي تشكل الأعمدة المركبة حسب نظريتي هي من بنية أصغر (٢) العرض الأكبر بين انطلاقة الأقواس المرتكزة عليها .

شكل الأقواس :

استخدم نوعان من الأقواس . فأقواس الحرم كانت من نوع حدوة الحصان إلى حد ما قبل حريق ١٨٩٣ . كما توجد أقواس من النوع المدبب قليلا مثل الهيكل القوسي الكبير في الطرف الشمالي للرواق العرضاني حيث يبلغ البعد بين المركزين حوالي $\frac{١}{١٠}$ – $\frac{١}{١١}$ من باع القوس .

المصبعات الرخامية :

هناك ست مصبعات جميلة بارتفاع ١٫٧٧ مترا وعرض ١٫١٤ مترا تشكل الألواح الرخامية بسماكة حوالي ١٢سم ويمكن رؤيتها في المسجد. أربعة منها قائمة مع عتباتها بمستوى ٤٫٩ مترا فوق أرض المدخل الغربي المرفوعة وتضيء الغرفة الطويلة الشمالية الغربية والاثنتان الباقيتان يمكن رؤيتهما على يمين ويسار المدخل . وهناك أربعة نماذج هندسية مختلفة وكلها بسيطة . ولا بد أن النوافذ الأصلية لقبة الصخرة كانت من نفس النوع .

الزخرفة الأصلية :

تتفق كل الأوصاف على أن الزخرفة كانت من النوع الرائع • فالمنطقة كلها كانت مرصوفة بالرخام الأبيض والجدران كانت مغطاة بنفس المادة • يتحدث المقدسي عن الرصف الرائع لمختلف أنواع الرخام الملون وكيف أن العروق في كل منها تكمل عروق مايجاورها • ويبدو لنا من هذا الوصف أن ألواح الرخام قسمت إلى أرباع ورصفت حسب تكملة العروق بطريقة لانزال نشاهدها في المدخل الشرقي بجوار الباب الجانبي الجنوبي • وإلى يمين العماد (الطبر) يوجد مثال رائع سليم مؤلف من ١٢ قطعة أما إلى الجانب الأيسر فلا يوجد سوى لوحين رخاميين أصليين في موضعهما إلى جوار قاعدة العماد • إنني قانع بأن هذا المثال جزء من الزخرفة الأصلية للمسجد لأن هذه التربيعة الرخامية الزخرفية رغم جمالها وتأثيرها لاتوجد على حد علمي في أية آبدة إسلامية بعد العصر الأموي •

ولدينا هنا أيضا دليل على النظام الأصلي للزخرفة لأن الأطبار الصغيرة الجذابة التي يبلغ عرضها ١٫٧٧ مترا وترتفع عن الأرض ٤٫٨٨ مترا تتوافق تماما مع ارتفاع ومستوى المصبعتين الرخاميتين في المدخل الغربي • ولهذا فإن لنا العذر في الاعتقاد في أن طوقا من التربيع الرخامي عرضه ١٫٧٧ مترا أحاط بالمسجد تتخلله الأطبار والمصبعات الرخامية على مسافات منتظمة • والبقية القائمة في المدخل الشرقي ترينا أن تحت هذا الطوق وجدت تربيعات رخامية أخرى رغم أنه من المستحيل القول فيما إذا وصلت حتى الأرض أم أنه كان هناك جزء سفلي بدون زخرفة • وفوق هذه الزخرفة الرخامية مباشرة ــ أي على ارتفاع ٦٫٦٥ مترا ــ بدأت كسوة الفسيفساء كما نرى تحت الرواق المعمد الشرقي حيث بقيت سليمة • وقد وصلت هذه الزخرفة حتى السقف الذي يرتفع حوالي ١٥ مترا فوق سطح الأرض فلا بد إذن أنها غطت حوالي ٧ أمتار •

أصبح الوليد خليفة وأراد الاستيلاء على النصف الذي بقي للمسيحيين وتحويل البناء بكامله إلى مسجد • وعندها بدأت المساومة مع المسيحيين وبالتالي هدم الكنيسة حتى لم يبق أكثر من هيكل مستطيل وهذا معناه جدران المعبد الأربعة وفي أركانها الأبراج الأربعة •

نظرية واتزنجر وولزنجر :

اقترح واتزنجر وولزنجر أن معبد الاله السوري الذي سماه الرومان جوبيتر الدمشقي قام في وسط الفناء (الى الغرب قليلا من المركز) وأنه ببساطة تحول إلى كنيسة على يد ثيودوسيوس (٣٧٩ ـ ٣٩٥) وأن كنيسة جديدة تم بناؤها على يد هيراكليوس حوالي عام ٦٢٩م وأن هذه الكنيسة الاخيرة هي الحرم الحالي للمسجد وأن دور الوليد اقتصر على اضافة القبة • ماذا يمنعهما من نسبة بناء القبة أيضا إلى ثيودوسيوس بعد أن قررا أن الحرم الحالي قد بني ككنيسة • من الواضح أن الصعوبة هنا تكمن في أن الركيزة الجنوبية الشرقية من الرواق العرضاني تتداخل جزئيا مع الباب الاوسط من المدخل الثلاثي وتحجبه ولا يمكننا أن نتصور أن الامبراطور الذي نقش الدعاء فوق المدخل يسده جزئيا في الوقت نفسه• وسنرى أن دوسو متأثر بهذه الحقيقة أيضا • ولذلك يقترحان أن زلزال عام ٦٠٢ والغزو الفارسي عام ٦١٣ م تسببا في هدم الكنيسة ـ المعبد • وأن هيراكليوس بعد حملته المظفرة التي أدت إلى استرجاع « الصليب الحقيقي » من الفرس بدأ ببناء كنيسة جديدة في طريق عودته • هذه النظرية لا يؤيدها أي نص مما يدعو إلى الغرابة إذ أن لدينا أوصاف لأعمال هيراكليوس في القدس وحتى في ديار بكر النائية •

ومن المدهش حقا أن المصادر تذكر أعماله في هاتين المدينتين وتصمت

على عمل عظيم كهذا إذ أنها ستكون أكبر كنيسة في العالم المسيحي — إذا كان حرم المسجد الكبير في دمشق ينسب اليه فعلا . والواقع أننا نجد الاقوال التي تربط اسم هيراكليوس بهذا البناء بعد أواسط القرن السابع عشر فقط . وبالاضافة إلى ذلك ليس لدينا أي تبرير لافتراض أن الفرس أباحوا لانفسهم هدم الكنائس هنا لورود ذكر ١٤ كنيسة بالاضافة إلى كنيسة القديس يوحنا المعمدان مباشرة بعد الفتح العربي .

نظرية دوسو :

يوافق دوسو على نظرية واتزنجر وولزنجر القائلة بأن دور الوليد اقتصر على إضافة القبة ويفترض أيضا وجود مرحلتين في البناء ولكنهما تختلفان عن مرحلتي واتزنجر وولزنجر . إنه يوافق على موقع المعبد ولكنه يصر على أنه لم يتحول المعبد إلى كنيسة ليس فقط لصغر حجرة الآلهة بل أيضا لانها تتجه نحو الغرب بعكس ما تتطلب الطقوس المسيحية . ومن هنا يأتي الاستنتاج بأن ثيودوسيوس هدم المعبد وبنى كنيسة عند الطرف الجنوبي لفناء المعبد . وأن مدخلها هو المدخل الثلاثي الذي يعلوه النقش اليوناني وأنها هي بالذات الحرم الحالي . ونظرا لان الباب الرئيسي المحجوب جزئيا بأحد ركائز الرواق العرضاني يخطىء دوسو كما خطأ واتزنجر وولزنجر فانه مضطر للافتراض أن الكنيسة كانت بدون رواق عرضاني . ومخططه لكنيسة ثيودوسيوس يرينا أن للحرم جداريلي الصحن ويقول : « يجب الافتراض أن للكنيسة مدخلا ثانويا فقط إلى هذا البلاط مما يساهم في اللعنة التي حلت على هذا المعبد القديم . » وبعدها يفترض « أن استعمال الباب الجنوبي الثلاثي كمدخل رئيسي لم يكن مناسبا . » وأن الرواق العرضاني بني في القرن الخامس للتخفيف من شذوذ منظر الكنيسة « منذئذ جعل المدخل من الواجهة الشمالية

التقسيم المزعوم لكنيسة القديس يوحنا :

أشار دي غوجه ومن قبل فون كريمر إلى شيء غريب لان ابن عساكر[1] يقول أن المسلمين أخذوا النصف الشرقي من كنيسة القديس يوحنا والمسيحيين أخذوا النصف الغربي والسبب هو أن العرب دخلوا القسم الشرقي من المدينة حربا والنصف الغربي صلحا . فكيف نستطيع أن نعلل أن الجزء الشرقي من المدينة الحاضرة هو الذي يسكنه المسيحيون واليهود وهذا عكس المتوقع في حال صحة قول ابن عساكر ؟ وثانيا هناك مسألة الواقدي[2] (٧٤٨ ــ ٨٢٣ م) الذي يدعي أنه رأى المعاهدة نفسها ويقول أنه ليس هناك أي ذكر فيها لاقتسام الكنائس أو المنازل فهو يقول : « قرأت المعاهدة التي أبرمها خالد بن الوليد مع سكان دمشق ولم أجد أي ذكر فيها بخصوص اقتسام المنازل أو الكنائس . التقاليد تؤكد ذلك ولكنني لا أدري كيف بدأت . والحقيقة هو أنه بعد الاستسلام هجر عدد من السكان المدينة والتجأوا إلى هرقل الذي كان في أنطاكية . وهكذا فرغت منازل عديدة سكنها المسلمون فيما بعد .

ونظرا للتشويش السائد في كل هذه الروايات التي وصلت إلينا حول حصار المدينة فإن هذه الوثيقة تعتبر ذات أهمية بالغة وتبرر لنا رفض الاسطورة المذكورة رغم أن المؤلفين الغربيين ــ حتى فترة قريبة ــ تعلقوا بها باصرار غريب .

وأشار ميدنوكوف إلى صعوبة أخرى . إذ يتساءل كيف يستطيع المسيحيون أداء صلواتهم في الجزء الغربي من الكنيسة ، لانه لا بد من

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر الجزء الثاني صفحة ١٦ ــ ٢٤ .

(٢) الواقدي .

وجود المذبح في النصف الشرقي ، وإذا عدّلنا النص وحرّفنا الامــور وافترضنا أن العرب كانوا في الجزء الغربي وهذا ما يتناقض مع وجود محراب الصحابة التقليدي في الجزء الشرقي وهكذا تبرز الصعوبة مهما كانت الطريقة التي اقتسمت بها الكنيسة ، وعلى هــذا يستخلص أن المسيحيين والمسلمين لم يصلوا أبدا في كنيسة مقسمة ، ويوافقه كيتاني على ذلك مضيفا أن أدلة آركولف الذي زار دمشق حوالي عام ٦٧٠ م ترينا أن الكنيسة كانت سليمة ، حيث يتحدث عن المدينة التي يحكــم فيها خليفة المسلمين بعد الاستيلاء على السلطة والتي كانت قد بنيت فيها كنيسة كبيرة على شرف القديس يوحنا المعمدان ، وفي تلك المدينة بني ايضا جامع للمسلمين يرتادونه ، فكان هناك إذن بناءان متميزان ،

ادلة المصادر الأولى :

إن رواية ابن عساكر التي كانت عقبة كبيرة أمام الفهم الصحيح لتاريخ المسجد الكبير ، هي نص متأخر نسبيا إلا أنه وصل إلى أيدي كل انسان بفضل الدعاية الواسعة التي راجت قبل أكثر من قرن عندما ترجم كاترمير رواية ابن شاكر في ملحق كتابه (سلاطين المماليك) .

١ ــ أقدم الوثائــق جميعا هو نقش الوليــد نفسه الذي يقول المسعودي إنه كان « في حائط المسجد » ويشير قائلا « امر ببناء هــذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه[1] عبد الله الوليد امير المؤمنين » .

٢ ــ والنص التالي معاصر ايضا ــ إنها أبيات لمديح الوليد التي نظمها الشاعر النابغة الذبياني ويقول فيها :

---

(١) المسعودي : مــروج الذهب الجزء الثــاني ص ١٢٥ ط مصر ١٣٤٦ .

ونصل الآن إلى موضوع الرواقين المعمدين اللذين يقسمان الداخل إلى ثلاثة أجنحة متساوية الارتفاع ومتساوية العرض تقريبا . وهنا أيضا نجد ميزتين غير معروفتين في سورية من قبل حيث أن الجناح المركزي دائما أعرض كثيرا من الجناحين الجانبيين وفي الحقيقة عادة ضعف العرض وأكثر ارتفاعا أيضا . من الواضح أن علينا أن نعترف ان الوليد هدم الاروقة القديمة ـ هذا إذا كانت قائمة هنا ـ وأعاد بناءها حسب تخطيط جديد . ويبقى الرواق العرضاني . بما أن موقع الدعائم الوسطى الأربعة محكوم بتخطيط الأروقة المذكورة أعلاه فبالتالي نجد نسبتها إلى الوليد تصح حسب نفس الاسس . وهذا يتركنا أمام جدران البناء الاربعة التي نعترف بقدمها .

مسجد ديار بكر :

يبدو أن واتزنجر وولزنجر وأيضا دوسو شعروا بعـدم الارتياح لدى تأكيدهم بأن بناء مثل المسجد الاموي الكبير في دمشق يمكن أن يكون كنيسة دون الاشارة الى أصل له بين الكنائس في سورية وللتغلب على هذه الصعوبة يلجأون إلى اجراء غريب . انهم يشـيرون الى حرم مسجد ديار بكر الكبير ويوحون ـ بناء على أسطورة ـ أنه مكان أيضا كنيسة توافق في التاريخ والطراز كنيسة القديس يوحنا المعمدان في دمشق .

ان كلمة « أسطورة » مخففة : إنها مبنية كما يشير الواقدي بأنـه عندما احتل العرب ديار بكر قسمت الكنيسة الرئيسية فأخذ العرب ثلثين وتركو الثلث للمسيحيين . ولكننا نعلم من المصادر المسيحية أن الكنيسة الرئيسية في البلدة هي التي بناها هرقل عام ٦٢٩ م ونعلم أيضا أن هذه الكنيسة ـ يجب أن تلاحظ أنها مازالت كنيسة ـ جرى اصلاحها عام ٧٧٠ م . ولذلك نجد أنفسنا في مواجهة العقبات حالا . فعندما نـأتي

لنتفحص الحرم نفسه الذي يتألف ـ مثل مسجد دمشق ـ من ثلاثة أروقة يقطعها في الوسط رواق عرضاني . نجد نقشين على واجهة الصحن تاريخ الايمن منهما ٤٨٤ هـ (١٠٩١ ـ ١٠٩٢) باسم ملكشاه وتاريخ الايسر منهما ٥٥٠ هـ (١١٥٥ ـ ١١٥٦ م) وبالاضافة الى ذلك فان الرواق المجاور للصحن يتألف من أعمدة مدببة واضحة الشكل بدلا من الاشكال النصف دائرية ولذلك لايمكن أن تكون قد بنيت في الفترة المسيحية كما لايمكن أن تكون قد أنشئت ككنيسة لأن الأروقة الثلاثة متساوية الارتفاع ومتقاربة العرض . ولنا كل العذر في تفسير النقش بأن ملكشاه بنى الحرم لان المسجد الكبير ـ كما وصفه ناصر خسرو في عام ١٠٤٦ م ـ لا يتوافق مع البناء الحالي . وفضلا عن ذلك فاننا اذا نسبناه الى ملكشاه فان تشابهه مع المسجد الكبير بدمشق سيكون سهل التفسير لاننا رأينا فيما سبق أن هذا الملك الشهير قام بأعمال كثيرة هناك قبل تسع سنوات .

رأينا أن كل الاعمال المعمارية تناقض النسب المسيحي لحرم المسجد الكبير وأن هذه الحقائق كلها لم تؤخذ بالاعتبار أثناء البحث . وسنرى الآن أن أدلة المصادر التي أهملت أيضا تؤكد إلى نفس الحد عدم صحة مثل هذا النسب لان كل مؤرخ عربي يذكر هذا المسجد ينسبه الى الوليد وكلهم يتحدث عن المبالغ الطائلة التي أنفقها عليه . وبالاضافة الى ذلك هناك المسعودي ـ وهو مصدر قديم حقا ـ الذي يشير الى أن الوليد أخذ أعمدة رائعة من الرخام الابيض من كنيسة ماري في أنطاكية وأمر بنقلها الى دمشق من أجل المسجد الكبير وهذا قول جدير بالتصديق لاننا نلاحظ تنوعا في الاعمدة والتيجان في الحرم قبل حريق ١٨٩٣ م الكبير .

للرواق العرضاني » وأن الفتحة الغربية فقط من المدخل الجنوبي الثلاثي بقيت مفتوحة . » وهنا يتناقض مخططه مع كلامـه لان المخطط الذي يرسمه للكنيسة بعد التحويل يرينا رواقامفتوحا فيمكان الجدار الشمالي في المخطط السابق . وعندما يتكلم حول فتح مدخل في الواجهة الشمالية لابد للمرء من الاستنتاج بأن الجدار قد بقي ، ليست هناك أية مصادر تذكر إضافات في القرن الخامس ولا يقدم الكاتب لنا أية براهين على أن الرواق العرضاني يعود إلى القرن الخامس ولكنه مجبر ـ مثل واتزنجر وولزنجر ـ إلى تقسيم عملية البناء الى فترتين بسبـب وجـود النقش المسيحي اليوناني فوق الباب الذي يحجبه جزئيا أحد ركائـز الرواق العرضاني .

هاتان النظريتان المتماثلتان مشهورتان في إهمالهما التام ليس فقط لادلة المصادر الاسلامية والمسيحية بل أيضا للحقائق المعمارية أيضا . لنعالج النقطة الاخيرة أولا .

الدليل المعماري :

من المذهل كيف يستطيع العلماء وعلماء الآثار أن يحملوا أنفسهم على تصديق وجود أن كنيسة من هذا النوع الفذ يزيد طولها عن ١٣٦ مترا وذات جناح مفتوح تماما على الفناء . ليس هنالك أي غموض حول الكنائس السابقة للاسلام في سوريا.فالطراز معروف جدا بفضل الحفاظ عليها بالعشرات في شمال سورية . وهي تعبر عن طراز كل عصر ولايعرف أي شيء يشبه حرم مسجد دمشق في أدنى حدود الشبه رغم تأكيددوسو المروع « بأن مخطط البازيليكا ـ حتىبعد إضافةالرواق العرضاني الذي أعطاها واجهة بارزة ـ بقيبسيطا جدا ومحصوراضمن الصيغ القديمة» . فمن الصعب أن تفهم كيف يكون كذلك في حالة وجود أو غياب الجناح

العرضاني . ولم يستطع أحد حتى الآن ذكر أية كنيسة تشبه ذلك .

لنبدأ بمسألة النسب . وجد بتلو أن الكنائس السورية الاولى ـ التي تعود إلى القرن الرابع ـ عند قياسها من داخل الجدران أن نسبة الطول إلى العرض هي ٣ الى ٢ وأن الجناح المركزي ضعف عرض الجناح الجانبي . هذه النسب صحيحة لكل خمس من ست بازيليكات والسادسة تمثل النسب ٥ إلى ٣ . أما كنائس القرن الخامس فتمثل نسبة جديدة وهي ٤ إلى ٣ . وتمثل هذه النسب ٧ من ٨ كنائس أما الثامنة فتمثل ٥ إلى ٣ مثل النوع السابق . أما في القرن السادس فلا تحافظ على مخطط البازيليكا القديم إلا اثنتان فيها أروقة محمولة على أعمدة وفيها محراب نصف دائري ولكنها أيضا تحافظ على النسبة ٤ إلى ٣ .

قارن هذه النسب بنسبة حرم المسجد ٥ر٣ إلى ١ . وهنالك أيضا اعتراضات أخرى . أين يمكن أن نجد كنيسة ذات ثلاثة أروقة تساوي أروقة المسجد في العرض والارتفاع أو يعترضها في الوسط رواق عرضاني ؟

حتى لو افترضنا وجود كنيسة بهذه النسب فنادرا مايكون جناحها مفتوحا على الفناء . مثل هذا الشيء مستحيل تصوره . فحتى دوسو في الاعادة المقترحة لتخطيط كنيسة ثيودوسيوس يرينا جدارا بجوار الفناء ولكنه يخفق في قراءة النتائج المنطقية لهذا الاعتراف وهو يعني أن الواجهة الحالية لابد وأن تنسب إلى الوليد لانها ليست جدارا حفر فيه عدد من الفتحات ولكنه رواق مفتوح مرتكز على أعمدة وعضائد ولابد أنه بني أصلا على هذه الصورة . وبعد الاعتراف بذلك ـ ولا مفر من الاعتراف ـ يجب أن نعترف بأن الاروقة المعمدة على جوانب الصحن الاخرى هي أيضا من أعمال الوليد لانها تماثل الاول .

قلعت بيعتهم عن جوف مسجدنا فصخرها عن جديد الارض منسوف[1]

٣ ــ يقول ثيوفانيس (المتوفى ٨١٨ م) عن عام ٦١٩٩ من تاريخ الخليقة (٧٠٧ م) إن الوليد استولى على أقدس الكنائس الكاثوليكية في دمشق من المسيحيين وليس هناك أي ذكر لتقسيم الكنيسة إلى قسمين

٤ ــ يقول البلاذري (٨٦٨ م) : « ولما ولي معاوية بن ابي سفيان أراد ان يزيد كنيسة يوحنا في المسجد بدمشق »[2] (أي أن الكنيسة كانت سليمة) وأن الوليد هدمها وضمها إلى المسجد .

٥ ــ أما ابن قتيبة (المتوفى عام ٨٨٩ م) فيقول : « لما هدم الوليد كنيسة دمشق ... »[3] .

٦ ــ وابن الفقيه (المتوفى عام ٩٠٣ م) يقول : « ولما أراد الوليد بن عبد الملك بناء مسجد دمشق دعا نصارى دمشــق فقال إنا نريد أن نزيد في مسجدنا كنيستكم هذه ونعطيكم موضع كنيسة حيث شئتم » ويتابع قائلا ان الوليد « هدمها وهدم الناس معه ثم زاد في المسجد»[4] .

٧ ــ يقول الطبري (٩١٥ م) نقلا عن المدائني : « رغب الوليد في

---

(١) النابغة الذبياني : ديوان النابغة ص ٥٢ ط أولى دار الكتــب المصرية بالقاهرة .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٣١ .

(٣) ابن قتيبة : عيون الاخبار الجزء الثاني المجلد الاول ص ١٩٩ ط مصر ١٩٢٥ .

(٤) ابن الفقيه : كتاب البلدان ط ليدن ١٣٠٢ ص ١٠٦ .

بناء مسجد في دمشق وكانت هناك كنيسة قائمة فهدمت وحولت إلى مسجد »[1] .

٨ ــ ويقول يوتيكيوس (٩٣٩ م) أن كنيسة القديس يوحنا المعمدان كانت بجانب الجامع .

٩ ــ أما المسعودي في عام ٩٤٤ م فيقول : « وكان مسجد دمشق قبل ظهور النصرانية هيكلا عظيما فيه التماثيل والاصنام ، على منارته تماثيل منصوبة . وقد بني على اسم المشتري وطالع سعد ، ثم ظهرت النصرانية فجعلت كنيسة ، ثم ظهر الاسلام فجعل مسجدا . وأحكم بناءه الوليد بن عبد الملك ، والصوامع منه لم تتغير . فأصبحت منار الأذان حتى هذا الوقت »[2] .

١٠ ــ في نهاية القرن العاشر يقول آغابيوس المنبجي : في السنة الاولى من حكمه (الوليد) هدم كنائس دمشق وخاصة الكنيسة الكبيرة وبنى مكانها مسجدا كبيرا . » .

١١ ــ يقول ميخائيل السوري (البطريق اليعقوبي ١١٦٦ ــ ١١٩٩ م) : « كان الوليد يكره المسيحيين ويهدم الكنائس . وهدم أولا الكنيسة الكبرى في دمشق وبنى في موقعها مسجدا »[3] .

والآن نصل إلى ابن عساكر (المتوفى عام ١١٧٦ م) الذي انتشرت

---

(١) الطبري : هناك رواية عن عمر لا المدائني الطبري جزء ٦ ص ٤٩٩ ط دار المعارف بمصر ١٩٦٤ .

(٢) المسعودي مروج الذهب ج ٢ : ٤٠٦ .

(٣) هذا كلام لا صحة له وعدم صحته ثابتة تاريخيا .

روايته عن الرواية المشوهة التي يقدمها لنا ابن شـاكر (المتوفى عام ١٣٦٣ م) ، وليس واضحا كما يدعي الاخير لان ابن عساكر لا يعبر عن آراءه فهو كمؤلف جمع عددا ضخما من الروايات حول تاريخ دمشق ، لكنه لا يتبنى رواية ولا يختار مدرسة ولا يرجح صحة أي رواية من المادة الهائلة التي جمعها ، ففي حديثه عن الخليفة معاوية مثلا جمع الروايات المؤيدة للامويين والروايات المناهضة لهم دون أن يمكنك من التخمين أي الروايات يفضل ، وهذا المنهج نفسه الذي اتبعه في وصف المسـجد الكبير ، فيقول لنا في واحدة منها أن خالد بن الوليد دخل حربا ودخل أبو عبيدة صلحا وأن نصف الكنيسة للمسيحيين والنصف الآخر للمسلمين وهذه الرواية ينقضها الواقدي قبل أربعة قرون ، لكنه يعطينا روايات في مواضع ثانية أن الوليد أعطى للمسيحيين ــ مقابل الكنيسة التي كانت قائمة في المسجد ــ الكنيسـة المعروفة ٠٠٠٠ وبأنـه (الوليد) قال للمسيحيين « أنا نريد ان نزيد في مسجدنا كنيستكم هذه[1] » كما يقول أيضا : « لما هم الوليد بن عبد الملك بهدم كنيسة مريحنا ليزيلها ويزيدها في المسجد »[2] وليس هناك أي ذكر لنصف كنيسة ويعبر عن بقاء حرمة الكنيسة بوضوح تام إذ يقول « كان موضع كنيسة دمشق كنيسة من كنائس العجم ، فكان المسلمون يصلون في ناحية منها والنصارى في ناحية منها ، فلم يزالوا كذلك منذ فتحت حتى ولي الوليد بن عبد الملك »[3] ، ويضيف أربعة أحاديث أخرى تؤكد أن الكنيسة هدمها الوليد منها : « ان الوليد بن عبد الملك بنى كل ما كان داخل حيطان المسجد وزاد في سمك

(١) ابن عسـاكر : مجلد (٢) : ٢٢ .

(٢) ابن عسـاكر : مجلدة (٢) ص ٢٠ .

(٣) ابن عسـاكر : المجلدة الثانية : ٢١ .

الحيطان . »[1] أي كل شيء داخل المعبد.

وهكذا نرى أن ابن عساكر ـ بالرغم مما يقوله عنه ابن شاكر ـ هو في الحقيقة دليل على النظرية القائلة أن الكنيسة لم تقسم أبدا وأن الوليد هدمها وأن المسجد بكامله من إنجازه[2] .

ومصدرنا التالي في التسلسل الزمني هو ابن جبير الذي زار دمشق عام ١١٨٤ م . وكان من المعجبين جدا بابن عساكر إذ يمتدح مؤلفاته . وقد أوضح لامانس أن عددا من التفاصيــل التاريخية حول الاضرحة الاسلامية التي يذكرها مأخوذة عن ابن عساكر . ولكنه لينتقي من بين كل الروايات المذكورة رواية اقتسام الكنيسة ويتجاهل كل الروايات المناقضة لها وهو تماما ما فعله ابن شاكر بعد قرنين من الزمن .

من السهل علينا أن نفهم كيفية تحريف التعبير « في المسجد كانت كنيسة » وتعبير أبي المحاسن « شــغلت الكنيسة نصفه »[3] . هــذا

---

(١) ابن عساكر : المجلدة (٢) : ٢٨ .

(٢) لم يستطع كريزويل والكثير من المستشرقين فهم طريقة تاليف بعض مؤرخينا الكبار مثل الطبري وابن عساكر وعلى سبيل المثال هنا ابن عساكر فهو حافظ اي حافظ وراو للحديث النبوي الشريف وطريقته في الكتابة التاريخية متاثرة بطريقة الحديث فهو يتتبع السند ويات بالروايات على مختلف اسنادها . وهو لا يرجح او يفضل واحدة منها على الاخرى لانه يورد الروايات ولكنه لا ينقدها او يرجحها وكان ابن عساكر رحمه الله مؤرخا كبيرا تحرى الصدق والنزاهة وان نقد المستشرقين له باطل .

(٣) ابي المحاسن ابن تغريبردي صاحب النجوم الزاهرة في ملوك مصر ط القاهرة .

التحريف الذي نتج عنه أن « نصف الكنيسة أصبح مسجدا » •

ولذلك فان أدلة المصادر ترينا بشكل حاسم أن علينا أن نتعامل مع بناءين متميزين : مسجد وكنيسة وكلاهما شغل جزءا من منطقة المسجد الحالي •

موقع الكنيسة :

إن كل من ثيرش ، وواتزنجر ووالزنجر ، ودوسو ــ يتفقون على أن المعبد لا بد وأنه توضع في وسط الفناء واتجه نحو الشرق لان مدخل الفناء الشرقي ــ بعكس الغربي ــ وكان له مدخل باب مركب • ويستخلص ثيرش ودوسو أن محوره هو محور الفناء وكان رواق ذو اعمدة حول جدران الفناء الخارجية من الداخل كما كان عليه الحال في بعلبك وتدمر •

يعتقد ثيرش ــ ومعه واتزنجر وولزنجر ــ أن المعبد ــ بعد انتصار المسيحية ــ تحول إلى كنيسة وأن هذا التحويل ممكن حتى لو كان المعبد متجها نحو الغرب • ويقول دوسو باستحالة ذلك استحالة مطلقة لان المعبد الوثني يتجه بشكل يناقض اتجاه الكنيسة • إلا أن هذه الاستحالة ليست اكيدة ولا تمثل أية صعوبة على الاطلاق لان الكثير من الكنائس الاولى اتخذت هذا الاتجاه وها هي بعض الامثلة التي تؤيد وجهة نظري •

١ ــ روما : مذبح كنيسة القدس يوحنا لاتران التي بدىء في إنشائها عام ٣١٣ م كان في الطرف الغربي •

٢ ــ روما : مذبح بازيليكا القديس بطرس الكبرى الاولى (٣٢٤ ــ ٣٣٠ م) كان في الطرف الغربي •

٣ ــ القدس : أبنية قسطنطين في كنيسة القيامة كانت تتألف من

بازيليكا مدخلها من الشرق ومحرابها في الطرف الغربي خلفه فناء وعلى جانبه الغربي كنيسة القيامة .

٤ ــ روما : مذبح كنيسة سان لورنزو فوري لي مورا كما بناها قسطنطين عام ٣٣٥ م وكان في الجانب الغربي .

٥ ــ القسطنطينية : كنيسة الرسل بناها قسطنطين عام ٣٣٧ م .

٦ ــ صــور : كنيسة قسطنطين التي يصف يوسيفيوس مدخلها الثلاثي وبأن أسفل رواق المدخل فتح باتجاه الشمس المشرقة .

٧ ــ أنطاكية : الكنيسة التي بدأها قسطنطين عام ٣٣١ وأتمها ابنه . يقول سقراط (المتوفى عام ٤٤٠ م) المؤرخ الكنسي في فصل عن غرائب عصره أنه في انطاكية : « ان اتجاه الكنيسة معكوس . فالمذبح ليس في الشرق بل في الغرب » .

٨ ــ بعلبك : وهي أهم مثال على ما نرمي إليه لان بين أيدينا هنا بازيليكا بناها ثيودوسيوس نفسه وفي نفس البلاد (سورية) وبظل نفس الشروط ــ في فناء المعبد . وقد نقبت عن بقاياها البعثة الاثرية الالمانية . كان مدخلها من الشرق ولها ثلاثة مذابح في الطرف الغربي . وقد بني فيما بعد محراب كبير في الطرف الشرقي كمـا حفر مدخل في المحراب الرئيسي الاصلي .

٩ ــ روما : سان باولو فوري لي مورا التي أتمهـا هونوريوس (٣٩٣ ــ ٤٢٣ م) .

١٠ ــ نولا[1] : يقول بولينوس النولاني اثناء حديثه عن البازيليكا التي بناها حوالي عام ٤٠٠ م : « ليس منظر بازيليكا حقا بل هي شيء

---

(١) نولا مدينة في ايطاليا في نابولي Nola وفيها انتصر مرشلوس على هانيبال عام ٢١٤ ق.م . وفيها مات اوغسطوس قيصر عام ١٤ . والنولاني منسوب الى نولا .

مألوف جدا ــ إنها تتجه نحو الشرق » .

يدعي ريفوارا أن بازيليكا اورسيانا (٣٧٠ ــ ٣٩٦ م) في رافينا هي أقدم مثال على الكنيسة ذات المحراب الغربي ويقول فنك بأن هذه العادة شاعت في القرن التالي وهو كلام تؤيــده تعليقات سقراط التي ذكرناها .

ولذلك فان اعتراض (دوسو) ينهار . لكن ربما لم يتحول المعبد إلى كنيسة بل قام بهدمه ثيودوسيوس وبنيت كنيسة جديدة مكانه .واذا كان الامر كذلك فلا شك بأن الكنيسة الجديدة قامت في موقع المعبــد لسببين : الاول « استمراريــة الموقــع » المشــهورة . الثاني : تشابه بعلبك لان لدينا هناك كما رأينا أعلاه كنيسة بناهــا نفس الامبراطور ثيودوسيوس في نفس البلاد سورية وبنفس الظروف في فناء المعبد .

هذه هي إذن « الكنيسة التي كانت في المسجد » أو « الكنيسة الداخلية » كما يسميها ابن عساكر والعمري .

والآن يخبرنا نص ابن شاكر[1] الذي كثر الاستشهاد به بعد الاستيلاء على دمشق بأن المسلمين والمسيحيين « دخلوا من نفس الباب والذي كان باب المعبد الاصلي الكائن في الجهة الجنوبية حيث يقوم الآن المحراب الكبير . وبعدها استدار المسيحيون نحو الغرب باتجاه كنيستهم (وهذا يتوافق مع النظرية المذكورة أعلاه تماما) واستدار المسلمون نحو اليمين للوصول إلى مسجدهم » .

ولكن أين موقعه ؟ مقابل محراب الصحابة التقليدي أي ذلك الجزء

(١) ابن شاكر : عيون التواريخ .

من الرواق المعمد في الجزء الجنوبي من فناء المعبد الذي يمتد شرق المدخل المثلث . وبالاضافة إلى ذلك فان هذه الاجراءات تمنع أي تدخل متبادل. ولقد رأينا أن المسلمين الاوائل لم يكونوا يهتمون بمكان صلاتهم :فمثلا في دهليز بازيليكا قسطنطين في القدس وفي كنيسة المهد في بيت لحم .

ولذلك أصر على أن الوضع في هذه الفترة هو الموضح في الشكل ـ ١٠ وهذا مدعم بنص مشهور لدى العمري (المتوفى ١٣٤٩ م) : « كان لهذه الكنيسة رواق يحيطها من الجهات الاربع »[1] . وهذا دليل آخر ضد القائلين بأن الكنيسة بنيت مقابل الجانب الجنوبي من فناء المعبد .

وإذا كان هناك اعتراض ضد كلمات آركولف القائلة « بني أيضا جامع للمسلمين » بأن ذلك يعني عملية بناء فاني أقترح أن جزء الرواق المعمد المستعمل ربما كان محاطا بجدران من اللبن يجعلها تستحق الوصف « كبناء » كما كان المسجد الاقصى الاول .

هذه الترتيبات بقيت ملائمة لبعض الوقت ولكن عندما أصبح الوليد خليفة ازداد عدد المسلمين وبالتالي أصبح من الواجب إيجاد مكان أوسع والحصول على كامل المنطقة دخل في عملية المساومة مع المسيحيين.

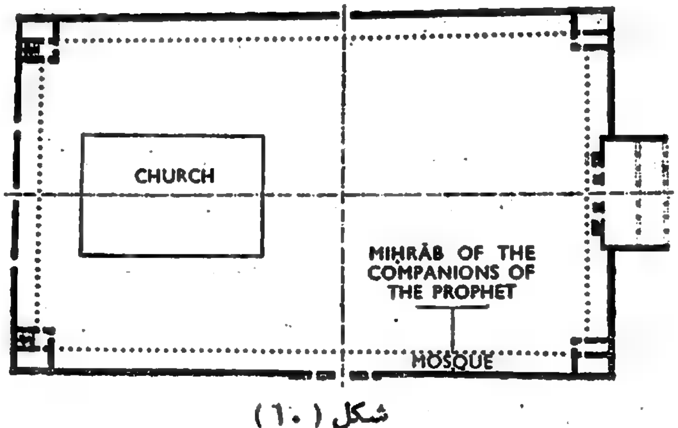
وبعد حيازة المكان هدم الكنيسة والاروقة المعمدة التي تحيط فناء المعبد ولما لم يبق سوى الجدران الاربعة والابراج الركنية الاربعة بدأ

---

(١) العمري : هو ابن فضل الله العمري الدمشقي شهاب الدين احمد بن يحيى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ١٣٤٩ م مسالك الابصار ج ١ ص ١٨٩ ط مصر ١٩٢٤ .

ببناء الحرم والاروقة المحيطة بالصحن .

وبهذا يستقيم كل نص حول هذا الموضوع حتى الجزء الاعظم من رواية ابن عساكر وابن جبير . لان المطلوب في الحقيقة فقط هو استبدال فناء المعبد بالكنيسة ليصبح التوافق تاما ومن الممكن حسب المخطط الموجود في الشكل ــ ١٠ ــ أن تقول أن فناء المعبد ــ لا الكنيسة ــ هو الذي أخذ المسلمون نصفه الشرقي واحتفظ المسيحيون بنصفه الغربي الذي يناسبهم تماما وأبقى على ملكيتهم لكنيستهم لمدة ٧٠ عاما حتى



شكل (١٠)

دمشق ــ وضع المعبد والكنيسة من ٦٣٥ إلى ٧٠٥

استولى الوليد على الفناء بكامله . وبالاضافة إلى ذلك فان شروط المعاهدة التي رآها الواقدي والتي تنص على احتفاظ المسيحيين بجميع كنائسهم لم تخرق أبدا .

ونستطيع الآن وبكل سهولة أن نتصور كيف ظهرت نظرية « اقتسام الكنيسة » من هذا الوضع . لان الفناء بكامله تحول إلى المسجد الكبير وكان جزء منه موقعا للكنيسة .

الأصول المعمارية للمسجد الكبير

اصول المخطط :

استقر المسـلمون في العراق كما رأينـا سابقا فوق مواقع خالية وانشأوا المدن (مثل البصر والكوفة) بما في ذلك إنشاء المساجد أيضا . أما في سورية فقد استولوا على الكنائس أو اقتسـموها واستعملوها كمساجد . وهناك أسباب تدعونا للاعتقاد بأن المسجد الكبير في دمشق هو أول مسجد بنوه في سورية باستثناء المسجد الاقصى الثاني الـذي ينسب أحيانا إلى عبد الملك بن مروان . ومن هنا تنبع أهمية المسجد الكبير في دمشق . وكما رأينا أنه لا يشبه أية كنيسة في سورية . فمن أين استقى الوليد هذا المخطط ؟

أولا : أعتقد أنه اختار نظام الحرم ذي الاروقـة لان المسلمين في سورية أثناء تحويل الكنائس إلى مساجد ألفوا الحرم من هذا الطراز . ولكن ماذا بشأن الرواق العرضاني والواجهة ؟

حاول ثيرش ربط هذا البناء ببناء « الشالك » أو ردهة القصـر الاوغستيني في القسطنطينية . وهو يقيم نظريته على وصف بروكوبيوس ولكن ثيرش وريختر وهايزنبرغ وسترزيفومسكي لا يوافقون على تأويل ألنص اليوناني . أما إذا رفضنا وصف بروكوبيوس الغامض واستندنا على التمثيل التصويري للبناء الذي يشابه الشالك فسنجد أو واجهـة الاخير وواجهة المسجد الاموي مرتبطان ببعضهما . (الشالك نفسـه

بالطبع اختفى منذ زمن بعيد) ولكن قصر ثيودوريك في رافينا يفترض أن يكون نسخة عنه ولا تزال صورة فسيفسائية له في كنيسة سانت أبو ليناري نوفو (المبني عام ٥١٩ م) في تلك المدينة • حيث نرى بناء ذا واجهة مفتوحة مؤلفة من طبقتين من الاقواس • الفتحات العليا أصغر من السفلى ولكنها أقل من الضعف • الاقواس مغلقة بالستائر تماما كما يقول ابن شاكر عن أقواس مسجد الوليد • وبالاضافة إلى ذلك يوجد رواق عرضاني ذو واجهة ثلاثية الاقوواس وسقف مثلثي الشكل وبجناحين لهما سقف مثلثي أيضا• الواجهة مزينة بالفسيفساء تماما كمافي واجهةالمسجد• فالشبه بينهما ملفت للنظروالفارق الرئيسي بينهما هو أنالرواق العرضاني في الكنيسة لا يهيمن على الاجنحة كما هي الحال في مسجد دمشق •

أما بالنسبة للتناوب بين العمودين والعضادة فان هذا المخطط قد تم تبينه قبل قرنين تقريبا في الجوانب الثلاثة لردهة سانكتا صوفيا التي لم يبق منها للاسف أي شيء حتى الآن • ولكن لدينا مخطط سالزنبرغ (١٨٥٤ م) يرينا عمودين على الجانب الجنوبي لا يزالان في مكانهما ولدينا صورة نشرها (وولف) ترينا أحد الاقسام الرئيسية ، وقد اختفت هذه الرقعة بعد عام ١٨٧٣ م بقليل •

هنالك إذن دلائل لا بأس بها لان نقول : أولا : من المرجح أن واجهه حرم مسجد الوليد مشتقة من واجهة قصر أو بالاحرى من واجهة فناء قصر في القسطنطينية وربما من الشالك • ثانيا : الحرم المثلث الاروقة هو نتيجة معرفة العرب للحرم من هذا النوع لان كثيرا مـن المساجد السورية في ذلك الوقت كانت مجرد كنائس مقلوبة ومستعملة طولانيا • وثالثا : كل ما تبقى ـ شكل وأبعاد المسجد ومكان الابواب ـ ثابتة من قبل في المعبد القديم وحتى مستوى عتبات النوافذ ثابت بقمة الجـدار الجنوبي •

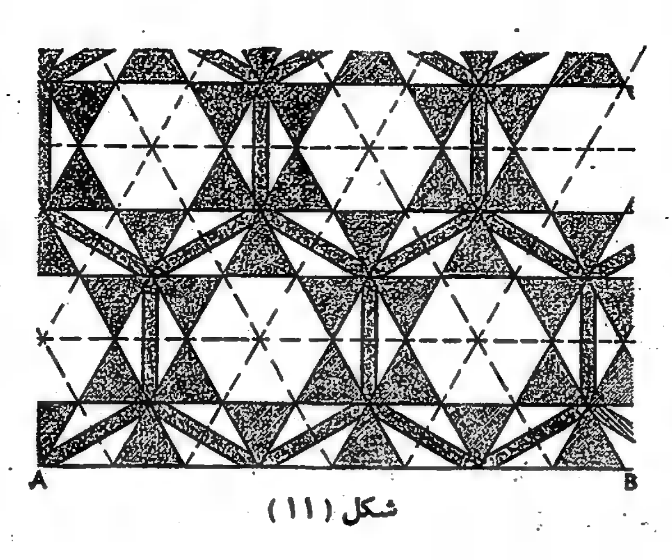
قوس حدوة الحصان الدائري :

إذا أسقطنا من الاعتبار الامثلة المنحوتة في الصخر فان أقدم مثال على القوس الدائري كحدوة الحصان نجده في معمودية مار يعقوب في نصيبين التي بناها ــ حسب النقش اليوناني ــ المطران فولاغيسوس عام ٦٧١ (من العهد السلوقي : عام ٣٥٩ م) . وكل مداخل الابواب ذات ..ض على شكل حدوة الحصان لتساند الاقواس فوقها .

في عام ١٨٤٠ رأى نيكسبير مثالا وقاسه فوجد باعه ٤ أمتار وذلك في قوس محــراب كنيسة في دانا في سورية الشمالية . وبلغت دائــرة القوس ــ التي لم تعد موجودة الآن ــ ٢١٥° . والكنيسة حملت تاريخا يقارب ٤٨٣ م . وكنيســة القــرن الخامس في خوجا كاليسي في آسيا الصغرى ذات محراب له قوس أمامي على شكل حدوة الحصان باعه ٤ أمتار . وكنيسة القرن السادس في الدير الغربي في دير سمعان لها أيضا محراب له قوس أمامي على شكل حدوة الحصان . والموطن الحقيقي لقوس حدوة الحصان في العصور الاسلامية هو اسبانيا وشمال أفريقيا .

مصبعات النوافذ الهندسية :

الزخرفة الهندسية معروفة فيالعصر الروماني لكن استعمالها محدود والتصاميم تنم عموما عن فقر في الخيال . وتطورها الكامل يعود إلــى الاسلام .وقد وصل إلينا مثال روماني قديم رصف فيدوموس أوغسطس من البلاتين الذي بنى معظمه دوميشيان (٨١ ــ ٩٦ م) . هذا التصميم يمكن رسمه كما يلي (شكل ــ ١١) . على خط قاعدي حدد سلسلة من الاقسام المتساوية ، من هذه النقاط : ارسم سلسلة من الخطوط بزاوية

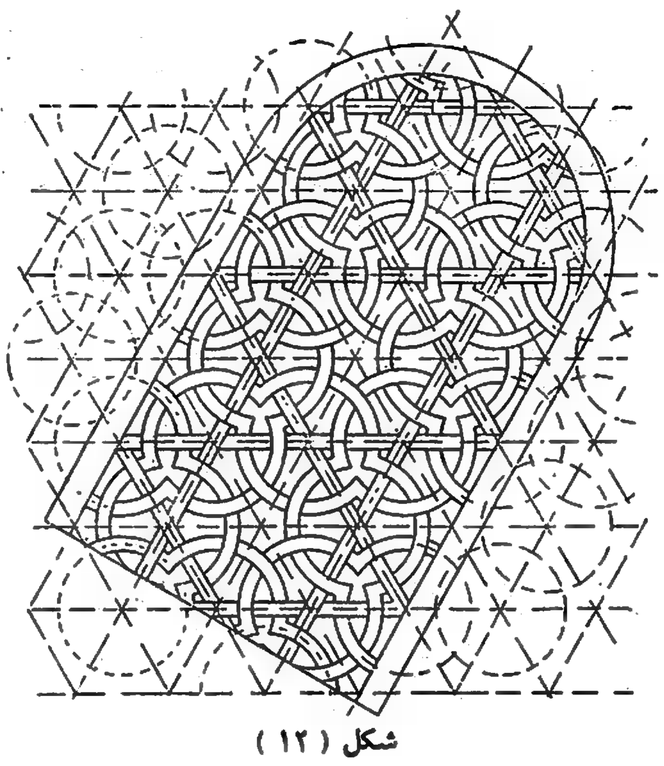


شكل (١١)

روما ــ بيت اوغستانا ــ المصبعات الهندسية

٦٠° وذلك بواسطة المثلث القائم ثم ادر المثلث القائم وكرر الخطوط . ارسم سلسلة من الخطوط موازية للخط القاعدي بشكل يجعلها تقطع تقاطعات المجموعتين السابقتين . يصبح لدينا الآن شبكة من المثلثات متساوية الاضلاع . هذه المثلثات يمكن تجميعها في مجموعات تحوي الواحدة منها ٦ مثلثات وتشكل مسدسات منتظمة . في الرصف الروماني تجمّع هذه المثلثات لتشكل مسدسات (لا تلاصق) بعضها .

دعونا الآن نحلل إحدى مصبعات النوافذ في المسجد . ومرة أخرى نفس الشبكة تحل المشكلة . تجمّع المثلثات المتساوية الاضلاع إلى مجموعات تحوي الواحدة منها ٦ مثلثات لتحصل على مسدسات (متلاصقة) الزوايا وبعدها تتخذ زواياها كمركز ننشىء منها دوائر متقاطعة (شكل ــ ١٢) . وسنرى أن نفس الشبكة من المسدسات تشكل أساس إحدى نوافذ مسجد ابن طولون (لوحة ٧٢ ــ ٥) .



شكل (١٢)

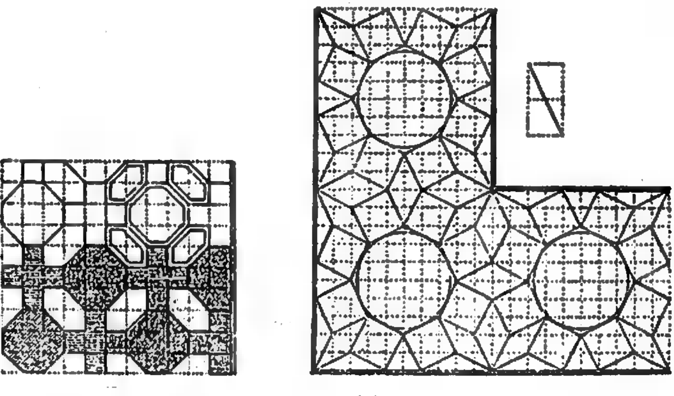
دمشـق ـ المسجد الكبير تحليل مصبعات رخامية

هذه النماذج وغيرها هي جزء مما يمكن تسميته مجموعة المسدس أو مجموعة ٦٠° لان الشبكة التي ترسم عليها مؤلفة عموما من خطوط مرسومة بزاوية ٦٠° .

ولكن مجموعة المثمن عرفت أيضا منذ وقت مبكر . في بعض الامثلة هذه المثمنات متساوية الاضلاع وفي بعضها الآخر تكون الاضلاع طويلة وقصيرة بالتناوب . وبما أن النوع الاخير هـو نتيجة تصاميم بدائية فسأبدأ بها رغم أنها ليست الاقدم . وقد كشفت حفريات جرش أمثلـة

ممتازة من هذا النوع ، وأكثر الانواع بدائية (شكل ــ ١٣ ــ يسار) نراه في كنيسة بروكوبيوس التي تم بناؤها عام ٥٢٦ م وفي كنيسة القديس جورج (٥٢٩ ــ ٥٣٠ م) لماذا كانت أضلاع المثمن طويلة وقصيرة بالتناوب ؟ إن ذلك بسبب طريقة الرسم البدائية : إذ تستخدم قطعة من الورق مخططة بالمربعات ويتم الحصول على المثمنات ــ كما في الشكل ــ برسم الخطوط على أضلاع وأقطار المربع بالتناوب ،

ومثال آخر حيث المثمنات أفضل بكثير دون أن تبلغ الكمال نراه في



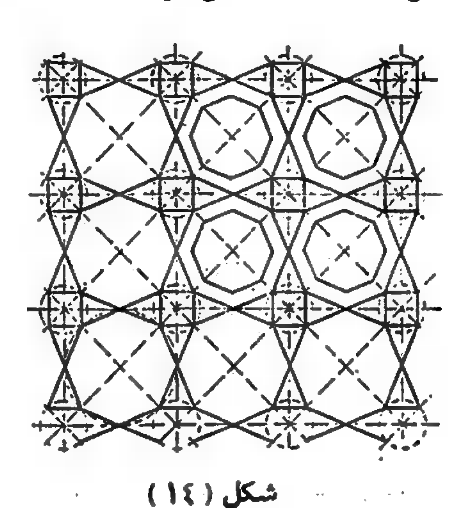
شكل (١٣)

جرش ــ نوعان من الاشكال المثمنة

ثلاث من كنائس جرش (شكل ــ ١٣ يمين) فالمثمنات فيها ذات أضلاع متساوية ولكنها كلها منحرفة قليلا كما نرى في الحال بادارة المثال قليلا ، وإليكم السبب :

لا ترسم الاضلاع الآن على الاضلاع والاقطار كالسابق بل على أقطار زوجين من المربعات ، يؤدي هذا إلى أضلاع متساوية ولكن المثمن منحرف إلى أحد الجوانب وهذا هو سبب الانحراف ،

ولدينا هنا مثال أقدم كثيرا من المثمنات المنتظمة (شكل ــ ١٤) • إنه محفور في السقف الحجري لمذبح المعبد الكبير في تدمر حوالي ٣٦ م والفرق الوحيد هو أن المثمنات تعامل كزخارف محفورة (غائرة) • وهذه

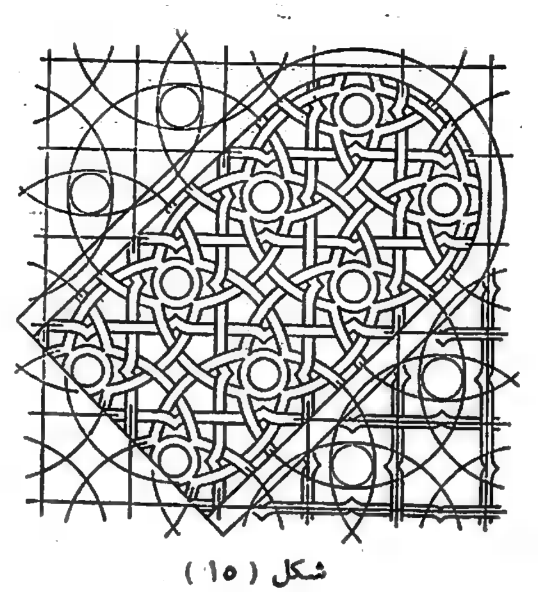


شكل (١٤)

تدمر ــ المعبد الكبير تحليل سقف الهيكل الداخلي

هي الطريقة التي استخدمت لاظهارها • ارسم ٩ مربعات ثم أضف الاقطار وارسم دائرة في كل منها تلامس الاضلاع الاربعة • ثم ارسم في المثمنات ثم ارسم المربعات الصغيرة بوصل زوايا النجوم الداخلية • ونجد نفس التصميم مستخدما في القاهرة بعد (١٢٠٠ سنة) في السقف المحفور لضريح السلطان قلاوون والفرق الوحيد هو أن الفراغ بين المثمنات مزين بمثمن صغير بدلا من المربع الصغير • فهو يبدو اسلاميا تقليديا لدرجة لا يمكن معها الاعتقاد بأن أصله يعود إلى ١٢ قرنا •

ومصبّع النافذة الاخرى يتألف من دمج بسيط للمربعات ودوائر كبيرة متشابكة مرسومة من مراكز المربعات المتناوبة ودوائر صغيرة مرسومة من مراكز المربعات الباقية (شكل ــ ١٥) •



شكل (١٥)

دمشق ــ المسجد الكبير ــ تحليل مصبعة رخامية اخرى

قبة الخزنة :

لا يمكنني إلا الاعتقاد بأن قبة الخزنة ذات صلة بالفسقية القائمة في ردهة الكنائس البيزنطية مثل سانكتا صوفيا وهي « سيل دافق يندفع إلى الهواء من أنبوب برونزي » . وليس من المؤكد أن هذه الفسقية كانت لها ظلة لان الكاتب الوحيد الذي يوحي بذلك هو كاتب مجهول وربما من كتاب القرن العاشر ولكن لا زالت هنا فسقية مظللة في كنيسة سانت ديميتريوس في سالونيكا .

ولكن يبدو أنهذا الدمج للخزنة المقببة والفسقية هواختراع جديد وشائع لان الاصطخري (٩٥١ م) يقول : « وبيت مالهم (اهل اذربيجان) في مسجد الجامع على رسم الشام فان بيوت أموال الشام في مساجدها

فوق الاشخاص الاربعة من اليسار • وبدءا من اليسار قرأ نولدكة « قيصر » وبعدئذ ـ بضم العربية واليونانية الناقصة فوق الصورة الثالثة ـ حصل على « خوسدرويس » وهي الصيغة اليونانية لكلمة « خسرو » الفارسية • وبالاضافة إلى ذلك فان على رأس هذا الشخص تاجا من نفس النوع الذي يظهر على النقود الساسانية المتأخرة مثل خسرو الثاني (٥٩٠ ـ ٦٢٩م) • وبعد ذلك قرأ الكلمة العربية فوق الصورة الرابعة « نجاشي » • وقد أكد ذلك اكتشاف جوسين وسافينياك للكلمة اليونانية الموافقة لها « نيجوس » و عرض نولدكه نتائج اكتشافاته على ليتمان الذي قرأ النقش فوق الصورة الثانية « رودوريكوس » •

وهكذا نجد أن الشخصيات الاربعة المقصودة هي بالطبع الامبراطور البيزنطي وملك اسبانيا القوطي الغربي والامبراطور الساساني ونجاشي الحبشة أي الملوك الذين غلبهم الاسلام أو جردهم من بعض ممتلكاتهم •

يرتدي الامبراطور البيزنطي ثيابه الامبراطورية وعلى رأسه العمامة• أما الامبراطور الساساني فبدون لحية وله شعر أجعد كثيف يرتدي ثوبا أرجوانيا وحذاء أرجوانيا وعلى رأسه التاج الساساني • ويرتدي نجاشي الحبشة ثوبا فاتح اللون وبطرشيلا داكنا •

يشير نولدكه إلى أن رودريك تولى السلطة عام ٧١٠ وقتل في معركة غواداليت في ١٩ تموز عام ٧١١ وبالتالي فان الصورة رسمت بعد موته في نفس السنة ولكن قبل سقوط الاسرة الاموية عام ٧٥٠م •

هل يمكن تحديد التاريخ بشكل أدق ؟ حاول بريشيم بكل براعة أن يقوم بذلك • فهو يشير إلى أن الشخصيات الستة في المجموعة التي تؤلف تشكيلة وفق قواعد محددة ثلاثة منها في المقدمة وثلاثة مقحمة بينها

غرفة الحمام :

الصورة التي على قلب المقص الجنوبي للعقد المتصالب المنكسر هي في حالة أفضل من باقي الصور . وإلى اليسار امرأة نصف مستلقية وفي الوسط امرأة تمسك بطفل صغير بين ذراعيها ، وإلى اليمين عند الباب تدخل امرأة أخرى . والنسوة الثلاث عاريات مما يوحي بفكرة الحمام الحـــار .

غرفة الحمام الحار :

تشبه القبة قبة السماء وكان القصد من تصويرها كذلك لان كواكب نصف الكرة الارضية الشمالي الرئيسية مرســومة فيها بالاضافة إلى إشارات البروج.ويوجد في الوسط الدب الاكبر والدب الاصغر يفصلهما ذيل التنين . كما توجد إلى اليمين صورة شخص يمد ذراعيه وقد تعرف فيه جوسين وسافينياك على شخصية أندروميدا وعنــد قدميها والدتها كاسيوبيا .

ودائرة قصير عمرة مهمة جدا لانها أقدم صورة وصلت إلينا لتصوير قبة السماء على سطح نصف كروي بدلا من سطح مستوي ولكن الفنان لا بد وأنه نسخ صورة على طاولة أمامه وأثناء هذه العملية قلب المواقع من اليمين إلى اليسار .

تاريخ قصير عمرة :

يقوم تحديد تاريخ قصير عمرة على النقوش الثنائية فاللغة القائمة فوق مجموعة صور الاشخاص في الجانب الجنوبي من الجدار الغربي . تتألف من اربع كلمات يونانية وأربع كلمات عربية مشكلة اربع ثنائيات

العقد الاسطواني مقسم بواسطة أشرطة مزخرفة بالاوراق النباتية إلى ١٧ معينا تلامس نقاطها الخارجية النهايات وبذلك تشكل ١٢ مثلثا . وكل من هذه المعينات والمثلثات مملوءة بموضوع واحد : رجل ــ امرأة حيوان ــ طائر . على الجانب الشمالي (لوحة ــ ٢٢) نجد :

الصف الاول : اختفى .

الصف الثاني : لقلق ــ غزال ــ غزال آخر .

الصف الثالث : رجل بملابس رومانية يعزف على الناي ــ راقصة ترتدي تنورة طويلة بيضاء ذات حاشية حمراء عريضة وفوقها رداء روماني متجمع عند الخصر بنطاق أبيض .

الصف الرابع : مالك الحزين ؟ ــ حيوان (ربما حمار وحشي) ــ حيوان آخر .

وقمة العقد مملوءة بصف من التماثيل النصفية أحدها رجل أبيض الشعر . ويقترح (ويخوف) أنها تمثل المراحل الثلاثة للانسان .

على الجانب الايمن نجد :

الصف الاول : حيوان صغير ــ أفعى ملتفة ومستعدة للانقضاض ــ حيوان صغير كالقطة التي تراقب فريستها .

الصف الثاني : لقلق ــ حمار وحشي ــ وعل ــ طائر له عرف .

الصف الثالث : قرد أو دب جالس علــى كرسي يعزف على آلــة وتريه ــ قرد يقف على قائمتيه الخلفيتين ويصفق بكفي قائمتيه الاماميتين (رجل برداء قصير ــ يشبه العرب في الاحتفالات) .

الصف الرابع : لقلق آخر ــ غزال ــ جمل يهرول ــ غرنوق .

وتوجد على الجدار الشمالي آثار منظر صيد يمكن رؤية بقيته ـ الاحسن حالا ـ وتوجد على النصف الشرقي من الجدار الجنوبي • وفوق ذلك على اليمين النافذة الواقعة تحت القنطرة صورة امرأة مع بقايا كلمة (شعر) مكتوبة إلى جانبها • وعلى الجانب الآخر من النافذة توجد بقايا صورتين أخريين مع كلمتي (تاريخ) و (فلسفة) مكتوبتين تحتها •

الاقواس المستعرضة :

هنا نجد الزخارف في صورة أفضل • فعلى النصف الجنوبي من القوس الشرقي يوجد موسيقي جالس يعزف على آلة وترية ذات مقبض طويل • وفوقه ـ حتى رأس القوس ـ توجد صورة امرأة عارية باستثناء تنورة ضيقة وذراعاها فوق رأسها • واختفى الجزء الموجود فوق الرأس قبل رؤية موسيل للصورة ولكنني أقترح أن المرأة تحمل رصيعة عليها صورة كما في تدمر حيث نرى تصاميم ضيقة مشابهة في قبر حجري يعرف باسم المغارة الجديدة • وتوجد على النصف الجنوبي من القوس الغربي صورة راقصة عارية تقوم بحركات افعوانية متماوجة بذراعيها وجسمها •

غرفة ملابس الحمام ـ :

تحتوي هذه الغرفة على أفضل الصور المتبقية في البناء •

ويوجد في قلب المقص فوق الباب المؤدي من القاعة الرئيسية كيوبيد ناشرا جناحيه وباسطا يديه فوق شخصين مستلقيين على الارض • كما توجد في وسط قلب المقص المقابل نافذة وإلى يسارها امرأة جالسة وذقنها ترتكز على يدها (الصورة جيدة) وهي تنظر نحو رجل (الصورة باهتة) في الجانب الآخر من النافذة •

في الموقع نفسه بل.في مرسمه بعد عدة أشهر من صوره وملاحظاته ونسخ ألوانه ولوحتين أو ثلاثة انتزعت من الجدران وشحنت .

وسأصف الآن اللوحات الرئيسية .

الليوان :

الجدران فوق الموقع الذي تشغله الافاريز الرخامية وحتى نصف ارتفاعها تقريبا مزخرفة لتقليد الستائر المعلقة . ويوجد في مؤخرة الليوان ملك على عرش حوله هالة يجلس تحت مظلة ترتكز على عمودين مزخرفين حلزونيا وعلى جانبهما الامامي المقوس نقش كوفي مكتوب بالابيض فوق خلفية زرقاء يدعو بالرحمة لاحد الاشخاص لم يصلنا اسمه . وعلى يمين العرش يوجد رجل يلوح بمروحة . ليس هناك أي شك في أن هذا الليوان المواجه مباشرة للمدخل كان مخصصا للعرش .

بين الليوان والركن الجنوبي الغربي ـ حسب رواية موسيل ـ توجد صورة امرأة وفوقها على اليمين كلمة نيخ = نصر . هذه الصورة ـ كما أشرنا سابقاً ـ ذات علاقة مباشـرة بالصورة الشهيرة لاعـداء الاسلام المغلوبين . وإلى جانبها في الطرف الجنوبي للجدار الغربي . كانت هناك صورة تتألف من ستة أشخاص يرتدون الملابس الفاخرة : ثلاثة في المقدمة وأيديهم مفتوحة كرمز للاستسـلام والثلاثة الآخرون خلفهم . وفوق الاربعة الاولى كانت توجد بقايا مـن النقوش كتبت بالعربية واليونانية . ولما كان تأريخ البناء يعتمد على تفسير هذهالنقوش فعلينا العودة إلى هذه الصورة مرة أخرى . وإلى يمين هذه الصورة كان يوجد منظر استحمام والى اليمين أيضا مجموعة مـن الرجال تمارس التمارين الرياضية .

فرصفت بألواح رخامية سمكها ٣ سم وجـدت بقايا منها أثناء زيارات موسيل • وكانت كـل الغرف ذات افريز رخامي وأثناء زيارة موسيل الثانية كان رخام الجدار الشرقي للقاعة الرئيسية لا يزال سليما حتـى ارتفاع ٨٠ سم فوق الانقاض وفوق هذا المستوى كانت الجدران مكسوة بالجص ومزينة باللوحات المشهورة والتي يمكن إدراك أهميتها عندمـا يتذكر المرء بأنه « لا يعرف وجود زخرفة فريسكو بمثل هذا الاتساع في أي بناء دنيوي (علماني) قبل الفن الرومي المسيحي في القرن الحادي عشر » • فالالوان مستعملة فوق كسوة الملاط التي تبلغ سماكتها ٣ سم طبقا لاقوال الكيميائيين النمساويين (ونزل وبولاك) فبالامكان اعتبارها فريسكو وليس طلاء لانه لا أثر لوجود أية مادة غروية فيها • وقد تم الحصول على تشكيلة الالوان بالشكل التالي :

الازرق البراق : الصبغ اللازوردي الطبيعي •

البني الغامق : أحمر ناتج على ما يبدو من أكسيد الحديد فوقه طبقة رقيقة من الصبغ اللازوردي •

البني الفاتح : مركبات مغرية تحتوي على الحديد •

أصفر داكن : نفس المركبات مخلوطة مع الكلس •

الاخضـر الزرقاوي : أصفر مغطـى بطبقة خفيفـة من الصبغ الـلازوردي •

تأثرت لوحات قاعة الاستقبال أكثر من لوحات الغرف الاخرى • ولذلك فاننا نعتمد في اغلب الحالات فيمعلوماتنا حولها على لوحات ميليخ وهذا ما يدعو للاسف لان لوحاته التي يمكن مقارنتها (أي لوحات غرف الحمام الثلاثة) تبدو نسخا زائفة عن الاصل لان لوحاته لم يكتمل رسمها

ويؤدي الباب على يميننا إلى ـ F ـ وهي غرفة تختلف تماما عن الغرف السابقة ، حيث تتألف من مربع مركزي مـع نفس مساحة ـ E ـ تقريبا ذات ارتداد قبوي (محرابي) إلى الشمال والجنـوب مغطى بقناطر اسطوانية تنتهي بنصف قبة ، أما الجزء المركزي فهو مغطى بقبة ترتكز على أركان مثلثية كروية بينها وبين القبة افريز حجري ارتفاعه ٣٠ سم مزين بحلية شارية مثلثة ، وتخترق القبة أربع نوافذ صغيرة ترتكز على هذا الافريز .

وتخترق جدران هذه الغرف الثلاثة حفـر ، الغرض منها تثبيت الالواح الرخامية ، وتبرز الاجزاءالعليا من الجدران كما في الغرفةالسابقة وفي كل ركن منها أنبوب مياه ، وتوجد تحت الارضية بقايا التـدفئة المركزية ، ويبدو تحت في الركن البعيد من ـ G ـ جزئيا فوق مستوى الارضية ما يعتقد أنه كان الفرن .

إغراض البناء :

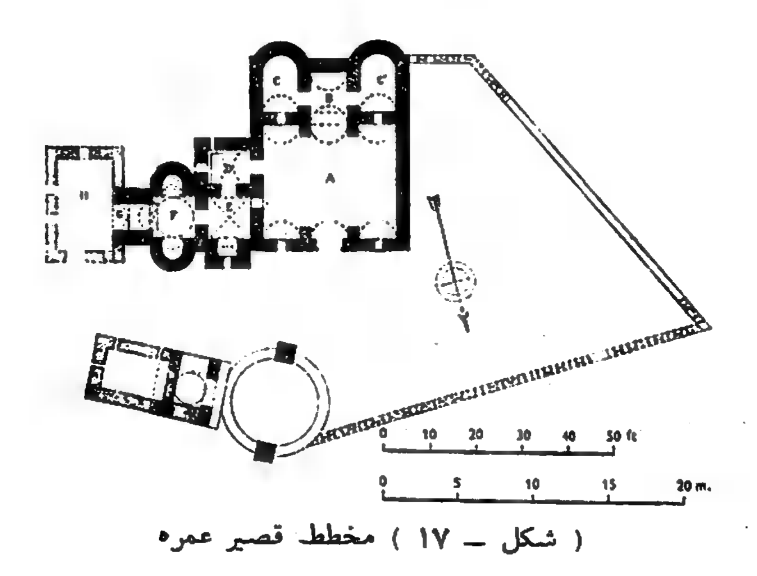
إن مقارنة هذا البناء مع حمامين صغيرين في عبده والرحبه في جنوب بئر السبع كافية لترينا أن الملحق في الجانب الشرقي من القاعة الرئيسية ـ A ـ كان حماما ، فلا بد أن الغرفة الاولـى ـ D ـ بدكتيها والخالية من الانابيب كانت غرفة الملابس في الحـمام ، والغرفة الثانية ـ E ـ التي تحتوي على أنابيب الماء والتدفئة المركزية تحت الارضية كانت غرفةالحمام والغرفة المقببة المجاورة للفرن هيغرفة الحمام الساخن .

الديكور : لوحات الفريسكو الشهيرة :

رأينا أن الغرف الصغيرة المحيطة بالليوان والتي كانت ذات أرضية من الفسيفساء بقيت بحالة جيدة حتى أيام موسيل ، أما الغرف الاخرى

خلف القسم المركزي يوجد ليوان ــ B ــ يشابه المحراب رغم نهايته المربعة . مغطى بالعقد الاسطواني الذي ينخفض تاجه حوالي ٢ر٥ سم عن العقود المستعرضة . وتوجد نافذة صغيرة متوضعة في أعلى مكان ممكن في كل طرف من العقود الاسطوانية الثلاثة ونافذتان اخريان على أعلى الجدار الشرقي مما يجعل العدد الاجمالي ثمانية . ويؤدي الباب الصغير القائم إلى يمين ويسار الليوان إلى الغرفتين الجانبيتين المسقوفتين بعقد اسطواني ينتهي بنصف قبة فوق الجزء المحرابي . انهما تفتقران الى النوافذ ويأتيهما النور من البابين . هاتان الغرفتان مخصصتان للراحة بينما القاعة الرئيسية مخصصة للاستقبالات الرسمية .

وجد موسيل ــ ومثله جوسين وسافينياك ــ أن هذه الغرف رصفت بفسيفساء تمثل زخارف نباتية ويؤدي الباب الموجود في الجانب الشرقي من القاعة الرئيسية (شكل ــ ١٧) إلى الغرفة المقنــطرة الاسطوانية الصغيرة ــ D ــ (٢ر٨٣×٢ر٣ مترا) التي تضاء بنافذة عالية علــى الجانب الشرقي تحت القنطرة . وتوجد باتجاه الجدار الشرقي والجدار الجنوبي دكة صغيرة مغطاة بالجص يبلغ ارتفاعها ٣٠ سم . وقد نقّب موسيل في هذه الغرفة والغرفتين التاليتين فوجد عضائد ارتفاعها ٧٠ سم لا بد وأنها حملت الارضية الاصلية أما الفراغ بينها فهو لنقــل الهواء الحار . والتدفئة المركزية في حمامات كركلا مبنية بهذه الطريقة . ويؤدي الباب في الجانب الشمالي إلى غرفة ذات قناطر متصالبة منكسرة مساحتها ٢ر٨٣ م٢ ذات ليوان مقنطر اسطواني في الجانب الاقصى . وتبرز على مستوى حوالي ٢ مترا فوق الارض الجدران بمقدار ١٢ سم وتوجد في كل ركن تحت هذا البروز أربعة أنابيب ماء فخارية قطرها حوالي ٧ سم تأتي من السقف . ويجري الماء عند السقف بأقنية اسمنتية .



(شكل ـ ١٧) مخطط قصير عمره

مسدود في الوقت الحاضر ويؤدي إلى فناء مكشوف ـ H ـ • يتوافق الجدار الخارجي مع الجدار الداخلي دون أيـة محاولة لاخفاء المنحنى الخارجي للعقود المقنطرة برفع الجدران الخارجية أو أية وسيلة أخرى •

أول شيء يصادفه المرء عند الدخول هو نظام القناطر الغريب : ينقسم الفناء الداخلي المربع تقريبا بواسطة قوسين مستعرضين إلى ثلاثة أقسام متساوية العرض تقريبا ترتكز عليها ثلاثة عقود اسطوانية (لوحة ـ ٢١ ب) • وتبرز الاقواس المستعرضة من أطبار منخفضة وهي ملفتة للنظر لانها مدببة قليلا وبهذا تكون دليلا لاقدم الامثلة عن هذه الميزة في العمارة الاسلامية •

أقيمت الاقواس من مركزين يفصلهما $\frac{١}{١٠}$ الـذراع • وهناك ارتداد قدره حوالي ٥ سم عند الخصر الغرض منه ـ بلا ريب ـ حمل الهيـكل الخشبي •

نظام سنراه ثانية في المشتى ولكن بصيغة أكثر تطورا .

التقسيم الثلاثي المتناظر المتتابع :

نجد هنا ان هذا التقسيم الثلاثي يعطينا القاعة الرئيسية والجناحين المستطيلين ، والتقسيم الثلاثي الثاني يعطينا القاعة البازيليكية وإلى الغرب منها غرفة كبيرة وإلى شمالها وجنوبها غرفتان أصغر منها . ويستمر هذا التقسيم في المشتى إلى أبعد من ذلك (شكل ـ ٢٣) .

وجد شنايدر في بناء الجزء المرمم من برج مدخل البوابة جزءا من لوح رخامي عليه كتابة كوفية باسم الوليد وهو مبني رأسا على عقب . ولسوء الحظ فان التاريخ عليها مفقود .

يقوم قصير عمرة في الصحراء على حافة وادي بطم يبعد حوالي ٥٠ ميلا إلى الشرق من عمان . اكتشفه موسيل في عام ١٨٩٨م وقضى فيه اسبوعين في عام ١٩٠١ بصحبته الفنان النمساوي ميليخ الذي رسم بعض اللوحات الفنية .

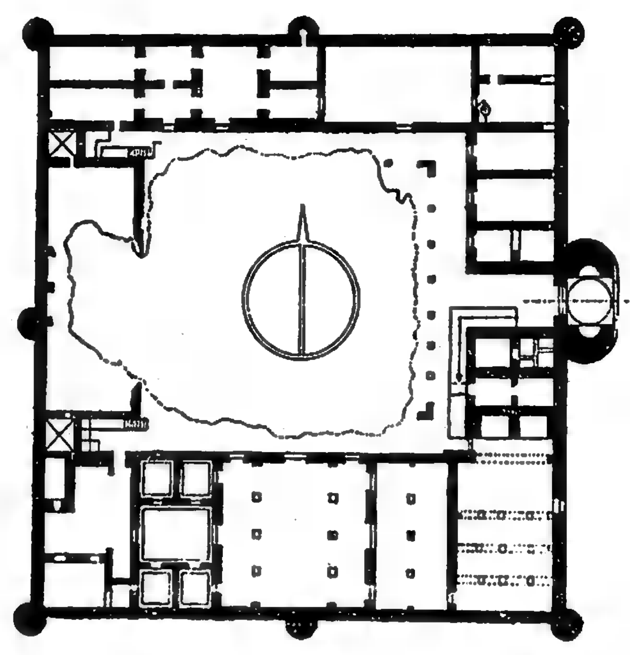
وهو بناء صغير نسبيا (لوحة ـ ٢١ ـ آ) وقد عرّفه جيدا فان بيرشيم « كمربع للصيد والاستحمام معا » مبني من الحجر الكلسي الأحمر الصلب المأخوذ من التلال المجاورة ويتألف من عنصرين رئيسيين : (١) قاعة الاستقبال المستطيلة ـ A ـ التي يبلغ طولها ٨½ مترا وعرضها ٧½ مترا تقريبا والايوان ـ B ـ المنفتح نحو الجنوب على جانبيه غرفتان ـ C - CI ـ بنيت على شكل الاقبية وبدون نوافذ (٢) يتألف الحمام من ثلاث غرف صغيرة ـ F, E, D ـ الاولى مسقوفة بعقد اسطواني والثانية بعقد متصالب منكسر ـ والثالثة مسقوفة بقبة (شكل ١٧) وإلى الشرق من الغرفة الاخيرة ممر اسطواني مقنطر ـ G ـ

عمقها ١٩٫٤٢ متر أي بعمق المسجد وعرضها ٤٢٫٢٠ مترا . وعلى مايبدو أن الغرض منها احتفالي لان زخارفها رائعة جدا . ويتألف الجزء الاوسط من قاعة ضخمة مساحتها حوالي ٢٠م٢ لها مدخل ثلاثي الابواب من الفناء ومقسمة إلى رواق مركزي عريض ورواقين ضيقين بصفين من الدعائم وجدت أربع عضائد جدارية منها وقاعدة عمود واحد فقط . ويشير الموقع ايضا إلى وجود ثلاثة في كل صف لان الارض والجدران كانت أصلا مغطاتين بألواح رخامية وجدت بقاياها في مواقعها حول قواعد الجدران . ويصل هذا الرخام الى ارتفاع معين بعده تصبح الجدران مزينة بالفسيفساء بينما الارض تغطى بقطع زجاجية صغيرة بعضها ملون وبعضها أبيض مطعم بأوراق الذهب .

وعلى جانبي القاعة توجد غرفتان مستطيلتان بنفس الحجم والشكل (١٩٫٤٢ مترا في العمق و٩٫٧ مترا في العرض) مدخل كل منهما من القاعة وذو أبواب ثلاثة ولايمكن دخولهما من الفناء مباشرة وتقسم الغرفة المستطيلة الشرقية بصف مركزي من ثلاثة أعمدة إلى رواقين . ولم يعثر إلا على قاعدتي عمودين في موقعهما . ويؤدي الباب الموجود قرب باب الجدار الخلفي لهذه الغرفة إلى رواق المسجد الخلفي .

بينما تتألف الغرفة المستطيلة الغربية من مجموعة من خمسة غرف : غرفة مركزية كبيرة وإلى شمالها وجنوبها غرفتان صغيرتان مفتوحتان عليها . أرض هذه الغرف كلها مرصوفة بالفسيفساء وهي محفوظة بحالة جيدة وكل تصاميمها هندسية . وتصميم الغرفة الجنوبية الشرقية فيها يذكرنا بسجادة حواشيها دوائر تتناوب مع المعينات . كما أن فسيفساء عتبات الابواب محفوظة بنفس الدرجة من الجودة .

يجب أن نذكر بكل وضوح أنه في تصميم هذا المستطيل تم بني



(شكل ـ ١٦) المنيا ـ مخطط قصر الوليد المقياس ١/٣٠ م

دائرية • على الجانب الداخلي يوجد مدخل مقوس عرضه ٣ر٧٥ مترا ينفتح على قائمة عرضها ٧ أمتار وطولها ٥ر١١ مترا وهذه أدت بدورها إلى الفناء المركزي مباشرة • وأظهرت الحفريات رواقا حول هذا الفناء مرتكز على ٤ عضائد ركنية على شكل ل و ٦ أعمدة في كل جانب •

في الركن الجنوبي الغربي أقيم مسجد عرضه ١ر١٣ مترا وعمقه ٤٢ر١٩ مترا (نسبة ٣ إلى ٢ تقريبا) وقد اكتشف محرابه عام ١٩٣٧ • ويمكن الدخول إليه من ركن الفناء المركزي من الخارج مباشرة بواسطة بوابة خلفية تماما كما نجد في قصر الحير الشرقي •

والجزء الاوسط من الجانب الجنوبي مشغول بمجموعة من الغرف

الفصل الرابع

أعمال الوليد (تابع)

قصر المنيا على بحيرة طبرية

هذا القصر القريب من الشاطىء الشمالي الشرقي للبحيرة والذي يبعد أقل من ميل عن طبغا كان أول من تحراه (مادر) الذي بدأ حفرياته عام ١٩٣٢م . وقام شنايدر بأعمال أخرى عام ١٩٣٦ كما قـام شنايدر وبتريك ـ وايفنارد بحفريات أخرى عام ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩م .

وهو شكل مستطيل شديد الشبه ـ كما يقول شنايدر ـ بالحصون الرومانية على الحدود الاردنية . وله برج مستدير في كل ركن وبرج نصف دائري ، قطره ٤ أمتار في وسط كل جانب ما عدا الجانب الشرقي حيث يوجد للمدخل برج غريب عرضه ٥ر١٦ مترا . أما الجدران التي تبلغ سماكتها ٤ر١ مترا فهي متقنة البناء من أحجار كلسية محلية فـوق أساس ناتىء من البازلت ارتفاعه ٤٠ سم . وهي لا تزال باقية في بعض المواضع حتى ارتفاع ٥ر٤ مترا ولا بد أنه كان لها زخارف عالية على الشرفات المنتظمة والمحاولة للعثور على واحدة منها سليمة بين الانقاض . يتألف المدخل من غرفة مساحتها ٦م٢ قائمة بين برجين ربع دائريين . وهناك تجويف نصف دائري إلى اليمين واليسار وفي الاعلى قبة مزينة بافريز وزهريات جميلة الحفر ولا شك أنها ارتكزت على أعمدة مثلثية

بمحاذاة الجانب الغربي من البناء أروقة على اعمدة رخام واساطين »[1] .

٤ ــ الحرم ذو الاروقة الثلاثة : هذه الميــزة ــ كالميزات الثلاث المذكورة سابقا ــ تشاهد في قصر الحير وفي المسجد في قصر الحلابات وفي الرقة وفي المسجد خارج جدران بالس (١٠٧١م) وفي ديار بكــر (نهاية القرن الحادي عشر) وفي مسجد درعا (التاريخ غير مؤكد) .

★ ★ ★

---

(١) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ط ليدن اولى ١٨٧٧، ص ١٩٩ .

في الاروقة المعمدة حول الصحن وهذه هي حال أقدم جزء من الرواق الشرقي لمسجد حماة الكبير . وأعتقد أن الاروقة الحالية حول الصحن في مسجد قرطبة الكبير حيث يتناوب عمودان مع كل عضادة ــ رغم حداثتها ــ تمثل نظاما سابقا مشتقا من مسجد دمشق الكبير .

والميزات الخاصة ذات الاثر الدائم هي التالية : (١) المداخل المحورية الثلاثة (٢) الجناح العرضاني (٣) تناوب العضائد مع الاعمدة (٤) الحرم ذي الاروقة الثلاثة .

١ ــ المداخل المحورية الثلاثة : من شبه المؤكد أنه كانت هناك ثلاثة مداخل محورية في المسجد الكبير في قصر الحير وحران وعلى الارجح في مسجد حماة الكبير في أيامه الاولى . وعدد كبير من الامثلة لهذه الميزة تشاهد في القاهرة (مثلا مسجد الحاكم ٩٩٠ ــ ١٠١٣م) ومسجد الصالح طلائع (١١٦٠م) ومسجد بيبرس الاول (١٣٣٩ ــ ١٣٤٠م) ومسجد زين الدين في بولاق (١٤٤٩م) ومسجد ازبك (١٤٧٤م) .

٢ ــ الجناح العرضاني : يوجد جناح عرضاني مشابه في قصر الحير (٧٢٩م) ومسجد ديار بكر الكبير (نهاية القرن الحادي عشر) وفي درعا (التاريخ غير مؤكد) وفي افيسوس . ويظهر للمرة الاولى في الجامع الازهر في مصر (٩٧٠ ــ ٩٧٢م) ثم في مسجد الحاكم (٩٩٠ ــ ١٠١٣م) ومسجد بيبرس (١٢٦٦ ــ ١٢٦٩م) .

٣ ــ تناوب العضائد مع الاعمدة : هذه الميزة تشاهد في قصر الحير (٧٢٩م) وفي حماة وفي قرطبة . كما تشاهد أيضا في الحرم الشريف في القدس قبل عام ٩٨٥م لان المقدسي يقول : « وعلى الصحن من الميمنة

وهـو بيت مال مرصص السطح وعليـه باب حديـد وهو على تسعة أساطين »[1] . وعندما يتحدث المقدسي عن العـادات الخاصة بسورية يؤكد ذلك قائلا : « في كل قصبة بيت مال بالجامع معلق على أعمدة »[2].

ويمكن ذكر الكثير من هذه الابنية : بيت المال في جامع عمرو في الفسطاط الذي بني عام ٩٩ هـ (٧١٧ ـ ٧١٨ م) وكان حجرة مقببـة ومرتكزة على عشرة أعمدة . وبناء آخر لا زال قائما في الجامع الكبير في حماة وأبنية أخرى رآها ابن جبير في عام ١١٨٤ في الجامع الكبير في حران .

اثر المسجد الكبير :

كان أثر المسجد الكبير بدمشق كبيرا ولقد اعتبره المسـلمون في القرون الوسطى أحد عجائب العالم .

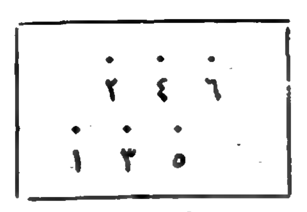
فالمسجد الكبير في حلب مثلا والذي بناه الخليفة سليمان بن عبد الملك كان على ما يبدو نسخة من مسجد دمشق الكبير . وكذلك مسجد قصر الحير رغم أنه أصغر بكثير الا أن التقليد واضح فيه لان حرمه ذو ثلاثة أروقة وجناح عرضاني ومنور كما أن الاعمدة تتناوب مع العضائد

---

(١) الاصطخري : المسـالك والممالك وهو ابو اسحاق ابراهيم بـن محمد الفارسي من القرن العاشر الميلادي ص ١٨٤ ط ليدن ١٩٢٧ .

(٢) المقدسي : احسن التقاويم في معرفة الاقاليـم : وهو (عبد الله محمد بن احمد بن ابي بكر يكنى بالبشاري شمس الدين) عاش حوالي عام ٩٨٥ م ٣٨٠ هـ ط ليدن ١٨٧٧ ص ١٨٣ ط اولى .

في الخلفية كما نرى في الشكل المجاور .



وأربعة من الشخصيات الستة محددة كما يلي :
القيصر (الامبراطور البيزنطي) .
رودوريك (ملك اسبانيا القوطي الغربي) .
كسرى (امبراطور فارس) .
نجاشي (ملك الحبشة) .

ومن ذلك يستنتج أن الاشخاص في المقدمة ملوك امبراطوريات عظمى بينما الاشخاص في الخلفية يمثلون حكام ممالك بسيطة .

(٢) في كل صف يتوافق ترتيب الشخصيات من اليسار إلى اليمين مع الموقع الجغرافي من الغرب إلى الشرق . اذا كان هذا الاستنتاج صحيحا فلا بد أن رقم (٥) هو ملك عظيم إلى الشرق من فارس ورقم (٦) هو حاكم من الدرجة الثانية يسكن إلى الشرق من الحبشة .

حدث في بداية القرن الثامن أن قتيبة[١] استأنف حملته ضد الشعوب التركية في أواسط آسيا والتي توقفت أثناء الحرب الاهلية بين علي

(١) هو قتيبة بن مسلم الباهلي من كبار الفاتحين المسلمين فتح مناطق اواسط آسيا من صفانيان وتخارستان وبخارى وما وراء النهر وسجستان وسمرقند وفرغانة وقتل في فتنة الجنود عام ٧١٦ م .

ومعاوية وحقق انتصارين عظيمين الاول عام ٧٠٧ بين مرو وبخارى والآخر في عام ٧١٢م تحت أسوار سمرقند ويشير أن امبراطور الصين كان يعتبر في ذلك الوقت حاكما على كل آسيا الوسطى وهو الذي استعان به كل حكام العنصر التركي ضد العرب • ولذلك فان رقم (٥) يمكن أن يكون المقصود منه هو امبراطور الصين وفي هذه الحالة يمكن أن يمثل رقم (٦) أحد ملوك الاتراك الذين طالتهم حملة قتيبة أو ملك الهندوس (داهر) الذي مات في السند عام ٧١٢ م • ويتابع فان بريشيم قائلا :

« إذا فكر المرء في هذا التزامن ، إذا تذكر الانسان أن كل هذه الانتصارات التي سمت بالامويين الى القمة تتابعت كلها أثناء حكم الوليد الاول وأن هذا الخليفة كان بناءا عظيما وقطن البلقاء (شرق الاردن) فمن المغري جدا أن ينسب المرء قصير عمرة إليه وفي هذه الحالة تكون هذه الصورة تخليدا لانتصاراته ، ويكون القيصر أحد الاباطرة البيزنطيين الضعفاء الذي هزمة مسلمة (أحد قواد الوليد) في آسيا الصغرى وصورة كسرى لا تمثل يزدجرد نفسه بل أحد أحفاده الذين حاولوا في نهاية القرن السابع استعادة الامبراطورية الساسانية وهي القضية التي ألقت الوثائق الصينية بعض الضوء عليها •

أما بالنسبة للنجاشي فاننا نفتقر إلى المعلومات الدقيقة عنه إذا كانت وجهة نظر فان بريشيم مقبولة وكانت الصورة تمثل انتصارات الوليد فليس من شك إذن أنه مؤسس البناء وهذا يعني أن البناء قد تم بين ٧١١ (معركة غواداليت) أو ٧١٢ (انتصار سمرقند) وبين ٧١٥ (عام وفاته) •

اغراض قصير عمرة :

امتازت حياة الفاتحين العرب من كل النواحي بكرههم للاماكن

المغلقة الضيقة في المدن وحياة الاستقرار وهذا هو سبب تبنيهم للجابية وهي المعسكر المديني للامراء الغساسنة الذي يبعد حوالي ١٥ ميلا إلى الجنوب الشرقي من القنيطرة واتخذوا منه مقرا للحكومة العربية عند فتح الشام .

الحياة نصف البدوية للخلفاء الامويين المتأخرين :

كانت ميول وطبائع الخلفاء الامويين بدوية أيضـا رغم أن معاوية ـ مؤسس العائلة المالكة ـ اتخذ من دمشق عاصمة له وأقـام فيها فان خلفاءه اكتفوا بزيارتها عندما تطلبت مراسم الدولة حضورهم . أما في الاوقات الاخرى وكما يقـول فان بريشيم « كنوع مـن أصالة الحياة البدوية » فانهم فضلوا البادية أو المراعي الربيعية عندما تلبس الصحراء حلة خضراء بعد الامطار الشتوية[1] .

أما واحة دومة الجندل ومدينة دمشق الرائعة فكانت مذكرا لهم بشحوب وقشعريرة الحميات التي أصابتهم في حدائـق الغوطة كما قال الشاعر الاخطل[2] .

---

(١) ان اتهام المؤلف الامويين بالطبائع البدوية اتهام باطل وقد خفت عليه او تجاهل الاسباب الحقيقية وراء تـرك الخلفاء الامويين المتأخريـن لعاصمتهم . منها خوف من الاصابة بالاوبئة التي انتشـرت او هربا من مؤامرات القيصر .

(٢) الاخطل غياث التغلبي شاعـر اموي نصراني (٦٤٠ ـ ٧١٠) م

سقى الله منـه دار سلمى بريـه   على أن سلمى ليس يشفى سقيمها

مـن العربيات البوادي ولم تكن   تلوحهـا حمّى دمشـق ومـومهـا

ديوان الاخطل ص ١٢١ ط ثانية دار المشرق بيروت تحقيق الاب انطوان صالحاني اليسوعي .

ويعبر الجاحظ[1] (المتوفى عام ٨٦٠ م) عن نفس الشعور وكذلك الشاعر البدوي ابن ميادة[2] .

وهكذا فان كل خليفة أموي وأفراد أسرته ومشاهير رجال الدولة اقتنى قصرا في البادية . هذه المعسكرات التي مما لا شك فيه بدأت كخيام وتزايدت فيها الرفاهية فتطورت إلى معسكرات مستقرة وفي النهاية لابنية دائمة . كما استخدموا في بعض الاحوال الحصون الثغور على الحدود البيزنطية الرومانية ــ مثل الازرق ــ التي تشكل جزءا من خط الابنية الحدودية من خليج العقبة إلى دمشق ومن دمشق إلى تدمر . وكانت الحيرة في البادية كمجمع سكني نصف متنقل ونصف مستقر .

كان خليفة معاوية (يزيد / ٦٨٠ ــ ٦٨٣ م) ابنا لامرأة بدوية يحب الخمر والرقص ومات في حوارين . كما أن مروان الاول عاش بين البدو . أما الوليد الاول فقد كان دائم التنقل ولكن أماكن إقامته المختلفة كانت دائما على أطراف الصحراء (خناصير على بعد ٥٥ كم جنوب شرق حلب / القريتين / عسيس : تل سيس على بعد ١٠٥ كم جنوب شرق دمشق حيث لا تزال بقايا قصر مساحته ٧٠ م^2 تقريبا ومسجد وحمام) . كما أن عمر أيضا اختار خناصير كمكان مفضل للاقامة . وكان يزيد الثاني (٧٢٠ ــ ٧٢٤ م) حفيدا لامرأة بدوية وكان يحب أن يقضي أوقاته في الموقر (بين المشتى وقصر حرانه يلهو مع الشعراء والمغنيات والراقصات والموسيقيين) .

---

(١) الجاحظ (ابو عثمان) كاتب واديب عربي من مواليد البصرة (٧٧٥ ــ ٨٦٨) م .

(٢) شعر ابن ميادة ــ جمع وتحقيق د. حنا جميل حداد وقدري الحكيم ط دمشق ١٩٨٢ ص ١٩٢/١٩٣ .

عاش هشام (٧٢٤ ـــ ٧٤٣ م) في قصر الحير في الصحراء على بعد ٥٠ كم من تدمر . أما خليفته الخليــع الوليد الثاني (٧٤٣ ـــ ٧٤٤ م) فقد عاش في الصحراء لمدة ٢٠ عاما قبل أن يصبح خليفة ويقول ابن عبد ربه بصراحة أن هذا الخليفة لم تطأ قدماه المدينــة حتى أثناء خلافته . ويتحدث الطبري عن ذهابه الى الازرق (على بعد ١٢ ميلا إلى الشرق من قصير عمرة) وبقائه هناك بجانب ماء يقال له الاغدق الذي يسمى أحيانا الغدف في كتاب الاغاني مما جعل موسيل يطابقه مع وادي غدف الذي يقوم عليه قصر التوبة . وعند مقتله كان يقيم في قصر البخرا وهو حصن روماني على طرف الصحراء على بعد حوالي ١٥ ميلا إلى الجنوب الغربي من تدمر . وانتقلت الخلافة بعد موته إلى ابن عمه يزيد الثالث الذي كان عليه أن يعد بالاقامة في دمشق وأن « لا أضع حجرا على حجر ولا لبنة على لبنة »[1] لان الخزانة قد أفرغتها نشاطات سابقيه العمرانية المسرفة . وبعد ست سنوات انتهت الخلافة الاموية وانتهت معها السيادة العربية .

وحي صور الفريسكو :

من الواضح أن صور قصير عمرة لا تعود إلى الفن البيزنطي ... بل إلى الفن الهيلينستي المتأخر في سورية وتعد شواهد بليغة على حيويته. ولا يوجد بين أيدينا فقط التجسيدات الاربعة والتاريخ والفلسفة والنصر (المسماة باليونانية) ـــ بل أيضا كيوبيد المجنح ـــ والصورة المضلعة على شكل معين على ســقف الغرفة المقنطر تذكــرنا بالمعالجــة المفضلة للمرصوفات الفسيفسائية مثلا في مأدبا على بعد أقل من ٥٠ ميلا عن قصير

(١) من نص الخطبة التي خطبها يزيد بن الوليد عند استلامه الخلافة بعد مقتل الوليد بن يزيد عام ١٢٦ هـ انظر الطبري ج ٧ ص ٢٦٩ طبعة دار المعارف بمصر (الطبعة الثانية) .

عمرة كما اكتشفت مرصوفة فسيفسائية في القدس عام ١٨٩٢ م وأخرى على جبل الزيتـون ورابعة اكتشفت حديثـا في أنطاكية . وإنني ألفت الانتباه الآن إلى التشابه بين زي الفتاة الراقصة على سقف غرفة ملابس الحمام (لوحة ٢٢) وزي النسر المجنح في أحد القبور في تدمر . فالزي متطابق في الحالتين : تنورة طويلة مليئة وتصل إلى القدمين تقريبا وثوب خارجي يصل إلى الركبة فقط ومثبت قرب الخصر معبعب مـن الاعلى وبدون أكمام ملفوف حول الرقبة (إنه بالفعل ثوب يوناني) مما يكشف عن نقطة الكتف .

وكل الذين عالجوا هـذه الصـور اعترفوا بأنها مشتقة من الفن الهيلينستي في سورية : برونو ، سترزغوفسكي . فان بريشيم ، دييل ، هرتزفلد ،دالتون . حيث يقول الاخير :

« إنها ترينا كيف أن الفن الاسلامي في الفترة المبكرة اعتمد بصورة مطلقة على الفن الهيلينستي في سورية وما بين النهرين .

وترينا ــ ثانيا ــ مدى التصاق الفن الهيلينستي في جنـوب غرب آسيا بالحياة وبتقاليده القديمة .... فهنـا ــ كما في القسطنطينية ــ حافظت المناظر القديمة على شعبيتها وأصبحت مفضلة لدى الامراء المترفين في الدين الجديد . ويقول دييز :

« ان الزخرفة التصويرية في قصير عمرة ترينـا المدة الطويلة التي بقيت خلالها التقاليد الهيلينستية نشيطة ومدى قدرتها على الابداع الرائع في بداية القرن الثامن . وسلسلة صور قصير عمرة هي الابداع العظيم الاخير ذي الطابع الدنيوي الذي خلفه لنا الفن الهيلينستي . إن حسية القدماء البهيجة تتوهج هنا ثانية وللمرة الاخيرة » .

إلا أن هناك أثرا يشير للمؤثرات الفارسية وهو فكرة الصورة التي ترينا أعداء الاسلام . فهذه الصورة ــ كما أثبت هرتزفلد ــ مشتقةبدون شك من النموذج الفارسي حيث يقدم ملوك الارض ولاءهم لخسرو على عرشه . مثل هذه الصورة كانت موجودة لان ياقوت يشير إليها قائلا : « وبقرميسين الدكان الذي اجتمع عليه ملوك الارض ، منع . فغفور ملك الصين . وخاقان ملك الترك ، وداهر ملك الهند . وقيصر ملك الروم عند كسرى أبرويز » (١) .

إذن لا بد من الاعتراف بأن فكرة هذه الصــورة فارسية . ولكن المساحة الاجمالية التي تشغلها ليست سوى $\frac{١}{٢٠}$ من مساحة الصــور وبالاضافة إلى ذلك فليس التنفيذ فارسيا فقط وانما الفكرة ايضا . وهكذا نرى أن العنصر الفارسي في الزخرفة بأكملها أقل من $\frac{١}{٤٠}$.

جنسية الفنانين :

أشار برونر وبيكر إلى أن النقوش العربية قام بها شخص معتاد على الكتابة بالعربية بينما أحرف النقوش اليونانية خططت أولا بلون غامق وملئت فيما بعد . ولذلك فهما يستنتجان أن الفنانين عرفوا العربية أكثر من اليونانية ولكن ليس لدرجة الاتقان لانهم كتبوا كلمة « كسرى » كما سمعوها لا بقواعد كتابتها . كما أن بيكر يشير أيضا إلى أن استعمال كلمة قيصر للامبراطور البيزنطي لم يؤخذ من التقاليد البيزنطية ولا يمكن أن يستخدمها أي يوناني . ويستطيع المرء الذهاب إلى أبعد من ذلك ويقول أن أي يوناني لم يكن ليفهم هذا التعبير لان بروكوبيوس الذي كتب في القرن السادس قال : « كان كسرى ســاخطا لان المبعوثين لم

---

(١) ياقوت الحموي مادة قرميسين من كتابه معجم البلدان .

يرسلهم إليه القيصر . » ثم يشعر بأنه مضطر للاضافة على سبيل التعليل: « لان الفرس هكذا يدعون ملك الرومان » . وتوصل برونو وبيكر إلى الاستنتاج القائل بأن الفنانين كانوا إما سوريين واما من الارمن .

مسالة مشروعية التصوير في الاسلام :

إن صورة قصير عمرة تثير ــ بطريقة ملحة ــ مسألة مشروعية أو عدم مشروعية التصوير في الاسلام . فحتى في عصرنا الحاضر يسود الاعتقاد بأن التصوير ممنوع صراحة بنصوص قرآنية ولكن هذا خطأ شائع لانه لا توجد مثل هذه النصوص كما أشار المستشرقون مرارا . ورأينا سابقا أن الصور وجدت في الكعبة عندما أعيد بناؤها في عام ٦٠٨م ويقول الازرقي : (١)

فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله (ﷺ) فارسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب فجاء بماء زمزم ثم امر بثوب وأمر بطمس تلك الصور ، فطمست . قال ووضع كفيه على صورة عيسى بن مريم وامه عليهما السلام وقال : امحوا جميع الصور الا ما تحت يدي فرفع يديه عن عيس بن مريم وامه ، وبقيت الصورة حتى هدم الكعبة عام ٦٨٣ م . ويروى أنه عند الاستيلاء على المدائن عام ٦٣٧ م استعمل الايوان الكبير لاقامة صلاة الجمعة رغم أنه كان مزينا بالصور التي بقيت حتى عام٨٩٧ .

ولكن بالرغم من عدم ذكر القرآن لذلك فان الاحاديث النبوية عامة معادية لكل تجسيد لاشكال الحياة فمتى حدث هذا التغيير ؟ الطريف في

---

(١) الازرقي محمد بن عبد الله بن احمد اخبار مكة وما فيها من الآثار ج ١ : ١٦٥ .

الامر أن يأتينا الدليل من المسيحية . شـاهدنا الاول هو جون بطريق دمشق وأحد المعادين جدا لتحطيم التماثيل الدينية والذي احتل مكانا بارزا في بلاط الخلفاء الامويين المتأخرين عمل بين عام ٧٠٠ وعام ٧٥٠ م . وكان حسن الاطـلاع على تعاليم الاسلام واستشـهاداته من القرآن باليونانية في بعض الاحيان كانت ترجمات حرفية للاصل . وبالرغم من انه كان معاديا لحركة تحطيم التماثيل الدينية وهجومه على صك عام ٧٢٦م ومهاجمته للمسلمين أيضا فانه لم يتهمهم أبدا بالعداء للصور في حين أن ذلك يمكن أن يكون أول مآخذه عليهم لو أنه كان من معتقداتهم .ولكن حوالي نهاية القرن الثامن نجد تيودور أبو قرة مطران حران يختلف عن جون لانه يضم المسلمين إلى الشعوب المعارضة للتصوير قائلا : « هؤلاء الذين يؤكدون أن من يرسم شيء حي سيجبر يوم البعث على أن ينفخ فيه روحا » . وعلى الرغم أنه لا يذكر المسلمين بالاسم فان الاستشهاد الحرفي تقريبا بحديث شريف يثبت أنهم المعنيون بهذا القول كما يثبت ايضا أن الحديث المذكور كان شائعا بين المسلمين في عصره . وهكذا فان الحركة قد ظهرت في الاسلام حوالي نهاية القرن الثامن .

كيف ظهر هذا الشعور ؟ أعتقد أنه عائد من جهة إلى بغض شعوب الساميين لتمثيل الانسان بالنحت والتصوير وبشـكل جزئي إلى التأثير الداخلي للاسرائيليات التي دخلت التراث الاسلامي بتأثير اشخاص مثل (١) كعب الاحبار اليهودي اليمني الشهير الذي أسلم عام ٦٣٨ م والذي يعتبر غالبا كمرجع للقصص والروايات، (٢) عبد الله بن عباس أحد مفسري القرآن الاوائل [١] ، (٣) أبو هريرة ، (٤) وهب بن منبه .

---

(١) كان عبد الله بن عباس على اطلاع واسع بمعنى الكتب الدينية اليهودية وروى الكثير من الاسرائيليات .

وفي النهاية هناك ـ كأساس سيكيولوجي يعود ـ للشعور الشائع بين الشعوب والقائل إن صانع الصورة أو اللوحة ينقل جزءا من شخصيته إلى موضوع الصورة أو اللوحة وبهذه الواسطة يكتسب شيئا من سبطرة السحر على الشخص المرسوم . هذا الشعور كان في يوم من الايام شائعا جـــدا .

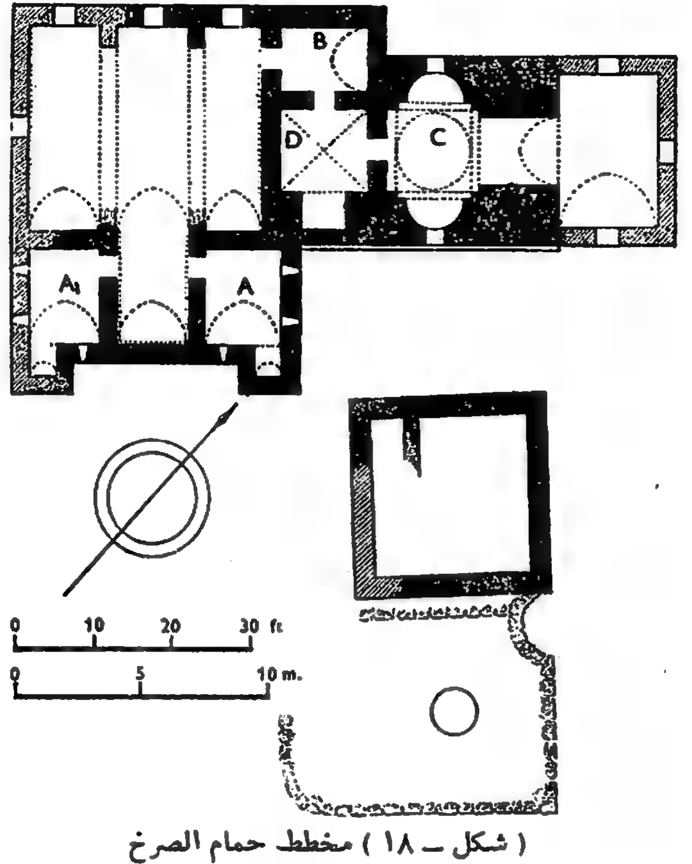
ولذلك فان استنتاجي هو أن المنع ضد التصوير لم يكن موجودا في العصر الاسلامي المبكر ولكنه تنامى بالتدريج حوالي نهاية القرن الثامن للاسباب المذكورة أعلاه .

★ ★ ★

حمـــام الصـــرح

حمام الصرح اكتشفه هـ • ك • تبلر عضو بعثة تنقيب برنستون في عام ١٩٠٥ م • إنه شديد الشبه بقصير عمرة من حيث المخطط والترتيب ولكنه يخلق انطباعا أفضـــل كثيرا بفضل حجارته المنحوتـــة ذات اللون الكهرماني (لوحة ٢٣ ــ ب والشكل ١٨) • والحمـــام ــ مثل قصير عمرة ــ مؤلف من عنصرين رئيسيين : (١) غرفة استقبال مستطيلة طولها ٨ر٩٥ مترا وعرضها ٧ر٩٠ متر (مقابل ٨ر٧٥ × ٧ر٥٨) ذات ليوان يقابل استراحة العرش في قصير عمرة منفتح على الجانب الجنوبي الشرقي وعلى جانبية غرفتان ــ A و AI ــ كل منهما مضاءة بثلاث نوافذ تشبه الكوى السهمية تنفتح على الجانب الجنوبي • (٢) حمام ذو ثلاث غرف الاولى مسقوفة بعقد اسطواني والثانية مسقوفة بعقد مستعرض والثالثة مسقوفة بقبة ــ وهو نفس ترتيب العقود الموجودة في قصير عمرة والفرق الوحيد هو أننا للخروج من ــ B ــ علينـــا الالتفاف نحو اليمـــين بدلا من اليســـار •

كان من المتوقع أن يجد المرء مدخل غرفة الاستقبال في وسط الجانب المواجه للايوان ولكن الحال ليس كذلك • ورغم أن ثلثي الجدار على هذا الجانب كان قائما عندما رأيته لاول مرة عام ١٩٢٦ فلم يكن هناك أي مدخل ولذلك فعلى الارجح أن المدخل كان في وسط الجانب الجنوبي الغربي • ولكن هذا الجدار تهدم وأية بقايا من عتبـــة الباب لا بد من وجودها تحت الانقاض • وغرفة الاستقبال ــ كما هي الحال في قصير عمرة ــ مسقوفة بثلاثة عقود اســطوانية متوازيـــة ترتكز على أقواس مستعرضة تبرز من عضائد جدارية منخفضة • ويحيط بالبناء إطار زخرفي



(شكل ـ ١٨) مخطط حمام الصرخ

ربع دائري على ارتفاع ٥ر٥ مترا . وينفتح باب صغير في كل جانب من الايوان على الغرفة الجانبية المسقوفة بالعقد الاسطواني الحجري .

ويقود باب صغير في الركن الشمالي مـن القاعة الرئيسية إلى غرفة ملابس الحمام المسقوفة بعقد اسطواني ـ B ـ يبلغ طولها ٤٥ر٣ مترا وعرضها ٥ر٢ مترا ومن هذه الغرفة يؤدي باب آخر إلى غرفة الحمـام ـ D ـ المسقوفة بعقد متصالب منكسر ويبلغ طولها ٤ر٣ مترا وعرضها ٢ر٢ مترا ، وعلى جانبها الاقصى ـ تماما كما في قصير عمرة ـ ارتداد ذو

سقف اسطواني عرضه ١٧ر١ مترا وعمقه ٢ر١ مترا . ويؤدي باب في وسط الجدار الشمالي الشرقي إلى غرفة الحمام الحار ـ C ـ المسقوفة بقبة قائمة على أركان مثلثية كروية . وهناك ارتداد نصف دائري على اليمين واليسار مغطى بنصف قبة مبنية بشكل جميل وفقرات عقودها تنتشر من كتلة القاعدة الموضوعة فوق النافذة الصغيرة في الخلف .

والقبة ـ المغطاة باسمنت أحمر فاتح مضاد للماء ـ مبنية من ١٩ ضلعا بارزا مؤلفة من قطع صلصالية وتدية رفيعة طويلة عديمة اللون كما أن الفراغات بين الاضلاع مملوءة أيضا بالصلصال . ويبدو أن القبة كانت ذات ثماني نوافذ دائرية تحولت الآن إلى ثقوب كبيرة .

الزخرفة :

ليس هناك أية زخارف محفورة ولكن تبلر رأى ـ على قواعد عقد الارتداد الصغير في ـ D ـ بقايا رصيعة ملونة احتوت على تمثال نصفي بالحجم الطبيعي ، ولم يكن بالامكان رؤية أكثر من أحد الكتفين وجزء من الرقبة وأذن فيها قرط وجزء من غطاء الرأس . بينما كانت الخلفية صفراء والثوب على الكتف أحمر غامق كما أن غطاء الرأس ملون ويمثل قماشا أبيض شفافا واضح الشفافية . ولكن حسب رواية موسيل هناك أكثر من ذلك لانه يقول :

« على كل الجدران السليمة بقايا صور ومن الواضح أن كل الغرف كانت ملونة . ولسوء الحظ زالت كل آثار الالوان » .

التاريخ :

حمام الصرح (الحمام وقاعة الاستقبال) مثل قصير عمرة ـ لا بد وأنه شيد لامير أموي لاستعمالاته الخاصة . ولكن بناءه كان أكثر اتقانا وأقواسه أكثر تدببا (فصل المراكز $\frac{١}{٧}$ ـ $\frac{١}{٦}$ من الباع) وإن كانت أقل تدببا من أقواس قصر المشتى ($\frac{١}{٥}$) ولذلك أقول أنه يعتبر وسطا بينهما أي حوالي ٧٢٥ ـ ٧٣٠ م .

الاصول المعمارية لقصير عمرة

حمامات مماثلة في عبدة ورحبة :

باستثناء قاعة الاستقبال فان الحمام في قصير عمرة وحمام الشرخ متوافقة مع النموذج المحلي الذي بقي منه مثالان من عصر ما قبل الاسلام. فلدينا في رحبه[1] نفس التتابع من نظام الاقبية : عقد متصالب منكسر ثم قبة . وفي الجدران نفس الاخاديد للانابيب كما في قصير عمرة وحمام الشرخ وفي الطرف الاقصى من الغرفة المدببة يوجد نفس الممر ذو العقد السردابي . وهو ما ينطبق على (عبدة) أيضاً .

هذان الحمامان ـ كما يقول جوسين وسافينياك ـ يعود تاريخهما إلى العصر المسيحي قبل الفتح العربي الذي هدم كل مدن النقب وبما أن الجزء الاعظم من شواهد الاضرحة التي نبشت في مدافن الخلاصة ورحبه وسبيتا يعود إلى الجزء الثاني من القرن السادس فانهما يؤرخان هذه الحمامات في نفس الفترة أيضا .

اما التجديد في قصير عمرة وحمام الشرخ فهو إضافة قاعة الاستقبال مما مكن الخليفة من اتخاذهما كبلاط سري له .

---

(١) رحبه بضم اوله وسكون ثانيه وباء موحدة قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة . ليس بعدها عمارة (اي من جمال عمارتها) معجم البلدان لياقوت الحموي .

المخطط :

يقارن سترزيفوفسكي ـ معتمدا على مخطـط موسيل ـ غرفة الاستقبال إلى كنيسة ذات ثلاثة أجنحة ومحراب وغرف جانبية . هـذا الانطباع الذي يعطيه المخطط خاطىء لان المرء لا يتصور أبدا ثلاثة أجنحة عندما يقف في قاعة الاستقبال . فالانطباع المحسوس لدى المرء هو فناء داخلي واضح شبه مربع دون أجنحة والانقسام الثلاثي ينحصر في الاقبية فوق رأسـه .

القوس المدبب :

الاقواس المدبية هي ذلك النوع من الاقواس الذي يتشكل نصفاه من مركز مختلف . وكلما قل انفصال هذين المركزين كلما قلت حـدة القوس . وظهور القوس المدبب في قصير عمرة وحمام الشرخ برهان على أولوية الشرق فيه لانه لا وجود لامثلة أوربية معروفة قبل نهاية القرن الحادي عشر أو بداية القرن الثاني عشر . ولكن هـ . ك . بتلر يلفت الانتباه إلى مثال شرقي سابق على الاسلام في قصر ابن وردان (على بعد حوالي ٥٠ ميلا شمال شرقي حمص) المبني بين عام ٥٦١ وعام ٥٦٤ . ويقول أن قوس المحراب والاقواس الاربعة التي تحمل القبة تتشكل من نقطتين على بعد ٣٠ سم عن جانبي المركز أي أن المسافة بينهما ٦٠ سم . ولكن هرتزفلد يسائل ذلك . غير أن صورة أخذها تيفينية ونشرها هرتزفلد نفسه تظهر بوضوح أن أحد الاقواس الحاملة للقبة مدبب وبالاضافة إلى ذلك فان المسافة بين المركزين التي يقول بتلر أنها ٦٠ سم مساوية تقريبا لتلك الموجودة في قصير عمرة حيث الاقـواس بنفس المقياس (١٨ر٦

مقابل ٦٦ر٦ مترا) • ومقابل ذلك هناك الحقيقة التي يعترف بها هرتزفلد والقائلة أن القوس المدبب غيرمعروف على الاطلاق في العمارة الساسانية•

وحتى لو تجاهلنا قصر ابن وردان فان الاعمدة المدببة في قصير عمرة وحمام الشرخ تبرر قولنا أن هذه الميزة ذات أصل سوري • وهذا الرأي تعززه الحقيقة القائلة أن تطور القوس المدبب ــ أي الانفصال التدريجي للمركزين ــ يمكن ملاحظته هناك • ففي حمام الشرخ ــ على سبيل المثال ــ يزداد فصل المركزين من $\frac{١}{٧}$ إلى $\frac{١}{٦}$ من الباع وفي المشتى إلى $\frac{١}{٥}$ وهي النسبة التي تصبح تقريبا ثابتة بعد ذلك كما في حالة بئر الرملة •

وهكذا يكون لدينا :

المكان	جزء البناء	التاريخ	المسافة بين المركزين
قصر ابن وردان	كنيسة : أعمدة تحت القبة	٥٦١ — ٥٦٤ م	١/١١ الباع
دمشق	المسجد الكبير : الهيكل المقوس في الطرف الشمالي من الجناح العرضاني	٧٠٥ — ٧١٥	١/١٠
قصير عمرة	قاعة الاستقبال : الاقواس المستعرضة	٧١٢ — ٧١٥	١/١٠
حمام الشرخ	غرفة الحمام الساخن	٧٢٥ — ٧٣٠	١/٧ - ١/٦
قصر الحير	المسجد	٧٢٨ — ٧٢٩	مدبب قليلا
المشتى	جزء الاقبية	٧٤٤	١/٥
قصر التوبة	جزء الاقبية	٧٤٤	١/٥
الرقة	بوابة بغداد	٧٧٢	قوس رباعي المركز
الاخيضر	قبو القاعة الكبرى	الربع الاخير من القرن الثامن	مدبب قليلا
الرملة	قوس البئر	٧٨٩	١/٥
الفسطاط	نوافذ مسجد عمرو	٨٢٧	مدبب قليلا
سامراء	باب العامة	٨٣٦	قوس رباعي المركز
الفسطاط	ارتدادات مقياس النيل	٨٦١ — ٨٦٢	١/٣
القيروان	المسجد الكبير : الاقواس المحيطة بالجناح العرضاني وأقواس القبة	٨٦٢	مدبب مع ارتداد بسيط
القاهرة	مسجد ابن طولون	٨٧٦ — ٨٧٩	غير منتظم حوالي ١/٤ قائم على ركائز

وهكذا نرى أن الامثلة السبعة الاولى لهذه الميزة تظهر في سورية.

البروز المنخفض للاقواس المستعرضة :

هذه ميزة محلية خالصة والتي يمكن مشاهدة أمثلة عنها في كنيسة طفى وحصن قصير الحلابات وفي الكنيسة الشرقية في أم الجمال وفي قصر المطران في بصرى وفي كنيسة ومنزل في اللبين في اللجاة .

نظام الاقبية في قاعة الاستقبال :

من الناحية المعمارية أهم ميزة في قصير عمرة هي نظام الاقبية حيث السقف محمول على نقاط ثابتة بشكل يجعل الجدران بينها مجرد ستائر يمكن حفرها حسب الرغبة للحصول على الاضاءة الجانبية . وعندما يمتد القبو الاسطواني البسيط من أول القاعة إلى آخرها تصبح الاضاءة المناسبة صعبة بسبب الحاجة للتلاؤم مع بروز العقد المستمر . ولذلك سأحاول تقصي هذا الحل الغريب إلى أول أنواعه ــ النوع الذي لا تتحقق فيه إمكانية الاضاءة الجانبية بحيث لا تبعد الاقواس عن بعضها أكثر من مترين وتكون مسقوفة بالالواح الحجرية دون أن تنقلب إلى قبو ــ هذا النوع البدائي يظهر في أوائل العصر المسيحي في المقابر النبطية التي لا تزال قائمة في جبل حوران جنوب شرق دمشق .

هذه المنطقة لا تنتج أية أخشاب ولذلك فان الحاجة المادية أصبحت أم الاختراع وأدت إلى اكتشاف طرق بناء جديدة . وهكذا أصبح القوس العنصر الرئيسي في البناء وأصبحت سلسلة الاقواس المتوازية التي تحمل ألواح السقف الحجرية تستعمل لتغطية معظم القاعات . ويمكن أن نسأل لماذا لم يجعلوا القوس مستمرا وبالتالي يبنون قبوا اسطوانيا ؟ أعتقد أن الجواب هو التالي : بما أنهم لم يكونوا مطلعين على طريقة بلاد ما بين

النهرين في بناء القبو بدون قالب خشبي فان كمية الخشب المطلوبة للقالب الخشبي كبيرة وهذه مسألة خطيرة ٠ ولكن ببناء سلسلة من الاقواس بالامكان استعمال نفس القالب الخشبي للقوس عدة مرات مباشرة بعد بناءالقوس ٠

هذا النظام لا بد أنه كان معروفا في بلاد ما بين النهرين وفي وقت مبكر لانه يوجد في قصر حاثرا الذي بناه البارثيـون[١] الذين انتهى عصرهم في عام ٢٢٦ م ٠

والكل يـدرك أنها نظرة معمارية ثاقبـة جعلت الفرس يدركون إمكانياته ويدفعون به إلى تطوره الكامل ٠ انهم مسؤولون عن تجديدين: (١) انهم أول من استعمل الاقبية الاسطوانية لوصل الاقواس المستعرضة وتحقيق إمكانية تباعدها أكثر ٠ (٢) وضعوا نوافذ في كل من الستائر الجدارية بين هذه الاقواس وبالتالي حصلوا على الاضـاءة الجانبية ٠ وأقدم مثال على ذلك بناء قائم من هذا النوع يعرف بطاق ايوان في خرق قرب ديزفول في خوزستان ٠ والجزء المتبقي يتألف من رواق طوله حوالي ٥٠ مترا وعرضه حوالي تسع أمتار وفي وسطه قامت قبة ٠ وكل من قسميه تجتازه ٠ أقواس مستعرضة من ذات المستوى ومتصلة بأقبية اسطوانية وفي الجدران الجانبية بين كل قوسين مستعرضين توجد نافذة ٠ وقـد اقترح هرتزفلد مؤخرا أن تاريخه يعود إلى عام ٤٩٠ ٠

والآن نأتي إلى قصر حران على بعد ١٠ أميال غرب قصير عمرة حيث يوجد نفس النظام من الاقبية في الطابق العلوي ٠ لقد قدمت في مكان آخر المبررات التي تجعلني أعتقد أن قصر حران يعود إلى ما قبل الاسلام

---

(١) البارثيون او البارسيون اي قدامة الفرس ٠

رغم أنه يعتبر أمويا • على أي حال إنه أقدم من قصير عمرة وبالتالي فهو أقدم بناءعلى الجانب السوري من الصحراء حيث تغطي الاقبيةالاسطوانية الاقواس المستعرضة •

النتيجة :

إن نظام الاقبية في قاعة الاستقبال في قصير عمرة وحمام الصرح (ومسجد الحلابات الذي سنصفه) هي نموذج محلي عادي تماما باستثناء تعديل واحد ــ ألواح البازلت التي توضع عادة عبر الاقواس المستعرضة تستبدل بأقبية أسطوانية • هذا التجديد أوحى به على الارجح قصر حران الذي لا يبعد أكثر من ١٠ أميال والبروز المنخفض للاقواس المستعرضة هي أيضا سورية وكذلك لوحات الفريسكو المشهورة • أما الحمامات فهي أيضا نموذج محلي كان متطورا في القرن السادس وتتابع أنظمة السقف (قبو اسطواني ــ قبو متصالب منكسر ــ قبة) هو أيضا الموجود في رحيبه •

★ ★ ★

مسجد قصير الحلابات

على بعد حوالي ٣ أميال جنوب الحصن الروماني الذي عرفه العرب تحت اسم قصر الحلابات يوجد مسجد صغير عرضه الداخلي ٧ر١٠ مترا وطوله الداخلي ٨ر١١ مترا • وتكفي عضادتان جداريتان وبروز الاقواس فوقهما لتشير إلى أن الفناء الداخلي كان مقسما إلى ثلاثة أروقة بصفين من الاعمدة ولكن قياسات تبلر لحنية أحدها أظهرت أن نصف القطـر يدل على خمسة أعمدة في كل منهما • وكان هناك ثلاثة مداخل محورية وأن الخارج محاط برواق عمقه ٣ر٣ مترا باستثناء العضائد التي كانت مغطاة بسقف مائل من الخشب ويمكن رؤية ١٠ من الثقوب التي استقبلت العوارض قرب قمة الواجهة الغربية •

تبلغ سماكة الجدران ٨٢ سم وهي مبنية مـن الحجر الكلسي في مداميك ارتفاعها ٤٠ سم وبدون ملاط (مونة) • عرض المحراب ٢ر١ مترا وفوقه نافذة دائرية ، وفي الداخل يوجد افريز زخرفي ربع دائري على ارتفاع ١ر٢ مترا من بروز الاقواس ، والبقايا فوق هذا الافريز في قمة الجدار الجنوبي ترينا أن المسجد كان مسقوفا بثلاثة أقبية اسـطوانية متوازية تماما مثل البناءين السابقين • وفي نهاية كل قسم كان هناك نافذة ذات قوس دائري وفوقها نافذة دائرية قرب القبو •

التاريخ :

طراز بناء هذا المسجد يختلف كليا عن مساجد القرن الثاني عشر

في حوران التي تظهر كلها صنعة دون الصنعة العادية ومبنيـــة من مواد معادة الاستعمال وحولها الملاط . والتشابه الكبير بين نظام أقبيته وصنعته وبين نظام أقبية وصنعة قصير عمرة وحمام الصرح تبرز وضعنا لهذه الابنية الثلاثة في مجموعة واحدة ونظرا لوجود المحراب المقعر فلا بد أنه بني بعد ٧٠٧ م ــ ٧٠٩ م وبالنظر لمعرفة الظروف التاريخية فمن غير المحتمل أنه بني بعد سقوط الاسرة الاموية عام ٧٥٠ م .

★ ★ ★

الفصل الخامس

أعمال الخليفتين سليمان وهشام

الفترة الاموية المتاخرة :

عندما توفي الوليد في شباط من عام ٧١٥ م وصلت الاسرة الاموية إلى أوجها . كان انحطاطها سريعا كتقدمها ولم تدم لاكثر من ٣٥ سـنة أخرى . جاء بعد الوليد أخـوه سليمان الـذي أتى بعده ابن عمه عمر الثاني . وبعد فترة حكم قصيرة خلفه يزيد الثاني الذي مات في كانون الثاني من عام ٧٢٤ م وخلفه أخوه هشام الذي حكم لفترة طويلة نسبيا بلغت ١٩ سنة .

الخليفة سليمان :

أنشـأ سليمان مدينة الرملـة وشيد مسجدها الجامـع ـ كما يقول المقدسي الذي رآه قبل تهدمه بفعل هزة أرضية في عام ١٠٣٣ م ـ كان بناء رائعا[1] . أعمدته وأرضيته رخامية . كما أنه بنى أول مسجد جامع في حلب . يقول ابن الشحنة[1] نقلا عن ابن العديم : « كان مسجد

---

(١) يقول المقدسي في كتابه احسن التقاسيم ص ١٧٤ . والجامـع مشرف على البحر نزه » . طبعة دارالمتن تصويرا عن طبعة ليدن عام ١٩٠٩ .

(٢) ابن شحنة نقلا عن ابن العديم بيروت ص ٦٢/٦١ .

حلب الكبير منافسا لمسجد دمشق في زخرفته وكسوته الرخامية وفسيفسائه . سمعت أن سليمان بن عبد الملك هو الذي بناه رغبة منه في أن يجعله مساويا لاعمال أخيه الوليد في مسجد دمشق الكبير » .

ويسترسل قائلا ان الامبراطور البيزنطي (نيسوفوروس فوكاس) أحرقه عندما دخل الشام عام ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) .

هشام يشيد مئذنة المسجد الكبير في القيروان :

البناء الحالي (لوحة ٢٥٠) هو برج من ثلاثة طوابق كلها مربعة الشكل وأولها طول ضلعه (١٠ر٦٧) مترا عند الاساس وارتفاعه ١٨ر٨٧ مترا باستثناء التعرجات والثاني ٥مترا والثالث حوالي ٥ر٧ مترا والارتفاع الاجمالي بدون التيجان ٣١ر٥ مترا . والطابق الاول يتناقص تدريجيا ولكن الثاني والثالث لا يتناقصان . والمدخل الذي عرضه ١ر٠٠ مترا وارتفاعه ١ر٨٥ مترا يتألف من عضادتين عموديتين وأسكفة أفقية وكلها أجزاء رومانية مزخرفة بالحفر . وفوق الاسكفة قوس حدوة فرس للحمل . والمداميك السبعة الاولى مؤلفة من كتل حجرية كبيرة بينما البقية مبنية من كتل صغيرة ارتفاعها ١٣ سم . وهذا الحجم الصغير يجعلها تبدو كالآجر عن بعد .

والسلم ليس في وسط البرج تماما وجدرانه بالغة السماكة (٣ر٣٠ × ٣ر٥٠ مترا) ومضاء بثلاث نوافذ في الجانب الجنوبي الشرقي . وهناك أيضا ثلاث نوافذ أخرى ضيقة في الجانب الشمالي الغربي ونافذتان أخريان في الجانب الجنوبي الغربي . وكل طابق من الدرج مغطى بعقد اسطواني شبه أفقي صغير . وامتداد كل طرف منه يرتكز على قوس صغير قائم قبل دورانه وبعده يلتف عقد اسطواني آخر بزاوية قائمة وبمستوى أعلى .

وهكذا ترتفع العقود على درجات متوافقة مع طوابق الدرج ويتم بذلك تجنب مشكلة التقاطع كما هي الحال في كل أنواع العمارة الاسلامية القديمة . ويستمر الدرج عبر الطابق الثاني ويبرز تحت سرادق مقبب صغير ينفتح على سطيحة على الجوانب الاربعة بأقواس حدوة الحصان .

ولقد اقترح ريغوار بأن الطابق الثاني أحدث مـن الاول قائلا : « المواد تختلف عن مواد الطابق الاول من البرج بقدر ما نستطيع الحكم من القليل منها المرئي في الداخل . » والحال ليست كذلك اليوم لان بناء الجوانب وقوائم الدرج مرئية بكاملها وليس هنالك أي شك بأنها كلها عمل واحد . ولكن هنالك أسبابا كثيرة للاعتقاد بأن الطابـق الاعلى متأخر . وكما أشـار مارسيه فان المقاسـات التي يذكرها البكري[1] (١٠٦٨ م) والبالغة ٢٥ ذراعا عند القاعدة و٦٠ ذراعا في الارتفاع تتناسب من الطابقين الاوليين لانه إذا كانت ٢٥ ذراعا تساوي ١٠ر٦٣ مترا (وهو البعد المتوسط لجوانب القاعدة) فان ٦٠ ذراعا تساوي ٢٥ر٥١ متـرا للطابقين الاوليين مقابل البعد الذي وجدته وهو ٢٥ر٣ وهـذا تقارب شديد . ثانيا : إن السرادق المقبب مبني من الآجر والاسقنشات التي تحمل القبة عبر الزوايا مشابهة لتلك الموجودة في باب (لالا ـ رجانا) في الجانب الشرقي من المسجد والتي يعود تاريخها إلى ٦٩٣ هـ (١٢٩٤ م) . وهكذا فان السرادق المقبب يشكل جزءا من التجديد الحفصي في تلـك السـنة .

---

(١) البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغـرب ص٢٣ ط ليدن ١٩١٣ .

تاريخ المئذنة :

يقول البكري[1] : « فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك كتب إليه عامله على القيروان (بشر بن صفوان) يعلمه أن الجامع يضيق باهله وان بجوفيه جنة كبيرة ... فكتب اليه هشام يأمر بشريها وان يدخلها المسجد الجامع ففعل ... وبنى الصومعة ... والصومعة اليوم على بنائه طولها ستون ذراعا وعرضها خمسة وعشرون ذراعا » .

من الواضح أن كلمة حسن هي زلة بدلا عن بشر الذي كان حاكما من عام ٧٢١ إلى عام ٧٢٧ ولكن الحقيقة القائلة بأنـه تلقى أوامره من هشام تحصر تاريخ المئذنة في ٧٢٤ ـ ٧٢٧ م .

ولكن بالرغم من اقتناعي بأن المئذنة الحالية هي التي يصفها البكري فانني أريد التحفظ هنا . فبناؤها مطابق تماما للدعائم على جانب المسجد الجنوبي الشرقي (لوحة ٤٧ ــ آ) التي لا يمكن أن تكون أقدم من ٢٢١هـ (٨٣٦ م) وهكذا يسيطر علي شعور بأن هذه المئذنة التي وصفتها هنا إكراما لنص البكري يمكن في الحقيقة أن تشكل جزءا من المسجد الجديد الذي بناه زيادة الله في تلك السنة . ولكن حتى لـو أخرنا التاريخ إلى ٨٣٦ فتبقى المئذنة أقدم المآذن الاسلامية ولكن ربما باستثناء مئذنة قصر الحير الشرقي (لوحة ٢٧ ــ ب ــ الى اليسار) .

---

(١) البكري : (عبد الله) جغرافي اندلسي توفي في قرطبة (١٠٩٤ م) وله المسالك والممالك . ط ليدن ص ٢٣/١٩١٣ .

التطور المعماري للمئذنة :

البرج الكنسي السوري النموذجي في عصور ما قبل الاسلام ، وخصوصا في حوران : المنطقة الاولى التي فتحها العرب ـ هو عمود حجري مربع وأحيانا مستدق قليلا كما في سامه ، وقد بقي عدد منها حتى اليوم كما في :

١ ـ قصر البنات (في شمال سورية) دير ذو بروج مربعة ارتفاعها ٢٣ مترا والذي بني على الارجح بين عام ٣٩٠ م وعام ٤١٨ م .

٢ ـ أم السراب (في جنوب حوران) كنيسة القديس سرجيوس وباخوس ذات برج مربع طويل وقائم حتى الآن ما عدا سقفه وبني عام ٤٨٩ م .

٣ ـ سامه (في جنوب حوران) دير القديس جورج ذات برج مربع ارتفاعه حوالي ١٢ مترا بني عام ٦٢٤ ـ ٦٢٥ م .

٤ ـ أم الرساس : برج مربع ذو صليب يوناني في الجانب الشرقي والغربي ، ارتفاعه حوالي ١٢ مترا ومساحته ٥ر٢ م٢ بجانب الكنيسة بدون تاريخ .

٥ ـ جرادة ، برج ذو خمسة طوابق بجانب ممر الكنيسة . بدون تاريخ .

نستطيع الآن أن نقول بكل ثقة أن فكرة المئذنة ظهرت في سورية في ظل الحكم الاموي وأن أول المآذن هي أبراج أركان معبد دمشق القديم وأن أول المآذن التي بناها المسلمون معماريا من أبراج الكنائس السورية .

قصر الحير الشرقي

يقوم قصر الحير في الصحراء على بعد ٦٠ ميلا تقريبا إلى الشمال الشرقي من تدمر وحوالي ٤٠ ميلا الى الجنوب من الرصافة . الآثار مؤلفة من بناءين محصنين على شكل مربع تقريبا وعلى جانبيهما برجان نصف دائريين . الاول ضلعه حوالي ٦٦ مترا والآخر حوالي ١٦٠ مترا من الداخل (لوحة ٢٦ ــ آ) .

الفناء الصغير :

يتشكل هذا الفناء بواسطة سور سمكه ٢٫٣٠ مترا وعلى جوانبه أبراج نصف دائرية ــ واحد في كل زاوية واثنان في وسط كل جانب وبذلك يبلغ العدد الاجمالي ١٢ برجا تبلغ المسافة بين كل برجين ١٨٫٥١ ــ ٢٠٫٠٥ مترا ما عدا البرجين على جانبي المدخل الوحيد (في الجانب الغربي) اللذين يبعدان عن بعضهما ٦٫٦٧ مترا فقط . يبلغ ارتفاع الجدار بما في ذلك حاجز السقف الذي اختفى معظمه ١٢٫٢٥ مترا تقريبا . والحجر الذي يتخذ لونا كهرمانيا جميلا هو من النوع الكلسي الناعم وقد بني من مداميك يبلغ ارتفاعها ٣٥ سم .

والمدخل قطعة فنية جميلة التصميم . يبلغ عرض الفتحة ٢٫٩٨ سم وارتفاعه يقدر بـ ٤٫٢ مترا . أما عوارض المدخل العمودية فقد تآكلت لكن القوس الذي يشكل العارضة الافقية لا يزال باقيا في موضعه (لوحة ــ ٢٧ ــ آ) وفوق هذه العارضة قوس حمل نصف دائري يمتلىء قلب

مقصه بأحجار عادية . أما الاسبندلات فمملوءة بحنيات صغيرة فيها رؤوس أخدودية .

والابراج في قممها تظهر نظاما زخرفيا أخاذا أصيلا من الآجر والجص . تبدأ من الادنى بالزخارف الموجية المستقيمة ويتلو ذلك مدماكان من الآجر ثم صف من الآجر الصغير بمساحة ١٠ سم^{٢} تقريبا مرصوف على شكل معينات ثم مدماكا آخر من الآجر وفوق ذلك مباشرة المدماك الاخير من الاحجار الذي يرتكز عليه عقد القناطر الزائفة الجذاب المؤلف من سلسلة من الالواح المستطيلة التي يقسمها زوجان من الاعمدة الصغيرة وذات الجذوع المؤلفة من سلسلة من الحلية الشارية المتعرجة . ووجه القوس في الاعلى مزين بنباتات الاكانتوس ولكن التطعيم في الالواح تالف جدا . هذه الزخرفة ليست محفورة بل ناتئة ويبدو أنه تم استعمال أربعة زخارف . والكل يعلوه مدماك من الآجر الموضوع بصورة يشكل فيها زخرفة على شكل أسنان الكلب وفوقه عدة مداميك من الآجر العمودي وفوقها القبة الآجرية التي تتوج البرج بعد الارتداد عن وجه الجدار .

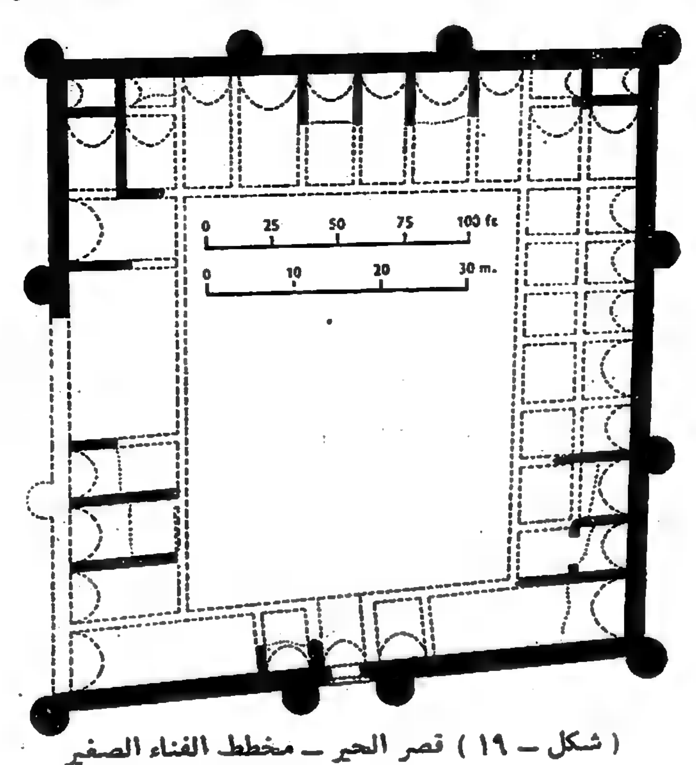
والافريز الرواقي يمتد بين الابراج وفي الوسط ـ فوق المدخل ـ توجد كوتان سقاطتان ترتكزان على ثلاث كتائف بارزة .

والابراج الباقية تعالج كالتالي : الشريط الاول من الآجر الذي يتألف من خمسة مداميك والذي يمتد بجانب السور ويمتد أيضا حول كل برج ثم تتلوه ثلاثة مداميك من الحجر وبعدها شريط من الآجر المربع الصغير الموضوع على شكل معينات ثم ثلاثة مداميك أخرى من الحجر وبعدها شريط أخير من أربعة أو خمسة مداميك من الآجر الذي تعلوه

قبة من الآجر (لوحة ــ ٢٦ ــ ب) • وكل برج ــ في حال بقائه فوق ممر المتراس ــ له غرفة صغيرة فوقها قبة ما عدا البرج المجاور للمدخل من الجهة الشمالية الذي يبدو أن فيه درج حلزوني ولكن الدرجات كلها اختفت ولم يبق الا اسطوانة فارغة •

الداخل :

إنه في حالة من التلف الشديد (شكل ــ ١٩) ولكن لا يزال من الممكن أن نرى أن الطابق السفلي تألف من عدد من الحجرات ذات السقوف المقنطرة عمقها حوالي ١٢ مترا تقريبا وعرضها متفاوت وهي مبنية حول ساحة مركزية تمتلىء الآن بالانقاض لاكثر من مترين • ومن المرجح



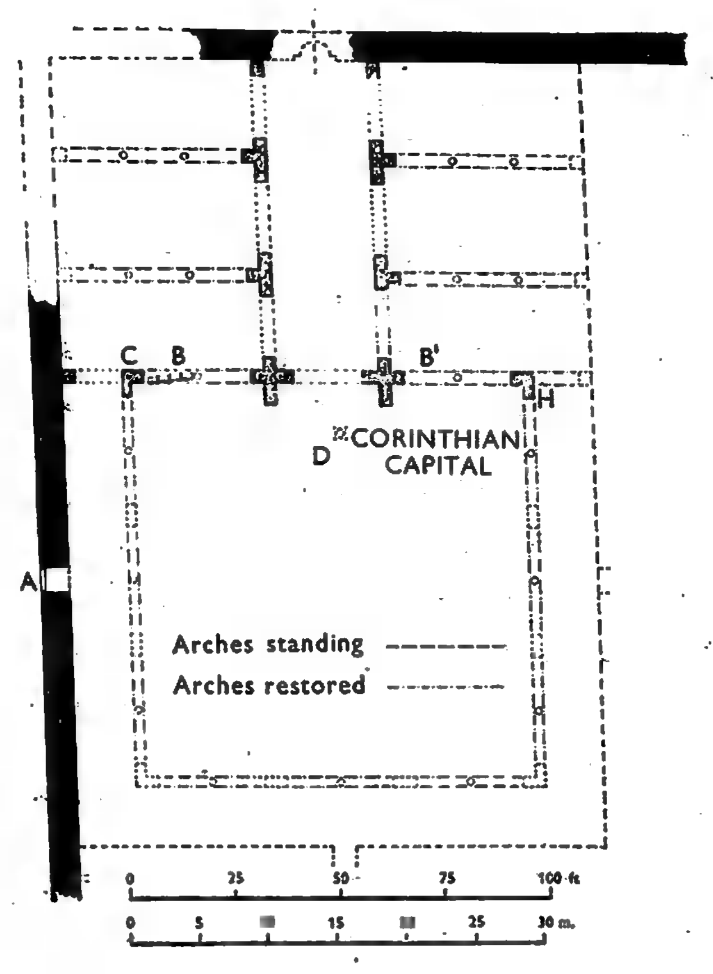
(شكل ــ ١٩) قصر الحير ــ مخطط الفناء الصغير

أن رواقا داخليا امتد حول هذه الساحة كما في قصر المنية • والسـقوف المقنطرة مبنية كما يلي : يبدأ العقد بـ ١٠ـ١٣ مدماكا من الآجرالموضوع أفقيا في مداميك بارزة قليلا متلائمة مع حنية العقد وفوق هذا حلقتان من الآجر المربع المسطح ووجوهها تشـكل زاوية قائمة مع محـور العقد • هاتان الحلقتان تغطيهما حلقة خارجية من الآجر القائم • ومن الممكن أن نرى أن الغرفتين الباقيتين بحالة جيدة في الجزء الجنوبي كانتا مقسمتين إلى جزء خارجي وجزء داخلي بواسطة جدار حاجز ولذلك فانني أستنتج آن بقية الغرف كانت من نفس الطراز •

فوق هذه الغرف المسقوفة بالقناطر هناك طابق آخر له غرف متوافقة مع الغرف السفلية • هذا الطابق العلوي الذي لا تزال بعض غرفه قائمة في الركنين الشمالي الشرقي والجنوبي الشرقي لا بد أنه كا نله سقف خشبي لاننا نستطيع أن نرى حفر العوارض الخشبية على طول جدران البناء على مسافة ٥ر١ مترا تحت المتاريس •

الفناء الكبير :

(لوحة ٢٦ ـ آ) يتشكل الفناءالكبير بواسطة سور سماكته ١٢ر٢ مترا تحيط به الابراج التي يبلغ قطرها ٤ مترا وله مدخل في وسط كل جانب • هناك برج في كل زاوية وستة أبراج تتوسط كل جانب • تبلغ المسافة الفاصلة بينها ٢٥ر٢٥ مترا من محور إلى آخر • وبالاضافة الى ذلك هناك باب خلفي بعرض ٤٧ر١ مترا إلىالجنوب من المدخل الشرقي• والى الجنوب أيضا هناك باب خلفي آخر سنرى وظيفته فيما بعد • هذا الفناء مبني بحجارة آكبر ويتراوح ارتفاع المداميك بين ٥٠ وبين ٧٠ سم والكنه في حالة سيئة لان جدرانا ستارية بكاملها قد تهدمت •



(شكل ــ ٢٠) قصر الحير ــ مسجد الفناء الكبير

ولما كانت الابراج كلها ممتلئة فلا بد أن يتم الوصول إلى المتاريس بأدراج في داخل السور الذي تهدمت بعض أجزائه . والمتراس ــ بخلاف متراس الفناء الصغير ــ من الحجر . وقد بقي في كثير من المواضع حتى ارتفاع مدماكيه . يبلغ سمكه ٤١سم ومدعم بسلسلة من الدعائم المتباعدة

حوالي ١٫٧٥ سم • والاسوار والابراج ليست مزخرفة بأشرفة من الآجر ولكن قمم الابراج مبنية بكاملها من الآجر من مستوى مدماك واحد تحت المتاريس وفي أعلى كل برج توجد غرفة صغيرة لها ثلاث نوافذ رمادية • ويرينا مخطط روسو الذي رسمه عام ١٨٠٨ م أن هذه الابراج كانت وقتها متوجة بقباب • ولو افترضنا ارتفاع المتاريس ٢٫٥ مترا فيكون ارتفاع الجدران ١٢٫٢٥ مترا •

المداخل الاربعة متطابقة تقريبا : يتألف كل منها من مدخل عرضه أقل من ٣ مترا فوقه عارضة أفقية معشقة وفوقها قوس حمل مرفوع قليلا ومدبب قليلا وقلب مقصه ممتلىء بالحجارة المرتدة إلى خلف مقدار ٤سم عن وجه القوس • وفوق كل مدخل كوتان سقاطتان فوق ثلاث كتائف وثلاث طبقات من الزخرفة • والكوتان السقاطتان فوق المدخل الشمالي أعرض من البقية وترتكزان فوق خمس كتائف معقدة والوسطى منها مزينة بوردة دائرية • ونعود إلى قلب مقص النوافذ فنرى أنها مخدوقة بثقوب متباعدة بمقدار ٢٥سم • اقترح غابرييل أن الغرض من هذه الثقوب هو ايجاد مقبض للمونة التي الصقت فوقه زخارف القيشاني • وليس هناك أي مثال لمثل هذه الزخرفة القيشانية في العمارة الاسلامية المبكرة في مثل هذا التاريخ المبكر ويبدو من المرجح أن الزخرفة كانت جصية لاننا رأينا أن الزخرفة الجصية مستعملة على الابراج على جانبي مدخل الفناء الصغير •

المسجد : (لوحة ٢٧ ـ ب وشكل ـ ٢٠) :

الداخل تقريبا لا يحتوي على أية أبنية ما عدا بقايا البناء الوحيد في الركن الجنوبي الشرقي الذي لا بد وأنه أنشىء بعد إتمام الفناء نفسه لان هناك انفصالا عموديا كاملا بين بنائه وبين العضائد الثلاث المتصلة

به . ليس هنالك أي شك في أن البناء مسجد وأن صف الاعمدة الممتد بمحاذاة الجدار الجنوبي هو الواجهة المطلة على الصحن والفحص السريع يكفي ليرينا أن صفي الاعمدة الذي يحتوي كل منهما على ثلاثة أقواس تمتد من الشمال الى الجنوب ما هي إلا الجناح العرضاني لان العضائد تتخذ شكل T وأن صفي الاعمدة التي تقسم الحرم الى ثلاثة أروقة لا بد وأنها انتهت مقابل وجهها الخارجي . والجدران الآجرية التي يبلغ ارتفاعها أكثر من ٤ أمتار والتي ترتفع فوق صفي الاعمدة هذين هي بالطبع جدران المنور كما في المسجد الكبير بدمشق . أما بالنسبة للعضادة المنعزلة التي تقف على امتداد صف الاعمدة الشمالي فهي بالطبع تتمة له . وهي تتفق بالشكل والمقاسات مع العضادة C وهي منفصلة عن عضادة الجناح العرضاني بنفس المسافة تقريبا (٧٫٦١ مترا مقابل ٧٫٥٧ مترا) . وفي منتصف المسافة بين العضادة C والجناح العرضاني يوجد عمود متهدم مؤلف من أربع اسطوانات وفي نقطة D هنا عمود آخر نصف مطمور بالتراب .

وبتجديد الواجهة على هذه الصورة نحصل على قوس مركزي طول باعه ٤٫٨٠ مترا وإلى جانبيه ثلاثة أقواس أخرى متوسط طول باعها ٣٫٢٥ مترا . ولكن لماذا نجد العضادتين C و H على شكل L ؟ بالتأكيد لانهما عضادتا زاوية الصحن اللتان يبدأ منهما الرواقان الجانبيان .

ولو أعدنا الترتيب (عمود ــ عضادة ــ عمود ــ عضادة ــ عمود عضادة) في الجوانب لحصلنا على صحن مساحته ٢٨م٢ . والآن يصبح عمل البوابة A واضحا : لا بد أن الغرض منها كان تأمين الاتصال المباشر بين المسجد وبين الفناء الخارجي تماما كما في المنية .

وأقواس الحرم كانت بالتأكيد ترتكز على أعمدة لان السير

ايركوت في عام ١٧٧١ م « رأى عددا من الاقواس تحملها عضائد مـن الرخام الابيض البراق ... وقد تبعثرت عضائـد الرخام المكسورة في المكـان » .

ليس من الممكن القول كم كان الارتفاع الاصلي للجناح العرضاني: يمكن أن يكون أعلى من الارتفاع الحالي للجدران الآجرية بمتر واحد ولكن البقايا الفعلية له ـ وهو ثاني أقدم مسجد جامع في سورية ـ كافية لتؤكد التأثير السائد لمسجد دمشق الكبير .

شكل الاقواس :

الاقواس الخمسة الباقية من الجناح العرضاني مرتفعة ومدببة قليلا والقوس الاوسط في الواجهة مدبب قليلا وليس مرتفعا .

التاريخ :

وجد روسو لوحة مكتوبة على العضادة H ونقلها إلى حلب حيث قام برسمها .

انها تقول : « بسم الله الرحمـن الرحيم ، لا اله الا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله ، امر بصنعة هذه المدينة عبد الله هشام ، أمير المؤمنين ، وكان هذا من عمل أهل حمص على يد سليمان بن عبيد » سنة ١٠ هـ ـ ٧٢٨ م [1] .

المئذنة :

بين الفناءين يوجد برج مربع بسيط يبلغ متوسط ضلعه ٢٫٩٤ مترا

(١) لوحة عن تاريخ بناء قصر الحير الشرقي نقلت الى حلب ثم فقدت وقد قام قبل نقلها بنشر محتوياتها كلا من غبريل وسوفاجيه .

وارتفاعه حوالي ١٠ مترا (اللوحة ٢٦ ــ ب) ولكن قسمه العالي مفقود، المدخل الى الدرج الحلزوني من الجهة الجنوبية • القمة الحالية بمستوى ما كان متراسا للفناء الصغير • ويمكن أن تكون أعلى مما هي عليه الآن بمقدار ٢ ــ ٣ أمتار وبالتالي أشرفت على كلا الفناءين • أعتقد أنها كانت مئذنة •

الحير :

عندما يقترب المرء من قصر الحير من الجهة الغربية يرى بناءا آخر على مسافة قليلة الى اليمين • وعندما يقترب المرء من هذا البناء يتضح أنه قسمان من جدار ارتفاعه يزيد عن ٤ أمتار ويمتد تقريبا الى الشمال الغربي والى الشمال الشرقي • هذان القسمان اللذان يبلغ طولهما ٦٣ مترا و٦٢ مترا بالترتيب ويلتقيان بزاوية قدرها حوالي ٨٠° • والجدران مدعمان على الوجه الخارجي بدعائم نصف دائرية مقامة على مسافة ١٢ مترا بين كل محورين • وفي كل قسم عند مستوى الارض توجد فتحات مقنطرة بعرض ١ر١ مترا وارتفاع ٠٥ر٢ مترا • والاقــواس حجرية في وجهها الداخلي وآجرية في وجهها الخارجي •

والقسم الجداري الذي يمتد باتجاه الشمال الغربي يكمله جدار آخر دون تغيير الاتجاه لمسافة ٣٦ر١ مترا ولكنه الآن متهدم حتى مستوى الارض تقريبا • يبلغ سمكه ١٢ر١ مترا، وهو ذو قلب حصوي • ودعائم دائرية تبعد عن بعضها ٣٢ مترا وموضوعة بالتناوب مرة على هذا الجانب وأخرى على ذاك •

لنعد الآن الى نقطة البداية • فالقسم الشمالي الغربي من الجدار يكمله جدار آخر مشابه للاول وطوله ٣ر١ مترا ثـم يغير اتجاهه ويمتد

نحو الشمال المسافة ٣٫٦ مترا وبعدها ما يمكن تمييزه هو مجرد كومة تمتد باتجاه الشمال لمسافة ٧٥٠ مترا . واستنتج غابرييل وجود بحيرة اصطناعية ـ في بعض فصول السنة ـ تمتد من قصر الحير باتجاه الجنوب لمسافة ٥ كم بعرض أقصاه ٢ كم .

ولكن سيريج اقترح في عام ١٩٣١ أن هذه الجدران سورت حديقة اصطناعية لا بحيرة . ولكن غابرييل شك في ذلك مما حمل سيريج على القيام بأبحاث ميدانية أخرى ووجد أن الجدران الحجرية الطويلة كانت لا تزال محاطة ببقايا جدار من اللبن مساحة كل منها ٤٢ سم^2 وسمكها ٩ سم وسمك الجدار ١٫٠٦ مترا مثل الجدار الحجري تحتـه . في بعض الامكنة سقط الجدار كليا وبعض القطع المتهدمة تتألف من ٢٠ مدماكا أي ٢ مترا . وباضافتها الى ١٫٥ مترا وهو ارتفاع الجدار الحجري يصل الارتفاع الى ٣٫٥ مترا . ووجود هذا الجزء العلوي من الجدار الطيني يفسر الحاجة للدعائم . وبالاضافة الى ذلك اكتشف سـيريج أساسات مدخلين ضخمين من الحجارة في الادنى والطين في الاعلى مثل الجدران . ويستنتج أننا أمام حديقة عظيمة مسورة تبلغ مساحتها ٨٥٠ هكتارا محاطة بجدار قوي لمنع البدو من نهبها .

من أين أتت المياه ؟ يتحدث المسافرون الاوائل مثل سيرابير كوت وايروين وروسو عن القنوات الارضية الآتية من عـين الكوم . وقد استطاع سيريج ـ بمساعدة دليل قروي ـ متابعة احداها لمسافة ٣٠ كم .

معنى كلمة « الحير » :

أسجل هنا استشهادات من مؤرخين عرب قدماء تلقي الضوء على هذه القضية :

١ ـ يقول اليعقوبي في وصف تأسيس سامراء من قبل الخليفة المعتصم عام ٨٣٦ : « وهذه الشوارع التي من الحير كلما اجتمعت الى اقطاعات لقوم هدم الحائط وبنى خلفه حائطا غيره وخلف الحائط الوحش من الظباء والحمير الوحش والايائل والارانب والنعام وعليها حائط يدور في صحراء حسنة واسعة »[١] .

٢ ـ مسكويه في عام ٣١٥ هـ (٩٢٥ ـ ٦٢٩ م) يقول : « في هذا العام حدثت ثورة الفرسان المسرحين فشغب الفرسان لطلب ارزاقهم وخرجوا الى المصلى فوعدوا به وتأخر عنهم فعادوا وطمعوا في النهب وأشرفت بغداد على فتنة عظيمة » وبنو المسمى بالثريا في بغداد وذبحوا حيوانات الحير[٢] . ولذلك فانني أقول أن الفناء الذي يبلغ طوله ٥ كم وعرضه ٢ كم في قصر الحير لم يكن بحيرة اصطناعية ولا حديقة بل مرتعا لحيوانات القنص للخليفة هشام وأن وظيفة الجدران ليست رد البدو بل الابقاء على الحيوانات . وبمعنى آخر فهي Paradiesos وهي نفس الكلمة التي استخدمها ثيوفانيس لوصف المنتزه أثناء الحديث عن أعمال هشام .

تاريخ مجموعة الابنية بكاملها :

لدينا نقطة محددة للتأريخ في نقش ١١٠ هـ (٧٢٨ ـ ٧٢٩ م) الذي رآه روسو على عضادة المسجد . والنقش يؤرخ للفناء الكبير لانه يشير الى المدينة التي بنيت للخليفة هشام . والمسجد لا يمكن أن يكون أقدم

(١) اليعقوبي : البلدان ط ليدن ١٨٩١ ص ٣٦٣ .

(٢) مسكويه : تجارب الامم ج ١ ص ١٤٢ ؟ حوادث سنة ٣١٢ طبعة مكتبة المثنى المصورة ببغداد .

من المدينة لان جانبيه الشرقي والجنوبي هما من جدران المدينة نفسها . وأعتقد أنه مسجد المدينة الذي بني مباشرة بعد اتمام المدينة . وبالاضافة الى هذالدينا وثيقتان تلقيان الضوء الحاسم علىالمسألة (١) الطبري الذي يقول متحدثا عن هشام : « فنزل الرصافة وهي برية ، ابتنى فيها مقرين » أمر ببناء قصرين له هناك[١] » (٢) ثيوفانيس (المتوفي ٨١٨ م) يقول : « وبدأ ببناء القصور في المدينة والفلاة وإيجاد المزارع والمنتزهات وجلب المياه اليها » .

وهكذا لدينا (١) هشام بنى قصرين في صحراء الرصافة . لقد رأينا أن الفناء الكبير هو أحد القصرين ومن الصعب رفض الاستنتاج بأن الفناء الصغير هو الثاني . (٢) قام بأعمال الري وشيد المنتزهات والمزارع في الفلاة . ولا بد من الاستنتاج بأن الفلاة هي صحراء الرصافة التي يعرف عنها بأنها كانت مكان إقامته وليس من شك في أن أعمال الري انما هي القنوات المذكورة أعلاه .

وأخيرالدينا (١) ارتباط الفناء الكبير (المدينة) باسم هشام بواسطة نقش عام ١١٠ هـ . (٢) الفناء الصغير أو القصر الملكي مرتبط بالفناء الكبير بواسطة إشارة الطبري الى القصرين . (٣) الفناء الصغير أو القصر الملكي مرتبط ببوابتي المياهبطراز البناء منحيث تزيينهابمداميك من الآجر . (٤) القنوات مرتبطة باسم هشام في نص ثيوفانيس .

هذه الابنية الثلاثة محكمة الترابط وأحدها مرتبط باسم هشام بنقش عام ١١٠ هـ ، وبالتالي فانني أنسبها اليه ولعام ١١٠ هـ تقريبا .

---

(١) الطبري : ج ٧ ص ٢٠٧ طبعة دار المعارف بمصر الطبعة الثانية .

الاصول المعمارية لقصر الحير

فقرات العقود المعشقة :

رغم ندرة هذا النوع قبل الاسلام فاننا نجدها موزعة فوق منطقة واسعة تمتد من اسبانيا الى الفرات . انه يستخدم في جسر روماني فوق نهر سالادو قرب فيلاديل‌ريو قرب الكيلو متر ٥٣ على الطريق من قادش الى مدريد وفي جسر روماني آخر فوق البدروشيز على بعد ٣ كم عن قرطبة حيث لا تزال كتل الارتكاز المعشـقة قائمة حتى الآن . كما أنها تستخدم في المسـرح الروماني في أورانج بعـد عام ٤٤ ق.م بقليل في سبالاتو في بورتا أوريا وفي بورتا فيريا في قصر ديو قليسيان (٣٠٣ ـ ٣٠٥ م تقريبا) وفي رافينا في الطابق السفلي من ضريح (ماوسيلبوم) ثيودوريك (حوالي ٥١٠ م) .هذه الظاهرة موجودة في العمارة السورية قبل الاسلام ـ مثال : بيت لحم في المدخل الاوسط لواجهة الرواق الذي يعود الى عهد جستينيان وفي بازيليكا سيرجيوس في الرصافة (حوالي عام ٦٠٠ م) . ومن المرجح أن فقرات عقود قصر الحير المعشقة مشتقةمن الرصافة نظرا لانها على مسافة أقل من ٤٠ ميلا .

الكوى السقاطة :

أقدم نماذج الكوى السقاطة نجدها في العمارة السابقة للاسلام في شمال سورية حيث‌يمكننا أن نرى عشرة أمثلة على الاقل . ولكن ثلاثة منها فقط موجودة للغرض المنوط بها أي تمكـين المحاصرين من صب

الحديد المصهور أو الزيت المغلي أو القذائف على مهاجمي المدخل من الاسفل . أما الباقي فهو مراحيض ولا يمكن أن تكـون له أية وظيفـة أخرى لانها ليست مبنية فوق المداخل . وأقدم مثال للاغراض الدفاعية موجود في دير قيتا التي تبدو وكأنها حصن مراقبة منعزل تاريخه ٥٥١ م . تبلغ مساحته ٥٫٥ م^2 ومدخله في الجهة الغربية ولا تزال ثلاثة طوابق منه قائمة . في الطابق الثالث فوق المدخل مباشرة توجد كتيفتان تحملان لوحا فيه فتحة حولها بقايا جدران رقيقة كانت تحيط بهـا . وتبلر مقتنع أن وظيفتها بدون شك رمي القذائف على العدو الـذي يحاول اقتحامه . وهذه الملاحظات تصح أيضا في حالة البرج الصغير لحارس خربة هاس التي نشرها دي فوغويه .

عمارة شمال ما بين النهرين في هذا الوقت كانت واحدة مع عمارة شمال سورية وبالتالي فليس مـن المـدهش أن نرى أن هذه الوسيلة مستخدمة في آميدا (ديار بكر) في عـام ٥٠٤ م لان جوشوا ستيليتيز (٥١٥)م يقول : « كان من الصعب [بالنسبة للجيش البيزنطي] محاربتهم [الفرس] لانهم نظرا لكونهم على أعلـى الجدار وبعـد أن بنوا بيوتا صغيرة على طول المتراس حيث اختبؤوا استطاعوا الحرب دون أن يراهم أحد من الخارج . » وهذا وصف عادي عام للكوى السقاطة .

والكلمة العربية لهذه الميزة تظهر في النص التالي لابودر الذي يقول انه عندما أتى المغول الى حلب دافع أهل المدرسة الظاهرية عنها ببنـاء سقاطة فوق المدخل ورمي الحجار عليهم . لهذه المدرسة رواق مدخـل مرتد وله عقد مقرنص عادي . هناك فتحة كبيرة بدائية الصنعة في العقد يرمي الناس المتمركزون فوقها أحجارا ثقيلة على أي شخص يحاول اقتحام الباب .وهذه استخدمت لنفس الغرض الذي استخدمت من أجله الكوى

السقاطة التي تعادل الكلمة العربية (السقاطة بكل وضوح) .

مزج الآجر والحجر

يعتبر استعمال الآجر فيقصر الحير أمراً غريباً لأن سورية ـ قبل الاسلام ـ كانت بلد العمارة الحجرية باستثناء بناءين هامين : قصر ابن وردان والمعسكر الكبير في اندرين . حيث مداميك الآجر تتناوب مع الحجر . ولكن الآجر المستعمل هو آجر بيزنطي صغير (٣٠×٣٤×٣٫٥ سم) في بورلمبه أو (٣٤×٤٧×٤ سم) بينما الآجر المستخدم في قصر الحير أصغر وأسمك يشبه الآجر المستخدم في بوابة بغداد في الرقة في عام ٢٧٢ م (اللوحة ٣٢ واللوحة ٣٣)وطبقات المونة أقل سماكة من الآجر كما هي الحال في أعمال الآجر العراقي . ولذلك فإن قصر الحير يظهر مزيجا من التأثيرين : الاستعمال الزخرفي لأعمال الآجر لإعطاء تأثير مخطط للبناء هو بيزنطي ولكن الآجر نفسه وطبقات المونة هي من بلاد ما بين النهرين .



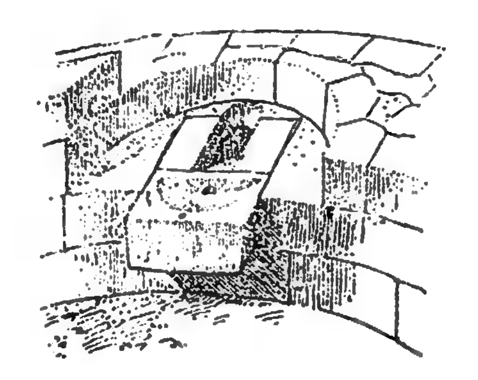
الفصل السادس

قصر المشتى ـ قصر الطوبة ـ حران

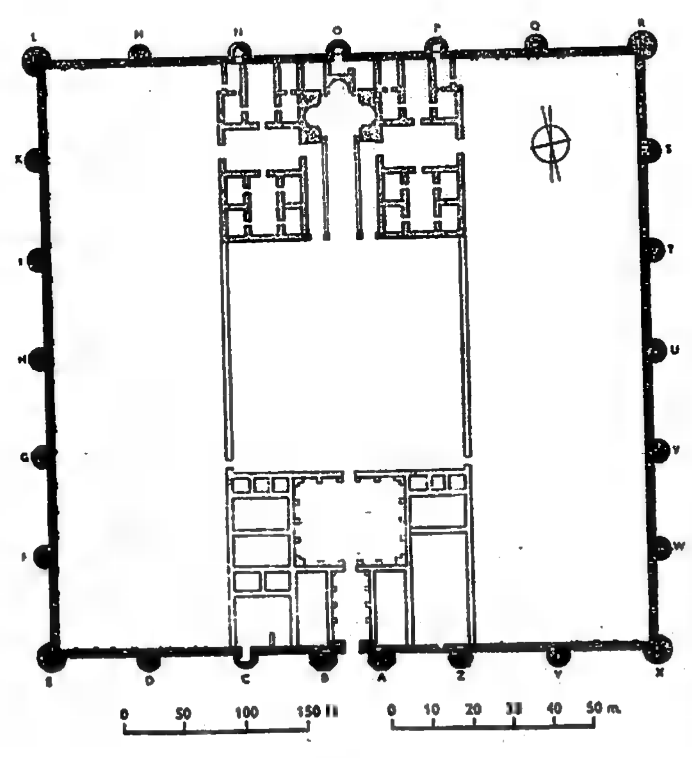
قصر المشتى

المشتى هو أشهر القصور الأموية وقد اكتشفه لايارد في عام ١٨٤٠ م وبصورة مستقلة تريسترام في عام ١٨٧٢ م يقع على بعد حوالي ٢٠ ميلاً إلى الجنوب من عمّان وحوالي ٣أميال إلى الشمال الشرقي من محطة زيزا على الخط الحديدي الحجازي .

يتألف من فناء محاط بسور من الحجر بمساحة ١٤٤ م٢ من الداخل (شكل ٢٢) وعلى محطة أبراج نصف دائرية ومدخل في وسط الجانب الجنوبي . باقية لارتفاع يتراوح بين ٣ مترا وبين ٥ر٥ مترا باستثناء القسم المزخرف من الواجهة الذي أزيل . وكل الأبراج صمّاء ما عدا أربعة مجهزة بمراحيض (شكل ـ ٢١) . والأبنية التي كانت تهدف إلى احتلال الثلثين الجانبيين لم يبدأ ببنائها ولم يتم انهاء الثلث الأوسط . ولكن المجموعة في شمال الثلث المركزي تامة تقريباً ومخطط المجموعة في الطرف الجنوبي يمكن رؤية شبكة حجرية كبيرة يشكلها مدماك الأساسات من الكتل الحجرية المنحوتة الجميلة التي تبرز فوق الأرض .



(شكل ــ ٢١) المشتى ــ مرحاض

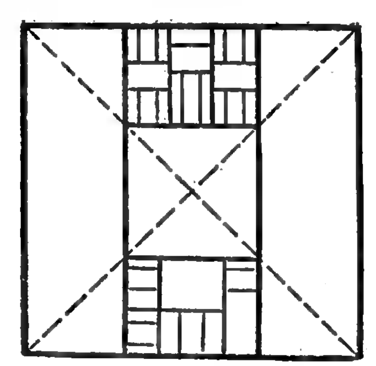


(شكل ــ ٢٢) مخطط المشتى

وسمك السور ١ر٧ متراً وقطر الأبراج الركنية ٧ أمتار والأبراج الوسطى حوالي ٥ر٢٥ متراً ماعدا البرجين على جانبي المدخل اللذين يأخذان شكل نصف مثمن يبلغ عرض كل منهما ٦ر٣ مترا . أما الحجارة فكلسية ذات منظر كهرماني جميل مزينة بوصلات جميلة ويتراوح ارتفاع المداميك من ٣٧ إلى ٤٣ سم .ولكن الوصلات الجميلة خادعة لأن الأحجار تستدق قليلاً نحو الداخل وتتلاصق الوصلات بصورة ملائمة عند السطح . وخلف المدخل مباشرة طولها ٤ر١٧ متراً تؤدي بدورها إلى بهو عرضه ١٤ر٧٢ متراً وعمقه ٢٣ متراً . هذان العنصران كانا محاطين بغرف أخرى وساحات أخرى . سأسمي هذه المجموعة مجمع المدخل . وخلف البهو الذي سبق ذكره توجد ساحة كبيرة تزيد مساحتها عن ٥٧م٢ وعلى الشمال منها مدخل ثلاثي الأقواس (الأقواس سقطت) تؤدي إلى القاعة البازيليكية العظيمة التي عمقها ٦ر٢١ متراً وتنتهي بمحراب ثلاثي . محاطة بمجمعين متناظرين مؤلفين كما يلي : على كل جانبي البهو المستطيل القائم بشكل متوازي مع القاعة البازيليكية يوجد بهو آخر بزاوية قائمة عليه وعلى جانبيه زوج من الغرف المقنطرة . سأسمي هذه المجموعة البناء الرئيسي .

تقسيم الداخل التناظري المتتابع :

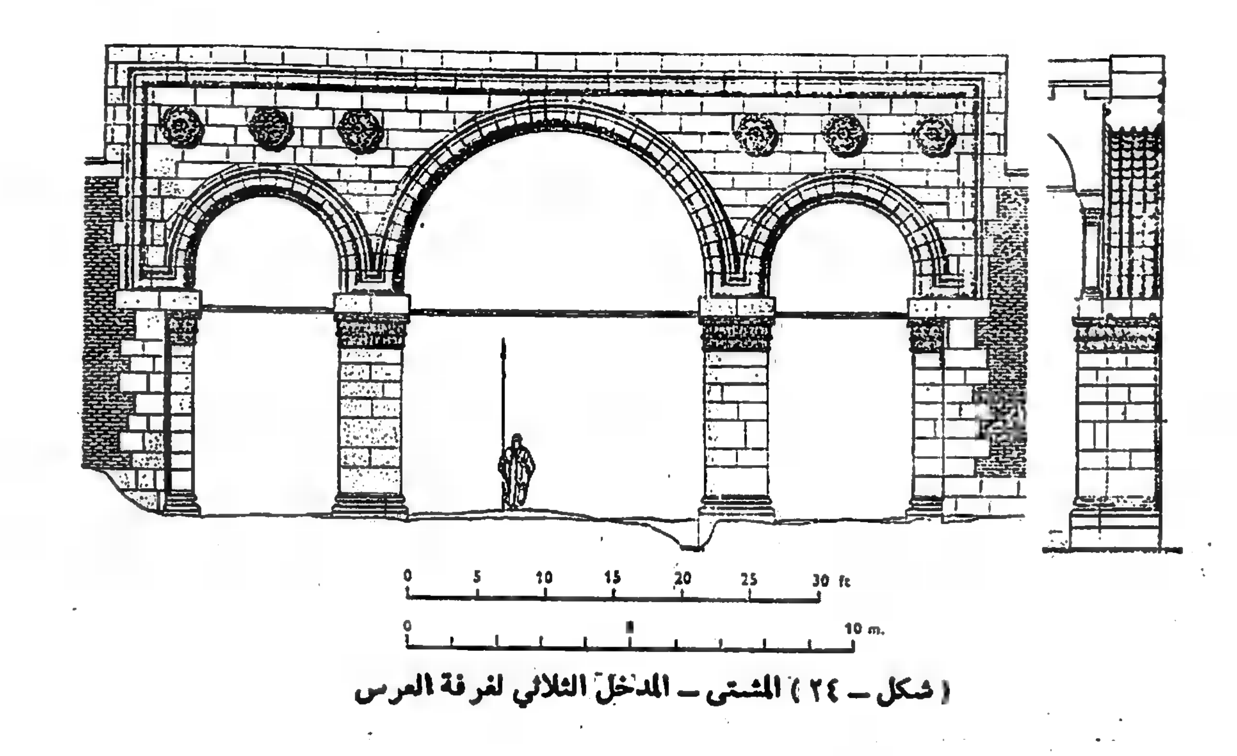
من السهل أن نرى أن الداخل مقسوم إلى ثلاثة أجزاء بجدارين ممتدين من الشمال إلى الجنوب ويبلغ عرض الجزء الأوسط ٥٧ متراً وعرض كل من القسمين الآخرين ٤٢ متراً . والقسم الأوسط مقسوم بدوره إلى ثلاثة أقسام كما نرى في الشكل والقسمان الجديدان الشمالي والجنوبي مقسومان أيضاً إلى ثلاثة أقسام مقسومة أيضاً الى ثلاثة (شكل ٢٣) . وهكذا نرى أن النظام الذي لاحظناه في خربة المنية يتقدم أكثر .



(شكل ـ ٢٣) المشتى ـ مخطط يبين التقسيمات الهندسية المتابعة

مجمع المدخل :

المدخل (الموجود الآن في برلين) محفوظ حتى ارتفاع ٣ر٨ متراً . عرض الفتحة ٣ر٤٦ متراً وخلفها مباشرة توجد قاعة المدخل المستطيلة عرضها ٩ر٢٣ متراً . وعمقها ١٧ر٤ متراً . وعلى كل من الجانبين صف من القواعد المستطيلة والغرض منها على الأرجح حمل الأعمدة التي تحمل بدورها الأقواس المستعرضة وإذا كان الأمر كذلك فإنني أقترح أنها أقيمت على مستوى واحد لتحمل العقود المستعرضة كما في قصير عمرة . وخلف ذلك الى الشرق هناك مستطيل عرضه ١٣ر٤ متراً وعمقه ٢٨ متراً وحنية نصف دائرية عرضها ١ر٦٢ متراً وعلى جانبيها ارتدادات لتستوعب الأعمدة . هذه الحنية لابد وأنها مبنية لتكون محراباً لمسجد القصر . أما من الجهة الغربية فالتقسيمات أكثر تعدداً . فبعد عبور قاعة المدخل ندخل إلى بهو عرضه ٢٧ر٤ متراً وعمقه ٢١ر٧ متراً وعلى الجوانب الأربعة توجد قواعد مساحتها ١ر٢٥ م٢ والمسافة بينها ٣ر٣٠ ـ ٣ر٤٠ متراً . ولربما كان الغرض منها حمل الأعمدة التي ربما حملت بدورها الأقواس لتعطينا رواقاً مسقوفاً محيطاً بالبهو من جميع الجهات تماما كما في قاعة



(شكل – ٢٤) المشتى – المدخل الثلاثي لغرفة العرش

الشرف في الأخيضر (لوحة ــ ٣٧) . ومن هذا البهو يخرج الانسان إلى الفناء المركزي الكبير الذي تبلغ مساحته ٥٧ م٢ ويوجد البناء الرئيسي على طرفه الشمالي . وعلى جانبي هذا الفناء بابان بعرض ١٫٩٢ متراً يؤديان إلى الثلثين الجانبيين .

البناء الرئيسي

هذا هو القسم الوحيد الذي بناؤه . إنه النقطة المركزية للقصر بكامله ولا بد من اعتباره الجناح الملكي من القصر . فأساسات جدران الآجر المشوي تتألف من ٤ مداميك من الكتل الكلنسية والتي ترتفع ٣٫٥ منها ١٫٥ متراً فوق مستوى الأرض . هذا المستطيل ــ مثله في ذلك مثل مجمع المدخل ــ ينقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية . القسمان الجانبيان مغلقان بالاتجاه الجنوبي .

أما القسم الأوسط فيدخله المرء من الفناء المركزي الكبير بواسطة مدخل ثلاثي الأقواس (لوحة ــ ٣٠) التي ترتكز على دعامتين طليقتين ودعامتين جداريتين . فتحة القوسين الجانبيين حوالي ٣٫٢٥ متراً أما الأوسط ففتحته حوالي ٦٫٨ متراً تهدمت الأقواس الثلاثة على الأغلب بفعل زلزال وعندما رآها شولتز في عام ١٩٠٣ كانت لا تزال متلاصقة كما سقطت . وكان فوق التيجان كتلة ارتكاز سليمة ارتفاعها ٣١ سم وبينها وبين التيجان مدماك وحيد من الآجر ارتفاعه ٩ سم . وفي هذا المدماك طمرت قطعة من الخشب مقطعها ٩×٩ سم وهي بقايا عارضة الربط. التي احتوى كل قوس اثنتين منهما .

ووجد أن الأقواس كانت نصف دائرية مرفوعة يتألف باطنها من ٤

فرزات زخرفية محدبة كما وجدت فرزة زخرفية محدبة على كل جانب ثم أفقية فوق كتلة الارتكاز ثم حول القوس الثاني وهكـذا لتشكل إطـاراً مستطيلا . وفوق قمة الاطار المزخرف وجد مدماك واحد من البناء كما وجدت أيضاً ٦ وردات زخرفية عليها بقايا صباغ أحمر . يرينا الشكـل ـ ٢٤ إعادة تصميم لهذه الواجهة .

وعلى الوجه الداخلي للدعامتين المستقلتين يوجد عمودان جداريان بعرض ٧٦ سم وعمق ٦٥ سم يقابلهما على الجانب الشمـالي من القاعـة عمودان جداريان حجريان وبينهما أساس جدار من الأحجار نصف المنحوتة فالشرقي منحوت إلا أن شولتز عثر على الجانب الغربي من القاعدة الرخامية الرمادية للعمود الأول من الجهة الشمالية لا تزال في موضعها ومكان الثانية محفور وقد أظهرت المسافات الفاصلة وجود خمسة أعمدة أي ستة أقواس . وكانت العضادتان الشماليتان أيضاً ركائز للقوس العرضاني الذي يبلـغ باعه ٩٩ر٦ متراً والذي أدى إلى قاعة ثلاثية العقود . هذا القوس (جزء منه الآن في برلين) مزين بزوج من سيقان الكرمة المتماوجة تتقاطعان عدة مرات وتشكلان بتقاطعهما حلقات وردات . وكل حلقة تمتلىء بورقة كرمة أو بعنقود عنب .

القاعة الثلاثية العقود (لوحة ٣٠ ـ ب) :

ندخل الآن إلى القاعة الثلاثية العقود التي تبلغ مساحتها ٨٥ر٩ م٢. ففي كل جدار من جدرانها الجانبية الثلاثة هناك ارتداد محرابي عرضـه ٢٥ر٥ متراً وعمقه ٨ر٣ متراً . والزوايا محفورة لتلقي الأعمدة الجدارية .

وليس من شك في أن هذه الحنيات غطيت بأنصاف قباب إلا أنه ليس من الواضح كيفية بناء سقف الجزء المركزي . يعتقد شولتز وبروناو أن الخطة اقتضت قبة ولكن يتملكني الشعور بأن الجدران الاربعة ربما رفعت مربعة وفتحت النوافذ في كل منها ثم توجت بسقف هرمي كما هي الحال في القصر البطرقي في بصرى (شكل ــ ٢٧) وفي الدير الأحمر في سوهاج .

التقسيمات الجانبية للبناء الرئيسي :

الجانبان الشرقي والغربي متطابقان عدا عن كونهما متعاكسان . ونلاحظ هنا أيضاً التقسيم المتتالي إلى ثلاثة ويبلغ عرض الأوسط منها ١٨ر٥٥ و ١٨ متراً وكلاهما يتصلان بالقاعة البازيليكية بواسطة باب يبلغ عرضه ٣ أمتار . والمستطيلان الشمالي والجنوبي مقسومان أيضا الى ثلاثة أقسام . والقسمان الجانبيان مقسومان الى غرفتين كما في الشكل هذه الغرف كانت مسقوفة بعقود اسطوانية لم يبق منها الا اثنان فقط في حالة شبه سليمة . ومقطع كل عقد قوس مدبب مبني من مركزين يبعدان عن بعضهما ١/٥ الباع وهذا هو أقدم مثال لهذه النسبة . إنها مبنية كما يلي : هناك مدماكان أفقيان فوق المرتكز الذي يبدأ فوقه العقد الحقيقي بسماكة آجرة ونصف ومؤلف من آجرات مربعة مسطّحة مرصوفة ووجوهها موازية للجدار الأخير تماماً كما هي في قصر الحير الغربي ولكن بدون حلقة من الآجر المرصوف بشكل مسطح .

ويعلو المداخل قوس مدبب مرفوع مبني من حلقة داخلية من الآجرات المربعة المرصوفة وجوهها المسطحة نحو الخارج وحلقة خارجية من الآجرات المرصوفة على طرفها . وفي إعمال الآجر وتوجد على جوانب

المداخل على ارتفاع ثلاثة مداميك تحت نقاط الارتكـاز فجوة تمتد عبر الجدار كله كما لو انتزعت منه عارضة خشبية أو عتبة حجرية • ولكن شولتز ـ قبل أكثر من ٥٠ سنة ـ استطاع أن يجد آثاراً أقنعته بوجود سقف خشبي صلب في البداية سمكه ١٢٫٥ سم على امتداد عمق المدخل بأكمله وفوقه طبقة مـن الآجر المرصوف عمودياً • والهدف هو ايجـاد قمة مستطيلة للمدخل حيث كان من السهل إيجاد تجويف لمحمـل الباب المقص يسمح للنور بالدخول عندما يكون الباب مغلقاً •

لم يبدأ بناء زخارف البناء الرئيسي على ما يبدو ولكن من الواضح أنه كان لديهم النية في زخرفة الجزء الأدنى من الجدران لأن شولتز وجد كتلاً كبـيرة عديدة من الحجـر الأخضر الرائع موضوعـة في الثلث الشرقي • وقد قطعت جزئياً إلى ألواح سمكها ٢ ـ ٣ سم لاستعمالها في تغطيـة الجدران •

الجناحان الجانبيان :

لا يمكن رؤية جدران أساسات في الجاحـين الجانبـين • كما أن شولتز لم يستطع أن يجد أيـة أساسات بالتنقيب ولكن حجارة الربط تركت في الجانب الداخلي من السور لوصل الجدران المستعرضة وهذا يشير إلى النية لبناء مثل هذه الجدران • وحجارة الوصل هذه مرتبـة أزواجاً بارزة من السور في صفوف عمودية مرة في كـل مدماكـين • وعرضها الخارجي يتراوح بين ٩٧ سم وبين ١١٤ سم وهي بهذا تشـير إلى سماكة الجدار المختلفة كما أن المسافات بين حجارة الربط تشير الى عرض الغرف التي كان في النية بناؤها • ولو أخذنا الآن مجموعة مـن خمس غرف في التقسيمات الجانبية من البناء الرئيسي واستدرنا بهـا فليس هناك أقل من أربعة أمكنة حيث يمكن وضع هذه المجموعة تجـاه

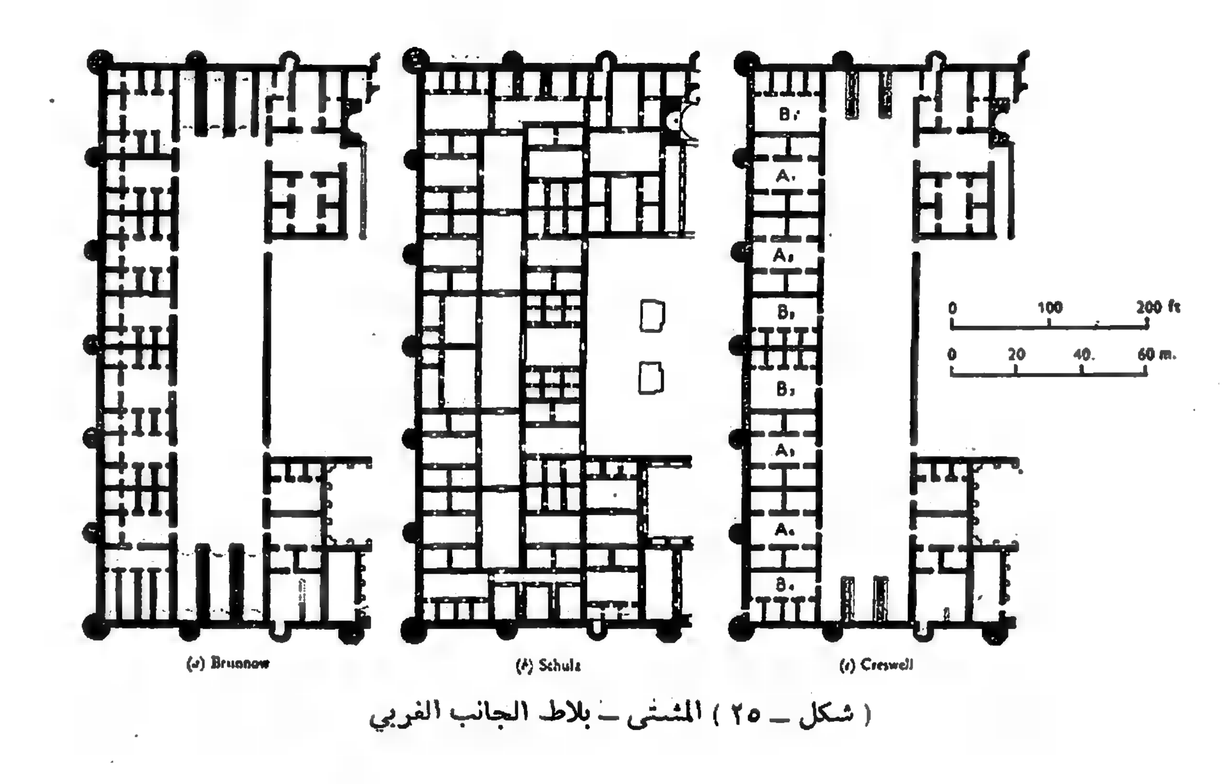
الجدار الغربي : A_4, A_3, A_2, A_1 (شكل ٢٥) • والوصلات في الركن الشمالي الغربي تعطينا بوضوح أربع غرف صغيرة وبهو B_1 • ومجموعتان مماثلتان B_2 و B_3 تناسب الوصلات على الجدار بين A_2 و A_3 ويمكن وضع مجموعة مماثلة في الركن الجنوبي الغربي • أما بالنسبة للوصلات من أجل الجدران التي تبلغ سماكتها ٢ر٥ متر و ٢ر٩ مترا فانني أوافق على اقتراح شولتز أن الغرض منها هو الدرج الصاعد عمودياً على السور •

زخارف الواجهة الجنوبية :

تتألف الواجهة المزينة بسخاء بين البرجين Z و C من نعل بارز بارتفاع ٤٧ سم وقاعدة مزينة بشكل فني ارتفاعها ١ر٢٨ متراً وسطح جدار مزين ارتفاعه ٢ر٩٥ متراً ومحمول ارتفاعه ٩٠ر٥ سم وهذا المحمول يمتد إلى الأسفل عمودياً في الطرف الغربي ويستدير ثانية بزوايا قائمة فوق القاعدة بقليل ويتوقف فجأة تجاه جانب البرج C (لوحة ــ ٢٨) • ويبدو أنه كان كذلك في الطرف الشرقي أيضاً •

والزخرفة الناتئة المستديرة في القاعدة مزينة بشبكة من اغصان الكرمة المتشابكة التي تشكل حلقات • وفي كل حلقة نجد ورقة كرمة ترتفع للأعلى وتتراوح عموماً مع عنقود يتدلى نحو الأسفل تماماً كما نجد في بعض عوارض الوصل في قبة الصخرة (لوحة ٩ ــ ب) ويتساوى مع هذه الزينة حيث تلعب زخرفة الكرمة دورا بارزا • والطنف يبرز إلى الأمام وتاجه مزين بصف من أوراق الاكانتوس الملتوية نحو الخارج •

والسطح الجداري بين النعل والمحمول مقسوم إلى عشرين مثلث



(شكل ــ ٢٥) المشتى ــ بلاط الجانب الغربي

رأسي ومثلث مقلوب بواسطة زخرفة تشبه الطنف التي تصعد وتهبط بخط متعرج من النعل إلى الساكف . ويبلغ ارتفاع المثلثات حوالي ٢٫٨٥ متراً وعرضها عند القاعدة ٢٫٥ متراً . وفي وسط المثلث تماماً توجد وردات المثلثات الرأسية هي مسدسات مفصصة أما وردات المثلثات المقلوبة فهي مثمنات مستقيمة الأضلاع . تقسم الوردة المثلث إلى ثلاثة أقسام ذات ارتفاعات متساوية تقريباً أي شريط سفلي عريض وسطحان صغيران على جانبي الوردة والمثلث الصغير فوقها (لوحة ٢٨ ولوحة ٢٩) .

أما زخرفة المثلثات غرب المدخل فهي مختلفة أشد الاختلاف عن زخرفة مثلثات شرق المدخل مما يحمل على الاعتقاد بأن الزخرفة قامت بها مدرستان مختلفتان من الفنانين . فالمثلثات في النصف الغربي مملوءة عموماً بسيقان الكرمة حيث تظهر العصافير تنقر حبات العنب بينما يظهر في المثلثات ٤ ــ ٩ زوج متقابل من الحيوانات في الوسط وأحياناً على جانبي مزهرية . وبعض هذه الصور أنجح صور السلسلة كلها لأنها في غاية الأناقة والقيمة الزخرفية (لوحة ــ ٢٩) .

ويشير شولتز إلى أن المسافة (١٫٥٨ م و ١٫٥٤ متراً) بين جانب كل برج وبين الطرف الخارجي من عمود الباب محسوبة على ما يبدو ولتسمح لمحمول الواجهة بكامله أن يرتفع عمودياً بزوايا قائمة قبل أن يشكل قوسا أو كوة حمل فوق القبة العلوية ــ وهو طراز سوري (مثال : قلعة سمعان) وحسب الطلب .

نقل النصف العلوي من الواجهة شرقي المدخل قبل أن يراه تريسترام في عام ١٨٧٢ ولذلك فان وردات المثلثات المقلوبة كلها غير

موجودة . والنباتات هنا أصغرحجما وأكثر عـددا . في المثلثات الأول والثاني والخامس من البرج تبدأ لولبتان مـن الكرمـة من مزهرية في الوسط أما في المثلث الثالث والرابع فإنهما تبدآن من الأرض بينما يوجد في وسط المثلث الثالث ما يسمى « بشجرة النخيل » وهي حلية غريبـة تظهر أيضاً على عوارض الوصـل في قبة الصخرة . ويتألف الجـذع المستقيم الطويل من ساقين نولبيين فوقه حلية على شكل جناح يسميها سترز يغوفسكي « شجيرة النخيل الطائرة » . أما فيما يتعلق بالمثلثات الأربعة الأولى من السور شرقي البرج الذي لم ينتقل إلى برلـين نسوء الخط فانها إما تهدمت أو استخدمت كمواد بناء مثل وردة المثلث الثالث التي وجدت فوق باب أحد البيوت في قرية زيزا أما المثلث الاخير فقد نقل بكامله تقريبا إلى برلين . ويوجد في الوسط رصيعة كبيرة أما الجوانب فتوجد رصيعتان صغيرتان وكلها فوق خلفية من النبات والفواكه التي لا توجد بينها وبين الرصيعات أية صلة عضوية .

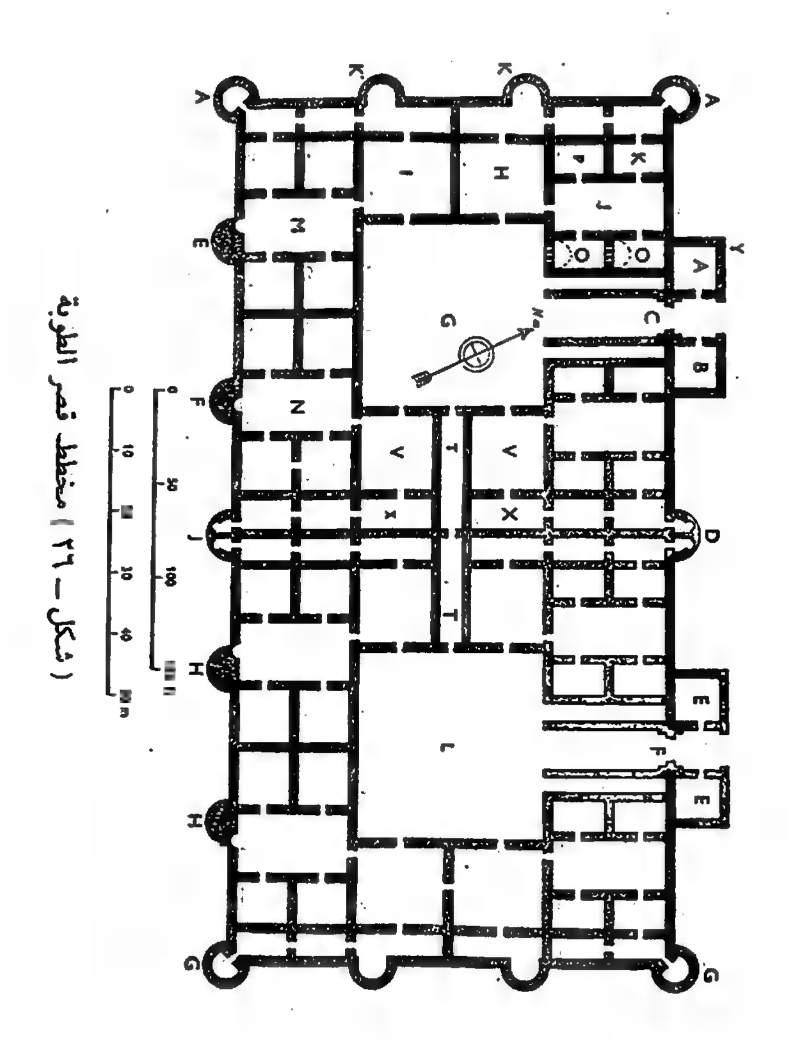
وقبل مناقشة تاريخ المشتى وأصوله المعمارية سأقوم الآن بوصف قصر الطوبة لأن الاثنين لا بد وأنهما يعودان لنفس التاريخ .



قصر الطوبــة

الوصف :

يقع قصر الطوبة في وادي غدف حوالي ٦٠ ميــلاً جنوب شرق عمان . اكتشفه موسيل في عام ١٨٩٨ م قبل بضعة أيام مــن اكتشافــه لقصير عمره . وهو قصر ضخم مستطيل الشكل (لوحــة ــ ٣١ ــ ب وشكل ٢٦) باتجاه شرقي غربي بطول ١٤٠ر٥ مترا وعرض ٧٢ر٨٥ مترا أي أنه مربع مزدوج تقريباً . يمكن اعتباره في الحقيقة بناءين متناظرين كل منهما مربع يزيد طول ضلعه عن ٧٠ مترا بنيا بجانب بعضهما ويتصلان بواسطة باب في وسط الجدار المشترك يمكن الوصول إليه بممر ليست له أية وظيفة أخرى . الجانب الغربي سليم تقريباً كما توجد أيضاً قطــع عديدة من السور قائمــة في الجانب الغربي بينما الجانبان الآخــران متهدمان تقريباً رغم أنه بالامكان متابعة مخططهما . البناء محاط بخمسة أبراج نصف دائرية على الجانب الجنوبي وببرجين على الجانب الشرقي والجانب الغربي بالاضافة إلى بــرج دائري في كل ركــن . في الجانب الشمالي يختلف الترتيب بسبب البوابتين F, C المحاطتين بغرفتــين مربعتين B_1, B لا تشبهان الأعمال الدفاعية على الاطلاق . وهناك وفي السور بين البوابتين برج نصف دائري متهدم أكبر من الأبراج الباقية . ويؤدي كل باب إلى ممر يؤدي مباشرة الى بهو مركزي كبير مســاحته ٣٠ م^2 تقريباً . وتدل الأقسام السوداء في المخطط على الأقسام القائمة بدرجات متفاوتة من الكمال . وفي الاقسام المظلّلة تهدمت الجــدران



(شكل – ٢٦) مخطط قصر الطوبة

بالكامل حتى مستوى الأرض ولكن يمكن اتباع آثارهـا بالتأكيد لأن الخطوط البيضاء التي تركتها الحجارة المتحللة ظاهرة بوضوح فوق اللون الأسود للأحجار البازلتية التي تغطي هذه المنطقة .

البوابـة C التي تؤدي إلى النصف الغربي من البناء ملاصقة لممر عرضه ٦ر٤٢ متراً وعلى جانبيه غرفتـان مربعتان تقريباً هما B و B_1 . وباب لغرفـة B تعترضه اسكفة مزخرفة باتقان (لوحة ٣١ ـ آ) وهي أجمل قطعة زخرفية في الطوبة فوقها قوس حمل الغرفة B_1 مشابهة للغرفة السابقة ولكن جدرانها بحالة أفضل .

تجب الإشارة إلى البرج D . فرغم أنه متهدم جداً ، فالبقايا كافية لتدل على أنه كان ينقسم داخلياً بجدار رقيق إلى ربعي دائرة . كل منها ذات ارتداد بسيط . وقياساً على قصر المشتى ، فإنني أقترح أنهما كانتا مرحاضين . والبوابـة F التي تؤدي إلى النصف الشـرقي مشابهة للبوابـة C ، من كل ناحية .

إذا اجتزنا الآن البوابـة C . نجد أنفسنا في ممر يمتد بـين جدارين متهدمين الى البهو المركزي . الذي يقع في جانبه الغربي بابان . يؤديان إلى بهوين صغيرين ، هما M_1, M . وتتألف الجدران هنا من ثلاثة مداميك من الحجر المنحوت ، والمداميك التالية من الآجر تماماً ، كما في المشتى . وهناك بـاب صغير الذي لاتزال عضادته العموديـة الشرقية قائمة جزئياً ، ومزخرفة باتقان . ويؤدي إلى بهو N عرضـه ٧ر٩٢ مترا وعلى كل من جانبيه غرفتـان سقفا الشـرقيتين منها قناطر اسطوانية من الآجر . وأبواب الغرف الأربعة مطابقة تماما لابواب البناء

الرئيسي في المشتى . والقناطر مشابهة أيضاً لقناطر المشتى من كل ناحية . ولكن مقطعها العرضاني مدبب قليلاً . والغرفتان P_1, P على الجانب الآخر من البهو تتوافق من كل النواحي عدا كونها غير مقنطرة . رغم أن هناك بضعة آجرات موضوعة لتبرز في قمة الجدران الجانبية ، لتكون جاهزة لارتكاز القنطرة .

أما الغرف القائمة على الجانب الآخر من ممر الدخول ــ بينه وبين البرج D ــ وهي توافق تماماً الغرف المرصوفة أعلاه وأبعادها تقريباً مطابقة ولكن البناء هنا لم يصل إلى مرحلة الغرف السابقة لأنه لم يتم سوى بناء المداميك الحجرية الثلاثة والجدران لم تصل إطلاقاً الى أحجار الوصل المتروكة لهذه الغاية في الجدار الخارجي .

والترتيب في الجانب الجنوبي مطابق للجانب الشمالي غير أننا ــ نظراً لعدم وجود البوابات والممر الطويل ــ نجد البيتين أكثر عرضاً ــ بشكل يجعل من المستحيل قنطرتهما لأن الجدران رقيقة جداً ولذلك فمن المرجح أن كل هذه المستطيلات ــ باستثناء المستطيلين في النهايتين ــ مجرد أحواش مفتوحة ذات جدران بارتفاع ٤ أمتار حيث كان أتباع الأمير من البدو يخيمون . ويجب أن أذكر الآن المحرابين اللذين يشكلان جزءاً من الكتلتين العمرانيتين اللتين لاشكل لهما والمتبقيتين من البرجين I , I_1 . نظراً لأنهما يقعان على محور البهو R, R_1 بالترتيب فبالامكان الافتراض بأن النية هي اتخاذهما كمحرابين .

الزخرفة في البناء بكامله محصورة في عضائد الأبواب واسكافاتها وخير مثال عليها عارضة باب B (لوحة ٣١ ــ آ) وعضائد الأبواب المؤدية من M الى N ومن L الى M_1 ومن M_1 الى R . ويبدو أن النصف الشرقي من البناء نسخة طبق الأصل عن النصف الغربي .

تاريخ المشتى وقصر الطوبة

يمكن معالجة هذا الموضوع كمسألة واحدة لأن هـذين البناءين متشابهان في أمور كثيرة وبالتالي فإنهما يعودان لنفس التاريخ ـ ومهما كانت النتيجة التي نصل إليهـا بخصوص تاريخ أحدهما فهي مقبولـة بالنسبة للآخر ـ ونقاط التشابه هي التالي :

١ ــ الحجر مستعمل في الجدران الخارجية والآجر في الجـدران الداخلية فوق ثلاثة أو أربعة مداميك من الحجر المنحوت ـ

٢ ــ حجـارة الوصل في جـدار السور لربط جـدران الداخل الآجرية ـ

٣ ـ حجم وبنية الآجـر ـ

٤ ــ الداخل مقسّم إلى بيوت ـ

٥ ــ قناطر آجرية ذات التواءات وحلقات آجريـة وفق نموذج مابين النهريـن ـ

٦ ــ مقطع مدبب للقنطرة ـ

٧ ــ نوافذ دائرية في غرف مقنطرة ـ

٨ ــ بنية المداخل ـ

٩ ــ المراحيض في الأبراج ـ

١٠ ــ زخارف مجنحة وزخارف زنبقية في تزيين كل منهما ـ

١١ ــ عدم اكتمال كل منهما ـ

المشتى ـ كما أشار فان بريشيم ـ أثر تاريخي أسال من المداد أكثر من أي أثر تاريخي آخر في سورية . ولكن لايتسع المجال هنـا لتكرار موجز المناقشات التي دامت مدة جيلين والذي ذكرته في عـام ١٩٣٢ . يجب أن أقتصر على القول أن الأنساب الثلاثة المقترحة هي (١) اللخميون (٢) الغساسنة (٣) الأمويون . وسأسرد الآن اعتراضاتي علـى النسب اللخمي والغساني وحججي المؤيدة للنسب الاموي .

الاعتراضات على النسب اللخمي :

من بين كل النظريات المقترحة بهذا الخصوص تبدو نظرية النسب اللخمي أكثرها خيالية . فبناء على نقش نبطي عربي في نمارا على أطراف الصفا يسجل دفن رجل يسمي نفسه مار القيس بار عمرو ملك كل العرب في اليوم السابع من كسلول ٢٢٣ (٧ كانون الأول ٣٢٨ نبع الاقتراح بأن هذا الرجل هو أمرؤ القيس بن عمرو الذي يظهر اسمه في قائمة الملوك اللخميين . ولكن ليس هناك مايدل على أن اللخميين توطنوا في الحيرة في هذا التاريخ المبكر كما أنه ليس هناك أي دليل على أن امرأ القيس هذا كان من أتباع الملك الفارسي . ولو كان كذلك فمن غير المرجح أن الفترة المستخدمة للتعبير عن تاريخ وفاته هي فترة بصرى التي بدأت عام ١٠٦ ميلادية عندما أوجد الرومان المقاطعة العربية .

يعتقد نولدكه أن التعليل البسيط هو أن امرأ القيس هـو لخمي تابع للرومان كما يتضح من كلمات النقش القائلة بأن قبيلته عاشت على الحدود الرومانية كالأمراء الغساسنة فيما بعد وأن أحفاده لسبب لايزال غامضاً عبروا الصحراء للوصول إلـى الجانب الفارسي واستوطنوا في الحيرة وأصبحوا أتباعا للملك الفارسي كما يخبرنا سيميونستيليتيز .

ولكن بعد الاستيطان هناك ليس لدينا أي دليل يرينا أن سلطة ملـوك الحيرة امتدت إلى الأردن حيث يقترح دوسو أن أحدهم بنى قصر المشتى وحتى لو توفر الدليل فهل من المعقول أن يبني أحدهم مقراً فخمـاً على بعد ٥٠٠ ميلاً عن عاصمته وعلى بعد بضعة أميال فقط عـن الحصون الحدودية الرومانية • الاجابة بالنفي لانه عندما يكون الرومان أقوياء فمن المستحيل حـدوث ذلك وعندما يكون الرومـان ضعفاء وتكون مواردهم شحيحة فان الغساسنة (أعدى أعداء اللخميين) هم الذين حلّلوا محلهم ودافعوا عن حدودهم هناك كأنصار لهم •

الاعتراضات على نظرية الغساسنة :

من الناحية التاريخية تبدو نظرية الغساسنة أصح من نظرية اللخميين لأن الغساسنة احتلوا بالفعل الحدود الشرقية في سورية من نهر الفرات حتى الأردن بدءاً من عام ٥٠٠ م على الأقل • ولكن هناك ثلاثة اعتراضات

(١) الغياب الكلي للرموز المسيحية ــ كما يقول ليتمان ــ يرينا أن المشتى لا يمكـن أن يكون قد بناه هؤلاء المسيحيون اليعاقبـة المتعصبون •

(٢) من المشكوك فيه أن تكون لدى أحدهم ــ ولو كان أكثرهم شهرة ــ الموارد الهائلة اللازمة •

(٣) كيف يمكن لعرب سورية الواقعين تحت الحماية البيزنطية إقامة المباني ذات الطابع الفارسي وطابع بلاد ما بين النهرين • وهؤلاء الذين تبنوا النظرية اللخمية إنما فعلوا ذلك لتجاوز هذه الصعوبة •

هذا الاعتراض الأخير اكتسب قوة الآن • فعمارة الغساسنة لم تعد كمّاً مجهولاً كما كانت في السابق لأنــه تم التعرف على أربعـة مباني

غسانية وهناك خامس وسادس محتمل . فالمبنى الأول هو إما كنيسة أو قصر لقائد خارج البوابة الشمالية للرصافة بناه المنـذر نفسه (٥٦٩ ـ ٥٨٢ م) وفيه نقش يوناني باسمه فوق نوافذ المحراب . مخططه صليب في مستطيل وهو مبني من الحجارة بما في ذلك القناطر دون أي جزء من الآجر . وتيجان أعمدته تشبه أعمدة قلعة سمعان . إنـه مبنى سوري خالص . والمبنى الثاني هو البرج الحجري قرب الصخير وهو برج ركن بناء اختفى . والمبنى الثالث هو البيت في الحيات على سفوح حـوران الشمالية الذي بناه ـ حسب النقش ـ فلافيوس سيوس (وهو اسم نبطي روماني) مدير المال في عهد المنذر في عام ٥٧٨ م . كل الغرف ذات أقواس متصالبة تحمل سقوفاً وأطنافاً من الربد الحجري وهو الطـراز الحوراني الأصيل . والمبنى الرابع هو الدير ذو البرج في قصر الحـير الغـربي الذي بنـاه الحارث بن جبلة في عام ٥٥٩ م . والمبنى الخامس المحتمل هـو القلعة في عمان التي تشبه المبنى الأول إلى حد كبـير . والمبنى السادس المحتمل هو القسطل .

الردود على الاعتراضات ضد النظرية الاموية :

يقول بريشيم : « لدينا اعتراض مأخوذ من علم النقوش وكل الآثار الاسلامية تحمل نقوشا وهذه النقـوش تشكل جزءا مـن العمارة أو الزخرفة ... فشريط نقوش زخارف عبد الملك في قبة الصخرة مشهور جداً . ونقوش الوليد في مسجد دمشق ومكة لابد وأنها اختفت ولكن المؤلفين حفظوا نصوصها ... ليس هناك مايشبه ذلـك في المشتى أو القصور المماثلة له » .

لو أخذنا هذه الآثار واحداً بعد الآخر حسب ترتيبها الزمني فسنرى أن هذا الاعتراض ليس له ما يبرره تماماً . صحيح أن هناك شريطاً من

الكتابة الكوفية الرائعة في قبة الصخرة ولكننا رأينا أن نقش التاريخ في دمشق موجود « على لوحة رخامية في الحرم قرب السقف بجوار المئذنة » وفي مسجد عمرو في الفسطاط تاريخ (رمضان ٩٢ = حزيران / تموز ٧١١) أعيد البناء من قبل قـرّة بن شريك مسجل على ما يبدو علـى « اللوحة الخضراء » المفصلة . وفي قصير عمرة وحمام الصرخ في القسم الخارجي منه لا يوجد أي نقش على الاطـلاق . وليس في قصر الحير الشرقي أي نقش على أي من البناءين أما في المسـجد فالتاريخ محفور على لوحة على إحدى العضائد . والواجهة الشرقية (حتى الأفارين) في حرّان المحفوظة جيداً بسيطة تماماً . وفي الرقة ليس هناك أي نقش على بوابة بغداد المحفوظة جيداً وكذلك الحال بالنسبة للأخيضر . وفي قرطبة منطقتا الفترتليد القديمتان من المسجد الكبير بسيطة تمامـاً وكذلك في القيروان . وأول مثـال على التاريخ المنقوش الذي يشكل جـزءاً من العمارة والزخرفة فهو موجود في مسجد بومظاطة في سوسة الذي بني بين عام ٢٢٣ وعام ٢٢٦ هـ (٨٣٨ ــ ٨٤١ م) .

وبمعنى آخر نستطيع القول أنه في العمارة الاسلامية الأولى تبدو الأجزاء الخارجية على العموم تقريباً بدون تاريخ منقوش ماعـدا أعلى المدخل أحياناً . وغياب التاريخ المنقوش على الجزء الخارجي من المشتى لا يدهشنا ، فلو وجد هناك تاريخ منقوش لكان بالتأكيد فوق المدخل (كما في قبة الصخرة) ولكن المدخل لسوء الحظ أتم ثلثا ارتفاعه فقط . وبالنسبة للداخل ستنطبق عليه نفس الملاحظة . فلو كانت هنالك تواريخ لوجدت محفورة بالفسيفساء أو ملونة على الجص لكن الزخرفة الداخلية لم تبدأ مطلقاً ماعدا وضع بعض الحجارة الخضراء للأجزاء السفلية من

الجدران . لم يبلغ المشتى المرحلة التي يصبح فيها تزيينه بالنقوش الكتابية ممكناً .

ويثير فان بريشيم اعتراضاً آخراً وهو أن المشتى لايمكن أن يكون أموياً لأنه محصّن بينما الحدود الأموية كانت فيما وراء النهرين محصنة في حين كانت البلقاء (شرق الأردن) موطن الأمويين حيث هم بين أهليهم ولا حاجة لهم للتحصينات .

رأينا سابقاً أن الأمراء الأمويين عاشوا أحياناً في قلاع رومانية حصينة مثل الأزرق وقصر الحلابات . وقصر البخرا ، وعندما بنوا قصوراً لأنفسهم في المنية . وقصر الحير . شعروا بضرورة تقليد هذه القلاع ؛ وأسبغوا على قصورهم مظهراً تحصينياً .

وقصر الحير يرد على اعتراض آخر من اعتراضات فان بريشيم . كيف يمكن للمشتى أن يكون أموياً ؟ في حين أن الخلفاء الأمويين بنوا أوابد سورية ؟ بناء قصر الحير يثبت أنهم بنوا الأوابد بطراز مختلط ، وهذا الاختلاط بدأ منذ عام ٦٩١ م في فسيفساء قبة الصخرة .

الأسباب التاريخية للنسب الاموي :

في المقام الأول ــ من الواضح أن حاكماً قوياً يمتلك ثروات كبيرة ، هو وحده القادر على التفكير في إقامة بناء كقصر المشتى ويدل هذا على الفور إلى خليفة أموي . بينما من المشكوك فيه كما يشير ــ لامنس ونولدكه ــ أن تتوفر مثل هذه المصادر لأي من الغساسنة . وسبب آخر لصالح الفترة الأموية ، هو الحقيقة القائلة بأن البلقاء كانت منتجعهم المفضل ، وأن كتاب الأغاني يقول بصريح العبارة : أن الوليد الثاني بنى في هذه المنطقة . وحقيقة تاريخبة أخرى على قدر كبير من الأهمية :

.. وهي عادة الأمويين في تجنيد العمال من ارجاء الامبراطورية . والتعبئة كانت تتم كما رأينا في المسجد الكبير في المدينة وفي دمشق والقدس . بينما لم يكن الغساسنة في وضع يمكنهم من تجنيد العمال من العراق ومصر . الا أن المشتى يحمل علائم كما سنرى بأن عمالاً مهرة من هذين الاقليمين عملوا فيه .

وأخيراً . لدينا النص من سفيروس بن المقفع الذي أشار إليه لامنس أي « بدأ الوليد الثاني ببناء مدينة في الصحراء . سماها باسمه . ولكن المياه كانت تبعد عنها حوالي ١٥ ميلاً . فجمع العمال من جميع الجهات ، وبنى هذه المدينة بالسخرة وماتت أعداد كبيرة منهم بالارهاق وقلة المـاء بالرغم ان المياه كانت تحمل الى ذلك المكان على ظهر ١٢٠٠ جملاً يومياً ، فإن كمية المياه لم تكن كافية وكانت الجمال تأتي كقافلتين بالتناوب ، تضم كل واحدة منهـا ٦٠٠ جمـل إلـى أن ثـار علـى الوليد رجل يدعى ابراهيم (لعله ابراهيم بن الوليد الذي حكم لفترة قصيرة) واستولى على الحكم واطلق العمال الذين عادوا لديارهم قبل ان يتم البناء [١] .

يقول لامنس : أن الموقع الجغرافي يلائـم المشتى . وأن مسافة ١٥ ميلاً هي بعد المشتى عن عرنون (المجيب) . كما يشير أيضاً إلـى

---

(١) سايروس او ساويروس بن المقفع مؤرخ قبطي صاحب كتـاب « تاريخ اعلام الكنيسة الذين جلسوا على كرسي بطريركية الاسكندريـة وهو مايسمى ايضا كتاب « تاريخ بطارقة الاسكندرية » وقد عاش في القرن العاشر الميلادي وهو اسقف اشمونين . اذن لـه الخليفـة المعز لدين الله الفاطمي بمناظرة القضاة المسلمين في المسائل الدينية وكان من اتباع الطبيعة الوحدة .

أن هذه القصة : تعلل سبب وعد يزيد الثاني ـ عند اعتلائه الخلافة ـ بعدم انفاق المال على تشييد الأبنية ٠

دعونا الآن نسرد الأسباب الرئيسية للنسب الأموي :

١ ـ إن الآجر أو الخليط من الآجر والحجارة غريب عن العمارة الكلاسيكية في سورية ، وغير معروف على الاطلاق قبل النصف الثاني من القرن السادس٠وأول مثال نجده على ذلك هو المعسكر في عَنْدَرين في عام ٥٥٨ يليه قصر ابن وردان (قصر وكنيسة ومعسكر) في عام ٥٦١ ـ ٥٦٤ م ٠ ولكن لا يمكن اعتبار المشتى جزءاً من هذه المجموعة لأسباب فنية : ففي أعمال الآجر البيزنطية ، تعادل طبقات المونة بين المداميك الآجر الرقيق المستخدم ، ليس في القسطنطينية فقط ، بل في سورية أيضاً ٠ بينما في الأعمال الإسلامية الأولى ، تكون طبقات المونة أقل ، وطبقات الآجر أكثر سماكة ٠ في هذا الخصوص ، أعمال قصر المشتى وقصر الطوبة الآجرية متطابقة مع قصر الحير أو مع بوابة بغداد في الرصافة ٠

٢ ـ ليس هناك أي مثال للأقواس المحمولة على دعائم ربط مع العمارة السورية قبل العصر الاسلامي ٠

٣ ـ أقواس المداخل مختلفة من حيث البناء عن أقواس قصر ابن وردان ٠

٤ ـ القناطر ذات المقطع القوسي المدبب ، كما في المشتى ، حيث المسافة بين المركزين تساوي $\frac{1}{5}$ الباع ،لا يمكن أن تعود لأقدم من القرن الثامن كما نرى من القائمة الواردة في صفحة ١٠٣/١٠٤ ٠

٥ ـ ويمكن أن نضيف إلى ما سبق الدليل الجديد ، الذي تقدمه الزخرفة على دعائم الربط والفسيفساء في قبة الصخرة ٠ فعلى سبيل

المثال هناك زخارف تمثل نماذج ناتئة دائريــة تحت المثلثات في المشتى (حيث تشكل سيقان الكرمة حلقات دائرية ، تمتلىء كل منها بعنقود من العنب وورقة كرمة خماسية مدبية) لا يمكن مطابقتها بأية زخرفة سابقة للاسلام . ولكنها تطابق زخرفــة إحدى دعائم الربط في قبــة الصخرة (لوحــة ٩ ــ ب) .

٦ ــ في قصر الأخيضر العباسي القديم ، نجد أربعة بيوت مرتبــة على يمين ويسار بلاط الشرف وقاعــة الاستقبال ، التي كان الغرض منها إسكان الزوجات الشرعية الأربعــة للأمير المسلم الذي بناه . وبالتأكيد، فإن البيوت الأربعة على جانبي قاعة الاستقبــال في المشتى ، والبيوت الأربعة في مجموعتي قصر الطوبة لايمكن أن تعني إلا ان هذه القصور بناها أمراء مسلمون .

٧ ــ وفي الأخيضر هناك قاعة دخول ، وعلى جانبها الأيمن (جانب الشرف) بهو مسجد فيه محراب . كما يوجد في المشتى أيضاً على يمين المدخل بهــو ، وفي وسط جداره الجنوبي حنية وعلى جانبيها ارتدادات لاستيعاب الأعمدة . وهذا لا يمكن إلا أن يكون محراباً .

ولذلك أعتقــد أن المشتى وقصر الطوبــة ، لأسباب تاريخيــة ، ومعمارية . هما بناءان أمويان بناهما . على الأرجح . الوليد الثاني في عام ٧٤٣ ــ ٧٤٤ م ، وتركهما دون إتمامهما عند موته .



الأصول المعمارية للمشتى

القاعـة ذات المحاريب الثلاثـة :

دعونا نحاول ترتيب الأمثلة القديمـة حسب التسلسل الزمني :
لنترك جانباً الأمثلة الكلاسيكية ، ذات الفناء المفتوح ، الذي تحيط بـه اللواوين من ثلاث جهات ، لأنها لا علاقة لها بالمشكلـة الحالية . وذات يوم اعتقدت أن أقدم الأمثلة يمكن أن توجد في الحمامات الرومانيـة . ولكنني كلما أكثرت من التفكير فيها ، كلما ازداد شكّي في صحة ذلك. فعلى سبيل المثال ذكرت بتحفظ قصـر ديوقلسيان في سبالاتو (٣٠٣ ـ ٣٠٥ م) ، حيث لا نجـد فيه اليوم الجـزء الذي يحتوي على ورقـة البرسيم الذي نراه في مخطط آدم . فحتى القبو تحت الطابق الرئيسي ، اختفى الآن . وأعتقد أن آدم قد أعاد تصميمه من دلائل غـير كافية . ويؤيدني في ذلك أن كليريسو ، الذي رافق آدم رسم مخططاً آخر يظهر المحراب الأوسط فقط. ومثال آخر ذكرته في عام ١٩٣٢ هو ثيلابتا لكني أشك فيه الآن . زرت ثيلابتا قبل عشرين عاماً ، واستطعت التعرف على معظم العناصر في مخطط صلاح الدين . بما في ذلك الغرفتان المستطيلتان في الجانب الغربي ، ولكل منهما حنية في كل جانب ، دون أن تظهر حنية ثالثة ، تبرز خلف الجدار الغربي . واختفى الجدار الغربي في مكانـين هامين . ولم يكن هناك شيء سوى الأرض المجردة . وبما أن صـلاح الدين لا يتحدث عن القيام بأية تنقيبات . فإنني أعتقد أن الحنية الثالثة هي مجرد افتراض. ويلي ذلك في التسلسل الزمني الأبنية الثلاثة الصغيرة

المتهدمة في مقبرة كاليكستوس على طريق آبيا أتتيكا ، قرب مدينة روما .

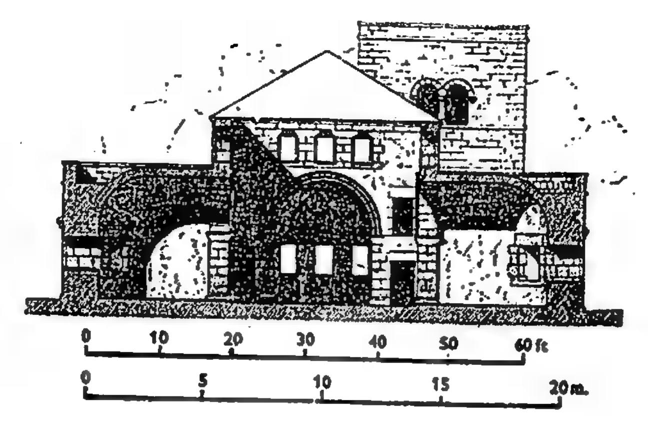
١ ــ القديس زيستس والقديسة سيسيليا .
٢ ــ القديس ستوريس .
٣ ــ بناء متصل بالقديس سينغوروسا عند حجر الميل التاسع على طريق تيبورتينا .

اعتبرت هذه الأبنية الصغيرة حتى زمن متأخر ، بأنها من القرن الثالث . ولكن يبدو الآن أن الحنيتان الجانبيتان في البناء الأول ، هما إضافات لاحقة .

ولكننا الآن ، نقف على أرض أصلب عندما نأتي إلى كنيسة القديس يوحنا المعمدان في القدس ،التي بنتها الامبراطورة يودوسيا بين عام ٤٥٠ وعام ٤٦٠ م . حيث نجد ثلاثة محاريب كبيرة يتقدمها ممر ولكن بدون صحن ، وهذا بالتأكيد أفضل مثال في سورية .

ويوجد عدد من الأمثلة في شمال أفريقيا . ولكن من المشكوك فيه فيما إذا كان أي منها يعود إلى ما قبل منتصف القرن الخامس .

ولكن أين ومتى استخدم مخطط ورقة البرسيم لأول مرة في قاعة العرش ؟ فعلى ما يبدو في بصرى وفي حوران نجد مثالاً كاملاً في القصر البطرقي (شكل ــ ٢٧) ، الذي يعتقد بتلر أنه معاصر للكاتدرائية (٥١٢ ــ ٥١٣ م) . إنني أسجل هنا مخطط بتلر لأنه قريب الشبه من القاعة المثلثة ــالمحاريب في المشتى وبما أن الجزء الرئيسي له منور ، ومؤلف من ثلاث نوافذ في كل جانب ، ومسقوف على الأرجح بسقف هرمي كما نرى في الدير الأبيض في سوهاج .



(شكل ـ ٢٧) بصرى ـ مخطط ومقطع قصر المطران

والأمثلة لاستعمال المحاريب الثلاثة لقاعة الاستقبال ، يبدو أنها غير موجودة . خارج سورية . إلا في فترات لاحقة . وأقدم الأمثلة التي أعرفها هي :

١ ـ رافينا : قصر البطريق ـ القرن السابع إلى القرن الثامن .

٢ ـ آخن : آولا ريجيس شارلمان .

٣ ـ روما : تريكلينيوم (قاعة طعام) البابا ليو الثالث ـ ٧٩٥ ـ ٨١٦ م .

٤ ـ القسطنطينية : التريكونكوس (قاعة المحاريب الثلاثة) ، المبني في قصر الامبراطور ثيوفيلوس عام ٨٣٩ م . لها ثلاثة محاريب ـ شمالي وشرقي وجنوبي ـ كما توجد في الجهة الغربية ثلاثة أبواب .

وهكذا يبدو أن عادة استعمال مخطط ذي ثلاثة محاريب لقاعة العرش . بدأت من سورية . وأخيراً ما هي أقدم الأمثلة لدمج الثلاثة مع قاعة بازيليكية ؟ ولحسن الحظ من السهل الإجابة :

١ ــ نولا . بازيليكابولينوس حوالي ٤٠١ ــ ٤٠٣ م .

٢ ــ سوهاج ــ الدير الأبيض حوالي عام ٤٤٠ م .

٣ ــ سوهاج ــ الدير الأحمر عام ٤٤٠ م .

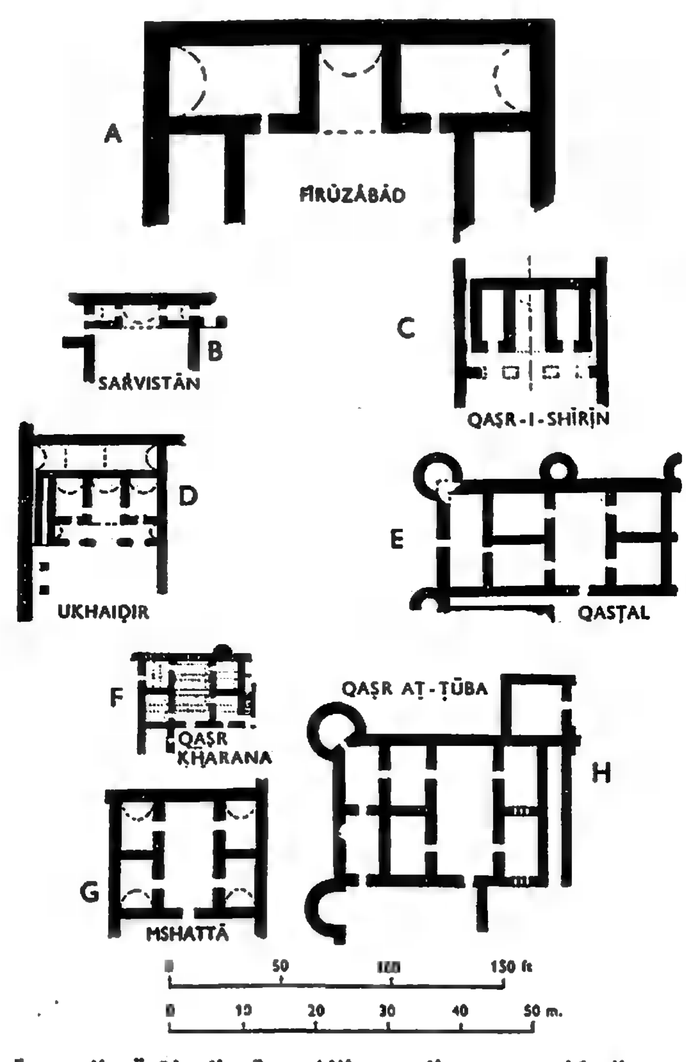
٤ ــ دنديرا ــ بازيليكا ــ نهاية القرن الخامس .

٥ ــ بيت لحم ــ كنيسة المهد ــ تعديل جستينيان أي قبل عام ٥٦٥ م .

وهكذا نرى ، أنه من بين الأمثلة الخمسة الأولى لهذا النمط ، توجد ثلاثة منها في مصر . ولذلك استنتج أن تبني هذا النمط لغرفة العرش . أو قاعة الاستقبال حدث في سورية ، لأول مرة . وأن التطور اللاحق حيث تتقدم القاعة البازيليكية (قاعة المحاريب الثلاثة) هو تطور يعود إلى التأثير المصري .

البيوت :

ترتب الغرف في القصور الشرقية القديمة ثلاثاً . أو خمساً . حول بهو / فناء . بحيث أن كل مجموعة تؤلف وحدة مستقلة ــ بيتاً . وهذا بالضبط ما نجده في المشتى . ولكن هذه البيوت ، تختلف عادة عن تلك الموجودة في القصور الساسانية وهذه النقطة تجاهلها الجميع حتى الآن . في مدينة قصر شيرين في قصر كسرى برويز (٥٩٠ ــ ٦٢٨ م) نجد ليواناً غميقاً وغرفاً حوله ، تفتح كلها على رواق ثلاثي الأقواس . كما أن هناك ممراً جانبياً يؤدي إلى بهو في الخلف (شكل ٢٨) . في الأخيضر (شكل ٤٠) الترتيب تقريباً متطابق أي أن العباسيين اتبعوا التقاليد الساسانية . ولكن البيوت في سورية مختلفة تماماً . وقد وصل إلينا



(الشكل ــ ٢٨) البيوت الفارسية والعراقية والسورية

مثالان منها وفي كليهما يشبه الترتيب ترتيب المشتى وقصر الطوبة . فالمثال الأول هو القسطل الذي يبعد أربعة أميال تقريباً غرب المشتى . ونجد هنا ستة بيوت مرتبة حول الداخل بحيث يتبقى بهو مركزي .

أما من الخارج فهي تشبه قلاع خط الحدود الروماني . بينما الترتيبات الداخلية لاتشبهها أبداً . انتقلت مسؤولية الحدود في القرن السادس إلى الأمراء الغساسنة ، وهذا يدعوني إلى الاعتقاد . بأن القسطل بني لأحد هؤلاء . الأمراء . ويؤيد ذلك حمزة الأصفهاني (القرن العاشر) الذي يقول أن بانيه هو جبلة بن الحارث . ونجد ترتيباً مشابهاً للغرف في الطابق الأعلى من قصر الخزنة . الذي اعتقد أنه يعود إلى ما قبل الاسلام . فالبيوت هنا مطابقة لبيوت المشتى بينما في بيوت القسطل ـ حيث أضيفت غرفتان صغيرتان في أحد الجانبين ، تؤديان إلى البرج الركني (مرحاض) ـ تشبه بيوت المشتى إلى حد كبير . ولذلك وعن هذه الزاوية فإن المشتى وقصر الطوبة سوريان لا فارسيان .

زخرفة الواجهة :

يمكن تقسيم زخرفة مثلثات المشتى بكل سهولة إلى أربع مجموعات كما يلي : C - A (ثلاثة مثلثات) : هذه المجموعة تتميز بالخصائص التالية : (١)تقسيم المنطقة إلى جزئين بواسطة شريط أفقي يلامس الطرف الأسفل من الوردة (٢) الأشكال الحية مقصورة على الطيور ما عدا القطعة ذات الرأس البشري في رأس المثلث A . (٣) في المثلثين A و C الجزء الأسفل ممتلىء بأربع دوائر متماسة وتسع دوائر متقاطعة بالترتيب، وكلها مربوطة ببعض عند نقاط تماسها .

D و L (سبعة مثلثات) في هذه المثلثات حيوانان متجابهان

(البعض خرافي) وفي كل حالة (ما عدا في j و k) يوضعان على جانبي كأس مركزيـة .

M و T (ثمانية مثلثات) تسود في هذه المثلثات لفائف الكرمـة . وليس فيها طيور ولا حيوانات .
وبالاضافة إلى ذلك فاللفائف مختلفة عن اللفائف الطبيعـية الموجـودة فـي A و L .

U و V (مثلثان) خليط عجيب من العناصر الزخرفيـة : مخروطات الصنوبر . والنخيلات المجنحـة ، الخ . وعلى هـذا الأساس يمكننـا الاعتراف بسهولة أن مجموعـات متعددة من الفنانين عملت في هـذه الواجهـة . فمن أي الأقطار أتوا ؟ عندما نصل إلى معالجة الكرمة نجد ميزتين ملحوظتين نادرتين جداً . بشكل لا يمكن معها الشك في أهميتهما (١) وضع ثلاثة حبات عنب صغيرة على كثير من ورقات الكرمة الخماسية في منطقة اتصال الأوراق بالساق . (٢) عناصر الزخرفة الناتئة المستديرة لنعل الجدران وأعمدة الأبواب وللقوس الداخلي للقاعـة البازيليكيـة مزخرفة بساقي كرمة متماوجتين ، يتقاطعـان باستمرار ليشكلا أشكالاً بيضوية مدببة . ونقاط التقاطع في الشكل الثاني والأخير متميزة بوردة صغيرة . وهذه الميزة نجدها أيضاً في قصر الطوبة على هيكل البـاب بـين M و N .

وبخصوص الميزة الأولى أظهر سترز يغوفسكي بأنهـا ميزة بعض أعمال الحفر العاجي القبطي ، ويذكر عدة أمثلة منها . أحدها في المتحف المصري . وأخرى من مجموعة فوكيت ، وهناك واحدة في اللوفر . ويمكن إضافة مثال رائع إليها في مجموعة بناكي التي اشتريت في مصر .

أما بخصوص الوردة عند تقاطع ساقي الكرمة المتماوجين ، فالشبه الوحيد الذي وجد حتى الآن هو في باب من كنيسة القديسة بربارة في القاهرة القديمة ، والموجود الآن في المتحف القبطي • ويعود تاريخه إلى القرن الخامس على الأرجح •

وبما أن هذين العنصرين قد وجد قبل الاسلام • في الأعمال القبطية ، حصراً ، فإن ذلك لا يترك سوى حيزاً ضيقاً من الشك في آن زخرفة الكرمة المشار إليها ، بالاضافة إلى أوراق الكرمة والطيور في المثلثات A — L قد تم من قبل صناع أقباط جندهم الخليفة العظيم ، كما رأينا في حالة تجنيدهم لأعمال دمشق والقدس والمدينة • ولكن حتى في هذا المجال هناك تسرب للنفوذ الفارسي ، لأننا نجد في وسط لفائف الكرمة حيوانات خرافية مأخوذة من الفن الساساني • كما في حالة عنصر الزنبقة الذي نراه في فسيفساء قبة الصخرة الهيلينستية •

أما بخصوص المثلثات M و T والمثلثات U و V • فإن ظهور النخيلة المجنحة في العديد منها يشير إلى التأثير الفارسي •

★ ★ ★

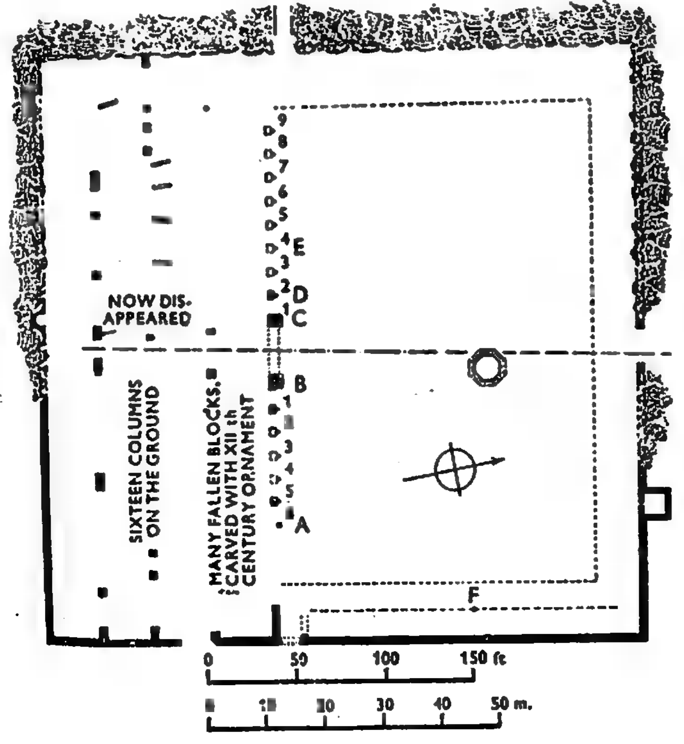
المسجد الكبير في حران

الوصف :

مسجد حران الكبير ، مستطيل ، مساحته ١٠٠ م٢ تقريباً ، مبنى من الأحجار المربعة المنجوتة بمداميك ، متوسط ارتفاعها ٣٧ سم . وأفضل جزء محفوظ منه هو الجدار الشرقي الذي نجد النصف الشرقي منه سليماً ، تقريباً ، ماعدا فجوة في الوسط بطول ٦ أمتار تقريباً . والقسم الأخير منه قدره ٩ر٤٢ متراً منحرف إلى الغرب مقدار ٦٠ سم . وهناك مدخل مهيب شمال واجهة الحرم مباشرة ، كما في دمشق . اختفى الجدار الغربي تقريباً ،ولكن يبدو أنه كان هناك مدخل في هذا الجانب مقابل للمدخل المذكور ، لأنه بالامكان رؤية آثار جدارين متوازيين يبعدان عن بعضهما ٧٥ر٢ متراً ، يؤديان إلى هذه النقطة . وقد بقيت عدة مداميك من النصف الشرقي من الجدار الشمالي كما بقيت فتحة المدخل الشمالي أيضاً المتوضعة في المنتصف تقريباً (شكل ــ ٢٩) .

ويوجد في منتصف المسافة بينه وبين الزاوية الشمالية الشرقية عمود المئذنة المربع الطويل ، الذي يبلغ قطره الخارجي ٣ر٥ متراً وسطياً وقطره الداخلي ٨٣ر٣ متراً .

وفي الصحن حوض مثمّن محيطه الاجمالي ١ر٦ متراً . يقول بروسر أن محيطه المثمن يحمل علامات قواعد الأعمدة الواضحة وقطع عديدة من الأعمدة (التي كان غرضها حمل القبة) ملقاة بالقرب منها .



(الشكل ـ ٢٩) حران ـ مخطط المسجد الكبير

وهذا كله يعززه ابن جبير الذي يقول عن المسجد (١) .

« وهو عتيق مجدد قد جاء في غاية الحسن ، وله صحن كبير فيه ثلاث قباب مرتفعة على سوار رخام ، وتحت كل قبة بئر عذبة ، وفي الصحن أيضاً قبة رابعة عظيمة قد قامت على سوار من الرخام دور كل سدية تسعة أشبار وفي وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم دوره خمسة عشر شبراً . وهذه القبة من بنيان الروم ، وأعلاها مجوف كأنه

(١) ابن جبير الرحله ص ١٩٨

البرج المشيد ، يقال : انه كان مخزناً لعدتهم الحربية » .

وهكذا نجد أنها لم تكن مجرد قبة فوق أعمدة ، بل غرفة كروية فوق أعمدة . بل هو في الحقيقة بيت مال مثل مثيله في دمشق .

الحرم :

واضح من تفحص الوجه الداخلي للجدار الشرقي . أن الحرم تألف من أربعة أورقة ، تمتد من الشرق إلى الغرب . ولكن كل ما تبقى منه الآن هو عدد من العضائد ولا يزال عموداه قائمين مع عشرة أعمدة ملقاة على الأرض . والقوس الوحيد الذي لا يزال قائماً هو القوس المركزي الكبير للرواق الذي يلي الصحن . هذا الرواق يمكن إعادة تصميمه بفضل وصف ابن جبير له [٢] :

« والجامع المكرم سقف بجوائز الخشب والحنايا ، وخشبه عظام طوال لسعة البلاط وسعته ضمن عشرة خطوة ، وهو خمسة أبلطة مارأينا جامعاً اوسع حنايا منه ، وجداره متصل بالصخرة الذي عليه المدخل إليه مفتح كله أبواباً . عددها تسعة عشر باباً : تسعة يميناً ، وتسعة شمالاً والتاسع عشر منها باب عظيم وسط هذه الابواب ، يمسك قوسه من أعلى الجدار الى اسفله ، يمني المنظر جميل الوضع ، كأنه باب من أبواب المدن الكبار ولهذه الأبواب كلها اغلاق من الخشب بديع الصنعة والنقش . فتنطبق عليها على شبه ابواب مجالس القصور » .

ولنحاول الآن إعادة تصميم الواجهة . فالقوس المركزي من النوع المدبب ، وذو منحنى خارجي متدرج . إنه يرتكز على عضادتين عظيمتين،

---

(٢) نفس المصدر والصفحة .

ويبلغ بأعه ٨٫٣٢ متراً وإلى الغرب منه عضادة أصغر D ملتصق بهـا تاج ولكن العمود العائد لها مرمي على الأرض ، والوجه الخلفي لهـذه العضادة على خط واحد مع الوجه الخلفي للقوس لكبير ، وإلى الغرب من العضادة D يوجد عمود E من الحجر الكلسي الزهري اللون ، والمسافة من الجانب الغربي للعضادة D إلى مركز العمود تبلغ ٧٫٣٢ متراً أي أن المسافة بين المركزين ٨٫٠٢ متراً ، والوجه الخلفي لهذا العمود على خط واحد من الوجه الأمامي للعضادة D لذلك فإنه بكل تأكيد يخص عضادة مشابهة اختفت كما أنه من الواضح بأنه كان هناك دعامة أخرى مشابهة ، بينها وبين العضادة D وإذا أدخلنا عضادةأخرى بعرض ١٫٤ متراً ، نحصل علـى فتحتين كـل منهما بعرض ٢٫٦١ متراً ، وهي المسافة التي نريدها بالضبط ولو أدخلنا العضادات الأخرى تبعاً لذلك ، فإننا نجـد أن هناك مكاناً لتسعة أقواس بـين القوس الكبير للاتصال بالرواق الغربي ، ويمكن إعادة نفس العملية في الجانب الآخـر وبهذا نحصل على أقواس ابن جبير التسعة عشر .

وكل فتحة من هذه الفتحات الثمان عشر الجانبية ، كان يعلوهـا قوسان ، أحدهما يرتكز على العضائد ، وآخر أكبر منها يرتكز علـى الأعمدة المتصلة ، وهذه الأقواس الأخيرة كانت من نوع يميل إلى حدوة الفرس قليلاً وتشكل إطاراً للأقواس الأولى .

أما بخصوص داخل الحرم فإنني عاجز عن تقديم أي اقتراح لإعادة تصميم له ، لأن الشذوذ هنا غريب ، لا يمكن تعليله ، ويبدو أن دعائم الأروقة المختلفة لم تتوافق مع بعضها ، كما يبدو ، أنه لم يكن هنـاك نفس العدد من الأعمدة بين العضائد المختلفة ، وبالاضافـة إلى ذلك في

حين يبلغ باع القوس المركزي في الواجهة ٨٫٣٢ متراً فـإن باع القوس التالي هو ٦ متراً ، وباع القوس المركزي في الصف الخلفي هو ٣٫٣ متراً فقط ، كمـا أن محور المحراب يبعد ، أمتار إلى غرب المركز ، والتنقيب وحده هو الذي يقرر الشكل الحقيقي للمحراب .

التاريخ :

تفحص الواجهة الغربية يجعـل المرء يفكر بوضوح تام : علينا أن نتعامل مع فترتين على الأقل لأن هناك انقطاعاً كامـلاً بالتوصيل بـين القسم الثاني والثالث وارتفاع قاعدة الجملون الحجري إلى اليمين يصل إلى أكثر من ارتفاعه إلى اليسار ، ثانياً : الأقواس التي شكلت واجهـة الحرم في يوم من الايام متوضعة في حالتين تماماً ، كمـا سقطت واجهتها إلى الأمام فوق الأرض ، ولكن الأحجار في حالات أخرى تتوضع على جانبها أما الزخرفة فهي من طراز لا يمكن أن يكون أقدم من القرن الثاني عشر ، لأن هنالك قطعاً عديدة تحمل أجزاء من الكتابة بالخط النسخي ، تعلوها حافة من الزخرفة المؤلفة مـن الخطوط المتشابكة على شكل قطع صغيرة ، لا يمكن أن تكون أقدم مـن القرن الثاني عشر لأنه لا يعرف سوى نقش نسخي واحد قبل عام ١١٠٠ م ، أخيراً ، رأى ساخو نقشـاً على يمين المدخل الشرقي باسـم صـلاح الدين ، الذي كان في حران في الأعوام ١١٨٣ و ١١٨٦ ، ولكن بما أن ابن جبير رأى المسجد بعد إتمامه في عام ١١٨٤ فعلى المرء أن يستنتج أنه أمر ببنائـه في عام ١١٨٣ على الارجـح .

كانت حرّان مشهورة بأنها مدينة الصابئين وقداعتبر المسلمـون الأوائل أهل هذه المدينة وثنيين .

وأنني أشك كثيراً في أن الوليـد الأول أو أي خليفة آخر قبـل

مروان الثاني ، قد فكّر في بناء مسجد هناك ، ولكن الأخير هو آخر خليفة أموي (٧٤٤ ــ ٧٥٠ م) اتخذ من حرّان عاصمة له ، ولا بد أن الحاجة لمسجد جامع هناك أصبحت ملحة ، ولذلك فإني أنسب أقدم جزء من المسجد لـه .

الأصول المعمارية :

إن المسجد الكبير في حرّان ــ مثل كل الأوابد الأموية ــ يظهر خليطاً من المؤثرات ، فعمارته مأخوذة من شمال ما بين النهرين التي تشكل وحدة مع سورية الشمالية .. وأعمدته ذات المنحنى الخارجي المتدرج تعتبر امتداداً للتقاليد الكلاسيكية ، ولكن مخططه المربع يتبع مخطط أقدم مساجد العراق ، أما بالنسبة للواجهة المطلة على الصحن ذات الأعمدة المتصلة بالواجهات الأمامية للعضائد فإنها تذكر فوراً عمل الإيناليديون في المسجد الكبير في ديار بكر بين عامي ٥١٠ و ٥٥٩ هـ (١١١٦ ــ ١١٦٤) .



الفصل السابع

خاتمة القسم الأول

رأينا أن العرب الفاتحين لمدى جيل على الأقل ــ لم يتأثروا بأية طموحات معمارية . مما جعلهم لا يظهرون أدنى رغبة لاستخدام المواهب المعمارية المتطورة لدى المناطق المحررة . ففي سورية استخدموا أولاً الكنائس المقسمة أو المحوّلة كمساجد . وفي العراق ــ حيث أوجدوا المدن الجديدة في الأرض الجرداء ــ كانت المساجد الأولى بدائية لأقصى الحدود . وعندما بدؤوا بالشعور بمثل هذه الطموحات أخيراً . كان ذلك لأسباب سياسية . في البداية اعتمدوا الشعوب المفتتحة كصناع مهرة . كما فعل زياد بن أبيه ــ عندما حاول إعادة بناء المسجد الكبير في الكوفة . إذ استخدم مهندساً معمارياً كان يعمل لدى ملوك الفرس . واستخدم ابن الزبير بنائين فارسيين عندما أراد إعادة بناء الكوفة في عام ٦٨٤ م . واستخدم الوليد الأقباط من مصر ، واليونانيين من سورية عند إعادة بناء مسجد المدينة (٧٠٧ ــ ٧٠٩ م) .

كل الآثار الباقية تقريباً من هذه الفترة قائمة في سورية . وهذا ليس بالشيء المدهش لأن سورية كانت مقر الحكومة . ومعظم هذه الآثار أبنية رائعة من الحجارة المنحوتة ، وبعضها من الحجارة المنحوتة على شكل مداميك ارتفاعها ٨٠ ــ ٩٠ سم وأروقة قائمة على أعمدة رخامية . كانت المساجد على الأغلب مغطاة بسقوف جملونية خشبية

لأن مصادر الخشب الهائلة في لبنان (مستودع الخشب العظيم في العالم القديم) لم تستنفذ . والمآذن أبراج مربعة ، عالية ، مشتقة من أبراج الكنائس في سورية في العصر السابق للاسلام . والحرم المثلث الأروقة عائد لنفس الاساس .

ولكن رغم سيادة أثر الهندسة المسيحية في سورية ، فإن من الواضح ، أن هناك أثراً آخراً حتى في الآثار القديمة . ففي ــ قبة الصخرة ــ حيث تظهر العناصر الساسانية المتأخرة في الزخارف الفسيفسائية ، إلى جانب الأشكال الكلاسيكية الشهيرة . وهذا عائد إلى عنصر ملحوظ ألا وهو تسخير العمال على نطاق واسع من جميع أرجاء الامبراطورية الاسلامية ، من قبل الخلفاء الأقوياء . ولهذا السبب تبرز كل الآثار الاسلامية الباقية خليطاً من التأثيرات ، حيث تحتل سورية المقام الأول ، وإيران المقام الثاني ، كما يمكن ملاحظة التأثير القبطي في نهاية هذا العصر (المشتى) .

وهنالك عنصر جديد آخر أيضاً هو طبائع الخلفاء الأمويين شبه البدوية (ما عدا معاوية) ، وحبهم لحياة البادية ــ أدى إلى تشييد عدد من القصور الصحراوية ، مثل قصير عمرة ، والمنية ، والمشتى ، وقصر الحير ، وقصر الطوبة الخ . وعند تشييد هذه القصور التي كانت مساحتها عموماً ٧٠ م٢ ، أو أضعاف هذه المساحة اتخذ الأمويون نماذج لهم منها كقلاع خط الحدود الرومانية من خليج العقبة إلى دمشق ، ومن دمشق إلى تدمر ، فيما يخص تشييد الأجزاء الخارجية المحصنة ، بينما قسمت الأجزاء الداخلية ــ على أسس مختلفة ــ إلى بيوت . هذه البيوت (التي يتألف كل منها من بهو محاط بالغرف) اصطفت حول الفناء الداخلي ، لكي يبقى الصحن في الوسط .

كما ظهرت خلال العصر الأموي المتأخر الجدران والقناطر الآجرية، التي لم تعرف من قبل في سورية . ولكن يجب علينا أن نلاحظ ، خصوصاً ، أن اسلوب تشييد البناء (مونة الوصل أرق من الآجر) . يشير إلى أن هذا الابتكار لم يأتِ كسابقه من بيزنطة . بل من العراق .

استخدمت العمارة الأموية اشكال البناء التالية : القوس نصف الدائري ـ القوس الدائري على شكل حدوة الفرس ـ الأقواس المسطحة أو الاسكافات ، التي تعلوها أقواس نصف دائرية ـ أقواس مربوطة بعوارض وصل ـ أحجار عقد معشقة ـ قناطر اسطوانية من الحجر والأجر ، والأخير منها مبنية بدون قوالب خشبية ـ نظام السقف حيث تحمل الأقواس المتصالبة قناطر اسطوانية متوازية ـ قبب خشبية ـ وقباب حجرية قائمة على عقود مثلثية كروية صحيحة . ولا يبدو أن الأسقنش قد استعمل . وبذلك فقد تم تجنب تقاطع القناطر الاسطوانية . أما من حيث التحصين فلقد استعمل الأمويون الأبراج النصف دائرية الجانبية ، كما استخدموا أيضاً الكوى السقاطة ولكن يبدو أن المدخل المنحني لم يكن معروفاً .

استخدمت في التخطيط الشبكة الهندسية (المشتقة من الممارسة السوية السابقة) لبناء قبة الصخرة ، كما نجد في المنية والمشتى نظاماً غريباً من التقسيم الثلاثي المتتالي ، لم يعرف في أي مكان آخر .

والزخرفة من أروع الأنواع ، حيث استخدم الرخام في التغطية ، وقطعت الألواح إلى نصفين وفتحت كالكتاب ، بحيث امتدت العروق المتماوجة من الجوانب نحو نقطة الاتصال . وأحياناً كان الجزء العلوي من الجدران الداخلية والخارجية مزيناً بالفسيفساء ، الذي غطى مساحات

أكبر بكثير مما كان معروفاً من قبل . ولكن الحقيقة المدهشة جداً هي الأشكال الآدمية المرسومة بالجص ، لأن كراهية هذه الأشكال في الرسم ، لم يتخذ بعد صيغة دينية حاسمة .

وكما أن المسلمين في سورية تأثروا بالتقاليد الهلنستية والفن المسيحي في بيئتهم ، فإن أولئك المسلمين الذين وجدوا أنفسهم في العراق أو إيران كنتيجة للغزو العربي المروحي ، تأثروا بالتقاليد الساسانية لبيئتهم . ورغم أنه لم يتبقَ أية آثار أموية (ما عدا في واسط) في العراق أو إيران ، فإننا نعلم من أوصاف الكتاب القدماء بأن نوع المسجد الذي ساد هناك ، يختلف عن المساجد في سورية ذات الجدران الحجرية والسقوف الجملونية . هذا النوع الفارسي من المسجد الذي بني في البصرة والكوفة ، وفيما بعد في واسط وبغداد وسامراء كان مربعاً (نظراً لأن المساجد الأولى في هذه المنطقة خططت برمي السهام) جدرانه من الآجر (وأحياناً من اللبن) وارتكز سقفه الخشبي المستوي . مباشرة على الأعمدة دون أن تتوسطها الأقواس . التي كانت أحياناً من الآجر وغالباً (كما سنرى) من الخشب . وفي هذا النوع من المساجد نجد اتصالاً لها بقاعة الاستقبال لدى الملوك الأخمينيين . والرواق المستوي السطح للقصور الفارسية المتأخرة .

في إيران أخذت المواد (كالأعمدة البرسيبولية ذات التيجان المزينة برؤوس الثيران) من الأبنية القديمة . كما أخذت الأعمدة الكورنثية التي أخذت من الأبنية القديمة في سورية .

القسم الثاني

العصر العباسي

الفصل الثامن

بنـــاء بغـــداد

كان آخر الخلفـــاء الأمويـــين هو مروان الثاني ، الذي أصبح في نهاية عام ٧٤٤ والذي اتخذ من حرّان مقراً لـــه مما أغضب السوريين كثيراً . طيلة حكمه كان الصراع مستمراً مع الخوارج والعباسيين وقـــد استطاع في النهاية القضاء على الأسرة الأموية المالكة بمساعدة الايرانين الذين كانوا على أتم الاستعداد للثورة لأن أعداداً كبيرة منهـــم اعتنقت الاسلام دون الحصول على المزايا الموعودة ، وهي أن يستثنوا من الجزية التي يدفعها أهل الذمة فقط .

في عام ٧٤٧ طردت الحاميات الأموية من مـــرو وهراة ، وضاعت إيران كلها في العام التالي . وهزم مروان في العراق (كانون الثاني عام ٧٥٠ وأعـــدم في مصر في تمـــوز من نفس العـــام) في هـــذه الاثنـــاء نودي بأبي العباس ــ أول الخلفـــاء العباسيين ــ في دمشق في شـــهر نيسان . وقد عمل على ابادة رجالات الامويين ولم ينج أحد منهم ما عدا عبد الرحمن الذي قدّر له أن يؤسس الإمارة الأموية في قرطبة .

دار إمارة ابي مسلم في مرو :

بنى أبو مسلم أحد دعاة العائلة العباسية الرئيسيين ــ داراً للامارة

في مرو ولحسن الحظ فانه لدينا معلومات كافية لتكوين فكرة عامة عن شكلها • يقول الاصطخري[1] : « دار الامارة من بناء أبي مسلم ودار الامارة على ظهر هذا المسجد وفي هذه الدار قبة بناها أبو مسلم كان يجلس فيها ••• وهي قبة من آجر وسعة هذه القبة خمسة وخمسون ذراعاً وتنصّ لها من داخل نصبة السطح وللقبة اربعة ابواب كل باب إلى ايوان سمك كل ايوان ••• وبين يدي كل ايوان صحن مربع) •

وأبعاد هذه الأواوين المجهولة يقدمها لنا المستوفي على أنها ٣٠×٦٠ ذراعاً • أما بخصوص التاريخ فلا بد أنها بنيت بين كانون الأول ٧٤٧ أو كانون الثاني ٧٤٨ عندما طرد أبو مسلم الحاكم الأموي من مرو وبين كانون الأول ٧٥٥ عندما أعدم أبو العباس من قبل سيّده الجاحد المنصور ــ ثاني الخلفاء العباسيين • الشكل ٣٠ هو محاولة لتجسيد هذا الوصف • ويستنتج أن قطر القبة يعادل عرض الأواوين •

وتتملك المرء الدهشة للتشابه الكبير بين قصر أبي مسلم • وقصر المنصور في بغداد ــ وفيما بعد ــ مجموعة قاعة العرش في قصرين من قصور سامراء أي جوسق الخاقاني وبلكوارة •

إنشاء بغداد :

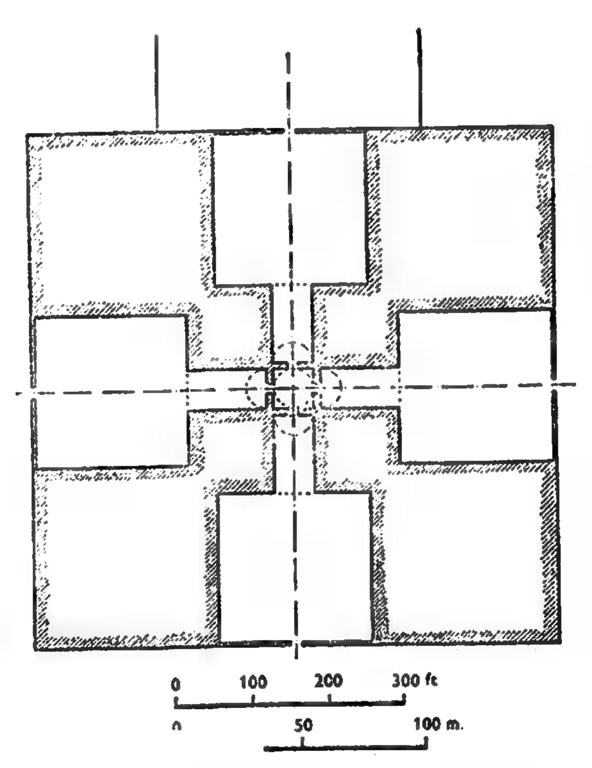
مات الخليفة السفاح في حزيران عام ٧٥٥ وبويع بالمنصور خليفة ولما كان اتجاه العباسيين شرقاً فمن الواضح أن المطلوب هو مكان على دجلة أو الفرات وقام المنصور بجولات عديدة بحثاً عن موقع العاصمة

---

(١) الاصطخري • المسالك والممالك ــ الاصطخري ط ليدن ١٩٢٧ ص ٢٥٩ •

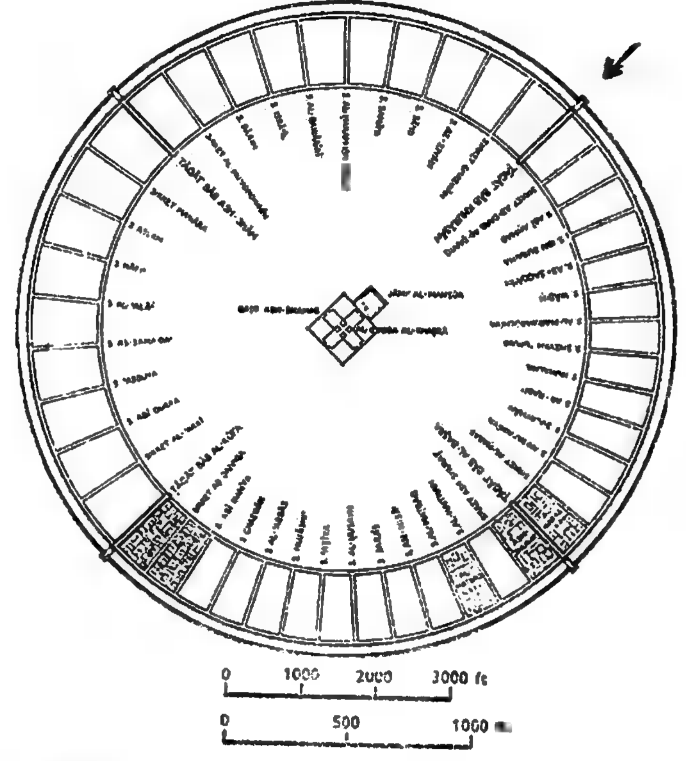
الجديدة حتى قرّ رأيه أخيراً على موقع بغداد .

وبعد الموافقة على الموقع في الأول من آب ٧٦٢ م كتب المنصور إلى كل مدينة لترسل له المهندسين وكل من له دراية بالبناء والمساحة والقياس . وتجمع المهندسون والمعماريون والمسّاحون من سورية والموصل وغرب إيران والكوفة وواسط والبصرة ولم يبدأ العمل قبل أن اجتمع الآلاف من الرجال .



(شكل ــ ٣٠) مرو ــ مخطط دار الامارة

يقول الطبري[1] في وصف مخطط بغداد « أن المنصور لمـا عزم على بنائها أحب أن ينظر اليها عياناً ، فأمر أن يخط بالرماد ، ثم اقبل يدخل من كل باب ، وعرف فضلاتها وطاقاتها ورحابها وهي مخطوطة كله بالرماد»



(الشكل ــ ٣١) مخطط بغداد ــ مدينــة المنصور الدائريــة

(شكل ــ ٣١) بوابة الكوفة (جنوب ــ غرب) ، بوابة البصرة (جنوب ــ شرق) ، بوابة خراسان (شمال ــ شرق) ، وبوابــة دمشق (شمال ــ غرب) ، ووضعت الأساســات في لحظة اختارهــا الفلــكي

(١) الطبري ــ الجزء السابع ط دار المعارف المصرية ١٩٦٦ ص ٦١٨

نوباخت • ويكاد المؤلفون العرب يجمعون على التاريخ الذي يقول غالبيتهم أنه ١٤٥ هـ (٧٦٢ ــ ٧٦٣ م) كما أن معظم المؤلفين يقولون أن تاريخ الانتهاء من كافة الأعمال هو ١٤٩ هـ (٧٦٦ ــ ٧٦٧ م) • أما بالنسبة للسعة فإن الأبعاد التي يذكرها اليعقوبي لا تتفق مع التقاليد المختلفة التي يذكرها الخطيب : إنني أميل ــ مثل هرتزفلد ــ لتبني الرقم الذي نقل عن الرباح الذي كان المهندس الفعلي للجدران أي ١٦٫٠٠٠ ذراعٍ للمحيط أي ٥٫٠٩٣ ذرعاً للقطر •

الآجــــر :

أقيمت الجدران من الآجرِ الطيني (اللبن) الذي تبلغ مساحتـه ذراعاً مربعاً (السماكة غير مذكورة) والقصب المرصوف في مجموعات بين المداميك • واستعمل الآجر المشوي في القناطر الاسطوانية والقباب • يقول الخطيب[1] على لسان الرباح مهندس الجدران في كل ساق (مدماك) من أسواق البناء مائــة الف لبنة واثنان وستون الف لبنه مــن اللبن الجعفري » •

فلما بنينا الثلث من السور لقطناه ، فصيرنا في الساف مائــة الف لبنة وخمسين الف لبنة ، فلما جاوزنا الثلثين لقطناه فصيرنا الساف مائــة الف لبنة واربعون الف لبنة الى اعلاه » •

ويقول هرتز فلد بما أن المسافة من بوابة إلى أخرى هي ٤٠٠ ذراعٍ والمسافة الاجمالية ١٦٠٠٠ ذراعٍ أي لبنة فلا بد أن سمك الجدار كان ١٠ أذرع أو لبنات وهذا يتطلب ١٦٠٫٠٠٠ لبنة للجدار و ٢٠٠٠ لبنـة للأبراج • والعــدد ١٥٠٫٠٠٠ لمداميك الثلث الأوســط يعطينا جداراً

(١) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ج ١ ص ٧١ ــ ٧٢ .

سماكته ٩¼ لبنة (١٤٨٠٠٠) و ٢٠٠٠ لبنة للأبراج . والعدد ١٤٨٠٠٠ لمداميك الجزء الأعلى يعطينا جداراً سمكه ٨½ لبنة (١٣٦٠٠٠) بالاضافة إلى ٤٠٠٠ لبنة إضافية مما سيجعل الأبراج تعلو فوق قمة الجدار .

إعادة تصميم التحصينات :

سأبدأ بوصف الخطيب وأكمله بوصف اليعقوبي الذي يسد الثغرات . « وسمك ارتفاع هذا السور الداخل وهو سور المدينة في السماء خمسة وثلاثون ذراعاً ، وعليه أبراجه كل برج منها فوق السور خمسة أذرع ... ثم الفصيل بين السورين وعرضه ستون ذراعاً ثم السور الاول وهو سور الفصيل ودونه خندق ، للمدينة أربعة أبواب : شرقي وغربي وقبلي وشمالي لكل باب منها بابان – باب دون باب بينهما دهليز ورحبة يدخل الى الفصيل الدائر بين السورين . فالاول باب الفصيل والثاني باب المدينة فاذا دخل الداخل من باب خراسان الاول عطف على يساره في دهليز ازج معقود بالآجر والجص . عرضه عشرون ذراعاً وطوله ثلاثون ذراعاً المدخل إليه في عرضه والمخرج منه من طوله يخرج الى رحبة مادة الى الباب الثاني طولها ستون ذراعاً عرضها اربعون ذراعاً . ولها في حنيتها حائطان من الباب الاول الى الباب الثاني في صدر هذه الرحبة في طولها الباب الخلفي وهو باب المدينة . وعن يمينه وشماله في جنيني هذه الرحبة بابان (الى الفصيلين) فالايمن يؤدي الى فصيل باب الشام والأيسر يؤدي الى فصيل باب البصرى ثم يدور من باب الكوفة ويدور الذي أنتهى الى باب الشام إلى باب الكوفة على نعت واحد وحكاية واحدة والابواب الاربعة على صورة واحدة في الأبواب والفصلان والرحاب والطاقات الى الباب الثاني وهو باب المدينة ...

---

(١) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ص ٧٣–٧٤ .

فيدخل من الباب الكبير الى دهليز ازج معقود بالآجر والجص طولـه عشرون ذراعاً وعرضه اثني عشر ذراعاً وكذلك سائر الابواب الاربعـة وعلى كل أزج هذه الابواب مجلس لـه درجة على السور يرتقى إليـه منها . على هـذا المجلس قبة عظيمة ذاهبة في السماء سمكها خمسون ذراعاً مزخرفة على رأس كل قبة منها كمثال لديره الريح لايشبه نظائره »

الخنـدق :

يذكر هذا الخندق كل من الطبري واليعقوبي والخطيب ولكنهـم لا يذكرون عرضـه .

المداخل الخارجية :

يتضح من كلمات الخطيب[1] « فاذا دخل الداخل من باب خراسان الاول عطف على يساره في دهليز ازج ... » الخ أن المدخـل الخارجي كان مدخلاً منحنياً ، وهي حقيقة ملحوظة سنبحثها فيما بعد انحنـاءة واحدة فقط هي المذكورة . ولمـا كان المرء يعبر إلى فناء يقع المدخـل الرئيسي في جانبه الأقصى ولما كان ذلك يعني أن الاتجاه الأول عمودي على اتجاه المخرج فمن الواضح أن المدخل كان بجانب برج المدخل .

الجدار الخارجي :

بطبيعة الحال كان هذا الجدار ، أقل سماكة من الجدار الرئيسي . وهذا هو كل ما نعرفه عنـه .

---

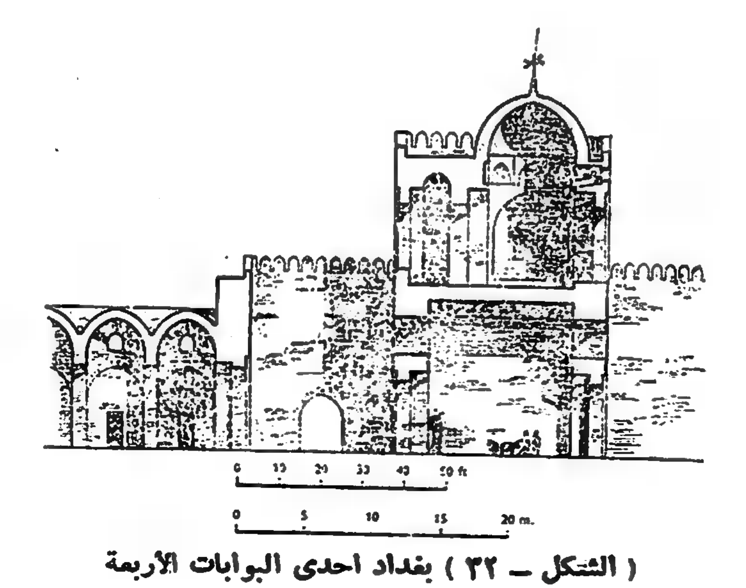
(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤ .

الجدار الرئيسي :

كان ارتفاعه ــ حسب رواية الخطيب ــ ٣٥ ذراعاً ، وقد رأينا أن سماكته كانت على الأرجح ١٠ أذرع . كانت الأبراج أعلى من الجدار بمقدار ٥ أذرع أي ٤٠ ذراعاً . وفي الجدارين كل بوابتين يوجد ٢٨ برجاً ، ماعدا الجدار بين بوابة البصرة وبوابة الكوفة ، حيث يوجد برج إضافي .

المدخل الرئيسي :

رأينا أن الدهليز عبر المدخل الرئيسي كان بطول ٢٠ ذراعاً ، وعرض ١٢ ذراعاً ، ويجب أن نضيف إلى ذلك ٥ أذرع من كل طرف من أجل الجدار لأن الغرض منها مقاومة الهجوم وحمل طابق علوي مقبب السقف . وهذا يعطينا عمقاً إجمالياً قدره ٣٠ ذراعاً لكل برج عند



(الشكل ــ ٣٢) بغداد احدى البوابات الأربعة

المدخل . ويفترض هرتزفلد أن عرضه بعرض البهو الذي أمامه أي ٤٠ ذراعاً . والارتفاع من الأرض وحتى قمة القبة هو ٥٠ ذراعاً . والجزء المركزي من قصر المنصور مؤلف من غرفتين مقببتين إحداهما فوق الأخرى . مساحة كل منهما ٢٠ ذراعاً ، وهما متساويتان في الارتفاع بحيث يبلغ الارتفاع الاجمالي ٨٠ ذراعاً . وبالقياس على الجزء المركزي من قصر المنصور ، تفترض أن القاعة المقنطرة والغرفة المقببة متساويتان في الارتفاع ، وأن سماكة قمة القبة تبلغ ذراعاً واحداً وسماكة القنطرة ذراعان . إذن لدينا : قمة القنطرة ٢٣ ذراعاً . ومستوى الأرض حوالي ٢٥ ذراعاً ، داخل القبة ٤٩ ذراعاً ، ومن الخارج ٥٠ ذراعاً . والغرف المقببة المشار إليها في القصر ، كانت ذات بعد جانبي يعادل نصف ارتفاعها . ولو أخذنا هذه النسبة لكان لدينا ١٢ ذراعاً لجانب غرفتنا المقببة . وهو نفس عرض الدهليز في الأسفل ، وهو تأكيد رائع . في القصر كان للجدران العمودية نصف الارتفاع الاجمالي ، ولذلك فلا بد أن القبة نفسها ومنطقة الانتقال ، هي الباقي أي أن جدران الغرفة المقببة كان ارتفاعها ١٢ ذراعاً . ومنطقة الانتقال والقبة معاً ١٢ ذراعاً كما يظهر (الشكل ــ ٣٢) .

المنطقة الداخلية والطاقات :

ويتابع الخطيب[1] قائلاً : « ثم يدخل من الدهليز الثاني الى رحبة مربعة عشرون ذراعاً في مثلها فعلى أيمن الداخل اليها طريق وعلى يساره طريق يؤدي الايمن إلى باب الشام والايسر الى باب البصرة . ثم يدور هذا الفصيل على سائر الأبواب ، بهذه الصورة وتشرع في هذا الفصيل ابواب لسكك وهو فصيل مادّ مع السور ، وعرض كل فصيل

---

(١) الخطيب البغدادي ــ تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٦ طبعة مصر ١٩٣١

من هذه الفصلان من السور إلى أفواه السكك خمس وعشرون ذراعاً ثم يدخل من الرحبة التي وصفنا الى الطاقات وهي ثلاث وخمسون طاقا سوى طاق المدخل من هذه الرحبة ، وعليه باب ساج كبير فريد ، وعرض الطاقات خمس عشرة ذراعاً ، وطولها من أولها إلى الرحبة التي بين هذه الطاقات والطاقات الصغرى مائتا ذراع وفي جنبي الطاقات بين كل طاقتين منها غرف للمرابطة . وكذلك لسائر الابواب الباقية ... ثم يخرج من الطاقات إلى رحبة مربعة عشرون ذراعاً في عشرين ذراعاً . فعن يمينك طريق يؤدي إلى نظيرتها من باب الشام . ثم تدور إلى نظيرتها من باب الكوفة ثم الى نظيرتها من باب البصرة ... وفي هذا الفصيل تشرع أبواب لبعض السكك وتجاهك الطاقات الصغرى التي تلي دهليز المدينة الذي منه يخرج إلى الرحبة الدائرة حول القصر والمسجد [1] » .

المنطقة السكنية :

لذلك كانت هناك منطقة سكنية بين الجدار الرئيسي . ومنطقة القصر المركزية . هذه المنطقة قسمّت إلى أربع أرباع الدائرة ، بواسطة الطاقات المقنطرة ، التي امتدت من البوابات الرئيسية إلى بوابات منطقة القصر . وقد أحيطت داخلياً وخارجياً بشوارع دائرية عرضها ٢٥ ذراعاً انفتحت منها بوابات الأرباع . هذه الشوراع الأخيرة التي امتدت مثل برامق (عوارض) الدولاب ، كانت لها بوابة قوية في كل طرف . ويذكر اليعقوبي[1] أسماء كل هذه الشوارع (شكل ــ ٣١) التي تواجد منها ٨ ــ ١٢ شارعاً في كل ربع دائرة . ويقول بصريح العبارة أن هذه

---

(١) اليعقوبي : البلدان ط ليدن ١٨٩١ ص ٢٤١

الشوارع لم تتصل بالمنطقة المركزية « لأن الطريق يمتد حول الرحبة » التي يعني بها منطقة القصر •

الطاقات الكبرى :

والآن دعونا نحاول إعادة التصميم • علينا في المقام الأول أن تتصور رواقاً طويلاً عرضه ١٥ ذراعاً ، يتفرع منه ٥٣ قوساً متصالباً ولقد رأينا أن هناك غرفاً جانبية للحرس على اليمين واليسار ، ولذلك كانت هناك ٥٤ غرفة في كل جانب لأن الأقواس الثلاثة والخمسين مستقلة عن جدران النهايات • يقول الخطيب[١] أنه كان هناك ١٠٠٠ حارس عند كل بوابة • ولذلك لدينا ١٠٨ غرف لهؤلاء الحراس وضباطهم • أي ١٠٠ غرفة للحراس • بمعدل ١٠ حراس لكل غرفة و ٨ غرف للضباط • ولو افترضنا عرضاً مقداره ١٠ أذرع ، وعمقاً مقداره ١٥ ذراعاً لكل غرفة وجدران فاصلة • عرضها ذراعان وجدران نهائية، عرضها ٥ أذرع فيصبح لدينا ٥٤×١٠=٥٤٠ / ٥٣×٢=١٠٦ / ٢×٥=١٠ أي طول إجمالي قدره ٦٥٦ ذراعاً أو ٣٤٠ متراً • ولو افترضنا أن الغرف كانت فقط ٨×١٢ فيصبح لدينا (٥٤×٨) + (٥٣×٢) + (٥×٢) = ٥٤٨ ذراعاً أو ٢٨٤ متراً • ويتبنى هرتزفلد هذا الرقم وأنا بدوري أوافق على ذلك (شكل ٣٣) • ولو أضفنا ٢٥×٢ ذراعاً للشارعين الدائريين فسنحصل على ٥٨٩ ذراعاً كعمق لهذه المنطقة •

من الواضح أن مواضع الطاقات توافقت مع الجدران الفاصلة ، من أجل العضادات أي على مسافة ٨ أذرع • ولكن اليعقوبي يتحدث

(١) الخطيب تاريخ بغداد جزء اول ص ٧٨ •

عن كوَاء رومية يدخل منها الشمس والضوء ولا يدخل منها المطر[1] . فأين كانت هذه الكوى ؟ لابد أنها كانت في الجدران الجانبيــة ، فوق مستوى قناطــر الغرف . ويقول اليعقوبي[2] وابــن رسته[3] بصريح العبارة أن هذه الطاقات معقودة بالآجــر والجص ، ولــو افترضنا أن القنطرة الاسطوانية ارتكزت على الجدران الجانبية ، فلا بد أن بدايتهــا كانت عالية جداً ، لجعل النوافــذ واضحة ، وهــذا بالتالي يؤدي إلى مصاعب في العضادات ، بالاضافة إلى صعوبة إيجاد أي شبيه لمثل هــذا البناء في حقل دراستنا الحاضرة . ليس هنالك أي شك في أن مثل هذه السلسلة من الأقواس المتصالبة ، كان الغرض منها مجرد حمل سلسلــة من القناطر المتصالبة (شكل ٣٢ شكل ٣٣) تماماً ، كما نرى في طــاق إيران وقصر الحرانة ، وقصير عمرة ، وحمام الصرخ ، ومسجد الحلابات، والأخيضر ، و ــ بعد عدة قرون ــ في خان أورطمــة الشهير ، في عــام ٧٦٠ (١٣٥٩ م) في بغداد .

الطاقات الصغرى :

يقول اليعقوبي « عندما يخرج المرء من الطاقات يصل إلى بهو ثــم إلى دهليز طويل مؤلفة من قنطرة من الآجر ، وله باب من الحديد يخرج منه المرء إلى الرحبة الكبرى (أي المنطقة المركزية) . الا أن اليعقوبي لا يذكر أية مقاييس ،ولكــن هرتز فلــد يقترح ١٠ أذرع للعرض ، و ١٥ ذراعاًللطول ، وهذا يجعلــه يبرز خلف الجــدار الدائري الداخــلي . وللخلاص من ذلك يعيــد تصميم الطاقات الصغرى كطاقــات مقنطرة

---

(١) اليعقوبي ــ البلدان ط ليدن ١٨٩١ ص ٢٣٩ .
(٢) اليعقوبي البلدان ط ليدن ١٨٩١ ص ٢٣٩ .
(٣) ابن رسته الاعلاق النفيسة ط ليدن ١٨٩١ ص ١٠٨ .

مستقلة ، ولكن هـذا التصميـم : يوفر عضـادة لضغـط الأقواس المتصالبة .

وقياساً على قاعة الشرف ، في الأخيضر ، وجـدران الزيادات في المسجد الكبير في سامراء ، فإنني أفضل إعادة تصميمها كطاق مزيف على عضائد نصف دائرية ، كما نرى . وتكون المداخل الأربعة محاطة بعضائد ربـع دائريـة لها نفس بروز العضائد نصف الدائرية . وهـذا يعني انقاصاً بسيطاً لأبعاد الممر إلى ٨ أذرع في العرض و١٠ أذرع في الطول ، كمـا نرى في الشكل ٣٣ .

المنطقة المركزية :

في المنطقة المركزية يقوم القصر والمسجد . وبالاضافة إليهما ، قامت سبعة دوائر (دوائر حكومية) ومساكن أبناء المنصور الصغار ومطبخ .

الأصول المعمارية

المخطط الدائري :

يمكن اعتبار مدينة المنصور الدائرية كأحد الأمثلة الشهيرة التي وصلت إلينا في تخطيط المدن ، يصرّ المؤرخون المسلمون على أن شكل المدينة الدائري ابتكار لم يعرف من قبل ، ولكن هذا ادعاء بعيد عن الصحة .

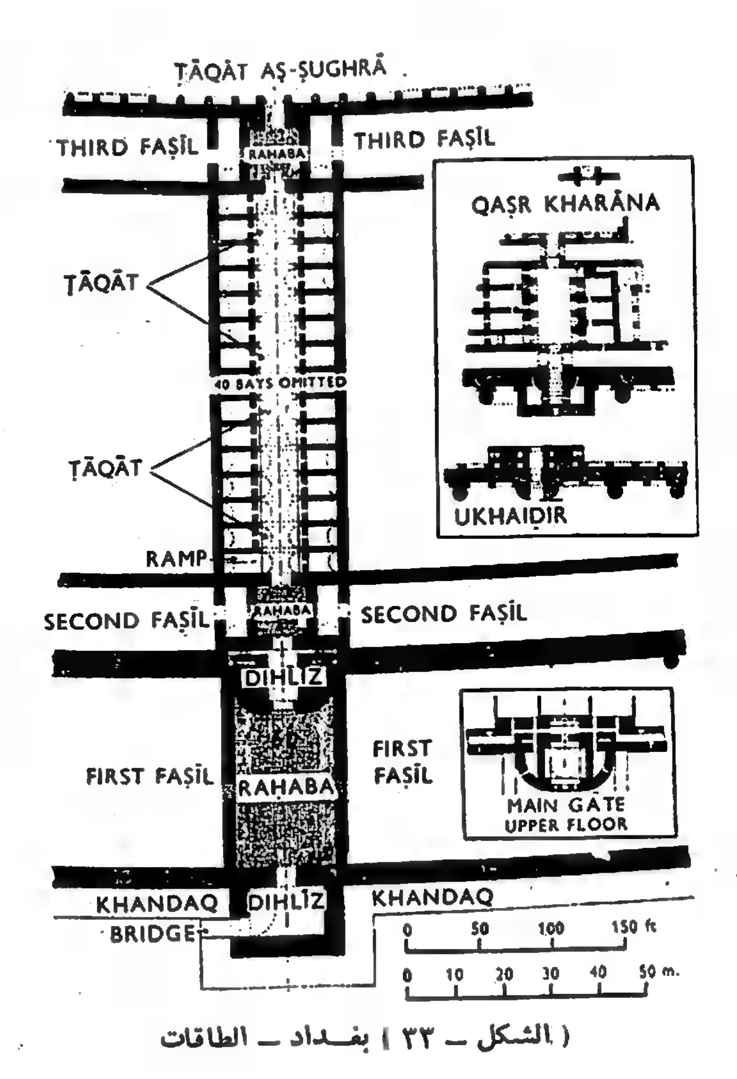
يبدو من المرجح أن أقدم الأبنية الدائرية ، وهي المعسكرات الآشورية ، ومن المؤكد أن بعض هذه المعسكرات كان بيضاوياً ، ولكن واحداً منها على الأقل ظهر على لوحة وجدها لايارد في نينوى بشكل دائرة حقيقية ، تخترقها طرق متقاطعة من الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب ، كما أن هناك ما لا يقل عن ١٢ مدينة دائرية عرفت قبل الاسلام :

١ ـ سنجرلي : مدينة حثية ذات جدران مزدوجة ، بشكل دائرة تامة تقريبا ، ، قطرها حوالي ٧٠٠ متراً .

٢ ـ ابرا : (حوالي ٦٠ كم شرق نصيبين) مساحتها دائرية قطرها ٤٥٠ متراً .

٣ ـ هاغماتانا : تعرف بالنسبة لليونانيين باسم ألغباناتا وهي التي بناها ديوسيس الميدي في النصف الأول من القرن السابع قبل الميلاد ، ويقول فيها هيرودوتس أن جدرانها « ارتفعت أحداها داخل الآجر » .

٤ ــ مانتينيا التي بناها إبامينونداس عــام ٣٧١ ق.٠ م ، وقــد تفحصها فوجد اهليليجا شبه منتظم محوره الكبير ١٣٤٠ متراً ، ومحوره الصغير ١٠٨٠ متراً .



(الشكل ــ ٣٣) بغــداد ــ الطاقات

٥ ــ كيتسيفون التي بناها الفرس ، ويقول روثر أن لهــا شكلاً

بيضاوياً (٣٣٠٠×٢٨٠٠ متراً) .

٦ ــ تخت سليمان : وعلى الأرجح تعود الى نهاية القرن الثاني قبل الميلاد . وهي منطقة بيضاوية (١٢٥٠ × ١٠٥٠ متراً) .

٧ــ هاترا : (القرن الأول أو الثاني) وهي منطقة بيضاوية تقريباً (١٧٠٠ × ٢٠٠ متراً) .

٨ ــ حرّان بيضاوية أيضاً .

٩ ــ دار الجـرد . قام بفحصها في البدايـة فلاندن كوست عـام ١٨٤ م ، فوجد إنها تحمل شبهاً ملحوظاً لأساسات المنصور وليسـت محاطة بجدار دائري فقط . فيه أربعة بوابات . وحوله خندق . لكـن كانت توجد منطقة دائرية داخلية ذات جـدار دائري مشترك معهـا في المركز ، وقطره ٦٧٥ متراً . وما بينهما وجدت منطقة حلقية عرضها ٢٦٢ متراً تماماً مثل المنطقة السكنية في بغـداد . قامت بعثة السير أوريـل شتاين بتحري المنطقة في عام ١٩٣٣ م ، فظهر أن المنطقة داخل السـور قطرها تقريباً ١٨١٠ متراً . والبوابات الأربعة أو بالأحرى الفجوات في الجدار تقريباً متساوية المسافات . كما أمكن تتبع أثر طريق يمتد مـن كل منها إلى المركز .

١٠ ــ هرقلة : ربما كانت بارثية (فارسية) .

١١ ــ جور (فيمـا بعد فيروز آباد) ، بناهـا أردشـير مؤسس الأسرة الساسانية عام ٢٢٤ م . دائرية « حتى لكأنها مرسومة بفرجار » كما يقول ابن البلخي . والمهم جداً بالنسبة لنا هو قول ابن الفقيه [١] بأنها « مبنية على صورة دارا بجرد » . ولها مثلها أربع بوابات . تحرّتها

---

(١) ابن الفقيه البلدان ليدن ١٣٠٢ ص ١٩٨ .

بعثة السير أوريل شتاين وطبقاً لما اظهرته هذه البعثة تبين أن للمدينة جداراً داخلياً وجداراً خارجياً وقطرها الخارجي ــ حسب مقياس مخطط السير اوريل شتاين ٢٢٤٠ متراً ، كما تظهر صورة اريك شميث الجوية أنها دائرة دقيقة جداً .

١٢ ــ أصفهان : يقول ابن رستة[2] أن أصفهان كانت « مستوية التدوير » وقطرها ٦٠٠٠ ذراعاً .

إن لنا الحق في القول بأن المدن الدائرية عرفت منذ ١٥ قرناً قبل بناء بغداد ، وأن المدن الدائرية المتحدة المركز عرفت قبل بغداد بعدة قرون في المنطقة بين شرق آسيا الصغرى ، وجنوب غرب إيران ، ومن المرجح أن مخطط دارا بجرد الشهير ، هو الذي أوحى مباشرة بمدينة المنصور المستديرة .

وبالاضافة إلى المزايا العسكرية في مثل هذه المخططات مثل تجنب الزوايا الهامدة . فإن هناك اعتباراً عملياً آخراً ، ربما أدى إلى تبني المخطط الدائري ، وهو الاقتصاد في التحصين لأن الدائرة ، هي أقصر الحدود في حالة تسوير (تحصين) أية منطقة إذ يبلغ الاقتصاد في التسوير ١١٫٣٨٪ وهو يمثل حجماً كبيراً لدى بناء أسوار المدينة .

ويمكننا أن نذكر مثالاً اسلامياً أخراً لأن المقدسي يقول أن وصره (قرب القيروان) بناها الفاطمي أول ما ملك الاقاليم واشتق أسمها من

---

(١) ابن رسته الاعلاق النفيسة طبعة ليدن ١٨٩١ ص ١٦٠ .

(٢) المقدسي احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ط ثانية ليدن ١٩٠٦ ص ٢٣٦ .

صبر عسكره في الحزب وهي « مدورة مثل الكأس لا ترى مثلها ، ودار السلطان وسطها على عمل مدينة السلام أي بغداد » .

القصب المستعمل للربط :

إنها عادة بابلية قديمة ففي أقارقوف المنسوبة إلى العائلة الطاسية (القرن الثالث عشر قبل الميلاد) يقول بيترز أن فيها طبقة من النخيل بين كل سبعة مداميك من الآجر . ويقول هيرودوتس : أن أهل بابل يستعملون القار الأحمر الحار كالاسمنت مع طبقة من القصب المتشابك بعد المدماك الثالث عشر . ووجد كولدرلي أن مثل هذه الطبقات وجدت في القصر بعد مسافة أقصاها ١٣ مدماكاً وأدناها خمسة مداميك . واتبعت نفس العادة في آشور في كل العصور ، بوضع القصب متصالباً. ونجد نفس الشيء في العصور الساسانية في مدينة دواليب ، حيث توجد طبقة من القصب بين كل مدماك .

المدخل المنحني :

يمثل هذا مشكلة معقدة ، لأنه ـ رغم ظهوره في مصر القديمة ـ لا يبدو أنه ظهر ثانية في أي مكان حتى القرن الثامن الميلادي . والمثالان المصريان هما في كوم الأحمر وشونة الزبيب . الأول حصن من الآجر الطيني على النيل بعد حوالي ٥ أميال من الكاب . لاتزال الجدران قائمة حتى ارتفاع ٩ أمتار ، وتشكل منطقة مستطيلة مساحتها ٧٥×٦٦ متراً ، محاطة بجدار خارجي أقل سماكة ، يتألف المدخل من فتحتين على جانبين متقابلين من البهو بمساحة ٥×٤ متراً . وليس لهما نفس المحور تماماً . والباب الخارجي متهدم جداً ، لدرجة تجعل من المستحيل القول أين كانت الفتحة المقابلة .

أما في شونة الزبيب ، قرب أبيدوس ، فالترتيب أكثر تقدماً ، فهي ـ مثل كوم الأحمر ـ تتألف من مساحة مستطيلة (١٣١×٧٨ متراً) ، وارتفاع الجدران ١١ متراً وسمكها ٦ أمتار عند القاعدة ، وهناك على مسافة ٣ أمتار جدار خارجي أقل ارتفاعاً ، يبلغ حالياً ٦ أمتار ، كما لها أربعة مداخل ، اثنان منهما مباشرة ، واثنان منحنيان ، وأجملها تصميماً يقع في الزاوية الشمالية ، وهذا الأخير يفتح في مؤخرة ارتداد عرضه ٨ أمتار ، وعمقه ٥ر٣ متراً ، ويؤدي إلى بهو صغير عرضه ٤ر٣ متراً وهي حفرة حقيقية ، والمخرج منه عمودي على المدخـل ، هذان الحصنـان يعتبران عموماً بأنهما يعودان إلى فترة الأسرة ٦ ــ ١٢ ،

ولكن الآن توجد فجوة تمتد على الأقل لمـدة ٢٥٠٠ سنة ، وهذا شيء ملحوظ لأنه ليس هناك نقص في المداخل ، فهناك مدخل المدينة في أتشانا التي اكتشفها وولي ، ونسبها إلى القرن الثالث عشر قبل الميـلاد مدينة بوغاز ــ كـوي الحثية أيضاً مداخلها الأربعـة على هيئة ممـر مستقيم عبر الجدران المزدوجة ، وهناك في سنجرلي مدخـل خارجي ، وعلى جانبيه برجان مربعان ،ثم فناء آخر على نفس المحور ، ولذلـك تعتبر أساساً للحصن الرومـاني ، والشيء نفسه يقال عن البوابـات الثلاثة لشلما نصـر الثالث في آشـور ، (٨٥٨ ــ ٨٢٤ ق٠م) وعـن البوابات السبعة في خورسآباد التي بناها سرغون (٧٢٢ ــ ٧٠٥ ق٠م) كما تتبع بوابة عشتار في بابل الشهيرة التي بناها بنو خذ نصر (٦٠٤ ــ ٥٦١ ق٠م) نفس النموذج ،

لم يعرف الرومان أيضاً المدخل المنحني ، فكل الحصون على خط الحدود الروماني في شرق الأردن ذات مداخل مستقيمة بسيطة ، وكذلك البوابة الشمالية فيبعلبك ، والبوابة الرومانية لقصر الشمع في القاهرة

القديمة ايضاً . والحال كذلك في شمال أفريقيا الروماني . حيث كل المداخل في العصر الروماني مستقيمة كما هي الحال في روما نفسها.فكل بوابات جدار المدينة (نومنتا ـ لاتينا ـ آپيا ـ آسيناريا ـ بنكيانا ـ تيبورتينا ـ الخ) الذي بناه هادريان (٢٧١ ـ ٢٧٥ م) من نفس الطراز .

والخطوة الأولى إلى الأمام هي ترتيب الأمور بشكل يحتم على المهاجمين ـ بعد تجاوزهم الجدار الخارجي ـ أن يستديروا نحو اليسار ويسيروا في الفاصل باتجاه البوابة الرئيسية التي كانت بعيدة قليلاً عن المحور بدلاً ، من كونها على نفس محور البوابة الخارجية . وهذا يجبرهم إلى تعريض جانبهم الأيمن ـ الذي لا يحميه الدرع ـ إلى النيران من قمة الجدار . يذكرنا هنا بقول فيتروفيوس : « يجب تصميم الطرق بحيث يقترب المرء من البوابات من اليمين إلى اليسار ـ بدلاً من الخط المستقيم ـ لأن نتيجة هذا هو أن جانب المهاجمين الأيمن الذي لا يحميه الدرع سيكون تجاه الحائط . » هذا النظام يمكن تسميته « بالاقتراب اللامباشر » وسنراه في الرقة .

متى ظهر المدخل المنحني لأول مرة ؟ يقول دييل وومونيريه وديشامب أنه يظهر في بعض قلاع عصر جستينيان في شمال أفريقيا . وليس من المغالاة القول ، أنه لا يمكن إيجاد أي مثال لمثل هذه المداخل في أي عمل معماري في عصر جستينيان . أو قبله سواء في شمال أفريقيا أم في أي مكان آخر من الامبراطورية البيزنطية .

ا

دعونا نبدأ بالحدود الشرقية في على شاطىء الفرات . وعلى مسافة ٥٥ ميلاً إلى الجنوب الشرقي من الرقة ، إذ توجد (حلابيا ـ زلابيا) القديمة . التي أعاد بناء جدرانها جستينيان . يوجد لها مدخلان

مستقيمان محاطان بأبراج مربعة . وعلى الضفة المقابلة تقوم زلابيا وفيها مدخل مستقيم واحد فقط . وعلى بعد ٣٠ ميلاً جنوب غرب الرقة تقوم الرصافة التي بناها جستنيان أيضاً . إن لها أربع بوابات ، واحـدة منها مفردة والثلاث الباقية تتألف من بوابتين على نفس المحور . وبينهما بهو صغير . أما في تدمر : فكل بوابات بناء جستنيان الظاهرة علـى مخطط غبرييل لهـا مداخل مستقيمة بسيطة . وتصح الملاحظة نفسها بالنسبة لأنطاكية . في انكيرا (أنقورا) كل البوابات (عدا واحدة تعود للقرن التاسع) مـن الطراز المعتاد : وهي تعود إلـى حوالي ٦٣٠ م في رأي جرفانيون . وإلى هذه البوابات يمكن إضافة بوابة القسطنطينية وبوابة لفكا في نيقيا . وحتى في القسطنطينية ـ عاصمة الامبراطورية ـ لانجد أمثلة من المداخل المنحنية ، سواء في أعمال ثيودوسيوس الثاني (٤١٣ و ٤٤٧) : أوهير قليوس (٦٢٧) أو بعدها .

رأينا أن كل مداخل الابنية الرومانية القائمة في شمال أفريقيا ، هي من النوع العادي . ولو أخذنا تلك الأبنية التي يعرف أنها تعود إلى عصر جستنيان : فإن نفس الملاحظة تصح فيها مثل مادوري وتيبيسا اللتـين بناهما قائده المسمى سليمان .

وباضلافة إلى ذلك هناك أبنية عديدة ـ رغم عدم معرفـة تاريخ بنائها ـ إلا أن المعروف أن الذي امر ببنائها جستنيان مثـل آمادار ـ لاريبوس ـ ميليغوم ـ تيعزيس ـ تيغاد ـ وليمسا . وكل هذه الابنية دون استثناء : ذات مدخل مستقيم .

أما الامثلة الاربعة ، التي يزعـم أنها ذات مداخل منحنية ، هـي غيغثيس ـ ثيليبتا ـ ثيغنيا (عـين تونغا) ـ وبيلليزما . أمـا غيغثيس

فيمكن استبعادها علـى الفور ، لأن كونستانس يقول • أن المدخـل « مسبوق ببهو مربع مرتفع لايصل إليه المرء مباشرة ، بـل عبر الجانب الايسر » • فهي لذلك تنتمي إلى صنف « المدخل الموارب » •

ويثبت دييل مخططاً لثيليبتا حيث يظهر فناء مربعاً محاطا باثني عشر برجاً ، ومدخل واحـد ، وهو مدخـل منحني ــ في البرج الاوسط في الجانب الغربي ، فيقول : « لسوء الحظ تعتبر قلعة ثيليبتا أسوء حالاً من كل الآثار التي بقيت من العصر البيزنطي • فجدرانها المتهدمة لايمكـن تمييزها إلا ككتل مـن الحجارة المختلطة ، أما أبراجهـا فيمكن تمييزها بمنتهى الصعوبـة بواسطة ركامها الذي يرتفـع أكثر قليلاً • ولكـن التنقيبات الهامة التي نفذت تحت إشراف القائد بيدويا عام ١٨٨٥ كشف عن جزء هام من أسوارها • » ولذلك فإن بيدويا هو مصدرنا الرئيسي • يقول : « الجدران متهدمة تماماً ••• التنقيب صعب جداً بسبب عملية ترحيل الانقاض الهائلة ، التي توجب القيام بها قبل التنقيب الذي أوصلنا إلى الاساسات • ومن أجل التحري عن إطار التحصينات بدقـة كافية بالاضافة إلى جزء كبير من تفاصيل الأبراج والتحصينات » •

فماذا وجدنا ؟ ستة مداخل « إثنان في الجانب الشرقي وإثنان في الجانب الجنوبي ، وإثنان في الجانب الغربي بالاضافة إلى باب خلفي ، وكلها من النوع المستقيم • أما بالنسبة للمدخل المنحني المزعوم الـذي يذكره دييل ، فإن بيدويا يظهره كبرج مربع أجوف ، له بـاب صغير ، يؤدي من المدينة إلى داخل القلعة • ولذلك فإنني أرفض قبول المدخل المزعوم في ثيليبتا لأن دييل (الـذي لم يمكث هناك فترة كافيـة للقيام

بالتنقيب) . عدّل مخطط بيد ويا دون أية أسباب وجيهة لذلك .

ولكن عين تونغا (ثيغينكا) بالتأكيد مثال جيد لما نبحث عنه حيث يوجد المدخل (في جانب البرج) وهو عريض بما فيه الكفاية ليكـون مدخلاً . ولكن سلادين يلفت الانتباه إلى وضع الأحجار حول المدخل وقوس المخرج ، ويشير إلى أن كلاً من هياكل الابواب والاقواس أخذ حجراً حجراً ـ من بعض الاوابد الرومانية المتهدمة ورصفت ثانية هناك : وأنه ليس هناك ملائمة معمارية مناسبة حول منحنيات العقد الخارجية المتدرجة للقوسين . ماذا نستخلص ؟ إن بنية بقية البناء والابراج لاتظهر مثل هذه الرداءة . أليس من الممكن أن هذين المدخلين المقنطرين إضافات لاحقة . وأن مدخل البناء كان في موقع آخر ؟ كانت قناعتي شديدة . بأن هذا هو الواقع . حتى أنني قررت زيارة عين تونغا عندما كنت في تونس في عام ١٩٣٤ . فتفحصت المدخل المنحني ، ولاحظت الربـط السيء . والحشو حول منحنيات العقد الخارجية ، كما لاحظت في نفس الوقت أن الحجارة مرصوفة باتقان حول منحنيات العقد الخارجية المتدرجة للمدخل المقنطر المؤدي إلى البرج الركني الجنوبي الشرقي . بعدها مشيت حول السور . وعندما وصلت إلى الجانب الغربي رأيـت في منتصف السور الشيء ، الذي تنبأت بوجوده . ولكنني لم أكن أتوقـع رؤيتـه فوق الأرض ـ قمة قوس ، وأحجار القوس الهائلة التي يبلـغ عمقها حوالي المتر ، التي لايمكن إلا أن تكون قمة المدخل الاصلي المستقيم للقلعـة القائمـة على الطريق من قرطاجة إلى الداخل .

وتبقى قلعة بيليزما وحدها : وهي مستطيلة طولها ١٢٥ متراً وعرضها ١١٢ متراً محاطة بثمانية أبراج مستطيلة . وحسب رواية دييل فان المدخل الوحيد ، البرج الاوسط في الجانب الغربي ، إنه يظهرها كمدخل منحني ذي مدخل ومخرج بعرض ١٫٢٥ متراً فقط . هل من الممكن أن المدخل

الوحيد لبناء بمثل هذا الحجم ؟ أم هو مدخل خلفي بالغ الصغر بحيث لايسمح لحمار عليه حمله بالعبور ؟ كنت متأكداً بأن هذا لايمكن أن يكون البوابة الرئيسية ، ولذلك عندما قابلت السيد ليشي من دائرة الآثار في عام ١٩٣٧ حدثته عن شكوكي ، قائلاً : إن المدخل الاصلي ـ عند اكتشافه ـ سيبرهن أنه من النوع الروماني الدفاعي العادي ، وعبّرت عن أملي في أن تحسم التنقيبات هذا الموضوع ، وأجابني أن ذلك قد تمّ فعلاً على يدي سلفه ألبرتيني ، فالبوابة الشمالية التي كانت على شكل بروز مستطيل ، أزيلت من حولها الانقاض ، فوجد أنها تتألف من بوابتين على نفس المحور ، يفصل بينهما بهو أبعاده ، ٦٫٣٥ × ١٠ر٦ متراً ، فوق البوابة الداخلية يوجد ساكف عليه نقش متآكل باسم سولومون حاكم جستنيان في أفريقيا ، هي بالضبط من نوع البوابات التي تنبأت بها ، أما بالنسبة لبوابة دييل الغربية فكانت مغطاة بالانقاض ، ولا يرى منها شيء هذا في حال وجودها .

ولذلك لا حاجة بنا إلى التردد في القول ، بأنه لا يعرف بأنه بوجود مدخل منحني روماني ، أو بيزنطي في شمال أفريقيا أو سورية ، وأن بوابات مدينة المنصور الاربعة هي أقدم أمثلة للمدخل المنحني بعد شونة الزبيب .

والمثال التالي للمدخل المنحني يبدو أنه البوابة الجنوبية في قلعة أنغورا ، ففي الجانب الجنوبي فيها توجد بوابة على جانب بروز كبير ، مؤدية إلى بهو مستطيل (١٧ × ١١ متراً) ، ومنه تؤدي بوابة عرضها ٣ أمتار بزاوية قائمة على الاولى إلى القلعة . هناك نقشان باسم الامبراطور ميكائيل . وقد أثبت غريغوار بشكل قاطع أن الامبراطور

المعني هو ميكائيل الثالث (٨٤٧ ــ ٨٦٧ م) • وقد نجح في قراء التاريخ في نهايــة السطر الثاني (سنة انعالــم ٦٣٦ • الخمسعشرية السابعة = ٨٥٩ م) •

هذا هو المثال الاول الذي أعرفه للمدخل المنحني البيزنطي •ولذلك فاننا بالتأكيد لا نستطيع أن نشاطر ويشامب القول أنه « طراز مستعار من البناء العسكري البيزنطي ، الذي يعطينا أمثلة عديدة » •

قصر المنصور في بغداد :

كان قصر المنصور يعرف باسم قصر البوابة الذهبية • إنه قصرمربع يبلغ طول ضلعه ٤٠٠ ذراع ، ويقع في وسط « المدينة الدائرية » •ويوجد فيه إيوان أي قاعة مقنطرة مفتوحة من أحد الجوانب • يبلــغ عمقها ٣٠ ذراعا وعرضها ٢٠ ذراعا • وغرفة خلفية مساحتها ٢٠ ذراعا مربعا وارتفاعها ٢٠ ذراعا تعلوها قبة • وفوقها غرفة أخرى لها نفس المساحة ، ونفس الارتفاع • مغطاة بقبة أيضا • كانت هذه قبة خضراء شهيرة ، ولهــذا السبب عرف القصر بالقبة الخضراء • وقد بلغ الارتفــاع الاجمالي ٨٠ ذراعا •



مسجد المنصور الكبير

الوصف الوحيد لهذا المسجد هو الوصف الذي يسجله ابن الخطيب كما يلي « كان أبو جعفر المنصور جعل المسجد الجامع ملاصق قصره ، وهو الصحن العتيق ، وبناه باللبن والطين .. وكانت مساحته أربعمائة ذراع في اربعمائة ذراع ، ومساحة المسجد الاول مائتين في مائتين ، وأساطين الخشب في المسجد يعني كل اسطوانة قطعتين » .. وقال ابن الاعرابي تحتاج القبلة إلى أن تحرف الى باب البصرة قليلا ... فلم يزل المسجد الجامع بالمدينة على حاله الى وقت هارون الرشيد فأمر هارون بنقضه واعادة بنائه بالآجر والجص ففعل ذلك وكتب عليه اسم الرشيد ، وذكر أمره ببنائه وتسمية البناء والنجار وتاريخ ذلك هو ظاهر « على الجدار خارج المسجد مما يلي على باب خراسان إلى وقتنا هذا » وهذا وصف آخر « وهدم مسجد ابي جعفر المنصور وزيد في نواحيه وجدد بناؤه واحكم ، وكان الابتداء به في سنة اثنتين وتسعين ، والفراغ منه في سنة ثلاث وتسعين ، وكانت الصلاة في الصحن العتيق الذي هو الجامع حتى زيد فيه الدار المعروفة بالقطان ، وكانت قديما ديوانا للمنصور ... وجعلت مصلى للناس وذلك في سنة ستين أو احدى وستين ومائتين ثم زاد المعتضد بالله الصحن الاول ، وهو قصر المنصور ووصله بالجامع وفتح بين القصر والجامع العتيق في الجدار سبعة عشر طاقا منها الى الصحن ثلاثة عشر والى الاروقة أربعة وحول المنبر والمحراب والمقصورة الى المسجد الجديد .. واخبر المعتضد بالله بضيق المسجد

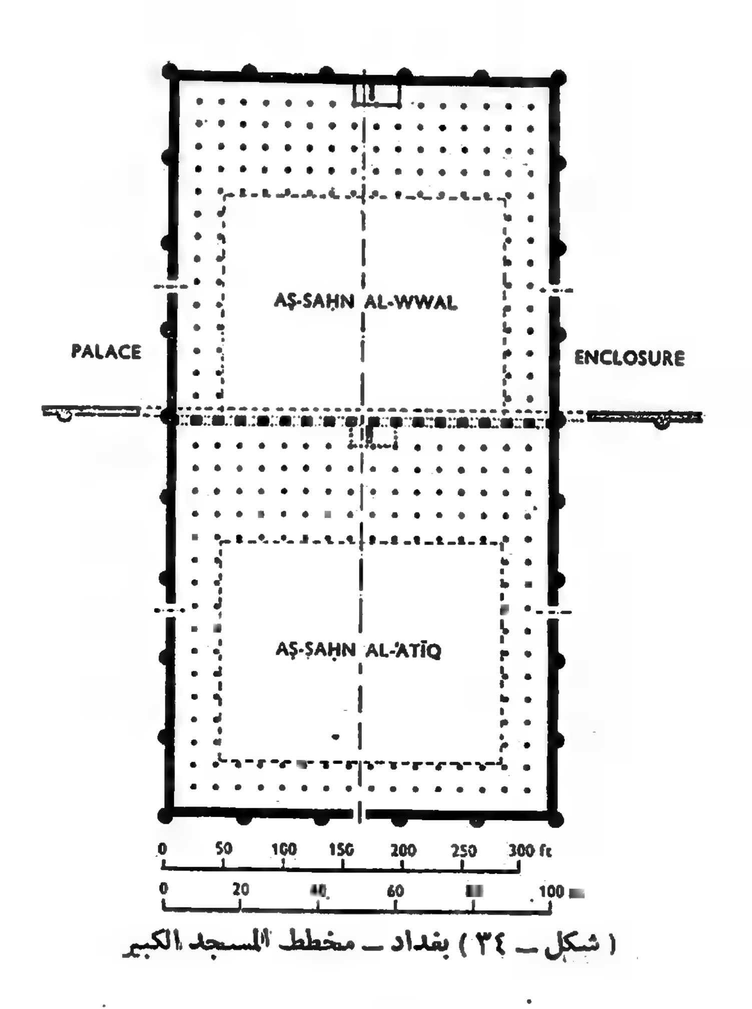
الجامع بالجانب الغربي من مدينة السلام في مدينة المنصور ، وأن الناس يضطرهم الضيق الى ان يصلوا في المواضع التي لا تجوز في مثلها الصلاة فأمر بالزيادة فيه من قصر امير المؤمنين المنصور فبنى مسجد على مثال المسجد الاول في مقداره أو نحوه ثم فتح في صدر المسجد العتيق ووصل به فاتسع به الناس وكان الفراغ من بنائه والصلاة فيه في سنة ثمانين ومائتين »[1] .

إعادة التصميم :

يعلق هرتزفلد على القول بفتح ١٧ قوسا في الجدار الفاصل ، وفتح ١٣ منها على الصحن و ٤ على الاروقة الجانبية بقوله أن هذا يظهر أن في المسجد القديم ١٤ رواقا من اليسار الى اليمين ، وأن الاروقة الجانبية بمقدار رواقين في العمق . أما بخصوص أروقة الحرم فانه يقترح خمسة ، قياسا ، على مسجد ابن طولون . وهذا أقصى ما أوافقه عليه . ولا بد لي من التأكيد على أن الخطيب يكتفي بالقول : أن المسجد بني بملاصقة القصر دون تحديد الجانب . ولذلك فان لنا الحرية في الاختيار وبالتالي لنضع المسجد لا كما وضعه هرتزفلد بجانب القصر الجنوبي الغربي ، بل حيث يتوقع المرء وجوده : أي على الجانب الشمالي الشرقي، بحيث يكون جدار القبلة ملاصقا للقصر ، ليتمكن الخليفة من العبور مباشرة من القصر الى المقصورة : عبر باب في جدار القبلة ، كما كانت العادة في القرون الخمسة الاسلامية الاولى .

ولنر الآن ، كيف يتوافق هذا مع الحقائق . فبالنسبة للقسم المضاف الذي كان (١) مبنيا تجاه الصدر أي الجزء الابعد عن المدخل ،

(١) تاريخ بغداد ج ١ ص ١٠٧/١٠٨ .



(شكل ـ ٣٤) بغداد ـ مخطط المسجد الكبير

و(٢) على جزء من منطقة القصر المتهدم . ولنفتح الاقــواس في الجدار الخلفي كما نرى (شكل ٣٤) . ولنضف نســخة عن المسجد الاول ، باستثناء الرواق الشمالي الشرقي الذي ليست هناك أية حاجة إليه ،ولننقل المحراب والمقصورة الى المسجد الجديد حسب وصف الخطيب . يصبح لدينا الآن مسجدا بمساحة المسجد الاول تقريبا (كما يقول الخطيب مساو في المساحة او ما يقرب ذلك) ومفصول عنه برواق ذي اعمدة مسقوف .

مما يجعل المقدسي[1] بعد قرن من الزمن يقول : في فاس من بلاد فارس بأن « الجامع فيه وهو من آجر اكبر من جامع شيزار له صحنان على عمل جامع مدينة السلام بينهما سقيفة » كل شيء يتوافق تمامـا مع وصف الخطيب وليست هناك حاجة للاقتراح (كما يفعل هرتزفلد) أن دار القطان كانت مستعملة للصلاة، لان ذلك هو الشيء الذي كان القصد من توسعته القضاء عليه .



(١) المقدسي ، ص ٢٣١ .

الفصل التاسع

الـرقـة

الجدران :

يقول الطبري أن الرقة بنيت على نمط بغداد من حيث البوابات والفاصل والرحبات والشـوارع . وبالرغم من ذلـك فالمدينة ليست مستديرة لان الجانب الجنوبي مستقيم وبقية الجدران تشـكل حدوة حصان مستدقة ومشوهة قليلا (شكل ٣٥) . في الوقت الحاضر تبعد الرقة حوالي ١ كم عن الفرات ، الذي كـان على ما يبدو يغسل جانبها الجنوبي . يبلغ طولها حوالي ١٥٠٠ متر من الشرق الى الغرب . وكذلك من الشمال الى الجنوب .

كانت الجدران مزدوجة كجدران بغداد . وبقايا الجدار الداخلي ما زالت بحالة جيدة في الغرب والشمال ، وأقل جودة في الشرق . وهناك بضعة مئات منه في الجنوب من الجهة الشرقية . هذا الجدار (الذي يبلغ ارتفاعه ١٠ أمتار في بعض أجزائه الشمالية الغربيـة) ، محاط بأبراج دائرية صغيرة على مسافات ٣٥ مترا .

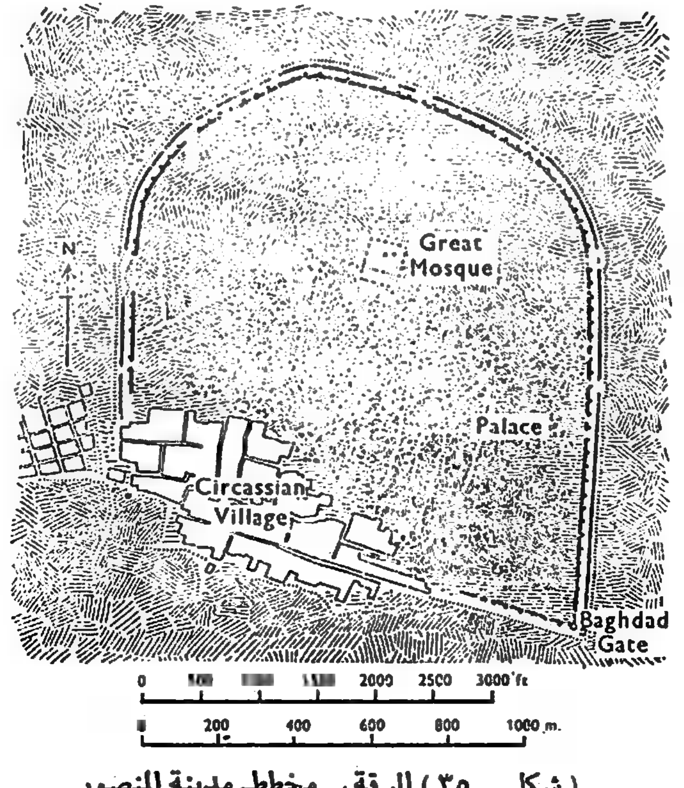
كما يوجد في الزاوية الجنوبية الشرقية بقايا برج دائري عظيم . يبلغ نصف قطره حوالي ٧ر٨ مترا ، ويبدو أنه كان أصما . كان ارتفاعه

٧ــ٨ أمتار عندما رأيته لاول مرة . يتألف من مركز من الآجر الطيني ، وطبقة خارجية من الآجر المشوي ، يبلغ سمكها ٣ر٢ مترا في الاسفل ، وتستدق حتى تصل الى حوالي متر واحد في الاعلى . وتبلغ مســاحة الآجر المشوي ٢٤ ــ ٢٦ سم٢ وسمكه ١١ ــ ١٢ سم .

وبفضل الخنادق التي حفرها شلومبرغر من دائرة الآثار ، بناء على طلبي في تموز ١٩٣٣ ، وجدنا أن سماكة الجــدار الرئيسي ٨٥ر٥ مترا بالضبط ، والفاصل ٨ر٢٠ مترا ، وسماكة الجدار الخارجي حوالي ٥ر٤ مترا . أما الخندق فعرضه ٩ر١٥ مترا في الاعلى ، ويتناقص الى ٥ر٩ مترا في القاعدة . وترتكز الجدران مباشرة على التربة الصخريــة . ويتألف المدماكان السفليان من الجدار الرئيسي من حجر طباشيري أبيض ، يشبه الجص ، ويبلغ ارتفاع كل مدماك ٦٥ سم . ويبدو أن الجدار المؤلف من الآجر الطيني ، لم يكن مغطى بطبقة من الآجر المشوي ، مثل الابــراج المغطاة بالآجر المستوي بسماكة ٥٥ سم أي ½ ٢ آجرة .

بوابة بغداد :

رغم أن ثلاثة أرباع البوابة قد اختفى تقريبا ، فــان الباقي يكفي ليمكننا من تكوين فكرة واضحة عن شكلها الاصلي (لوحة ٣٢ لوحة ٣٣) . وعلى فرض أن الواجهة متناظرة ، فلا بد أنها كانت برجا مستطيلا، قائم الزوايا ، (٠٧ر١٨ × ٥ر١٤ مترا) ذا مدخل مقنطر جميل عريض ، في وسط الواجهة الشرقية . ويبلغ ارتفاعه الحالي ٣ر١١ مترا . وكانت توجد على جانبي المدخل حنية قليلة العمق ، وفي الداخل غرفة مستطيلة مقنطرة ، طولها ١٢ مترا ، وطرفاها مقنطران اســطوانيان ، أما القسم الاوسط فمقنطر متصالب . وبعكس البرج الكبير خلفها ، فهي مبنيــة



(شكل ـ ٣٥) الرقة ـ مخطط مدينة المنصور

بالكامل من الآجر المشوي ، وتظهر الأخاصر الافقية في الوجه الداخلي واستعمل الخشب للوصل •

والقوس الرائع مبني من حلقتين من الآجر المربع ، سمك كل حلقة آجرتان ، مما يجعل العمق الاجمالي حوالي المتر • انها المثال الاول من القوس المدبب خارج (؟) سورية ، ولكنه ليس من النوع ذي المركزين، الذي اعتدنا رؤيته • إنه نوع جديد قائم من أربعة مراكز • وردا على الاقوال الغربية التي تقول ، ان القوس المدبب انتشر من ايران عبر بلاد

ما بين النهرين الى حوض المتوسط » .. وايضا أنه « في القرن التاسع يبدو عمليا في كل بناء في بلاد ما بين النهرين وايران » يجب أن نلاحظ بصورة خاصة : (١) أن الرقة حيث يظهر هذا القوس (الذي يعتبر فارسيا) لاول مرة ، يفصلها عن سورية فقط عرض نهر الفرات ، وأنها لا تبعد عن حلب أكثر من ١٠٠ ميل ، بينما تبعد عن أقرب - من الحدود الايرانية أكثر من ٣٥٠ ميلا . (٢) إنه في طارق خانة حيث يوجد الاثر الوحيد المعاصر أو القريب من المعاصر . في إيران ، الاقواس ذات صلة وثيقة بالشكل الاهليلجي الساساني القديم . باستثناء أنها تظهر ميلا قليلا إلى الرأس . بمعنى آخر ان التطور الذي بدأ في سورية في النصف الثاني من القرن السادس لم يكن يبدأ في إيران في نهاية القرن الثامن .

الزخرفة الآجرية :

قمة الحنية المقنطرة الى يسار المدخل ، مزينة بتصميم هندسي مؤلف من أربعة صلبان معقوفة ، وخمسة مربعات . والتصميم مصنوع كلية من الآجر ، حيث تظهر عناصر النموذج وخلفيته كلها بعرض آجرة واحدة . هذا هو أول مثال من هذا الاسلوب المعروف محليا بالحزرباف (الالف حنية) الذي قدر له أن يتطور بتعقيد اكثر في إيران فيما بعد . والنموذج مرفوع قليلا ، بينما الفراغات مزخرفة بصفوف من المعينات الجصية .

وقسمت الواجهة لاغراض زخرفية إلى قسمين :الاسفل ويحتوي على المدخل المقنطر العظيم ، والقطاعين الزائفين . والاعلى الذي يبلغ ارتفاعه ٤ر٤ مترا تقريبا ، والمزخرف بسلسلة من الحنيات الثلاثية الفصوص ، ذات الاطر المقنطرة بروافد قائمة . على ركائز ، مرتكزة على أعمدة

صغيرة نصف غائرة . ثمانية من هذه الحنيات لا تزال محفوظة . وبما أن محور الحنية السادسة يتوافق مع محور مدخل البوابة ، فانني أستنتج وجود ١١ منها بالاصل . في معالجة الاغطية حيث أرخى الصانع لخياله العنان (لوحة ٣٢) .

والواضح من تفحص الموقع والصور الجوية التي أخذها ـ بناء على طلبي ـ فوج الطيران التاسع والثلاثون الفرنسي ـ السرب السابع ـ أن مدخل البوابة هذا هو الوحيد في الجدار الخارجي . وبما أن الجرف الطويل الذي يشير إلى خط الجدار الشرقي ، يمتد مباشرة حتى جانب البرج عند النقطة التي وجد فيها المخرج . فيما لو كان مدخلا منحنيا . فلا بد أنه كان من النوع المستقيم . أين كان مدخل البوابة في الجدار الداخلي ؟ الجدار الجنوبي لا يزال محفوظا إلى ارتفاع معقول الى الغرب من الحصن الدائري الكبير (لوحة ٣٣) . ولكن قبل أن يصله يتوقف فجأة ، عندما يبدو أنه بقايا برج أكبر قليلا من البقية . بين هذه النقطة والحصن الكبير تبدو الارض مستوية تقريبا ، دون أي أثر لاي جرف يستحق الذكر . وما اعتقده أن المدخل الداخلي كان في هذه النقطة . فالمهاجمون الذين تغلبوا على البوابة الخارجية عليهم أن يمروا قرب الحصن الكبير، وجانبهم الايمن معرض للنار من المتراس (حاجز السطح)، قبل أن يتمكنوا من الوصول الى البوابة الداخلية . التي يشرف عليها . أي أن لدينا هنا نموذج « المدخل الموارب » فالمدخل المنحني لم يتأصل بعد .

التاريخ :

ينسب هرتزفلد هذه البوابة الى هارون الرشيد . الذي يعرف عنه بأنه أقام في الرقة في عام ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) . وكل من القسمين الداخلي

والخارجي ينسبان بالتأكيد إلى المنصور.وقد كانت هناك بوابة عند هذه النقطة بشكل دائم ، لان الطريق القديم كان بمحاذاة الفرات . ويبدو من غير المقبول أن بوابة بنيت عام ٧٧٢ م . أصبحت بحاجة لاعادة بناء بعد ٢٤ سنة . ونظرا لغياب أية أدلة أخرى أنسبها مع بقية الاقسام الى المنصــور .

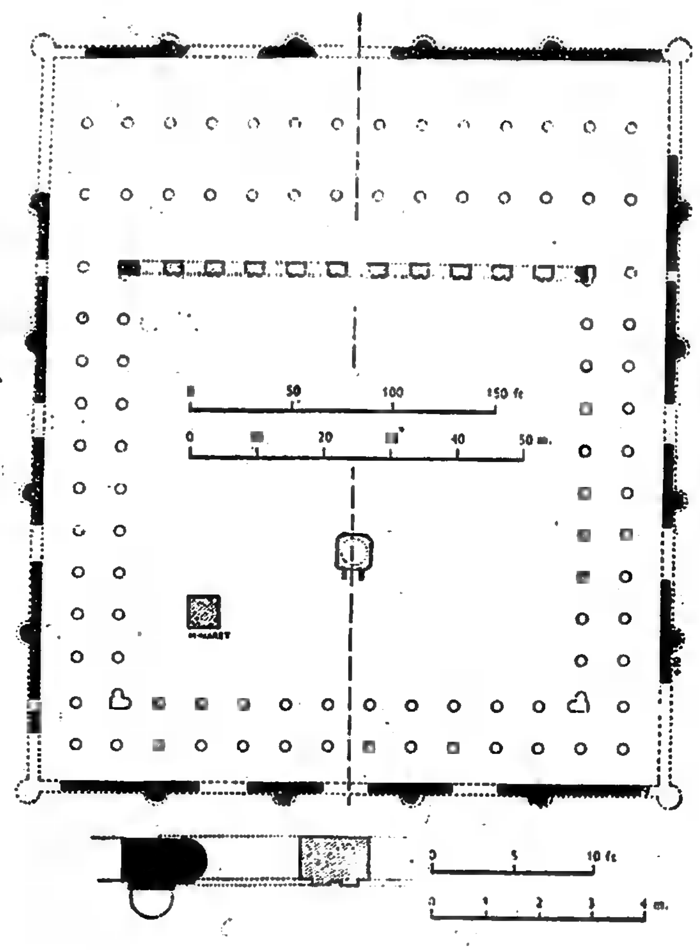


المسجد الكبير

يتألف المسجد الكبير (الذي يقع في النصف الشمالي من البلدة) من مستطيل ، يبلغ عرضه الداخلي حوالي ٩ر٩٢ مترا ، وعمقه ١ر١٠٨ مترا ، أي أن النسبة تقريبا ٦ إلى ٧ وهو محاط ببقايا الجدران الآجرية الطينية مدعمة بأبراج نصف دائرية . وتبلغ مساحة الآجر الطيني ٤٥ سم² وسماكته ١٠ سم . وبالرغم من الفجوات في الجدران ، وحالتها المتهدمة ، فلا يزال من السهل أن نرى ، أنه كان هناك برج في كل زاوية ، وأربعة أبراج أخرى في كل جانب ، أي ما مجموعه ٢٠ برجا . ولا بد أن سماكة الابراج كانت حوالي ٧ر١ مترا (شكل ٣٦) .

والاشياء المتبقية داخل البناء ، هي المئذنة (على الارجح من القرن الثاني عشر) ، والمدفن المتواضع، وصف من ١١ قوسا ، وهي التي شكلت واجهة الحرم . هذا الرواق المقنطر (الذي يعطينا نقطة انطـلاق لاعادة تصميم الداخل) مشيد من الآجر المشوي ، يبلغ ارتفاعه الاجمالي حوالي ٥ر١٠ مترا . ولكن لا بد أنه كان حوالي ١٣ مترا . والواجهة الخلفية صقيلة وبسيطة ، بينما الواجهة الامامية بعكس ذلك . فليس كل قوس فيها منتصب في ارتداد قليل العمق ، بل ان زوايا الدعائم مزينة بأعمدة رفيعة ، نصف ظاهرة من الآجر ، ذات تيجان من الجص ، وعند قاعدة كل دعامة يوجد محراب صغير قليل العمق .

والتيجان الجصية للاعمدة نصف الظاهرة ، ذات صلة واضحـة « بالاعمدة القيثارية » لمسجد نور الدين في الموصل . وهذا متوقع تماما



(شكل ـ ٣٦) الرقة ـ مخطط المسجد الكبير

لان هناك فوق القوس المركزي في الواجهة نقش يقول : إن نور الدين جدد هذا المسجد • ويتابع النقش قائلا : « وهذا يعني الاقواس الاحد عشر والدعائم العائدة لها والسقف الجمالوني في عام ٥٦١ هـ (١١٦٥ ـ ١١٦٦ م) • ولذلك فان عمل نور الدين هو تجديد البناء القديم •

وقد اقتصر ذلك بالتحديد على الاقواس الاحد عشر التي لا تزال قائمة والسقف الجمالوني » .

ولكن الدعائم الاخيرة ـ كما أشار هرتزفلد ـ تختلف كثيرا عن البقية ، ليس فقط في أنها دعائم زوايا الصحن ، ولكن لانها تفتقر الى الاعمدة الركنية الرفيعة ، ولان الجانب الـذي يبرز منه القوس يعتبر كدعامة نصف دائرية كبيرة قطرها ١٫٧٣ متراً . وبالاضافة إلى ذلك ، بقي أجزاء افريز أقانثوس الجصي على الجانب الشمالي من الدعامة الشرقية . إنها كلاسيكية الطراز ، ولذلك لا يمكن أن تكون قد أقيمت في عهد نور الدين . ولهذا يعتقد أن الاعمدة الركنية تعود الى البناء القديم ، الذي جدده نور الدين . ويمكن للمرء ان يضيف : إلى هذا التعليل أن نقش نور الدين يعني تجديد١٠ دعائم فقط، لانه لو جدد الدعائم الركنية لكان عليه أن يجدد القوس ، الذي يبرز من كل منها باتجاه الشمال ، أي ١٣ قوسا بدلا من ١١ قوسا

ولذلك يمكننا اعتبار الدعائم الاخيرة بالتأكيـد جزءا من البناء القديم ـ أي المسجد الاصلي الذي يعود تاريخه إلى انشاء المدينة على يدي المنصور عام ١٥٥ هـ (٧٧٢ م) . وهذا يتوافق تماما مـع افريز الاقانثوس والجدران المدعمة من الآجر الطيني ، والدعائم الركنية التي تشبه دعائم مسجد قصر الأخيضر . ولهذا السبب أعد تصميم الدعائم الاخرى على أنها دائرية كما في الأخيضر ، بدلا من المستطيلة كما فعل هرتزفلـد .

ويشير الخندقان العميقان خلف صف أعمدة نور الدين وموازيان له الى صفين من الدعائم، التي كانت تقسم الحرم إلى ثلاثة أروقة متوازية. وتبلغ وسطيا ٥ر٣٠ مترا في العمق . ولا بد أنها كانت مغطاة بثلاثة سقوف

جملونية متوازية ، ظهرت أطرافها فوق الجداريـن الشرقي والغربي ، وليس هناك أي احتمال لوجود رواق عرضاني لعدم وجود عمـادات للرواقين المتوازيين المطلوبين ، المتدين نحو الخلف بزاوية قائمة حتى الواجهة . كما أنه ليس هناك أي أثر أعلى من ارتكاز القوسين ، اذا أن أعمال الآجر في خلف الواجهة ملساء وغير متقطعة .

من الواضح أن الاروقة الجانبية كانت ١٢ر٥٢ ــ ١٢ر٧ مترا في العمق ، وذات صفين من الدعائم وأن عرض الصحن كان ٦٧ر٦٧ مترا ، وعمقه ٧٥ر٣٠ – ١٢ر٥٢ = ٦٢ر٧٨ مترا ، مما يسـمح بوجود عشرة أقواس جانبية فقط بدلا من أحد عشر قوسا .

الاصول المعمارية :

هذا المسجد الذي يقع على الخط الفاصل بين سورية وبلاد ما بين النهرين ، يقدم مثالا هاما على مزج الطرازيـن . فالمخطط المربع تقريباً للمسجد ، والصحن ، والجدران المحصنة ، والعدد الكبير من المداخل (بدلا من المداخل الثلاثة المحورية المعتادة في سورية) كلها من طراز بلاد ما بين النهرين . وكذلك مزج مـواد البناء ــ الآجر الطيني للجدران والآجر المشوي للاروقة ــ الموجود في الكنائس النسطورية في الحيرة . ولكن الحرم الثلاثي الاروقة ، والسقوف الجمالونية المتوازية التي تغطيها (بعكس السقوف المسطحة في العراق) ، هي خصائص سورية . رأيناها في دمشق ، وقصر الحير . كما رأينا حرما مسقوفا بنفس الطريقـة ، في حران وهي منطقة تابعة لسورية معماريا .

ازدياد التأثير الفارسي

كما أشار براون « إن الثورة التي أوصلت العباسيين الى الحكم ، غيرت كليا وضع الفرس الذين ارتفعوا فجأة من وضع العنصر المحكوم المظلوم ، إلى المناصب والقيادات الرفيعة والفعالة . فسيوفهم هي التي انتزعت النصر للاسرة العباسية التي يسميهاالبيروني ــ لاسباب وجيهة ــ خراسانية ، وأسرة حاكمة شرقية .... فسقوط الامويين كان نهايةالعصر العربي الاصيل » .

اثناء حكم المنصور بدأ التأثير العباسي بالازدياد في عادات العالم الاسلامي . وأصبحت الازياء الفارسية والقلنسوة اللباس الشائع في البلاط . ودخل المجوس بأعداد كبيرة في الدين الجديد ، يحملون علومهم معهم وبدأ الاحتفال بعيد رأس السنة الفارسية ، وفقد العرب مكانتهم ليس في الجيش ، وفي البلاط فقط ، بل وفي المجتمع أيضا . كان العرب حتى الآن الطبقة الحاكمة المتفوقة ، ولكنهم بدآوا الان يتخلون عن مركزهم . وبدأت سلطة الحاكم ترتكز أساسا على القوات الفارسية ، التي كانت اكثر طوعية للحاكم من العرب . كما أن الحدود البيزنطية بكاملها امتلأت في هذه الفترة بالقوات الخراسانية .

وقد عبر تيراس عن هذا التأثير على الفنون الاسلامية أجمل تعبير قائلا :

« انتقلت الخلافة من الارض الهيلينستية الى بلاد بقيت فيها تقاليد الشرق القديم ، مليئة بالحياة . في بلاد مابين النهرين العباسية . كان هناك فن على وشك التطور ــ فن مخالف في كل شيء تقريبا للفن شبه الكلاسيكي الذي ما زال سائدا على ضفاف البحر الابيض المتوسط » .

الفصل العاشر

الأخيضر والعطشان

الأخيضر

يقع قصر الأخيضر المحصن في الصحراء على وادي عبيد على بعد حوالي ١٢٠ ميلا إلى الجنوب من بغداد لا بد أن اسمه الحالي اسم حديث بالتأكيد :فأقدم ذكر له وجدته في عام ١٦٢٥م في رحلات بيترو ديلا فالي.

والأخيضر في وحدته هو أكثر الابنية التي رأيتها تأثيرا (لوحة ٣٨). يتألف من بناء مستطيل محصن (١٧٥ × ١٦٩ مترا) . وله مدخل في وسط كل جانب . هناك أربعة أبراج ركنية دائرية ، و١٠ أبراج متوسطة نصف دائرية ، بالاضافة الى الابراج الغريبة على جوانب المداخل . ضمن هذا البناء يوجد القصر نفسه ملتصقاً بواجهته الشمالية ، الذي يبلغ امتداده ١١٢ مترا من الشمال الى الجنوب ، و٨٢ مترا من الشرق الى الغرب ، (شكل ــ ٤٠) كما أنه مزود بأبراج نصف دائرية . مدخله الرئيسي يشكل وحدة مع المدخل الشمالي للبناء بكامله . والبناء مؤلف من ألواح رقيقة شبه منحوتة من الحجر الكلسي وملاط (مونه) من الجص .

الفناء الخارجي :

يبلغ الارتفاع الحالي للجدران حوالي ١٧ متراً ، ولكن المتراس غير

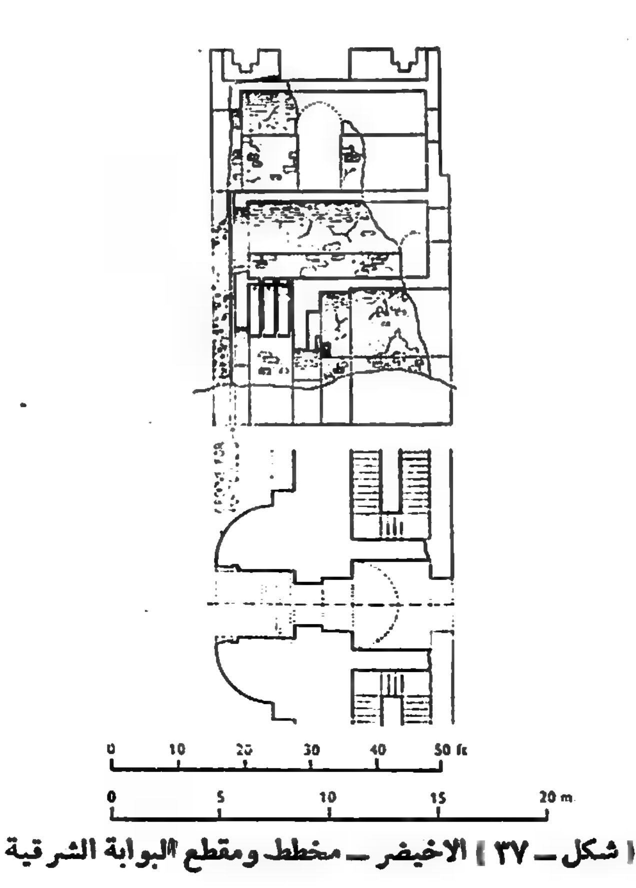
موجود ، فلا بد إذن من أن الارتفاع كان على الاقل ١٩ مترا في الاصل . ويبلغ قطر الابراج الدائرية ٥ر١ مترا، والابراج المتوسطة ٣ر٣ مترا فقط، وارتفاعها ١٣ مترا . وبروزها ٦ر٢ مترا خلف حافة أقواس الجدران . وسمك الجدار ٦ر٢ مترا ، وفيه عمادات تحمل الاقواس على الوجهين . وبالنتيجة فان سمك الجدار عند مستوى أرض الشرفة يبلغ ٦ر٤ مترا تقريبا . وعلى الجانب الخارجي من الشرفة ذات القناطر الاسطوانية . توجد ارتدادات متوسط عرضها ٤ر١ مترا ، وعمقها ٥ر٠ مترا . وينفتح كل ارتداد خامس على احدى الغرف الدائرية الصغيرة ، في قمة كل برج . والبقية تستعمل كشقوق للسهام . وعلى الاطراف الخارجية لكل ارتداد توجد فجوة ، عرضها ١٧ سم ، بينما تتوافق أطرافها الداخلية مع الوجه الخارجي للجدار خلف الارتدادات المقنطرة . وبالنتيجة فانه يفنتح في قمة القوس في جانبه الداخلي . وبالامكان إطلاق القذائف عبر هذه الشقوق باتجاه العدو الواقف في أسفل الجدار . هذه الوسيلة لاطلاق النار باتجاه الاسفل عبر طول الرواق بكامله ، يعادل تقريبا الكوى الساقطة المستمرة، وهي الميزة التي لم تعرفها أوروبا قبل القرن الرابع عشر . أما المنطقة التي بقي فيها السور لاعلى ارتفاع ، هي في الجانب الشمالي . ومن الواضح ، أنه ينتهي برواق زائف صغير من الاقواس التي تشبه حدوة الفرس (لوحة ٣٤ ب) .

في كل ركن من أركان الفناء الاربعة ، يوجد درج إلى الشرفة ، التي تمتد حول الفناء بكامله ولكنها بحالة سيئة نتيجة التهدم ما عدا الجنوب الشرقي . كما يمكن الوصول إليها أيضا بالادراج المزدوجة المجاورة للمدخل الشرقي والجنوبي والغربي .

المداخـل :

المداخل الثلاثة التي ذكرتها متطابقة تماما . فالمدخل المقنطر بعرض ٣ امتار واقع بين برجين ربع دائريين، يبرزان نفس مسافة الابراج الاخرى (لوحة ٣٤ آ) . إلى اليمين واليسار يوجد أخدود بعرض ٢٠ سم وعمق ٣٠ سم ، يرينا أنه كانت توجد شعرية تحصينية هنـا . وفي الخلف على مسافة ١ر٩٥ مترا يوجد قوس آخر يبلغ باعه ١ر٨٣ مترا ، وبين القوسين توجد ردهة مساحتها ٣ × ١ر٩٥ مترا مسقوفة بعقـد اسطواني ، توجد فيه ثلاثة شقوق عرضها ١٧ سم وتمتد من جدار إلى آخر . ولنفترض الآن أن الأخيضر هوجم ، فستبقى الشعرية التحصينية مرفوعة بواسطة بكرة في الغرفة العليا حتى تدخل مجموعة من الرجال إلى الردهة ،وتحاول اقتحام الباب خلف القنطرة الداخلية . وعند الاشـارة التي تصدر عن الرجال الذين ينظرون عبر الشقوق في العقد ، تهبط الشعرية التحصينية ثما تنطلق المقذوفات والرصاص المصهور والزيـت المغلي فوق الفئـة المهاجمة . التي تقع في الفخ في الاسفل .

كانت الشعرية التحصينية معروفة لـدى الرومان . فلقد ذكرها بوليبيوس(الكتاب العاشر :٣٣/٨/) وليفي (الكتاب السابع والعشرون: ٢٨) في وصفهما محاولة مهاجمة سالابيا في عام ٢٠٨ ق.م . كما يصفها أيضا فيجيتيوس (موجز الفنون الحربية الكتاب الرابع : ٤) « ولكن الاكثر فائدة هو الوسيلة القديمة ، وهي إضافة برج بارز أمام البوابة ، وفي مدخله توضع شعرية تحصينية مدلاة في حلقات حديدية : بشـكـل يجعلها تسقط خلف الاعداء بعد دخولهـم ، ومن ثم التعامل معهم بعد تطويقهم هذا » .



(شكل ــ ٣٧) الاخيضر ــ مخطط ومقطع البوابة الشرقية

كان لبوابة هرقل في مدينة بومبيي شعرية تحصينية قبل عام ٧٨ ق.م . وكذلك المدخل الروماني لقصر الشام في القاهرة القديمة .

المدخل الرئيسي :

يوجد في وسط الجانب الشمالي حيث يتخلل سلسلة الابراج النصف دائرية بروز عظيم لمسافة ١٢ر٥ مترا وبعرض ٩ر١٥ مترا . والمدخل في الوجه الخارجي من هذا البرج . يؤدي إلى غرفة مقنطرة ضيقة عرضها ٣

مترا وطولها ٨ر٥ مترا ، وعلى الجانبين مداخل صغيرة تؤدي الى غرف مظلمة مستطيلة الشكل ، ما عـدا الجزء المنحني من الجدار في زواياها الداخلية .

تتألف القنطرة التي تعلو قاعة المدخل من سبع أقواس متصالبة ، عرض كل منها ٦٥ سم وتؤدي إلى الغرفة العلوية (لوحة ٣٥ آ) . هذه الشقوق ــ مثل شقوق المداخل الاخرى ــ تمكن الاشخاص في الغرفة العلوية من صب الرصاص المصهور ، أو الزيت المغلي على أية مجموعة مهاجمة استطاعت الدخـول . والاجزاء المركزيـة لكل هذه الاقواس تهدمت ، وبالتالي يمكن رؤية عقد الغرفة العليا من المدخل . على طرفي القاعة وعلى مسافة ٧ر١ مترا من طرفها الـداخلي يوجد أخدود عرضه وعمقه ١٨ سم وبعد مسافة ٥٥ سم إلى الشمال يوجد انفصال تام في البناء يمكن رؤيته بسهولة حتى ارتفاع ٥ر٢ مترا . وهذا يعني فقط ــ كمـا أشار روثر ــ أن المدخل الحالي بغرفتيه الجانبيتـين لم يكن جزءا من التصميم الاصلي الذي شمل الغرفة المقنطرة والعقد والشعرية التحصينية والجزء الاخير محاط ببرجين ربع دائريين والكل مصمم تماما كالمداخل الثلاثة الاخرى . والقسمان المنحنيان مـن الغرف المظلمة ، هما بالطبع الوجهان الخارجيان لهذين البرجين . وبعد أن ارتفع البناء إلى حوالي ٣ امتار ، تقرر اقامة الفناء الخارجي الكبير . وبرج المدخل المستطيل الكبير بعقده المليء بالشـقوق ، والغرف المجاورة . ومـن ثم بدىء بالجدار الشمالي بالاتصال مع الامتار الثلاثة التي تم بناؤها من الجدار الشمالي للقصر . وفوق هذه النقطة يبدو البناء كلا متكاملا . وفي الطرف الاقصى يوجد قوس يؤدي إلى غرفة طولها ١٥ر٤ مترا وعرضها ٣ أمتار ،وتتناقص حتى تصبح مربعة بواسطة قوس مستطيل ، وفوق هذا المربع قبة محززة

تمتد فوق الزوايا بواسطة كتيفات مثلثية منبسطة (لوحة ٣٥ ب) .

من هذه الغرفة المقببة تتفرع ثلاثة أقواس مدببة : اثنان منهايؤدياذ إلى دهليزين مقنطرين، بطول ٣٥ مترا تقريبا وبعرض ٣٫٤٥ مترا ، يصلان الى الجزء الشرقي والجزء الغربي من الفناء الخارجي (لوحة ٣٥ ب) . والمداخل في كل طرف ليست مقامة على المحور الدهليز ، ولكن أقرب إلى جانبه الجنوبي . وتعليل ذلك هو أن هذين الدهليزين كانا يستعملان كاصطبلات للخيول ، ولا تزال بقايا المعالف قائمة بجانب الجدار الشمالي .

على الجانب الجنوبي من المربع المقبب يوجد مدخل مقنطر . يؤدي إلى قاعة مقنطرة عظيمة ، عرضها حوالي ٧ امتار وعمقها ١٥٫٥ مترا . وارتفاعها ١٠٫٣٣ مترا ، وارتدادات مقنطرة الى اليمين واليسار (لوحة ٣٦). وخلف هذه الارتدادات توجدغرف مقنطرة مظلمة وهي مستودعات على الارجح . وخلف هذه الغرف أيضا نحو الغرب يوجد مسجد ذو حنية محراب مستطيلة ، ونحو الشرق يوجد بهو محاط بغرف مقنطرة (شكل ٤٠) .

المسجد :

يدخل المرء إلى هذا المسجد من الذراع الغربي للدهليز المقنطر المتصالب بواسطة بابين ينفتحان على حيز عرضه ٢٫٢٤ مترا ، وعمقه ١٥٫٦٥ مترا .. كان في السابق مليئا بالانقاض لكن مديرية الآثار أزالتها، وأصبح الآن بالامكان رؤية بقايا كافية تجعل إعادة التصميم سهلة . من الواضح أنه كان هناك رواق ذو خمسة أقواس على جانب القبلة ترتكز على أعمدة دائرية من الدبش بقطر متر واحد . هذا الصف من الاعمدة ،

حمل عقدا اسطوانيا ، ولكن بما أن عوارض الوصل التي تحملت الضغط قـد زالت ، فان العقد قـد أثقل على صف الاعمـدة وأسقطه . نفس الملاحظة تنطبق على الرواقين الشرقي والغربي ، اللذين يبلغ عمقهما ثلاثة أمتار وطولهما عشرة امتار . لم يكن هناك رواق على الجانب الشمالي . ولذلك فان الصحن كانت مساحته (٢ر١٦ × ٣ر١٠) مترا . وفي وسط الجدار الجنوبي تقريبا يقوم المحراب ، وهو حنية مستطيلة ، عرضها ٠٥ر١ مترا وعمقها ٥٢ سم ، وهي مغطاة بنصف قبة محمولـة عبر الزوايا على كتيفات أفقية . وتصميم المحاريب المستطيلة بـدلا من المحاريب نصف الدائرية سمة من سمات منطقة إيران، وما بين النهرين في الفترات الاولى: مثال طارق خانة في دافعان . والمسجد الكبير في سـامراء وأبو دلف في ناين الخ .

بلاط الشرف :

دعونا الآن نعود إلى القاعة الكبرى . ففي طرفها الخارجي يوجد مربع مقبب صغير ، يمتد منه دهليز مقنطر ، عرضه (٥ر٣ ـ ٦ر٣) مترا وبتفرع إلى اليمين واليسار .ولو تابعنا الىالامام لوجدنا أنفسنا في بلاط الشرف (عرضه ٢٧ مترا وعمقه ٧ر٣٢ مترا) وتتكون جوانبه من صفوف ذات أعمدة زائفة ستة في الشمال ، وستة في الجنوب (لوحة ٣٧) وتسعة في الشرق والغرب . في الجانب الجنوبي ليوان مقنطر بعرض ٦ أمتار ، وعمق ٧٤ر١٠ مترا ، وخلفه غرفة مربعة . والقوس (المتهدم الآن) فوق هذه الفتحة لا بد وأنه ارتفع فوق الواجهة على الجانبين . وأنه أقيم بدون شك في إطار مستطيل . ولذلك نجد هنا المثال الاول لهذه السمةالشائعة في العمارة الفارسية المتأخرة ، وهي البشطاق (الواجهة الزائفة) .والاغطية نصف المقببة للارتدادات على الجانبين مبنية من الآجر الكامل الطول ، أو ثلثي الطول أو ثلثه . بعضه مرصـوف أفقيا ، وبعضه عموديا ، لكي

يشكل تصاميم هندسية (لوحة ٣٩ آ) ، كما في بوابة بغداد في الرقة . إنها ــ كما رأينا ــ تسمى هزار باف ، وتوجد في كل مكان في العمارة الايرانية والعراقية المتأخرة . وعلى كل جانب من الليوان العظيم ومنفتحة عليه كما توجد غرفتان مقنطرتان اليمنى منها ذات عقد مزخرف (لوحة ٣٩ ب) . هذه المجموعة ، كانت على ما يبدو ، قاعة الاستقبال ، والقاعة الخاصة ، وغرف الخدم الملحقة بها .

ويمتد الدهليز المقنطر الطويل المذكور سابقا حول المجمع المركزي، الذي يبلغ (طوله ٨٢ر٧٠ متراوعرضه ٢٠ر٣١ مترا) ويفصله عن مجموعة أخرى من الغرف المقنطرة والبلاطين . وعلى جانبيه الشرقي والغربي أربع مجموعات من الغرف المقنطرة المنعزلة والمستقلة ،كل منها لها ردهتها الخاصة . ولهذا أعتبرها بيوتا أربعة كما في المشتى في شرق الاردن .

البيوت الاربعة :

هذه البيوت الاربعة لاتتصل ببعضها ، ويمكن الوصول إلى كل منها بواسطة باب واحد فقط ينفتح على الدهليز الكبير . ماعدا البيت الجنوبي الشرقي الذي له باب آخر ينفتح على الفناء الخارجي . والبيتان B و C يختلفان عن بعضهما . ولكن كلاً منهما متطابق تقريباً مع البيت المقابل له . ماعدا أن كل شيء هناك معكوس من اليمين إلى اليسار (شكل ٤٠) . تبلغ ردهة B حوالي (١٥ متراً من الشمال إلى الجنوب و (٥ر١٦ متراً من الشرق إلى الغرب) .والجانب المجاور للدهليز الكبير ينتهي بصف أعمدة زائف ، ذي أقواس خمسة . ترتكز على عضائد نصف دائرية . ويتخلل القوس المركزي منها الباب والجانب الأقصى كان ينتهي برواق عمقه (٨ر٢ متراً) وذي أقواس خمسة ترتكز على أربع عضائد دائرية ، ومغطى بعقد اسطواني . تقوم في الجانبين الشمالي

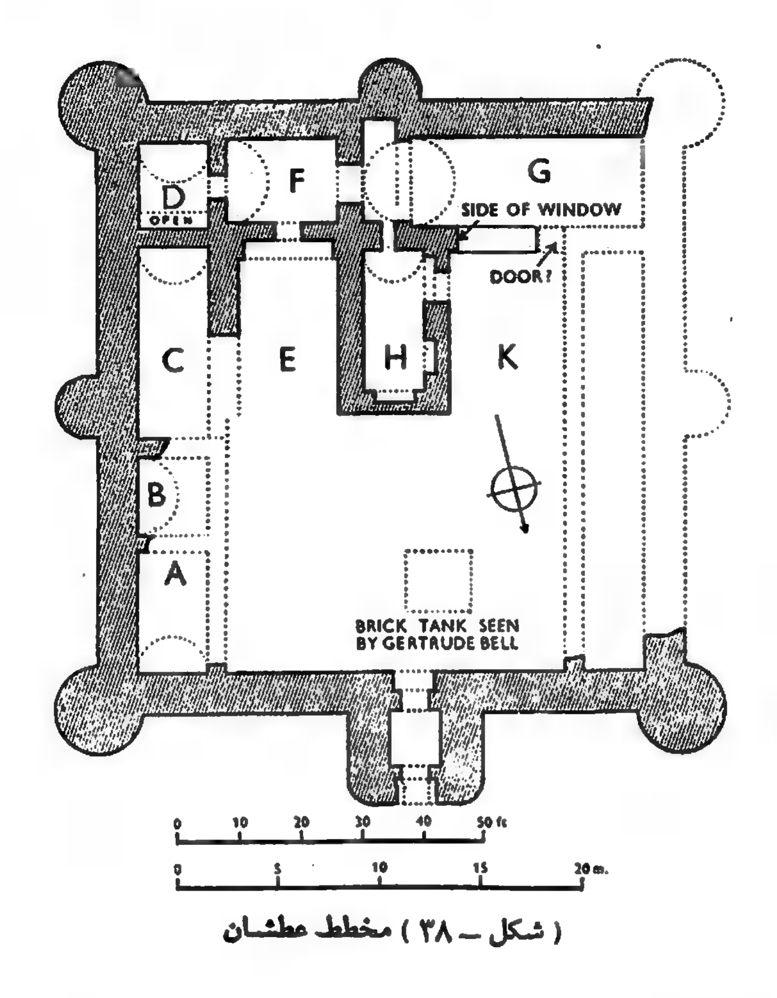
والجنوبي واجهة مثلثة الاقواس . القوس الاوسط منهما أعرض من القوسين الآخرين . هذه الاقواس تشكل رواقاً ، توجد خلفه ثلاث غرف متوازية . ذات عقود اسطوانية . ولكل غرفة جانبية بابان أحدهما واقع كالمعتاد قرب الطرف الخارجي للجدار الجانبي ، وينفتح على الغرفة المركزية . والآخر ينفتح على الرواق .

هنا نجد مجموعة معمارية في كل البيوت الاربعة ، سأسميها « مجموعة الليوان » . فالغرفة المركزية ذات القنطرة العريضة كانت على مايبدو غرفة الاستقبال ، والغرف الجانبية هي غرف الجلوس العادية . والمجموعة المتجهة نحو الجنوب ، تشكل الجناح الشتوي ، والغرف المتجهة نحو الشمال تستعمل في الصيف . وفي الجانب الخارجي يوجد مدخل الدرج المؤدي إلى السقف ، وبين هذا الدرج والجدار الخارجي ممر ضيق ، يؤدي الى غرفة طولها ١٧ر٦ متراً وعرضها ٣ر٥ متراً ومتصالبة خلف الغرف الثلاث ، ذات عقود اسطوانية . والممر المشابه في الجانب المقابل من البهو ، يؤدي الى غرفة مطابقة خلف الغرف ، ذات العقود الاسطوانية . وهاتان الغرفتان المتصالبتان بعقدين اسطوانيين ، بينهما فراغ مفتوح نحو السماء . ولابد أن القصد من ذلك هو احتواء النار ، لأن العقد المجاور للجدار الخارجي في كل مرة مثقوب بواسطة انبوبين من الفخار يستعملان كمدخنة . والغرض من هذه الأمكنة أن تكون مطبخاً . والبيتان C و D (لوحة ٣٨ ب) يختلفان عن البيتين A و B من حيث أنهما يفتقران الى الرواق الامامي ، حيث أن الغرف أكثر عمقاً نتيجة لذلك .

لنترك الآن قضية تاريخ الأخيضر ، حتى نفرغ من وصف العطشان .

العطشـــان

العطشان بناء يشبه الخان في السهل الرملي ، شرق قناة الهندية ويقع في منتصف المسافة تقريباً بين الأخيضر والكوفة . إنه بناء مستطيل يبلغ طوله من الداخل ٢٥ر٥٧ متراً من الشمال الى الجنوب و ٢٤ر٩٠ متراً من الشرق الى الغرب ، وجدرانه مبنية من الآجر المشوي (مساحة الآجـرة الواحدة ٣٣ سم٢ بسماكة ٧ سم) ، ومحاطة بأربعة أبراج ركنية ، وأربعة أبراج متوسطة ، كلها بارزة حوالي مترين ، ماعدا برج البوابة في الجانب الشمالي الذي يبرز ٤ر٤ متراً . وهو يشابه أبراج الأخيضر الى حد كبير فالزوايا دائرية ، والمدخل المقنطر كبير يبلغ عرضه (١ر٣٣ متراً فقـط) مرتد الى الوراء (١ر١٠ متراً) بين البروزين الدائريين . وعلى كل جانب ــ كما في الأخيضر ــ يوجد أخدود قرب القوس عرضه (١٥ سم) يرينا أنه كانت هناك شعرية تحصينية . الشكل (٣٨) . وعلى يسار البهو ثلاث غرف ، ذات عقود اسطوانية ، كلها بعرض (٣ر٣٩ متراً) ولكـن جدرانها الغربية تهدمت ، وسقطت معها العقود . وفي الركن الجنوبي الشرقي توجد غرفة مقنطرة عرضها (٣ر٤٢) متراً وطولها (٤ر٠٤) متراً وفيها مكان مفتوح بعرض (٨٠ سم) في الطرف الشمالي لعقد . وقياساً على الأخيضر فمن المرجح أنها كانت مطبخاً . وفي الجانب للبهو يوجد ليوان ذو عقد اسطواني E بعمق (٧ر٤٦) متراً وعرض (٤ر٧٩) متراً وفيه زخارف خارجية غربية ، تشبه الزخارف الباقية في جانب الاخيضر الشمالي ، قرب المدخل . كان هذا البهو يتألف من صف لاربع حنيات



(شكل ــ ٣٨) مخطط عطشـان

مقنطرة لاتزال اثنتان منها باقيتين بالكامل ، وأعمدة صغيرة بارزة ، وذات قاعدة ، وتاج مؤلف من آجرة واحدة . وهذه الأعمدة تحمل الاقواس الصغيرة . وفي مؤخرة الجزء العلوي في كل حنية آجرة مسطحة مرصوفة ، وجهها نحو الاعلى . هذه الأعمدة الزائفة تمتد على الجانب الغربي أيضاً وكذلك على جانب G الشمالي .

كل العقود تبدأ بمركز قدره ٤ سم . وفوقه ٥ ـ ٨ مداميك أفقية ترتكز فوقها حلقات عمودية سمكها ١½ آجرة .

والعطشان يشبه الأخيضر من عـدة وجوه : شكل برج المدخـل المقنطر ـ بناء الأقواس والعقود ـ الأعمدة الزائفة الصغيرة في أعلى H الخ . ولذلك لابد أنه يعود لنفس التاريخ تقريباً . وسنرى أنه بني على الأرجح مع الأخيضر .



تاريخ الأخيضر والعطشان

من الصعب جداً ــ وفق الأسس المعمارية ــ ، تحديد تاريخ الأخيضر ضمن فترة دقيقة ، نظراً لوجود القليل جداً من المواد الحالية المتاحة في العراق وإيران لأغراض المقارنة . لدينا قصر شيرين على الحدود الايرانية ، الذي بني بين عام ٥٩٠ م وعام ٦٢٨ م . وبعده يوجد قطع يمتد ١٥٠ سنة حتى نصل الى بوابة بغداد في الرقة ، (عام ٧٧٢ م) وأقدم الآثار في سامرا (باب العامة) ، التي بدأ بناؤها عام (٨٣٦ م) .

لنتقدم وفق هذا الأساس ، ولنحاول تقريب التواريخ المحددة معناه . فالبيوت في الأخيضر ــ كما رأينا ــ هي من النوع الذي ظهر لأول مرة في قصر شيرين . ورغم ذلك فلا بد أن يكون الأخيضر قد بني بناء بعد قصر شيرين لاحتوائه على مسجد ، الـــذي هو بالتالي بنــاء إسلامي ، لايمكن أن يكون قد أقيم قبل عام (٦٣٧ م) وهي السنة التي فتح فيها العراق . وهذا المسجد يحتوي على محراب مقعّر ، السمة التي ظهرت لأول مرة في عام ٧٠٩ م . ولذلك لابد من تحديد بناء الأخيضر بعـــد عـــام ٧٠٩ م .

وسمتان معماريتان أخريان تظهران كأساس للنقاش : (١) العقـــد المتصالب ، الـــذي يظهـــر ٨ مراتفي الأخيضر في الدهليز الكبـــير و (٢) الهزارباف المصنوع من الآجر على الجانب الجنوبي من بلاط الشرف هاتان السمتان غـــير معروفتين في العمارة الساسانية ، لكنهما تظهران في بوابة بغداد في الرقة . ولكننا لا يمكننا تأريخ الأخيضر في نهاية القرن

الثامن . لهذا . السبب وحده بسبب القطع التاريخي لـ ١٥٠ سنة من قبل هذا الأثر الأخير وإمكانية أن تكون آثار أخرى قد بنيت خلال هـذه الفترة ، وفيها هاتان السمتان . وهناك سمة ثالثـة مستخدمة مراراً في الأخيضر ، وهي الحنيات التي تعلوها اغطية غير عميقة . تحمل عبر الزوايا على كتيفات أفقية . هناك حنيات مشابهة تماماً تزيّن قاعدة برج الملويّةفي سامرا ٢٣٤ ــ ٢٣٧ هـ (٩/٨٤٨ ــ ٢/٨٥١ م) .

وهناك نقطة لها بعد ، ألا وهي القوس المدبب الذي لم يصل طوره النهائي في الأخيضر . كما نراه في سامرا في عام ٨٣٦ ولذلك فإن الأخيضر قبل سامرا .

ولذلك من الصعب ــ وفق الاسس المعمارية ــ أن نحـدد تاريخ الأخيضر أكثر من ٧٢٠ ــ ٨٠٠ م والآن علينا أن تتقدم وفـق الأسس التاريخية . فالأخيضر بالتأكيد لم يشيّده خليفة أموي . جميع الخلفاء الامويين سكنوا في الجانب السوري من الصحراء ، باستثناء مـروان الثاني (٧٤٤ ــ ٧٥٠ م) الذي عاش في حرّان . ومع ذلك فلا يمكن إلا لأمير أو حاكم قوي للعراق كالحجاج (٦٩٤ ــ ٧١٣ م) أن يشيدّه . ولكن الحجاج عاش في واسط . وعاش الولاة اللاحقون في مراكز هامة كالكوفة أو البصرة . وهكذا فإن أي تاريخ سابق لعام ٧٥٠ م يجـب استبعاده . وليست هناك أية اعتراضات معمارية لوضع الأخيضر بعـد هـذا التاريخ .

أما الخلفاء العباسيون فلم يعيشوا الحياة شبه البدوية ، التي عاشها أسلافهم الامويون . بل إنهم كانوا من سكان المدن . وعاشوا ــ علـى الأقل بعد (٧٦٤) م ــ في بغداد . وإذا استثنينا الخلفاء العباسيين فمن هو بانيــه ؟

إنني أقترح عيسى بن موسى ابـن أخ السفاح والمنصور ورأس العائلة العباسية ، لأن تاريخه يتوافق مع الوقائع .

يخبرنا الطبري أن الخليفة العباسي الأول أبا العباس السفاح ، عند أخذه البيعة بالخلافة لأخيه المنصور ، عيّن أيضا عيسى بن ممسى كولي عهد للأخير ، وقد رضي الناس بذلك .

وعندما تولى المنصور الخلافة ، عظّم عيسى ، وعينه والياً على الكوفة ، وبعد إنشاء بغداد منحه قصراً عظيماً فيهـا . ونال حظوة في مجالس المنصور تقدم بهـا على الآخرين . ولكن فيما بعد ـ في عـام (١٤٧ هـ) ـ حاول المستحيل للتخلص منه ، بنفس الطرق التي استعملها داوود تجاه أوريا الحثي ، وهي إرساله الى أخطر الأمكنة أثناء الحملات آملاً موته ، ليخلي الطريق لتسمية ابنه المهدي ولياً للعهد . وبعد فشل هذه الطرق لجأ إلى الحيلة التالية .

كان عبد الله بن علي في السجن بعد أن فشلت ثورته ضد المنصور . وقبل رحيل المنصور للحج قال لعيسى بن موسى : « خـذ هذا الرجل واقتله في السجن يوم رحيلي ، دون أن يعرف أحد بذلك » . ونظـراً لمعرفة عيسى بشخصية الرجل الذي يتعامل معه ، فإنه لم يقم بأي إجراء ، ولكن عندما كتب إليه المنصور من الكوفة يسأله عما إذا أعدم عبد الله أجاب عيسى بايجاب وفور عودته الى بغداد ، طلب من أقارب عبد الله أن يناشدوه بإخلاء سبيله . عند ئذ أمر المنصور عيسى بالافراج عنه . فأجاب عيسى : « لقد مات . لقد أمرتني بقتله » . ولكن المنصور أجاب « أعوذ بالله من أن آمر بقتل عمي . » وبعدها التفت الـى المسترحمين

وقال لهم : « هذا عيسى خذوه وافعلوا به ما شئتم . فإذا أردتم قتلـه فلكم الحرية بذلك . » عندها قال عيسى : « إن الخدعة متقنة لو نجحت ولكن عبد الله حيّ وسأرسل في طلبه . »

بعد هذا حاول المنصور قتله عن طريق السّم لكن عيسى تماثـل للشفاء ، بعد أن فقد لحيته وشعر رأسه وعاش مريضاً بشكل مستمر .

بعد ذلك استشار المنصور خالد البرمكي ، الذي كان سيئاً كمولاه فحاول إقنـاع عيسى بالتنازل عن حقوقه بالخلافـة بدون أي شروط واستحضر ثلاثة شهود زور . وافقوا على القسم بأن عيسى وافق على التنازل عن حقوقه . عندئذ دعا المنصور مجلساً عظيماً ، وعلناً شكر عيسى الذي احتج بالطبع . وأنكر أنه وافق على مثل هذا . وعندها نهض خالد البرمكي والشهود الثلاثة وقالوا : إن عيسى تنازل عن حقوقه أمامهم قبل بضعة أيام . وهنا وجّه المجلس اللوم إلى عيسى .

وبعد فترة قصيرة استنتج المنصور أن سبب ممانعة عيسى هو قلقه على تأمين الخلافة لابنه من بعده ، ولذلك استدعاهما إلى القصر . وأمر حاجبه بالتظاهر بقتل الولـد في حضرة الوالد . وعندما شدّ الحاجب الحبل حتى شارف الابن على الموت وافق الاب على التخلي عن حقوقه لينقذ حياة ولده

وعندئذ تم الاتفاق على أن يوقع عيسى بالتنازل عن حقوقه بالخلافة للمهدي ، أن يقبض مبلغ عشرة ملايين درهـم ، وأن يكون ولي عهـد المهدي . مات المنصور عام ١٥٨ هـ (٧٧٥ م) وخلفه ابنه المهدي الذي رغب ـــ بعد ثلاث سنوات من حكمه ـــ أن يأخذ البيعة لابنـه هارون الرشيد بدلاً من عيسى . ولما لم يستطع عيسى الحصول على موافقـة

المهدي الذي حرمه أيضا من ولاية الكوفة بعد أن استمر فيها لمدة ١٣ سنة زهد من الحياة وانعزل في إقطاعيته ، عاش في عزلة تامة ، ماعدا الذهاب الى الكوفة مرة في الاسبوع ، لحضور صلاة الجمعة . وكان من عادته الركوب حتى باب المسجد فينزل ويؤدي فرائضه ، ويعود راكباً .

ألا يتفق هذا مع الأخيضر تمام الاتفاق ؟ الذي لا يمكن أن يكون قد أقيم ، إلا من قبل إنسان له ثروة عيسى ، وهو الوحيد بين الأمراء العباسيين في هذه الفترة الذي عرف أنه عاش في مثل هذه العزلة . وبالاضافة الى ذلك ، فإن بعده عن الكوفة (٥٠ ميلاً تقريباً) ، يمكن أن يقطع على مرحلتين سهلتين إذا توفر البديل . وهذا يقودنا الى العطشان الذي يعود تقريباً الى نفس الفترة ، ويقع على مسافة مناسبة على الطريق المباشر من الأخيضر إلى الكوفة .

وبالاضافة الى ذلك ، إنه خان من النوع الفريد ، لأنه لا يتألف من بهو مركزي ، محاط بعشرات الغرف المتشابهة . على العكس من ذلك ، هناك ليوان كبير ، ومطبخ قريب منه ، وقاعة ذات عقد اسطواني طولها ١٢ متراً تقريباً ، تنتهي بحنية فوقها نصف قبة أقترح أنها مخصصة كقاعة استقبال أميرية ، نظراً ، للشبه الكبير بينها وبين قاعة الاستقبال المقنطرة في جبل سيس . فإذا كانت استنتاجاتي صحيحة فإن الأخيضر والعطشان بدأ بناؤهما عام ١٦١ هـ (٧٧٨ م) وهي سنة انسحاب عيسى من الحياة العامة .

الفصل الحادي عشر

المسجد الأقصى ومسجد قرطبة الكبير

المسجد الأقصى

كم دام بناء الوليد ؟ يبدو أنه أصيب بأضرار بالغة في الزلزال الكبير في عام (٧٤٧ أو ٧٤٨ م) . ولكن الذكر الاول لإعادة بنائـــه ، يأتي في مصدر متأخر يسمى (المثير الاول) المكتوب في عام ١٣٥١ م إنه ينسب هذه المهمة الى المنصور (٧٥٤ ـــ ٧٧٥) . . وفقا ، لنفس المصدر حدث زلزال آخر بعد بضعة سنوات ، وأن الخليفة المهدي أعاد بنـــاء القسم المتضرر . ولكن يتملكني شعور بأن هذين الزلزالين ، إنما هما تكرار لنفس الحادثة والمـــرة الاولى منهما موثّقة جيداً أما الثانية فلا ذكـــر لها حتى المقدسي ـــ ابن القدس ـــ الذي كتب في عام ٩٨٥ م لايذكـــر تاريخها ، ولكنه يكتفي بالاشارة إليها « لكن جاءت زلزلة في دولة بني العباس فطرحت المغطى إلا ما حول المحراب فبنوه أوثق واغلظ صناعة مما كان . بقيت تلك القطعة شامة فيه »[1]

هذا الجـــزء يمتد حتى نهاية الأعمـــدة الرخامية وفيما وراء ذلك ـــ حيث الأعمدة مشيّدة ـــ يبدأ الجزء الأحدث . » وهو لايذكر أي

(١) المقدسي : ص ١٦٨ .

الخلفاء قام بالعمل ، ولكن حسب المثير الاول يعتبر المهدي هو الخليفة الذي بناه . أما بالنسبة للتاريخ فـإن لوسترانج يقترح عـام ١٦٣ هـ (٧٨٠م)[١] ، لأنه في تلك السنة ـ حسب رواية الطبري ـ ذهب إلى القدس وصلى في المسجد الاقصى .

هاهو الوصف الوحيد المتوفر لدينا لهذا المسجد حيث يقول المقدسي « للمغطى ستة وعشرون باباً يقابل باب المحـراب يسمى باب النحاس الاعظم مصفح ... عن يمينه سبعة أبواب كبار ... وعلى اليسار مثلهن ومن نحو الشرق احدى عشر باباً سواذج ... وعلى وسط المغطى جمل عظيم خلف قبة حسنه والسقوف كلها إلا المؤخر ملبسة بشقاق الرصاص والمؤخر مرصوف بالفسيفساء »[٢] .

كيف كان هذا المسجد ؟ دعونا نترك هذه المسألة الآن ونتتبع تاريخ البنـاء .

في عام ١٠٣٣ أصاب زلزال كبير المسجد بأضـرار ، جعلت مـن الضروري إعادة بنائه على يد الخليفة الفاطمي الظاهر في عام ١٠٣٥ م . والمسجد الاقصى في شكله الحاضر أكثر ماينسب الى مرحلة الصليبين ١١٣٨ ـ ١١٩١ . وإلى صلاح الدين تحديداً ، لكن هذا خطأ لأن الكثير من مسجد الظاهر مازال قائماً .

والمهندس التركي الكبير المرحوم كمال الدين ، الذي قام بإصلاحات كثيرة بين عام ١٩٢٤ وعام ١٩٢٧ م كشف الكثير من تفاصيل البناء التي تثبت ذلك .

---

(١) لوسترانج صاحب كتاب « فلسطين في ظـل الحكم الاسلامي » وهو كتاب هام »

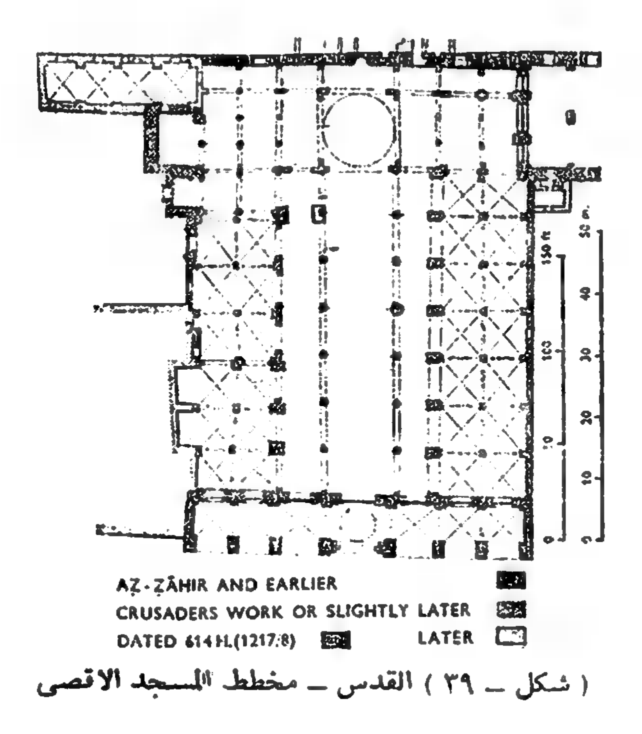
(٢) القدسي : ١٦٨/١٦٩ .

١ ــ أزال طبقة الجص عن الوجه الشمالي للقوس الشمالي ، الذي يحمل القبة ، وكشف عن زخرفة فسيفسائية رائعة ، تتألف من لفائف كثيرة الأكانثوس ، محاطة بكتابة كوفية طويلة تحت عوارض السقف ، باسم الظاهر • وهذا يثبت أن القوس الحامل للقبة لايمكن أن يكون أحدث من عام ١٠٣٥ م •

٢ ــ أزال جزئياً الغطاء الرصاصي عن الحافة السفلى للقبة الخشبية هذه الحافة السفلية أو الشفة تنقلب الى الخارج قليلاً ، لتبعد المطر والثلج • وتثبتها في هذا الوضع عوارض بارزة أو صفائح جدارية (عوارض أفقية) • كما في حالة قبة الصخرة (شكل ــ ٥) حيث تبرز حوالي ٨٥ سم • بينما تبرز عوارض الاقصى ٧٥ سم فقط • من حسن حظّي أنني رأيتها مكشوفة معظمها كان منخوراً جداً ، ولكن القليل منها الذي نجا من النخر الى حدٍ ما ، كان مغطى بالزخرفة الفاطمية • وهذا يبرهن أن رقبة القبة ، لا يمكن أن تكون أحدث من عهد الظاهر ، وكذلك الاقواس الأربعة الحاملة للقبة أيضاً ، وليس فقط القوس الموجود تحت النقش الكتابي •

٣ ــ كل الاقواس في المسجد مترابطة ، بعوارض وصل مزدوجة • ومثبت عليها بالمسامير • بالوجه السفلي من كل زوج لوح خشبي ، مدهون بالزخارف • وقد ستر ذلك بأغطية من خشب الصنوبر نزع في ١٠ ــ ١٢ حالة • وأحد عوارض الربط الى الغرب من القبة • تحمل شريطاً من الكتابة الكوفية التي تعود الى القرن الحادي عشر • ولذلك فإن بعض الاقواس قرب القبة ، لا يمكن أن تكون أحدث من عهد الظاهر • ونفس الملاحظة تنطبق على عارضة الربط الاولى ، التي تلي القبة على جانبي الرواق المركزي •

٤ ـ وسقف القاعة كان يتألف (حتى فترة وجيزة) من عناصر (قوائم) السقف الأساسية ، الموضوعة قرب بعضها ، والمرتكزة على حوامل مسطحة من قياسين : بعض منها عرضه حوالي ٣٥ سم وطوله حوالي ٩٠ سم ، وبعضها الآخر عرضه حوالي ٦٠ سم وطوله ١١٠ سم • إنها محفورة بالزخارف التي لا يمكن أن تكون أحدث من القرن الثامن • إنها على ما يبدو مأخوذة من مسجد المهدي وقد أعيد استخدامها (لوحة ٤٢) •



(شكل ـ ٣٩) القدس ـ مخطط المسجد الاقصى

والآن دعونا نلق نظرة على المخطط (شكل ٣٩) ، فنلاحظ أن صفاً من الأعمدة الدائرية الكبيرة لا يزال قائماً سليماً في شرق أعمدة القاعة ، وعلى بعد ٧ر١ متراً عنه • كما بقي أيضاً عمود آخر في الرواق المجاور ،

والممتد نحو الشرق . أما بالنسبة للقسم القائم على أعمدة رخامية ، فقد بقي صفان من الأعمدة الى الشرق والغرب من القبة ، كما بقي أيضاً جزء من صف أعمدة ثالث الى الشرق . كما نلاحظ أيضا أن الاقواس الشمالية والجنوبية الحاملة للقبة ، تمتد شرقاً وغرباً حتى تنقل الضغط الى الجدران الجانبية ، وبهذا تشكل نوعاً من مخطط L على الورقة ، ولكن ليس في الواقع لأن كل أعمدة الأروقة تمتد حتى جدار القبلة .

وهكذا يكون من الواضح أن قسماً كبيراً من المسجد الحالي ، هو عمل الظاهر . أي أعمدة الرواق المركزي ، والأقواس الاربعة تحت القبة، ورقبة القبة حتى نهايتها العليا وصف الاعمدة شرقي صف أعمدة القاعة ، وصفوف الأعمدة التي تقع على يسار القوس الحامل للقبة الشرقي والصفان المتوافقان على الجانب المقابل .

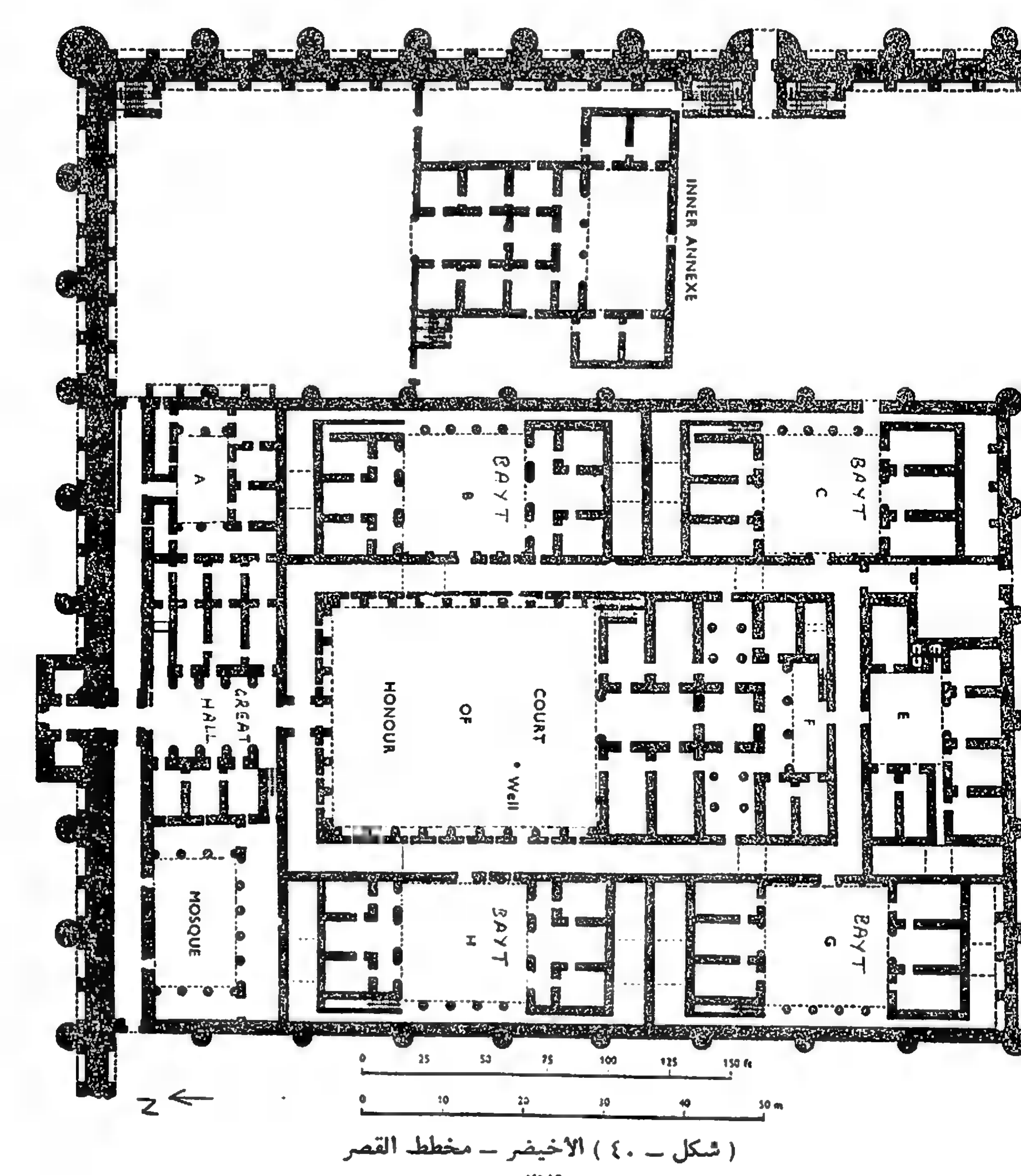
شكل مسجد الظاهر :

لابد أن الحدّ الشمالي لمسجد الظاهر ، هو نفس الحدّ الحاضر لأن اثنين من المداخل المركزية الثلاثة ــ نظراً لزخارفها ــ لابد وأن تعود الى القرن الثامن على الأقل . ها هو استنتاجي العام

١ ــ جزء كبير من مسجد الاقصى الحالي هو من عمل الظاهر .

٢ ــ مسجده كان يتألف من سبعة أروقة ، التي تشكلها صفوف الأعمدة العمودية على جدار القبلة ، والتي يتألف كل منها من ١١ قوساً ماعدا الرواقين المركزيين .

٣ــ عرض الرواق المركزي ، تقريباً ضعف عرض البقية (٨ر١١متراً مقابل ٥ر٦ متراً) . وكان فيه منور . وكانت السبعة الاولى من أقسامه (بحوره) مغطاة بسقف جمالوني ، وبعده قبة خشبية كبيرة .



(شكل ـ ٤٠) الأخيضر ـ مخطط القصر

٤ ـ الاقواس المتصالبة الحاملة للقبة ، امتدت عبر الجدران الجانبية نظراً لضغطها .

٥ ـ الأروقة الجانبية كانت مغطاة بالسقوف الجمالونية على مستوى أدنى من السقف الرئيسي ، وموازية له .

٦ ـ إنني أميل إلى الاعتقاد أن مسجد الظاهر . لم يكن أعرض من البناء الحالي .

إعادة تخطيط مسجد المهدي :

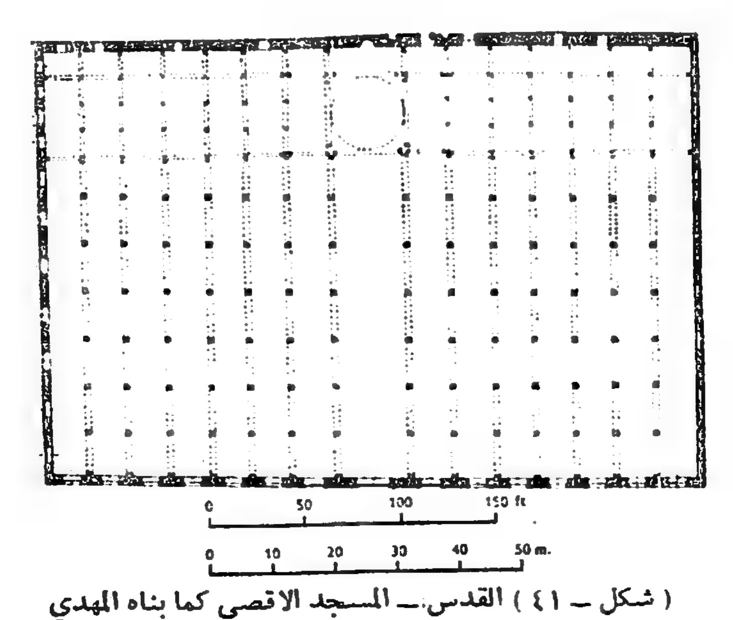
لنعد الآن الى وصف المقدسي . ولا يمكن للمرء من خلال هذا الوصف إلا أن يدهش للتشابه بين الصفات الرئيسية للمسجد الذي شاهده والصفات الرئيسية لمسجد الظاهر . مثال المدخل المركزي الكبير والمداخل الصغيرة السبعة . الى اليمين واليسار والسقف الجمالوني العظيم فوق الجزء المركزي ، والقبة الجميلة التي ترتفع فوقه والسقف المغطى بصفائح الرصاص ، الخ .

ولكن هناك ما يزيد على ذلك . رأينا أن الأعمدة من حجمين : الأعمدة القائمة في القاعة وشرقيها ، التي يبلغ متوسط قطرها ٩٠ سم . إنها ليست أعمدة على الاطلاق لأنها عند تجريدها من كسوتها الجصية ، تبين أنها مبنية من مداميك من الحجارة . وهذا يذكرنا على الفور بكلمات المقدسي عند حديثه عن مسجد المهدي : « وبقيت تلك القطعة شامة فيه وهي إلى حد أعمدة الرخام وما كان من الأساطين المشيدة فهو محدث »[1] .

---

(١) المقدسي : ص ١٦٨ .

وهكذا فان مسجد المهدي ارتكز جزء منه على أعمدة ، والجزء الآخر على دعائم دائرية تماماً ، كالمسجد الحالي ، وأن الجزء المركزي كان مغطى بسقف جمالوني عظيم ، ارتفعت فوقه قبة جميلة ، وبالاضافة إلى ذلك فان الرواق المركزي الكبير ، والرواق الواقع على يمينه ويساره كان بنفس العرض الحالي ، لان محاوره محددة بالمداخل المركزيةالثلاثة ، والتي اثنان منها لا يمكن أن يكونا أحدث من القرن الثامن . أليس من الجدير بالملاحظة ، أن عدد الأبواب في الجانب الشرقي من مسجد المهدي (وهو أحد عشر) يتوافق تماماً مع عدد الأقواس في صفوف الأعمدة اليوم ؟ ألا يوحي ذلك بأن صفوف أعمدة مسجد المهدي كان يتألف من أحد عشر صفا ؟ وبأخذ كل هذه النقاط بعين الاعتبـار فان الاستنتاج الواضح يبدو ، أن الظاهر حـافظ على مخطط المهـدي تاركا الدعائم الدائرية على حالها ومعيدا بناء كل شيء تقريباً ، وفق الأسس . ولا بد أن عرض مسجد المهدي كان ٨ر١١ (من المركز إلى المركز) لأن الرواق



(شكل ـ ٤١) القدس.ـ المسجد الاقصى كما بناه المهدي

المركزي بالاضافة الى (٥ر٦ × ١٤ مترا) عرض الأروقــة الاربع عشر المتوافقة مع الابواب الصغيرة الاربع عشرة (٨ر١٠٢ مترا) . والطول من الشمال الى الجنوب (القياسات الداخلية) يبلغ ٢ر٦٩ مترا . وهكذا لدينا نسبة ٢/٣ تقريبا وهي نسبة مفضلة في العمارة العباسية ، مثال : أعمال المنصور في بغداد ، وقصر الأخيضر وسـامرا في القرن التالي . والأروقة الخمس عشر تعني إضافة ٤ أروقة على كل من جانبي المسجد الحالي . أليست صدفة غريبة أن في الملحق الصغير الى الشرق المسمى مسجد عمر توجد أربعة أقسام (بمحور) فقط حيث يبلغ عرضها الوسطي ٧٥ر٦ مترا ؟ ولذلك فان الجانب الشرقي من هذا الملحق ، يتوافق مع الجانب الشرقي من مسجد المهدي لو أعيد تخطيطه كما أقترح أن الدعائم المشيدة على الجانب الجنوبي من هذا الملحـق ، هي تقريبا على محور الدعائم المشيدة التي تتطلبها نظريتي . والشكل ٤١ هو محاولة لاظهار شكل مسجد المهدي .

الحوامل الخشبية :

هذه الحوامل المستعملة في طرفي عوارض السقف ذات حجمين ، كما ذكرنا أعلاه . وهنا نجد صورة لاثنين منها (لوحة ٤٢) . مـن الواضح جـدا أنها أقدم من عهد الظاهر وأعتقد أنها تعود إلى مسجد المهدي . عندما نشرتها في مجلة أخبار لندن المصورة (لندن الستريتد نيوز) في ١٦ كانون الثاني ١٩٣٧ (تحت عنوان خاطىء وضعه رئيس التحرير) . اعتقد نقاد كثيرون أنها أموية . وقد نسبتها إلى عصر المهدي، بسبب حيوية الفن الهيلينستي الشـهيرة في سورية واستمراريته هناك لفترة طويلة بعد انقراضه في الامكنة الاخرى . وبالنتيجة فان العناصر الزخرفية ، التي يمكن نسبتها إلى قرن معين ، فيما لو وجدت خارج سورية

يمكن أن تعود الى قرن لاحق عند وجودها في سورية . فالصور في قصير عمرة على سبيل المثال ، والتي رأينا أنها لا بد أن تعود إلى بداية القرن الثامن يمكن بكل سهولة نسبتها إلى فترة أقدم ، وفق الاسس المعمارية وكذلك أيضا عناصر زخرفية عديدة في واجهة المشتى لو درست على حدة. ونعرف الآن من الملاحظات والتنقيب تحت الارضية : أثناء عملية إعادة البناء الاخير لحوالي ثلث المسجد الأقصى (١٩٣٨ -١٩٤٢) أن المسجد لم يكن فيه رواق مركزي عريض قبل عصر المهدي ، وبالتالي لم تكن هناك ضرورة لحوامل خشبية كبيرة بمقياس ١١٠ × ٦٠ سم .

المسجد الاقصى الاموي :

يستنتج من وصف المقدسي أن المسجد القديم ، ذو أقواس مرتكزة على الاعمدة الرخامية ، وممتد من الشمال إلى الجنوب ، وقد جرى دمجه في مسجد المهدي . مثل هذه الأقواس لا تزال قائمة في شرق وغرب الجزء المسقوف بالقبة .

عندما أدخلت القبة ، أصبح من الضروري إقامة دعائم شرق وغرب الاقواس المتصالبة ، التي تمتد حتى الجدران الجانبية ، وتتألف من سلسلة من الاقواس المرتكزة على دعائم مستقلة قائمة على جانبي العمود المقابل للاقواس الطولانية ، بينما الاقواس الاصلية محشوة بين الاقواس المتصالبة الجديدة . خلال أعمال (١٩٣٤ - ١٩٣٨) حينما نزعت الكسوة الجصية ، استطاع هاملتون أن يرى أن أعمال بناء سبندلات الاقواس المتصالبة ، لا ترتبط بأعمال بناء سبندلات صف الأعمدة الطولي الاول شرقي القبة . وهذا لا ينطبق على صف الاعمدة الثاني لأن الاعمدة المتصالبة هنا تبرز من نفس دعامات الأقواس الشمالية والجنوبية ، ولذلك

أستنتج أنه تضرر أكثر من الزلزال وأنه أعيد بناؤه أيام المهدي ، وهناك صف أعمدة ثالث ـ محجوب جزئيا بجدار ـ لا يزال قائما في الجهة الشرقية .

هاهي بعض التفاصيل حول صف الأعمدة الاول (لوحة ٢٤) ، ارتفاع الأعمدة والتيجان هو ٥ مترا . انبثاق القوس المرفوع يبدأ عند مستوى ٧ر٢٣ مترا ، ارتفاع القمة ٢ر٩ مترا ، فوق الاقواس الرئيسية الثلاثة توجد خمس فتحات مقنطرة يبلغ ارتفاعها مع عتباتها ٨ر٩ مترا عن الأرض ، وارتفاع الفتحات يبلغ حوالي مترين وارتفاع السقف يبلغ ٤ر١٢ متراً ، ومحور الفئة الأولى والثالثة والخامسة يتوافق مع محور القوس تحتها ، بينما يتوافق محور الثانية والرابعة مع العمود .

وتم اكتشاف آخر تحت الأرضية عندما أزيل جزء منها ، وجد جزء من الجدار الشمالي القديم ـ في بعض الحالات يرتفع مقدار مدماك واحد ـ وتم تتبعه لمسافة حوالي ١٨ مترا ، تبلغ سماكته مترا واحدا ، وسطحه الجنوبي يبعد ٤ر١٨ مترا عن السطح الداخلي للجدار الشمالي الحالي ، وبالتالي فان المسجد القديم ـ الأموي على ما يعتقد ـ يبلغ امتداده ٨ر٥٠ مترا من الشمال إلى الجنوب ، بدلا من ٢ر٦٩ مترا كما أنه لا يمكن تحديد عرضه .

مسجد قرطبة الكبير

حتى عام ٧١١ م تم الاستيلاء على جزء كبير من اسبانيا ، وأنها كانت خاضعة للخلفاء الأمويين لمدة ٢٩ سنة ولذلك فان سقوط الامويين ، أوجد انقساما في المشاعر هناك . فعبد الرحمن – الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من العائلة الأموية المخلوعة – بعد بقائه عدة سنوات في شمال آفريقيا وصل إلى اسبانيا في عام ٧٥٥م وأصبح أمير قرطبة في السنةالتالية.

تاريخ المسجد :

يقول ابن العذاري والمقري[1] أن المسلمين – بعد الفتح « امتثلوا ما فعله ابو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد – من مشاطرة الروم في كنائسهم قبل كنيسة دمشق » فأخذوا نصف أكبر كنيسة في قرطبة واستخدموها كمسجد . وقد أشار تيراس أن هذه القصة تشبه إلى حد كبير قصة المسجد الكبير في دمشق مما يجعل المرء يتساءل عما إذا كان المؤرخون قداخترعوها فيما بعد .أعتقد أن الحقيقة، هي أن ابن جبيرجلب أسطورة دمشق إلى اسبانيا في نهاية القرن الثاني عشر ، وأنها ارتبطت بمسجد قرطبة بعد ذلك بوقت قصير ، ثم اندمجت في حوليات الرازي . التي انتشرت في القرن الثالث عشر ، وتبناها ابن الأزهري والمقري .

---

(١) نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب . المقري : ص ٢٦٢ الجزء الاول .

ومهما كانت الحقيقة ، فان عبد الرحمن الأول بدأ ببناء مسجد في عام ١٦٩ هـ (٧٨٥ ــ ٧٨٦ م) ، وأكمله بعد عام ، وأن تكاليفه بلغت ٨٠٫٠٠٠ دينار أي حوالي ٤٠٫٠٠٠ جنيه استرليني . وحسب روايه الحميري والمقري بلغ عدد الأروقة أحد عشر .ويبدو أنه لم تكن للمسجد مآذن ، لأننا نعرف أن خلفه هشام أضاف مئذنة ارتفاعها ٤٠ ذراعا ، ووضع بذلك اللمسات الاخيرة على أعمال عبد الرحمن الاول .

ووسع عبد الرحمن الثاني المسجد من الأرجل (الدعائم) بين السواري (الأعمدة) نحو القبلة . ويقول ابن الأزهري أن الاضافة بلغ عمقها ٥٠ ذراعا ، وعرضها ١٥٠ ذراعا ، وتألفت من ٨٠ عمودا . رأينا سابقا أن المسجد الأصلي فيه ١١ رواقا ، وذلك يعني ١٠ صفوف من الأعمدة . والأعمدة الثمانون المضافة تعني إضافة ٨ أعمدة الى كل من هذه الصفوف . أما بالنسبة للتاريخ فيقول ابن العذاري[1] أنه ٢١٨ هـ « قامت الزيادة في الجامع بقرطبة من الارجل التي بين السواري إلى القبلة »[2] (٨٣٣ م) . وأنه في ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) . وأضاف قالبا

(١) ابن العذاري : البيان المغرب ــ الجزء الثاني نشر وتحقيق ج س كولان ليفي برو فنسال ط ليدن ١٩٥١ ص ٨٤ .

زاد عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الزيادة المنتظمة بالارجل ، طولها خمسون ذراعا ، وعرضها مائة وخمسون وعدد سواريها ثمانون سارية ، وكان الفراغ من هذه الزيادة في جمادى الاولى سنة ٢٣٤ ثم زاد الامير محمد بن عبد الرحمن أن امر باتقان طراز الجامع وتنميق نقوشه وباقامة المقصورة وجعل لها ثلاثة ابواب ــ البيان ص ٢٣٠ الجزء الثاني ١٩٥١ .

(٢) اورد في احداث عام ٢٤١ على عهد الامير محمد انه جدد الامير محمد طرز الجامع بقرطبة واتقن نقوشه ص ٩٥ الجزء الثاني .

جديدا للباب الغربي (بويرتا دي سان استيبان) ، لأنه يوجد نقش فوق القوس الأفقي للمدخل ، وحول قلب مقص قوس حدوة الحصان فوقه ، وهذا النقش يذكر هذا التجديد ويؤرخه ٢٤١ هـ (٨٥٥ ــ ٨٥٦ م) .

وشيد عبد الله (٢٧٥ ــ ٣٠٠ هـ = ٨٨٨ ــ ٩١٢ م) ممرا مسقوفا من قصره (الذي كان قائما في موقع قصر الأسقف الحالي) إلى باب في الجانب الغربي من المسجد ، وقد قطع الشارع كالجسر ، وبهذه الطريقة استطاع الذهاب مباشرة إلى المقصورة دون أن يراه الناس . هذا المدخل الجديد يتوافق بدون شك مع بوابة سان ميغويل الحالية أي المدخل الثاني إلى الحرم من الجانب الغربي . وبالرغم من اطاره القوطي ذي الزخارف التي ترمز الى النبالة ، فليس هناك أي شك في أن قوس حدوة الحصان الفعلي لهذا المدخل أصيل .

والعمل الهام هو بناء مئذنة جديدة على يد عبد الرحمن الثالث . يقول المقري : أمر الناصر عبد الرحمن بهدم الصومعة سنة ٣٤٠ واقام هذه الصومعة البديعة ... وكانت الاولى ذات مطلع واحد فصير لهذه مطلعين فلا يلتقي الراقون فيها إلا باعلاها ... وأن طول صومعة قرطبة الى مكان موقف المؤذن أربعة وخمسون ذراعا والى اعلى الرمانة الاخيرة اثنان وسبعون ذراعا . و« أن صومعة قرطبة بضخام الحجارة الفظيعة منجدة غاية التنجيد وفي اعلى ذروتها ثلاث شمسات يسمونها رمانة ملصقة في السفود البارز في اعلاها من النحاس . اثنتان منها ذهب ابريز والثالثة منها وسطى بينهما من فضة كسير وفوقها سوسنة من ذهب مسدسة فوقها رمانة ذهب صغيرة في طرف البرج البارز بأعلى الجو »[١] .

---

(١) المقري نفح الطيب ط القاهرة الاولى ١٣٠٢ هـ جزء اول ص ٢٦٣ وهناك وصف آخر للصومعة ص ٢٥٦ .

والآن نأتي إلى التوسعة الثانية للمسجد الذي يعطينا ابن العذاري وصفا كاملا لها . بدأها الحكم عند اعتلائه العرش : فقرر توسيع المسجد نحو الجنوب باضافة ١١ رواقا بينما بقي العرض على حاله . وأثناء هذه العملية هدم ممر عبد الله المسقوف ، واستبدله بآخر في نهايـة الجدار الغربي ، والذي قطع الشارع ـ حسب رواية أمبروزيو موراليز ـ على قوس وكان قائما في أيامه (١٥٧٥ م) . وتم بناء القبة أمام المحراب في حزيران ٩٦٥ . وبعدها بدأت زخرفتها بالفسيفساء الذهبية على أيدي الصناع الذين أرسلهم من القسطنطينية الامبراطور البيزنطي ، بناء على طلب صريح من الحكم . إنها لا تزال قائمة وتشكل اطارا مستطيلا يقع فيه المحراب، واطارين آخرين مماثلين لابواب الغرف على اليمين واليسار . أما التاريخ فقد زال من الكتابة الموجودة حول الاطار السابق ، بينمـا الاطاران الاخيران مؤرخان عام ٣٦٤ هـ (٩٦٥) . وقد تم وضع أربعة أعمدة صغيرة من المحراب القديم في المحراب الجديد في نفس العام .

يقول المقري[١] إن أعظم اضافة على المسجد ، هي التي تمت في عهد هشام الثاني ، بادارة وزيره الشهير المنصور ولما كان النهر يحول دون أي امتداد نحو الجنوب ، فقد تمركزت الاضافة في الجانب الشرقي . يقول المقري « وزاد محمد بن ابي عامر بأمر هشام بن الحكم في عرضه من المشرق ثمانين ذراعا فتم العرض مائتي ذراع وثلاثين ذراعا . وكان عدد بلاطه احد عشر بلاطة عرض أوسطها ستة عشر ذراعا وعرض كل واحدة من الذين يليانه غربا واللذين يليانه شرقا أربع عشر ذراعا وعرض كـل

(١) المقري : نفح الطيب الجزء الاول ص ٢٥٦ .

واحد من الستة الباقية احد عشر ذراعا وزاد أبي عامر فيه ثمانية عرض كل واحد عشر أذرع . وكان العمل فيه زيادة المنصور سنتين ونصفاً ، وانتهى في عام ٣٧٧ هـ (٩٨٧ ــ ٩٨٨ م) .

في نهاية القرن الخامس عشر أضيف مصلى مسيحي قوطي جميل في الجزء الشمالي من توسعة الحكم . وفي بداية القرن السادس عشر ، أراد الكهنة إقامة مصلى أكبر لهيئة الكاتدرائية ، في وسط المسجد، وطلبوا من هرنان رويز رسم مخطط له ، كما حصلوا على موافقة شارل الخامس لتنفيذ هذا المشروع ، الذي بدأ في ٧ أيلول ١٥٢٣ ، وانتهى في ٧ أيلول ١٦٠٧ . ويعود الفضل الى شارل الخامس في أنه عندما زار قرطبة عام ١٥٢٦ ، ورأى هذا التخريب الذي حدث عبر عن رأيه كما يلي: « لو علمت بما تريدون عمله لما تمكنتم من عمله لان ما تقومون به هناك يوجد في كل مكان وما كنتم تملكون في السابق لا وجود له في أي مكان آخر في العالم » .

تضررت مئذنة عبد الرحمن الثالث كثيرا في عاصفة عام ١٥٨٩ ، وقد أقام فوقها هرنان رويز قمة من طراز عصر النهضة . وهرنان هذا هو ابن هرنان رويز ، الذي بنى الجزء العلوي من جيرالدا دي سفيل من طراز عصر النهضة أيضا . وقد تم العمل في عام ١٦١٨م . وبعد عام ١٦٥٠ بقليل بدأت على القسم القديم من المئذنة علائم الانهيار ، بسبب الوزن المترتب عليها ، لذلك دعمت بكسوة بنيانية سمكها ١٫٥٨ مترا . وقد نفذ المهندس المعماري دون فيلكس هرنانديز المسؤول عن البناء إلى المئذنة القديمة ، بحفر الكسوة في الجانب الغربي من الممر ، وأكد وجود الدرجين المستقلين .

وصف وتحليل البناء :

يشكل مسجد قرطبة الكبير مستطيلا هائلا حرا من جميع الاطراف، يبلغ امتداده من الشمال إلى الجنوب ١٧٨ مترا ، ومن الشرق الى الغرب ١٢٥ مترا ، باستثناء الدعائم ، وهو بهذا يغطي مساحة ٢٢٢٥٠ مترا مربعا، وبالتالي إنه ثالث أضخم مسجد في العالم بعد مسجد سامرا الكبير (٣٨٠٠٠ م٢) ، ومسجد أبي دلف (٢٨٧٥٠ م٢) . وهو مبني تماما باتجاه الجنوب والشمال ، رغم أن اتجاه مكة من قرطبة هو ١٠ درجات و ١٤ ثانية إلى الشرق . وارتفاع الجدران ـ مقاسة عند بورتا دي سان استيبان ـ هو ١٠٫٥ مترا ، ما عدا الشرفات التي تضيف ٩٨ سم .

والجزء الشمالي من هذه المساحة تشغله باتيو دي لوس نارانخوس، التي هي بالطبع الصحن . ويدخل إليه من ستة أبواب : الباب الرئيسي في الشمال بجانب البرج . والأروقة تحيط به من كل جانب ، ماعدا الجزء الجنوبي حيث يوجد ١٧ قوسا (كانت مفتوحة ولكنها الآن في معظمها مسدودة) تؤدي الى الحرم (لوحة ٤١ آ ـ شكل ٤٧) . والاخير جدار ضخم يتألف من ١٩ رواقا ، ترتكز سقوفها على ١٨ صفا من القناطر ، ممتدة من الشمال إلى الجنوب كما في المسجد الأقصى أيام المهدي . وفي وقت من الاوقات كان يمكن الدخول اليه من الشارع بثلاثة عشر بابا ستة في الجانب الغربي وسبعة في الجانب الشرقي .

والصحن محاط بأروقة عمقها ٦ أمتار، مغطاة بسقف مسطح، يرتكز على قناطر ، يتناوب فيها كل عمودين مع عضادة واحدة .

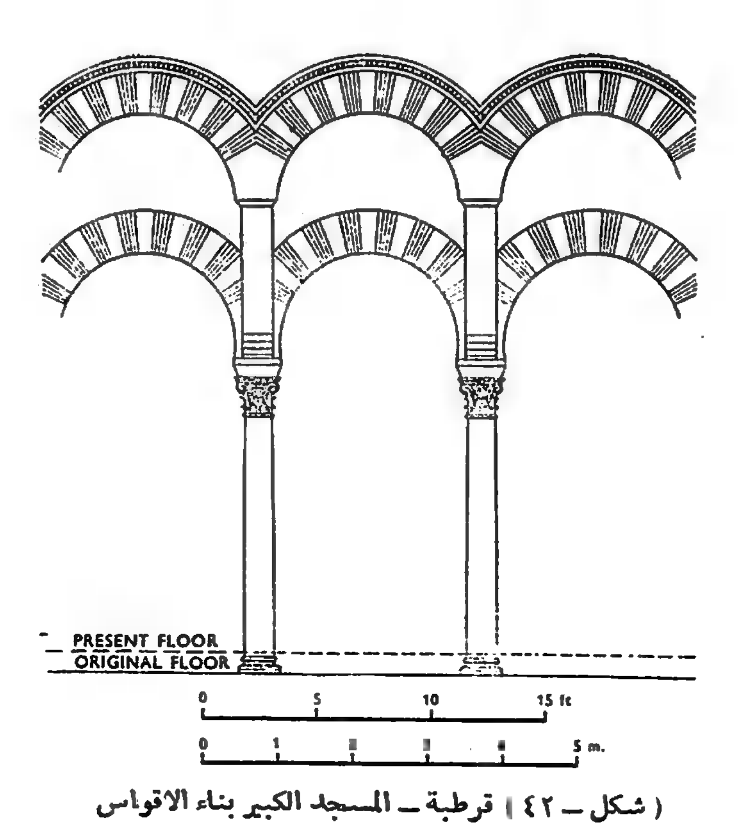
واجهة الحرم :

تتألف هذه الواجهة من ١٧ قوسا على شكل حدوة الفرس ، (بالاضافة إلى قوسين في جانب الرواقين) يبلغ باعها ٤ أمتار تقريبا ،

وارتفاعها ٩ر٥ مترا ، وتبرز من أعمدة نصف مطمورة ، ملتصقة بعضائد حجرية ضخمة يبلغ عرضها ٤ر٢ مترا . كل قوس مشيد في إطار مستطيل، وبين كل من هذه الاطر المستطيلة يوجد جزء ضيق طويل ، يرتفع مباشرة فوق كل عضادة ، (لوحة ٤١ آ) وفي الأعلى طنف (افريز) عريض يرتكز على نواتيء متقاربة ، تحمل ظلة من الآجر ، تمتد بطول الواجهة ، ما عدا مكان العضائد ، حيث تقطعها ميازيب أقنية السقف . وفوق هذه الظلة يرتفع الجدار لمسافة ٢ مترا تقريبا ، حيث يغطيه طبان مزخرف ارتفاعه حوالي ٦٠ سم .

الحرم :

ندخل إلى الحرم من القوس الخامس من اليمـين المعروف اليوم باسم بويرتا دي لاس بالماس ، والتي تقع على محور بويرتا ديل بردون . بعد الدخول نجد أنفسنا في قاعة من الأعمدة ، ومشـاهد رائعة في كل اتجاه (لوحة ٤١ ب) ما عدا المكان الذي يحجـب منظره مصلى هيئة الكاتدرائية . والعقود متعامدة مع الجدار الخلفي وذات نظام بديع ، والاعمدة التي يبلغ ارتفاعها ثلاثة أمتار فقد ترينا تنوعا كبيرا، بعضها أملس، وبعضها محفور بالأخاديد الطولية، وبعضها محفور بالأخاديد الحلزونية ، كما تختلف أقطارها(٣٥ ــ ٤٣ سم) . والقواعد مطمورة في كل الحالات تقريبا ، لأن الأرضية الآن تعلو ٣٠ سم فوق الأرضية الأصلية ، كما أن التيجان أيضا متنوعة من الطراز الكورنثي والمركب ، وكثير منها حمل آثار الطلاء الذهبي حتى عام ١٧٧٣ . وعلى هذه التيجان تقوم كتل المستقرات التي تختلف أيضا في طرازها وارتفاعها . والأقـواس التي تنبثق منها عرضها ٥٣ سم ، وتتألف من فقرات حجرية متناوبة ، مع فقرات مركبة ، أربع طبقات من الآجر الأحمر المرصوفة رأسيا . والزخرفة الحالية مردها



(شكل ــ ٤٢) قرطبة ــ المسجد الكبير بناء الاقواس

إلى الجص المدهون ، ولكن الآجر الأصلي مكشوف في الصف الرابع من الغرب ، والقوس الثاني من الشمال ، وقد كشطت الآجرات على شكل وتد ، حيث تبلغ سماكتها من الجانب الخارجي ٦ سم . وبالاضافة إلى ذلك تحمل كتل المستقر عضائد حجرية عمقها حوالي متر واحد يستند القسم البارز منها على حوامل (شكل ٤٢) . يبلغ ارتفاع هذه العضائد حوالي ١ر٧٥ مترا ، وهي تحمل صفا ثانيا من الأقواس نصف الدائرية الى حد ما باعها حوالي ١ر٠٧ مترا وهذه الأقواس أيضا مؤلفة من فقرات

الحجارة المتناوبة مع فقرات الآجر وغطاء دائري من الآجر الزخرفي •
توجد ثماني فقرات آجر مركبة في أقواس كل صف من الأعمدة •

بهذه الوسيلة العبقرية ، تم الوصول إلى الارتفاع المطلوب للسقف، رغم قصر الأعمدة • وقد مكن عرض الأقواس المتزايدة ، من إنشاء الأقنية الحجرية ، التي يبلغ عرضها ٤٧ سم ، والمبطنة بالرصاص وهي تمتد بين أطراف السقف فوق كل صف من الأعمدة ، وتطرح ماءها بالميازيب فوق عضائد الواجهة • وأقنية توسيع عبد الرحمن الثاني للمسجد هي استمرار لهذه الأقنية وتنحدر نحو الصحن أيضا ، بينما تنحدر أقنية توسيع الحكم نحو الجنوب •

السقف :

المرحوم فيلا سكويز بوسكو الذي تفحص السقف بدقة خلف قناطر الخشب والكسوة الجصية لفترة ١٧١٣ ــ ١٧٢٣ ، عندما كان المهندس المعماري المسؤول وجد أنه كان يوجد سقف من الالواح الخشبية ، المرتكزة على عوارض متصالبة قوية متقاربة ، وفوقها يرتكز السقف الجمالوني القائم حتى اليوم ، وقد أزيلت بعدها قناطر الخشب والكسوة الجصية في أماكن متعددة ، واستبدلت بسقف خشبي من طراز السقف القديم (لوحة ٤١ ب) • وارتفاع الرواق الآن ٩٫٥ مترا ويجب أن نضيف إليه ٣٠ سم لنحصل على الارتفاع الأصلي عن مستوى الأرضية الأصلية • ونلاحظ الآن أن هناك ١٩ رواقا يبلغ باع (بحر) أقواسها الوسطي ٦٥ر٢ مترا • والرواق السادس الذي دخلنا منه أعرض من البقية إذ يبلغ عرضه ٨٥ر٧ مترا بدلا من ٨٥ر٦ مترا ، من مركز العمود الى مركز العمود التالي • انه يشكل الرواق المركزي للاروقة الأحد عشر

الأولى والتي يفصلها عن الأروقة الثمانية الباقية وقد فتحت فجوات كبيرة في هذا الجدار . كان هذا الجدار الطرف الشرقي للمسجد قبل توسيعه الثالث . وقد أزيلت الكسوة الجصية عن جزء منه . ومن الممكن الآن التأكد أنه مشابه للجزء المقابل من الجدار الغربي . وقد اخترقته مداخل مماثلة . لكن الفتحات الحالية صنعت بأسلوب عشوائي دون المطابقة معها . وفي بعض الحالات ثقب الجدار جزئيا كما سترت الأقسام غير المطلوبة .

شيء واحد واضح الآن : الأروقة الثمانية شرقي هذا الجدار ، هي الأروقة التي أضافها المنصور ، ولذلك لا حاجة لإعارتها أي اهتمام . دعونا الآن نتخذ خطوة أخرى في الحذف . لقد رأينا أن توسعة الحكم تألفت من ١١ بلاطا أو رواقا أضيفت إلى الجانب الجنوبي . اذا مشينا باتجاه الشمال من جدار القبلة حتى نجتاز ١٢ بلاطا نصل الى صف من الأقواس المرتكزة على عضائد ضخمة ويمتد حتى النهاية . وهذا بوضوح يحدد ما كان نهاية المسجد قبل إضافة الحكم . وهناك تأكيد آخر لذلك وهو أن حجارة الجدار الغربي تفقد ترابطها مباشرة إلى جنوب النقطة التي يصلها صف الأقواس هذا . ومن الواضح أنه يجب تصحيح بلاطات ابن العذاري الاحدى عشرة حتى تصبح اثنتا عشر بلاطا . ربما عد المقصورة كلها بلاطا واحدا . هذه الاضافة التي تمت في عام ٩٦٦ ــ مثل سابقتها ــ تقع خارج مجال هذا الكتاب .

وبعد أن فصلنا الفترة التي تهمنا ، دعونا نحاول تحديد الخط الفاصل بين الفترة الأولى والثانية . رأينا أن الجزء الذي أضافه عبد الرحمن الثاني تألف من ٨٠ عمودا ، أي ١٠ صفوف ، يتألف كل منها من ٨ أعمدة . لنعد الآن إلى الوراء ثانية ــ ولكن لسوء الحظ هذه العملية

ممكنة في ثلاثة صفوف فقط ، بسبب مصلى هيئة الكاتدرائية ــ نجد أن امتداد هذه الأقواس تقطعه عضادة في كل مرة ، هذه هي النقطة التي نصل إليها اذا تراجعنا الى الخلف من صف الأقواس القائم على عضائد ضخمة ، حتى نجتاز ٨ أعمدة . والجزء الواقع شمالي العضادة ، لا بد أنه يمثل منطقة المسجد الأصلي ، أما الجزء الواقع إلى جنوبي العضادة فانه يمثل المنطقة التي أضافها عبد الرحمن الثاني . ويجب أن أوكد أن العضائد الثلاث المقصودة ، ليست أقواسا مسدودة . فلو كانت كذلك لكانت على الأقل ٤ر٣ مترا ، بينما هي ٧٦ر٢ مترا فقط .

أعتقد أن هذه العضائد ، هي بكل وضوح العضائد (الأرجل) بين الأعمدة (السواري) التي ذكرها ابن العذاري ، وتتألف جزئيا من عضادة جدارية عمقها ٥٦ سم (كما في الطرف الشمالي) ، وقطعة من الجدار الخلفي الأصلي بسمك ١٥ر١ مترا (مثل الجدران الجانبية) ، ودعامة بعمق ٠٥ر١ مترا ، أي أن المجموع هو ٧٦ر٢ مترا . وبما أن الجدران من الحجارة المنحوتة فيمكن ثقبها بسهولة بهذا الأسلوب .

واجهة الحرم الشمالية :

لو وقفنا تحت أقواس هذه الواجهة وتفحصنا جوانب العضائد يصبح من الواضح أنها مركبة . فلو وقفنا على سبيل المثال تحت القوس الثاني من الغرب ، وتفحصنا العضادة الغربية ، نلاحظ هناك انفصالا تاما في البناء في خلف الارتداد الضحل بين العمودين نصف المطمورين . هناك فجوة بعرض ٢٢سم مملوءة بالدبش في الأسفل والآجر في الأعلى ومداميك البناء في الجنوب لا تتوافق مع مداميك البناء في الشمال . ولو التفتنا الآن إلى الوجه الغربي للعضادة الثانية ، نجد أنها أيضا تعود الى فترتين،

وبالاضافة الى ذلك فان القوس الداخلي ينحني الى الأمام مقدار ٦ أو ٧ سم ، بينما القوس الخارجي عمودي . وتوجد نفس الفجوة في العضائد والأقــواس القليلة التالية ، وكذلــك حالة القــوس السادس (المدخل الرئيسي) . القوس الداخلي ينحني إلى الأمام بشكل خطير ، بينمــا القوس الخارجي مائل قليلا . هذه الانحناءة الــى الأمام سببها ضغط صفوف الأقواس الداخلية ، التي تفتقر إلى عوارض الربط ، كما تفتقر الى الدعائم المناسبة ، لأن الأقواس الداخلية للواجهة ــ باستثناء العضائد على وجهها الداخلي ــ تبلغ سماكتها حوالي ١٫١٦ مترا فقط . ومضاعفة هذه الواجهة باضافة أخرى ، تم بصورة واضحة لتوفير الدعم الضروري.

والقول الغامض لابــن العذاري أن الناصــر « أنفق في صومعة المسجد وفي تعديل المسجد وبنيان الوجه للبلاطات الاحد عشر بلاطا سبعة امداد وكيلين ونصف كيل من الدراهم القاسمية »[1] .

يتضح الآن أهميــة النقش على العضادة عربي القوس المركــزي الذي يقول أن عبد الرحمن [الثالث] الناصر « أمر بترميم هذه الواجهة (الوجه) وتدعيمها » وأن « العمل انتهى في ذي الحجة ٣٤٦ هـ ــ شباط ــ آذار ٩٥٨ م » . ولذلك فان الناصر بنى واجهة جديدة مقابل الواجهة القديمة ليمنعها من الانحراف أكثر عن الوضع العمودي ، ولكــن حتى هذا العمل لم يكن كافيا لايقاف هذه الحركة ، والميل واضح تجاه المركز. وهذا يفسر سبب تعقيد حوامل الطنف (الافريز) الغربية أكثر من الحوامل فوق أعمدة أقواس عبد الرحمن الأول : إنها بعد الأولى بفترة ١٧٠ سنة.

---

(١) ابن العذاري : البيان المغرب جزء ثاني ط ليدن ١٩٥١ ص ٢٣٠ . ٢٣١

الواجهة الغربيـــة :

والآن دعونا نترك الصحن ونلتفت نحـو اليســار . ذلك الجزء الخارجي الذي يشكل الواجهة الغربية لحرم عبد الرحمن ، ينقسم إلى ثلاثة أقسام ، (بحور) بواسطة أربع دعائم مستطيلة ، تبرز مقدار ١٫٣٥ مترا ويبلغ عرضها ٣٫٣١ مترا و ٢٫٢٦ مترا و ٢٫٤٥ مترا و ٣٫٣٣ متراً . وتبلغ الاقسام في العرض ١٠٫٣٤ مترا و ١٠٫٣٢ مترا و ١٠٫٣٣ مترا من الشمال إلى الجنوب (لوحة ٤٠ آ) . والقسم الأول بسيط تماما باستثناء النافذتين المصبعات الرخامية والثاني مشغول تمامـا ببويرتا دي سان استيبان والزخرفة المحيطة بها وأحجار القسم الثالث أزيلت في القــرن الثامن عشر وحل محلها كابيلا دي سان سيمون .

بويرتا دي سان استيبان وزخارفها :

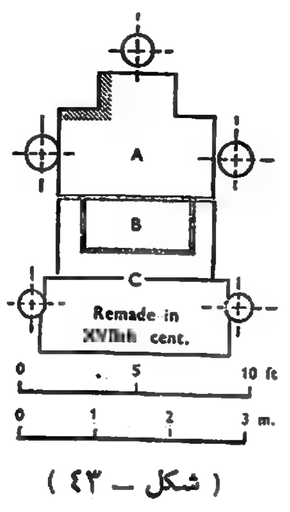
رأينا سابقا أن هذا المدخل والاطار المستطيل لقوسه إنما هو اضافات عام ٢٤١ هـ (٨٥٥ ــ ٨٥٦ م) ولكن زخارف بقية هذا القسم هامة جدا لأنها على ما يبدو الجزء الوحيد من المسجد الأول الــذي كان مزخرفا (لوحة ٤٠ ب). وإلى يمين ويسار المدخل يوجد جزءان بسيطان وفوقهما زخرفة غريبة جدا . وكل من السطوح المزخرفة المستطيلة قليلا ، مشغول بدرج مزدوج ، ذي ثلاث درجات تبرز بالحفر فوق خلفية غائرة قليلا . وكل من الدرج والخلفية مملوء بالزخارف النباتية الفجة ، كما يمكن أيضا رؤية سرة زخرفية مرتفعة في الجزء العلوي من القسم الغائر مباشرة ، فوق طرف الدرجة الثانية . وفوق هذه الزخارف ، مدماك أملس من الحجارة. والمدماكان الآخران فوقه مزخرفان،ولكن الثلث المركزي من الزخرفة ثقب

ليتحول إلى نافذة مملوءة الآن بمصبعة رخامية . فوق اطار الباب ، وعلى مستوى الزخرفة التي ذكرناها ، توجد أربع شرائط عمودية من الزخرفة التي تقوم بوظيفة عمادات للأقسام الثلاثة المقنطرة الضحلة . وبعدارتفاع ٥ مداميك يوجد طنف (افريز) بارز مرتكز على ٩ حوامل من النوع المسمى « المقرنصات على الخشب » .

اقترح غوميز مورينو في عام ١٩٠٦ أن هذه الواجهة ، كانت الواجهة الغربية للكنيسة سان فنسنت ، التي كانت تقوم في موقع المسجد . وهناك اعتراضات كثيرة على هذه النظرية ، في المقام الأول من الطبيعي أن تكون أعمال المسلمين في اسبانيا مجرد استمرار للطراز المستعمل عند وصولهم ، كما حدث في سورية . ثانيا : الدعائم ــ المتساوية المسافات والتي تشكل كلا واحدا مع الواجهة ــ تعني كنيسة ذات أروقة متساوية العرض وهذا ما لا يمكن التفكير به . ولو حاولنا تجاوز هــذه الصعوبة ، بافتراض وجود (٥ أروقة) ــ رواق مركزي عريض ، وعلى جانبيه رواقان لهما نصف عرض الرواق المركزي ، ــ عندها يتوجب علينا أن نسأل : لماذا تم تدعيم الصفوف المركزية فقط ؟ كما أن الزخرفة على الدرج توحي بشرق قديم ، لا بمسيحية غربية . وأخيرا قام هرنانديز بتنقيبات واسعة تحت حرم عبد الرحمن الأول . فوجد بقايا كثيرة لأبنية سابقة ، ولكن لا يتوافق أي منها مع تخطيط أي جزء من البناء الحالي . ولــذلك فمن الواجب رفض نظرية غوميز مورينو .

هل كانت هناك اروقة مقنطرة حول الصحن :

يمكن الاجابة على هذا السؤال الآن ، بفضل اكتشافات هرنانديز . كشف الجانب الشرقي من العضادة العاشرة لواجهة الحرم . ووجد أنها مركبة كما نرى (في الشكل ٤٣) . القسم A المنسوب لعبد الرحمن ،



(شكل ــ ٤٣)

قرطبة ــ المسجد الكبير إعادة بناء العمود العاشر في واجهة المصلى

ذو وجه منبسط بدلا من كونه على شكل L أو T ، هذا يبرهن أن المسجد الأصلي لم تكن له أروقة جانبية ، ولكن في تاريخ لاحق تمت إقامة عضادة على شكل T باضافة القسم B ، والوجه الشمالي التام من A يمتد خلف B ، ثم تمت اضافة C الذي يشكل جزءاً من الواجهة الداعمة التي كما رأينا ــ أضافها الناصر في عام ٣٤٦ هـ (٩٥٨ م) ، ولذلك فان الأروقة الجانبية كانت بدعة ، أدخلت بين عصر عبد الرحمن الأول وعام ٣٤٦ هـ ،

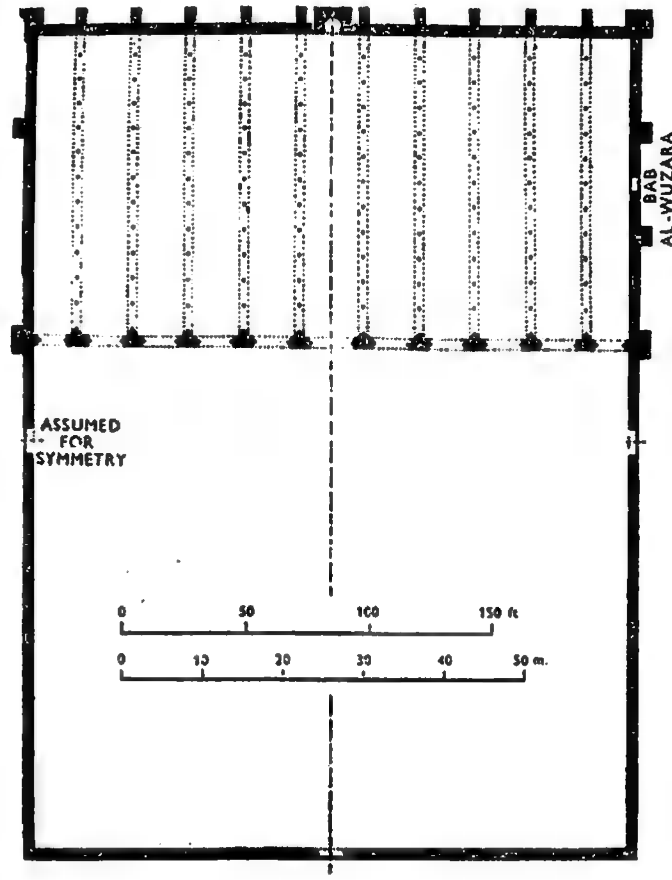
شكل الاروقة :

نرى من المخطط ، أن صفوف الأقواس التي تشكل واجهة هذه الأروقة، مجموعة على عضائد وأعمدة ، بحيث يتناوب كل عمودين مع عضادة واحدة ، ويوجد في الجانب الغربي أربع من هذه المجموعات وكذلك على

الجانب الشرقي ، وعلى الجانب الشمالي ، توجد سبع مجموعات كاملة ، ومجموعتان ناقصتان بسبب بروز المئذنة . ومن الواضح أن هذا المخطط ملحوظ في الجانب الشمالي ، دون حساب للمئذنة ــ البرج لأن المسافة بين محور هذه العضادة إلى الغرب من المئذنة ومحور العضادة الى الشرق منها هي ضعف طول القسم (البحر) . وهذا يعني فقط أن المخطط الحالي رغم زخارفه القوطية ، يعود إلى عهد سابق لبناء المئذنــة عام ٣٤٠ هـ (٩٥١ ــ ٩٥٢ م) . وعنــدما بنيت هــذه المئذنــة ، انتقص من صف الأقواس وتم بتر قسمين (بحرين) نستطيع إذن أن نقول أن الصحن كان محاطا بأروقة قبل حلول عام ٣٤٠ هـ .

الشكل الاصلي لمسجد عبد الرحمن في عام ١٧٠ هـ :

يستنبع من تحليلنا ، أن المسجد في الأصل تألف من حرم عرضــه ٧٣٫٥ مترا ، وعمقه ٣٦٫٨ مترا ، مقسم إلى ١١ رواقا ، بواســطة ١٠ صفوف من الأقواس ، يضم كل منها ١٢ قوسا ، ترتكــز على أعمدة رخامية ، وتمتد عموديا على الجدار الخلفي . هذه الصفوف تتألف من طبقتين من الأقواس ، السفلية منها على شكل حدوة الفرس ، والعلوية تنقص قليلا عن نصف دائرة ، وهي تحمل سقفا منبسطا ، يرتفع مقدار ٩٫٨ مترا عن الأرضية وفوقهم ١١ ســقفا جمالونيا متوازيا ، بينها أقنية عميقة مبطنة بالرصاص . والحرم منفتح على الصحن بواسطة ١١ قوسا حدويا ، ترتكز على عضائد على شكل T والصحن نفسه عرضه ٧٣٫٢١ مترا ، وعمقه ٦٠٫٠٧ مترا . كان له باب غربي كما رأينا وباب شمالي على المحور الشمالي ــ الجنوبي وأن له على الأرجح باب شرقي متوافق مع الأول . كان للحرم باب واحد فقط يعرف اليوم ، باسم بويرتا دي سان استيبان (شكل ٤٤) وللحرم أيضا ٣ دعائم للشرق والغرب ، تبرز ١٫٥



(شكل ــ ٤٤) قرطبة ــ المخطط الاصلي للمسجد الكبير

مترا ، ودعامتان ركنيتان وعلى الأرجح ١٠ في الجانب الجنوبي ، لتتحمل ضغط صفوف الأقواس ، سمك الجدران قدره ١٫١٤ مترا ، والصحن لم يكن محاطا بأروقة .

الأصول المعمارية لمسجد قرطبة الكبير

صفوف الاقواس المتعامدة مع الجدار الخلفي :

رأينا أعلاه أن أروقة المسـجد الأقصى الـذي بناه المهدي على الأرجح عام ١٦٣ هـ (٧٨٠ م) كانت متعامدة مع الجدار الخلفي وكذلك في المسجد الأقصى القديم أيضا . هذه هي الأمثلة الوحيدة التي رأيناها حتى الآن ولذلك استنتج أن هذه السمة تعود إلى التأثير السوري .

قوس حدوة الفرس :

رأينا سابقا أن هذه السمة ذات أصول سورية .

السقوف الجمالونية المتوازية :

رأينا سابقا ، أن المسجد الأقصى ، الذي بناه المهدي ، كان مسقوفا بسلسلة من السقوف الجمالونية المتوازية . ونظام سقف مسجدنا يجب اعتباره ذا منشأ سوري أيضا .

نظام صفوف الأروقة المقنطرة حول الصحن : هذا النظام (الـذي رأينا أنه لا بد من نسبه إلى تاريخ سابق لعام ٣٤٠ هـ = ٩٥١ ــ ٩٥٢ م) هو بالضبط النظام الذي وجدناه في مسجد دمشق الكبير . وهنا أيضا نجد مثالا آخراً للتأثير السوري .

السوريون في اسبانيا :

كيف نعلل هذه المظاهر المتعددة للتأثير السوري ؟ بالحقيقة القائلة

إن الأندلس كانت مليئة بالسوريين . فعبد الرحمن الأول كان لاجئا أمويا من سورية . حيث ولد عام ٧١٠ م وبالتالي كان حوله العديد من السوريين . وهناك براهين كثيرة على ذلك . فعلى سبيل المثال يخبرنا ابن القوطية[1] (المتوفى ٩٧٧ م) ، إنه أثناء القلاقل في عهد الخليفة هشام (٧٢٤ ــ ٧٤٣ م) عندما اندلعت الحرب بين السوريين من جهة . وعرب المدن المتحالفين مع البربر من جهة أخرى سأل حاكم الأندلس (تسمعون وتطيعون فقالوا نعم سمعنا واطعنا ولكن لا محمل فينا لهؤلاء الشاميين فيخرجوا عنا) كما نقرأ فيما بعد أن هشام قرر عزل السوريين في المناطق المختلفة من اسبانيا : « وهكذا استوطن أهالي دمشق في ألفيرا وأهالي الأردن في الربا وأهالي فلسطين قرب سيدونيا وأهالي حمص في جوار اشبيلية وأهالي قنسرين في جاين » .

ويخبرنا نفس المؤلف أنه بعد غزو النورمان (الذي حدث عام ٨٤٤ ــ ٨٤٥) أعيد بناء أسوار اشبيلية على يدي عبد الله ، وهو وكيل سوري لعبد الرحمن الثاني .

الاقواس المزدوجة :

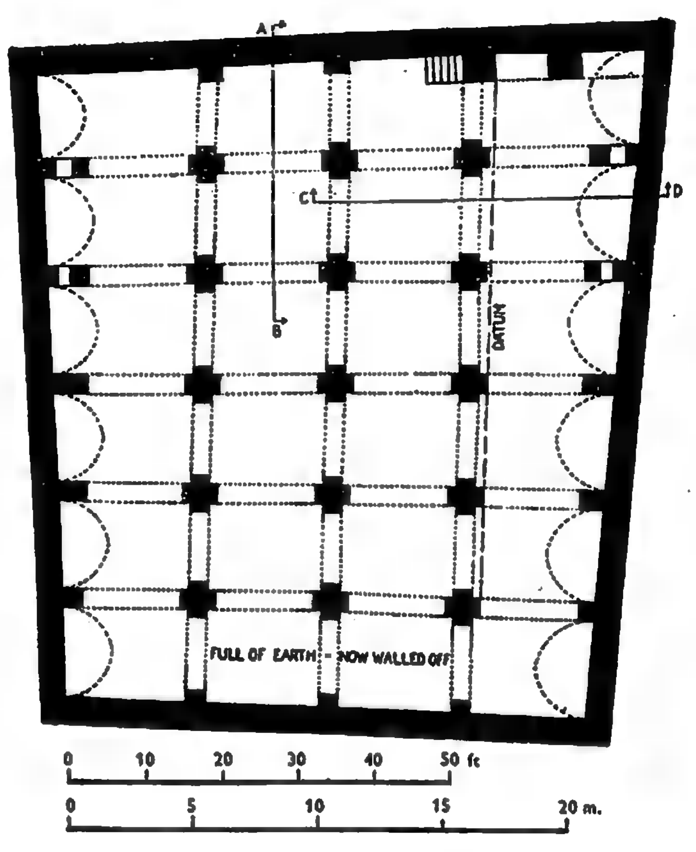
هذه أكثر سمات المسجد أصالة ، رأينا طبقتين من الاقواس في مسجد دمشق الكبير وفي المسجد الاقصى (الاموي على الاغلب) الذي سبق مسجد المهدي ولكن المعالجة مختلفة عما نجده في قرطبة . وقد اقترح أن النظام القرطبي ، مستوحى من القنوات الرومانية ذات الطابقين ، مثل آكويدكتو دي لوس ميلاغروس في مدينة مريدا (في اسبانيا) ، وهنا أيضاً المعالجة ليست متماثلة ولذلك لابد من الاعتراف بأصالة مهندس المسجد لهذا الحل العبقري إذ لا يوجد مثيل له في أي مكان آخر .

---

(١) ابن القوطية : تاريخ فتح الاندلس ط مطبعة المحمودية بمصر ص ١٤

بئـــر الرملـــة

هذا البئر يعرف محلياً باسم بير العنزية . في بداية القرن التاسع عشر نجده منسوبا الى سانت هيلينا من قبل شاتو بريان في عام ١٨٠٦ م إنه يقع على بعد حوالي نصف ميل شمال غرب الرملة ، على الطريق من يافا الى القدس . إنه يتألف من اكتشاف تحت الارض ، مبطّن بجدران قوية واقية ، ومقسّم إلى ٦ أروقة بواسطة ٥ صفوف في كل منها ؛ أقواس تمتد من الشرق الى الغرب، وترتكز على عضائد على شكل الصليب. إنه يشكل شكلاً رباعياً غير منتظم ، يتناقص من ٢٤ متراً في الجانب الشمالي ، الى حوالي ٢٠٫٥ متراً في الجانب الجنوبي . ولكن العضائد موزعة بصورة منتظمة ، والتناقص يتم تعويضه بانقاص بروز العضائد الجداريـة كلما تقدم المرء نحو الجنوب (شكل ٤٥) . كل العضائد الجدارية متوجـة بأغطية زخرفية مقلوبة ومفلطحة ، والاقواس كلها مدبية وتبدو ــ بعد تفحص عدد من الصور بالفرجار ــ أنها مبنية من مركزين يتراوح بعدهما بين ١/٥ و ١/٧ من الباع . وحيثما سقطت الكسوة الجصية يمكن مشاهدة تبني إقليد (حجر) العقد بدلاً من تعشيقه المونـة الوسطية . والارتفاع حتى تاج القنطرة يبلغ ٨ متراً وللداخل مظهر تذكاري حقيقي . وعلى الاقواس الشرقية ــ الغربية ترتكـز عقود اسطوانية ، سماكتها ٥٥ سم ، مدعمة بثلاثة صفوف من الاقواس ، تمتـد من الشمال الى الجنوب ، وتنبثق من نفس العضائد الجدارية . وبما أن هذه الاقواس ترتفع الى نفس مستوى الاقواس السابقة ، فهناك مسافة حوالي ٢٫٥ متراً



(شكل ــ ٤٥) الرملة ــ مخطط البئر

بين قممها وتاج العقد . والجدار الذي يسد هـذا الفراغ ، ويستخدم لتدعيم العقد ، مُضاء بفتحات ذات أقواس عرضها حوالي ٥ر١ متراً ، وارتفاعها حوالي ١٫٧٥ متراً (لوحة ٤٣) وليس هناك أي ترابط بين هذا الجدار والعقد الذي يعلوه . أو العضائد فعلى شكل صليب يبلغ طول ساقيه ٣١ سم وليست لها أي زخارف وكذلك حال العضائد الجدارية في الجانب الشمالي .

وهناك درج عرضه ١٫٠٢ متراً يهبط من الجانب الشرقي الى قاع البئر ، حيث توجد أرضية بحالة جيدة . هـذا الدرج ، أوجب بعض التعديل في أحد الاقواس ، حيث لامكان للعودة الى الجدار الشمالي ، فلذلك استبدل بنصف قوس على هيئة دعامة طائرة . تعطي خلوصاً قدره حوالـي ٣ متراً فوق الـدرج .وهناك سلسلة من الفتحات . متوسط مساحتها .. سم٢ ، محفور في عقد كل قسم (بحر) . تمكن ٢٤ شخصاً في نفس الوقت من استخراج المياه بالحبال والدلاء . هذه الفتحات كانت ذات يوم مغطاة بقواعد الاعمدة الرخامية المثقوبة في الوسط . لتشكل حلقات ، لأن دي مونكونيس يقول : « في قمة العقد توجد فتحات لدخول الهـواء » .

البناء :

يتألف البناء من حجارة منحوتة ومرصوفة جيداً تتراوح مداميكها بين ٢٩ و ٤١ سم . والعقود من الدبش المترابط جيداً بالملاط (المونـة) القوي ، لأن العقد الجنوبي المتهدم يتألف من أحجار كبيرة . والجدران الداخلية بأكملها مغطاة بطبقة صلبة من الاسمنت .

التاريخ :

على الكسوة الجصية للعقد المقابل للمنبسط الاول للدرج . يوجد إطار مستطيل كبير في داخله نقش كوفي غائر قليلاً تقول كلماته « .. هذا من بـين ما طلب من دينار وكيل أمـير المؤمنين إقامتـه ... وقـد نفّـذ فـي ذي الحجـة ١٧٢ (مايس ٧٨٩ م) . » والخليفـة هـو هارون الرشيد ، والبئر ليس الاثر العباسي الوحيد في فلسطين ، بل إنه أقدم مثال معروف باستعماله الشامل والمنتظم للقوس المدبب الحر .

رباط سوسة

رباط سوسة ، الواقع على خليج غابس ، يعرف محلياً باسم قصر الرباط . إنه بناء مربع محصّن يبلغ طول ضلعه ٣٩ متر تقريباً ، بدون الأبراج التي يوجد ثمانية منها ، واحد في منتصف كل جانب وواحد في كل ركن والأبراح كلها نصف دائرية ما عدا برجي المدخل والركن الجنوبي الشرقي . وكلها مبنية من الحجارة على شكل مداميك ارتفاعها حوالي ٥١ سم . والارتفاع الكلي للجدران فوق مستوى الارض الحالي حوالي ٥ر٨ متراً .

الداخل :

يقع المدخل في البرج القائم وسط الجانب الجنوبي ، الذي كان يبرز في الاصل ١٧ر٣ متراً فقط حتى الاضافة التي تمت عام ١٢٦٤ هـ (١٨٤٨ م) . وفق نقش فوق المدخل . نهبط حوالي ٨ر٢ متراً بواسطة درج نصفه تقريباً يخصّ الجزء المضاف .

وبعد وصولنا إلى أسفل الدرج . ندخل الرباط نفسه بواسطة باب له اسكفة وقوس حمل نصف دائري ، أمامنا دهليز ذو ثلاثة أقسام (بحور) . الأول تحيط بـه غرف ذوات عقود اسطوانية مفتوحة والتي يمكن أن تكون قد استخدمت للحرس . بينما القسمان الثاني والثالث لهما عقود اسطوانية متصالبة وهما محاطان بأروقة ذوات عقود اسطوانية تشكل وحدة مع السابقة . والقسم الثالث يؤدي إلى فناء بين أدراج

تؤدي إلى اليمين واليسار (شكل ٤٦) . والفناء يبلغ ١٩ر٢١ متراً من الشمال إلى الجنوب و ٢٠ر٤١ متراً من الشرق الى الغرب . على الجوانب الشرقية والشمالية والغربية أروقة مقنطرة ، تنفتح على الفناء بأقواس ترتكز على عضائد خمس إلى الشرق والغرب ، وست الى الشمال . الرواقان الشرقي والشمالي أعيد بناؤهما ، ولكن الرواق الغربي ذي الأقواس نصف الكروية تقريباً يمكن أن يكون أصيلاً رغم أن الحجارة مغطاة بالجص . وهذا يصبح احتمالاً ، لأن كل قسم مسقوف بعقد مغطاة بالجص . وهذا يصبح اكثر احتمالاً ، لأن كل قسم مسقوف بعقد اسطواني عمودي على الواجهة . بينما الرواقان الشمالي والشرقي مسقوفان بعقود متصالبة .

خلف هذه الاورقة ٢٦ غرفة ذوات عقود اسطوانية ، بدون نوافذ ، وكلها تنفتح على الأروقة بباب واحد ما عدا الغرف الركنية التي تنفتح على الغرف المجاورة لها . هذه الغرف تتراوح في العمق من ٥ر٣ متراً ، الى ٦ر٣ مترا ما عدا الجانب الشرقي . حيث يبلغ عمقها ٣ أمتار فقط . وفي الجانب الجنوبي ، ٥ غرف متشابهة وغرفتان ركنيتان . ويبلغ كل منها ٨٥ر٣ مترا . وفوق هذه الغرف في الجوانب الشرقية والشمالية والغربية سلسلة غرف متشابهة تصبح الاورقة المقنطرة شرفة لها على ارتفاع ٣ر٥ مترا فوق مستوى الفناء .

المسجد :

في الجانب الجنوبي . استبدلت الغرف بمسجد مقسم إلى ١١ رواقاً بواسطة ١٠ صفوف من الأعمدة ، في كل صف قوسان قائمان عمودياً على جدار القبلة . الأقواس نصف الدائرية تنبثق من عضائد صليبية دون زخارف ، على هذه الأعمدة ترتكز العقود الاسطوانية . يدعمها صف من الأعمدة ، ممتد من الشرق إلى الغرب . أي أن لدينا هنا نفس نظام

القناطر الذي وجدناه في بئر الرملة ، ونفس النظام الذي سنجده في مسجد بوفطاطة : والمسجد الكبير في سوسة .

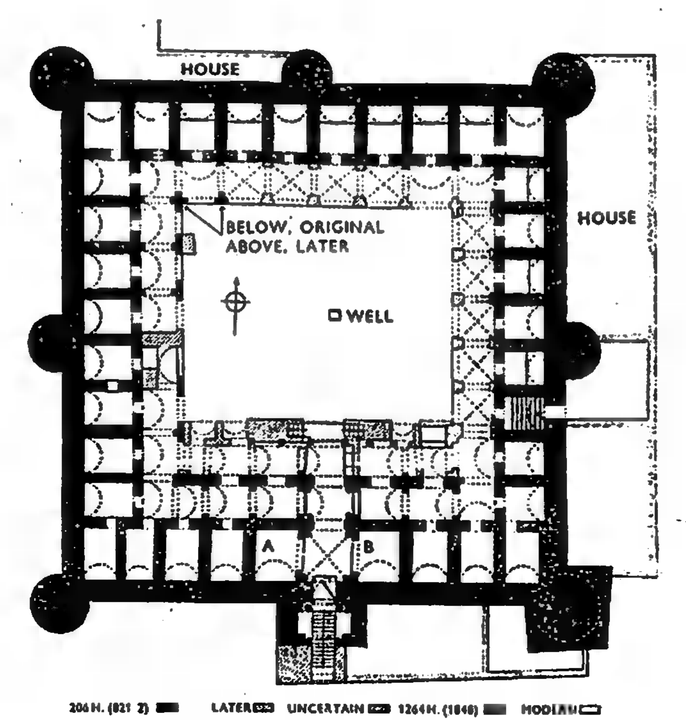
ونظراً لكون سقف المسجد على نفس مستوى غرف الطابق العلوي، فإنها تشكل سطيحة ترتفع ٩٫٩ متراً فوق مستوى الفناء ، تمتد فوق كامل البناء كممر دفاعي رغم عـدم وجـود الشرفات اليوم باستثنـاء متراس منخفض . والدرج الواصل الى هذه السطيحة يقع في الزاوية الجنوبية الغربيـة .

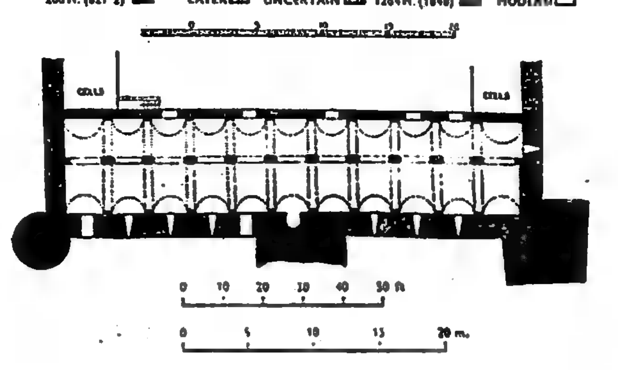
المنـار :

يقع المنار في الركن الجنوبي الشرقي ، وهو برج دائري ، يبلغ قطره ٤٫٧٢ متراً ، وارتفاعه ١٥٫٣٨ متراً فوق سطح الشرفـة في الأعلى . فوق المدخل توجد لوحة رخامية عليها كتابة كوفية تقول إن « هذا هو أحـد الأبنية التي شيّدها زيادة الله بن ابراهيم في عام ٢٠٦ (٨٢١ ـ ٨٢٢ م) وزيادة الله هو الحاكم الثالث من الأغالبة »

وظائف الرباط :

إنه معسكر صغير محصّن ، على حدود الدولة الاسلامية ، يعسكر فيه المتطوعون . هؤلاء الرجال ، توّاقون للوصول إلى المجـد ، بواسطة الاشتراك في الحرب المقدسة ، ومستعدون لتقديم خدماتهم ، وقضاء بعض الوقت في الرباط ، وفي فترات السلم ، يكرّسون أنفسهم للعبادة .





شكل ـ ٤٦ سوسة ـ مخطط الرباط

الفصل الثاني عشر

مسجد عمرو في عام ٢١٢ هـ (٨٢٧ م)

توسعة عبد الله بن طاهر :

في جمادى الثانية ، عام ٢١٢ هـ (آب — ايلول ٨٢٧ م) ، أمر عبد الله بن طاهر الذي عينه الخليفة المأمون حاكماً على مصر ، بمضاعفة حجم هذا المسجد ، بإضافة مساحة إلى الغرب (الشمال الغربي) تبلغ نفس مساحته بنفس الشكل . يقول المقريزي « وكانت زيادة ابن طاهر المحراب الكبير ومافي غربيه»[1]. أصبح الآن عدد أبواب المسجد ١٣ باباً، ٥ أبواب في الشرق (الشمال الشرقي) ، و ٣ أبواب في الشمال (الشمال الغربي) و ٤ أبوب في الغرب (الجنوب الغربي) ، وباب واحد للخطيب في الجانب القبلي ، كما كان هناك ٣٧٨ عموداً .

تاريخ المسجد اللاحق :

عليّ الآن أن أسرد تاريخ المسجد اللاحق ، بقدر أهميته للتحليل وإعادة البناء . في عام ٩٨٥ م زار المقدسي هذا المسجد ، فوجد هناك

---

(١) المقريزي الخطط ص ٢٤٩ ط المثنى ببغداد الجزء الثاني .

نماذج فسيفسائية متفرقة على الجدران • ويؤكد ياقوت الحموي ذلك لأنه يقول إن المسجد أعيدت كسوته وطلي بالأبيض عام ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) وأزيلت منه كمية كبيرة من الفسيفساء •

يقول ابن دقماق[١] : « أمر الحاكم بأمر الله (بعمل الرواقين اللذين في صحن الجامع) ، وذلك في شعبان ٤٠٦ هـ (كانون الثاني ـ شباط ١٠١٦) • هذان الرواقان يكملان عدد الأروقة التي لا تزال قائمة ، سبعة في المقدمة ـ سبعة في المؤخرة ـ خمسة في الشرق وخمسة في الغرب •

أما السلطان بيبرس ، فقد أمر بهدم وإعادة بناء الجدار الشمالي (الشمالي الغربي) •

يقول المقريزي : ثم ان الجامع تشعث ومالت قواصره ولم يبق إلا ان يسقط واهل الدولة بعد موت الملك الظاهر برقوق في شغل من اللهو عن ذلك فانتدب الرئيس سرحان الدين ابراهيم بن عمر بن علي المحلي رئيس التجار يومئذ بديار مصر لعمارة الجامع بنفسه وذويه وهدم صدر الجامع باسره فيما بين المحراب الكبير إلى الصحن طولاً وعرضاً وازال اللوح الأخضر واعاد البناء كما كان أولاً وجدد لوحاً أخضر بدل الاول ونصبه كما كان وهو الموجود الآن وجرد العمد كلها وتتبع جدر الجامع نرم شعتها كله واصلح من رخام الصحن ما كان قد فسد من السقوف ما كان قد وهى وبيض الجامع كله فجاء كما كان وعاد جديدا بعدما كاد أن يسقط •• وكان انتهاء هذا العمل في سنة أربع وثمانمائة[٢] •

(١) ابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الامصار ط اولى مصر ص٦٨

(٢) المقريزي خطط الجزء الثاني ص ٢٥٣ •

هذا الترميم ذو أهمية بالغة ، ولا يمكن المبالغة فيها كثيراً ، لأن الفكرة القائلة بأن حرم مسجد عمرو هو وثيقة أصلية للقرون القليلة الأولى من الاسلام كانت واسعة الانتشار . سنرى أن الحرم الحاضر لا يعود حتى إلى أيام برقوق .

مخطط بوكوك :

ونأتي الآن لنقدم مخططاً قائماً للمسجد ، وهو الذي رسمه بوكوك في عام ١٧٣٧ . إنه ذو أهمية بالغة لأن هناك تغييرات كثيرة في البناء ، ستتم قبل نهاية القرن . إنه يرينا مسجداً له أروقة ذوات عمق غير طبيعي ، و ٧ صفوف من الأعمدة في الجانب القبلي ، و ٧ صفوف في الجانب المقابل ، و ٦ في الأروقة الجانبية .

ترميم مراد بك :

لقد قدم الجبرتي[١] ـ أحد معاصري مراد بك ـ وصفاً لأعماله ، فهو يقول أن المسجد كان في حالة متهدمة بعد سقوط السقف والأعمدة والنصف الأيمن (أي الرواق الجنوبي الغربي) انحرف عن الوضع العمودي ثم تهدم أيضاً . ويقول أيضاً أن مراد بك أقنع بوجوب ترميمه وإنه أنفق مبالغ ضخمة« فأقام اركانه وشيد بنيانه ونصب أعمدته وكمل زخرفته وبنى به منارتين وجدد جميع سقفه بالخشب النقي وبيضه جميعه فتم على أحسن ما يكون وفرشه بالحصر الفيومي وعلق بـه القناديل وحصلت بـه الجمعة آخر جمعة برمضان سنة ١٢١٢ هـ (١٨ آذار ١٧٩٨ م) . »

---

(١) الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج ٢ : ٤٤٩ ـ ٤٥٠ طبعة دار الجبل في بيروت .

أية تعديلات قام بها مراد بك ؟ لابد أن مخططنا التالي يعطي الجواب وهو المخطط الذي رسمه باسكال كوستي بين عام ١٨١٨م وعام ١٨٢٦م. هنا نرى أن الرواق الشمالي الغربي ، قد تناقص إلى بلاط واحد ، والرواق الشمالي الشرقي ، إلى ثلاثة ، والرواق الجنوبي الغربي الى بلاطين ، . والحرم إلى ٦ بلاطات . ويظهر ضريح في الركن الشرقي للمرة الأولى ، كما تظهر نافورة في الصحن، تتعرف إليها بسهولة ، لأنها النافورة الحالية. وبالرغم من ذلك فإن كوستي يقول بعد من فترة وجيزة من ترميم مراد بك « في الوقت الحاضر مسجد عمرو مهجور تقريباً . بعض الأجـزاء تهدمت إلى خراب لعدم صيانتها » .

ويبدو أن محمد علي اهتم بالموضوع لأن أورلبار كتب في عام ١٨٤٥ يقول : « بأمر الباشا الحالي يتم ترميمه وهذا يعني تثويره بالكامل . » ويتحدث جيرولت دي برانجي عن هذه الأعمال قائلاً : « في عام ١٨٤٣ .. رأيت الطابقين في دور إعادة البناء من الأرض حتى السقف . » وبعد قليل يقول متحدثاً عن الحرم : « في هذا الجانب وفي اتجـاه الشرق ـــ الغرب توجد ستة صفوف من الأجنحة وللأسف أعيدنا بناؤها مؤخرا » .

ولا بد أنه خلال هذه الأعمال اتخذت واجهة الحرم شكلها الحالي كما يمكن أن نرى من صور تينارد التي صورها عام ١٨٥١ . وهنا يظهر للمرة الأولى التناوب بين العضائد المربعة مع كل زوجين من الأعمدة وهي ميزة لم نرها في مخطط كوستي وهذه العضائد ذات عمادات تنتهي بقالب زخرفي نموذجي في عهد محمد علي .

الوصف والتحليل :

مسجد عمر الحالي ، بناء ضخم يبلغ ١٠٩٫٠٥ متراً داخـل الجانب

الجنوبي الشرقي و ١٠٥ر٢٨ متراً في الجانب الشمالي الغربي • و ١٢٠ر٥٥ في الجانب الشمالي الشرقي ، و ١١٧ر٢٨ في الجانب الجنوبي الغربي أي أن الجانب الجنوبي الشرقي أطول من مقابله بمقدار ٣ر٥ متراً ، والجانب الشمالي الشرقي أطول من مقابله بمقدار ٢ر٧٢ متراً ، وبالاضافة إلى ذلك هناك انحراف قدره ٧ر٦ متراً • والجدران التي تعتبر مزيجاً من عهود مختلفة تختلف في سمكها من متر واحد إلى مترين •

الواجهة الشمالية الغربية :

يبلغ ارتفاع هذه الواجهة حوالي ٩ر٤ متراً ، ولا يزال فيها ٣مداخل كما كانت في أيام ابن طاهر • والجزء المركزي لمسافة ٥٥ متراً • سمكه حوالي مترين • ولا تزال توجد فيه ٧ نوافذ مشابهة للنوافذ الخمسة في الجزء السميك من الجدار الجنوبي الغربي (الطرف الشمالي) • وهناك عمود صغير قائم على كل من جانبي الفتحة كما تعلوهـا عارضة بطول مترين • وقوس النافذة ينبثق من هذه العارضة • وفوق هذه العوارض، توجد عارضة أخرى موازية لسطح الجدار ، وهي تقسم قلب المقص من الجزء السفلي للنافذة • وكل جزء من قلب المقص مملوء بمصبّعة من الجص المزخرف • ومن الواضح أن هذه النوافذ نسخ حديثة عن أعمال ابن طاهر • ومن المرجح أن هذه النوافذ صنعت عندما أعيد بناء هذين القسمين من الجدار بعد زلزال عام ١٣٠٣ العنيف • ولكن هذه النسخ تفتقر إلى العمادات الرخامية الصغيرة في زواياها الداخلية والخارجية • وسنتحدث في الحال عن أعمال ابن طاهر •

الواجهة الجنوبية الغربية :

بالنسبة للأمتار الاربعة والثلاثين الأولى من اليسار تبدو على هذه

الواجهة مظاهر القدم . وهناك ٦ نوافذ تبدو الأولى منها (لوحة ٤٤) أنها كانت تتألف من فتحة مركزية وعلى جانبيها حنيتان صغيرتان (وقد اختفت اليمنى منهما بسبب أعمال الترميم في الآجر) . والنوافذ الخمس الأخرى مشابهة جداً لنوافذ الواجهة الشمالية الغربية . فعلى سبيل المثال ليست لها عُمُدٌ نصف مطمورة في زواياها الداخلية والخارجية والأشكال المشوهة لأقواسها (التي لها شكل حدوة) تذكرنا بأقواس مسجد الحاكم المنسوبة الى ترميم عام ١٣٠٤ م . وبالاضافة الى السماكة غير الطبيعية ، فإن هذا يجعل هذا من المرجح ، أن يكون هذا الجزء من الجدار يعود إلى نفس تاريخ الجزء السميك من الجدار الشمالي الغربي . بعد هذه النوفذ هناك جزء طويل من أعمال الآجر البائسة يمتد الى نقطة توازي واجهة الحرم . وجزء كبير من الجدار من هذه النقطة إلى نهايته يبدو أنه يعود إلى أعمال ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) وتبدو هناك نافذتان مسدودتان على محور البلاطين الثاني والخامس من الحرم .

الواجهة الجنوبية الشرقية :

عند الدوران حول الركن نلاحظ أن الأمتار الأربعة والثلاثين الأولى هي قطعة متجانسة من الآجر . هذا واضح في الأسفل ، ولكن في المتر الخامس هناك صف من النوافذ . وفي كل منها فتحة مركزية مقنطرة ، وعلى جانبيها نافذتان أضيق منها . يبلغ متوسط عرضها الاجمالي ٣ر٣ متراً وهناك ٢٥ر٢ متراً من الآجر بينهما وهكذا فإن المسافة من المركز تبلغ ٢٥ر٥ متراً . بعد هذا الجزء يبدو جدار القبلة خليطاً من أعمال فترات مختلفة تتخللها بعض الأعمال الخشبية . هناك ؛ دعائم سمجة والجزء الخلفي البارز من المحرابين . والركن الشرقي يتألف من ضريح مقبب لا يعود بالتأكيد الى أقدم من القرن التاسع عشر .

الواجهة الشمالية الشرقية :

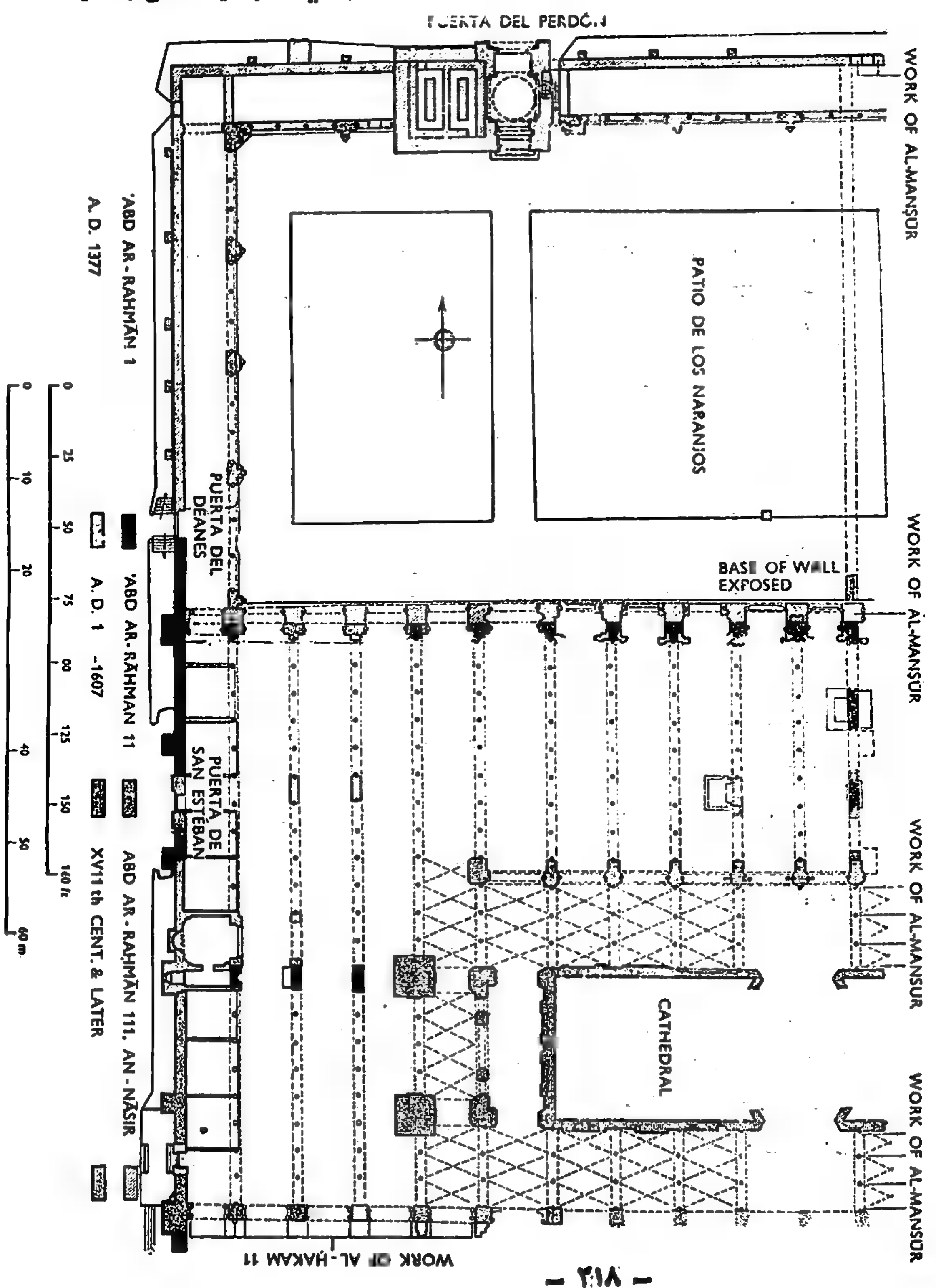
على مسافة ٢٨ متراً من الركن نلاحظ نافذتين ، لا بد أن قوسيهما ارتكزا على أعمدة نصف ظاهرة . وقد أدخلت عوارض إلى الجدار عند نقطة انبثاق هذين القوسين وبمستوى أدنى ولا يزال انبثاق قوس النافذة الثالثة قائماً . وواجهة الحرم الحالية تخترق النافذةالثانية.وخلال الأعمال التي جرت عام ١٩٣٢ ، حفر الجزء السفلي منهذا الجدار الشديد التآكل الى عمق حوالي متر واحد في بعض المناطق . وبني الجزء المحفور بالآجر . وأدنى ذلك الى اكتشاف — في باطن الجدار — . مداخل وجزء من الجص الذي يبطن عضادات الأبواب سليماً . يبلغ متوسط عرض هذه الفتحات ٢٫٧ متراً وهي موزعة بالتساوي وقد وجدت عتبة رخامية للفتحة الجنوبية تنخفض ٨٥ سم عن مستوى أرضية الحرم الحالية .

الداخـــل :

عند دخول أحد أبواب الواجهة الشمالية الغربية ، نجد أنفسنا في الرواق الشمالي الغربي . والصحن ليس أكثر مـن أرض يباب مغطـاة بالتراب والرمال . ولا تزال قواعد ثلاثة صفوف من الأعمدة التي شكلت في يوم مـن الأيام الرواق الشمالي الغربي موجـودة بالكامل تقريباً . الأقواس امتدت عمودية على الصحن وبالامكان رؤية أماكـن انبثاقها في الجدار . ولم يتبق شيء من الرواق الجنوبي الغربي .

وفي الطرف الأقصى يوجد الحرم ، الذي ينفتح على الصحن بواسطة ٢٠ قوساً ، ترتكز على عضائد وأعمدة مزدوجة . داخلياً ينقسم الحـرم إلى عشرين رواقاً . بواسطة ١٩ صفاً من الأعمدة ، كل منها يحتوي على ٦ أقواس مترابطة بعوارض ربط خشبية منبسطة ، وهي تمتد عمودية على

شكل ٤٧ ـ قرطبة ـ مخطط المسجد الكبير في الفترتين الأولى والثانية



الجدار الخلفي . والسطح الخشبي الملبسط ، يعود إلى نهاية القرن التاسع عشر .هناك محرابان في الرواقين العاشر والخامس عشر من الغرب ، يعود إلى عام ١٢١٢ وعام ١٢١١ هـ بالترتيب والتاريخ الأول هو السنة التي تمت فيها أعمال مراد بك .

والجزء الوحيد الذي يحمل سمات تاريخ قديم هو الجزء الأيمن حيث توجد ٦ عضائد جدارية كل منها له عمود ينتصب على بعد حوالي متر عنها ، والمتصل بها بساكفات خشبية حفرت على بعضها عناصر هيلينستية متأخرة (لوحة ٤٥ م) وهي لا تختلف عن أي شيء آخر موجود في العمارة الاسلامية في مصر . إنها بكل وضوح سليلة الافاريز السورية المذكورة أعلاه ، بخصوص أطناف عضائد القبة في قبة الصخرة . لهذا السبب يجب تأريخها بأقدم ما يمكن . لأننا لا نعرف أي شيء مشابه في الأعمال الطولونية ولكن — من جهة أخرى — لا يمكن أن تؤرخها بأقدم من عام ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) لأن المسجد لم يتوسع الى هذا الحد قبل ذلك التاريخ . ولذلك فإن لدينا هنا دون شك جزءاً أصيلاً من عمل عبد الله بن طاهر ، وهي نقطة ثابتة يجب أن يتمحور عليها تحليلنا . هذه العضائد الجدارية الست تخبرنا أكثر من ذلك . فالتفسير الوحيد الذي تدعمه ، ينقض فكرة قبلت حتى الآن دون تساؤل ،وهي أن صفوف أعمدة الحرم دائماً امتدت عمودية على الجدار الخلفي . ففي المثال الموضع (لوحة ٤٥ آ) يمكننا رؤية طرف عارضة الربط المكسور هذه . الأعمدة نصف الظاهرة — التي لا عمل لها الآن — يمكن أن تكون فقط قد استخدمت لا نبثاق أقواس الصفوف الستة التي تمتد موازية لجدار القبلة . وقد تم مؤخراً كشف عمود نصف ظاهر مع بقايا النصف العلوي لمحمول خشبي محفور مشابه بين النافذتين الخامسة والسادسة من الشمال

وقاعدة عمود في العضادة التالية إلى الشمال ولذلك فإن هذا النظام ، لابد وأنه ساد في الرواق الشمالي الغربي أيضاً . فإذا ما بقي أي شك حول عسر صفوف الأعمدة الحالية ، فيمكن الاشارة إلى أنها تدخل في النوافذالسبع المسدودة التي لا تزال قائمة في الجدار الخلفي . رأينا أن هذه النوافذ يبلغ متوسط عرضها ٣ر٣ متراً وأن المسافات بينها تبلغ ٢٫٢٥ متراً . وفجوة الجدار في نهاية الواجهة هي ١٫٥ متراً فيستتبع من ذلك أن هناك مكاناً لعشرين نافذة لأن :

٢٠ نافذة تتطلب	٦٦	متراً
٢ قطعتان نهائيتان	٣	متراً
١٩ فراغاً بين النوافذ تتطلب	٤٢٫٧٥	متراً
المجموع	١١١٫٧٥	متراً

ولقد رأينا أن الجدار الخلفي يبلغ ١١١٫٨٦ متراً .

إعادة تصميم الجدران الجانبية :

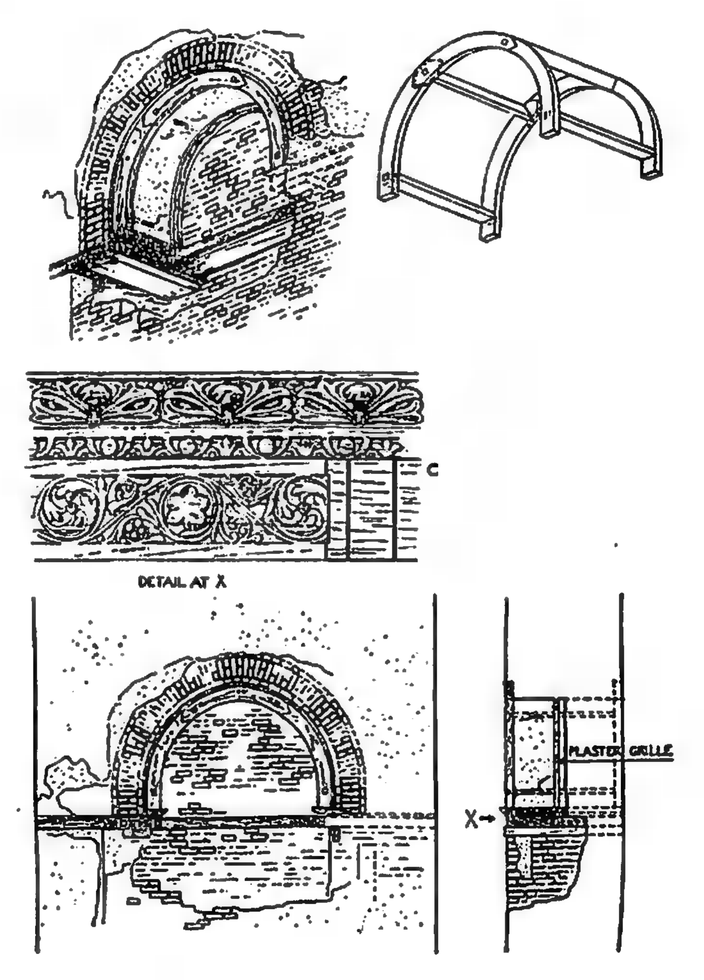
ما هو عدد النوافذ التي كانت موجودة في الواجهة الجنوبية الغربية؟ لو أخذنا وسطي الأقسام (البحور) على الجانب الأيمن من الحرم وحسبنا عدد الأقسام التي وجدت في هذا الجانب فإن النتيجة ستعطينا في نفس الوقت . فعمق الحرم ـ إذا قسناه من الجانب الغربي ـ بما في ذلك عضادة الجدار الخارجية هو ٣٣٫٤٣ متراً . ٦ أقسام و ٦ عضائد جدارية = ٣٣٫٤٤ متراً (متوسط ٥٫٥٧ متراً)

٢٠ قسماً و ٢٠ عضادة جدارية = ١١١٫٤٣ متراً .

لنضف قسماً واحداً أو ٤٫٦١ متراً مقابل ١١٧٫٢٨ متراً أو بفارق ١٫٢٤ متراً .

لا بد إذن أن متوسط الأقسام ـ باستثناء أقسام الحرم الستة ـ زاد ٨ سم أي ٦٥ر٥ متراً بدلاً من ٥٧ر٥ متراً .

دعونا الآن نجرب الجانب الآخر . هنا تبلغ الأقسام وعضائد الجدار الستة الأولى أقل بقليل أي ٦٢ر٣٢ متراً (متوسط ٤٤ر٥ متراً) .

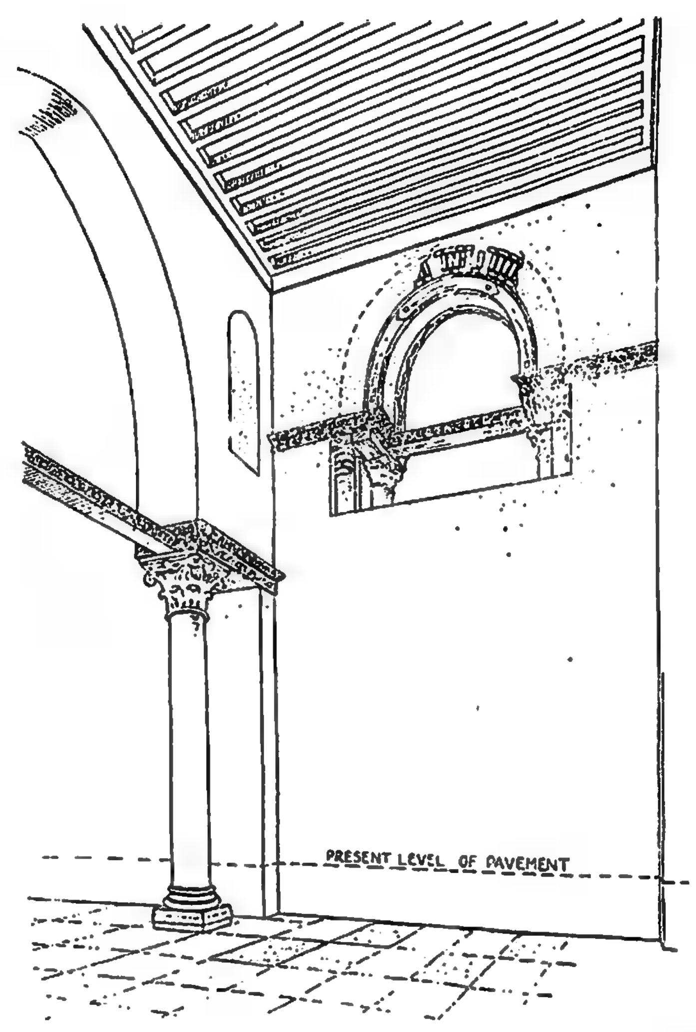


شكل ـ ٤٨ الفسطاط ـ مسجد عمرو تفاصيل نافذة اصيلة

وبتكرير ٦ أقسام و ٦ عضائد جدارية = ٦٢ر٣٢ متراً
٢١ قسماً و ٢١ عضادة جدارية = ١٧ر١١٤ متراً
لنضف قسماً واحداً (متوسط ٥ أمتار = ١٢ر٤ متراً

ونحصل على ٢٢ قسماً ، و ٢١ عضادة جدارية = ٢٩ر١١٨ متراً ، مقابل ٥٥ر١٢٠ متراً ، أو بفارق ٢٦ر٢ متراً . لا بد إذن أن متوسط الأقسام الحرم الستة ــ زاد ١٤ سم أي ٥٨ر٥ متراً .

من غير المتصور وجود قسم آخر في الجانب الشمالي الشرقي . لو استخلصنا وجود ٢١ قسماً فقط في الجانب الشمالي الشرقي لكان علينا أن نزيد عرض الأقسام وراء الحرم مقدار ٤١ سم إلى ٩٩ر٥ متراً ، لو قررنا وجود ٢٢ قسماً في الجانب الجنوبي الغربي لكان علينا أن ننقص عرضها مقدار ٣٢ سم إلى ٣٣ر٥ متراً . دعونا نختار التعديل الأقل ونفترض وجود ٢٢ قسماًو ٢١ عضادة جدارية في كل قسم . لو عدنا الآن إلى مخطط كوستي (١٨١٨ ــ ١٨٢٦) لوجدنا أنه يظهر هذا العدد من الأقسام والعضائد الجدارية . كما أن بوكوك في عام ١٧٣٧ أو قبل مراد بك بـ ٦٠ عاماً يرينا ٢١ صفاً من الأعمدة في هذا الاتجاه . ولذلك فإن اختيارنا يبدو صحيحاً . ابن دقماق الوحيد الذي يذكر الأعمدة يتحدث عن : « أقواس [النوافذ] المدعمة = الحنية المكندجة ــ التي توجد في أعلى جدران المسجد . توجد ٨٧ منها ... (١٧) في الجدار الجنوبي (الجنوبي الشرقي) وفي الجدار الشمالي (الشمالي الغربي) . بما في ذلك تلك التي يخفيها بيت الدرج إلى السقف وديوان اصطفاء الأحباس ١٧ أيضا وفي الجدار الشرقي (الشمالي الشرقي) ، بما فيها تلك التي يخفيها الديوان المذكور ٢٢ . في الجدار الغربي (الجنوبي الغربي) ٢٢ بعضها يخفيه بيت الدرج . » ولذلك فإن إعادة تخطيطنا



شكل ٤٩ ـ مسجد عمرو ـ إعادة بناء مفربة على الجانب الأيمن من المصلى

للجدران الجانبية صحيح . ولكن كيف نوفق بين عدد النوافذ (٢٠) التي حسبناها في الجدارين الجنوبي الشرقي والشمالي الغربي مع العدد ١٧ عند ابن دقماق ؟ أقترح أنه حذفت نافذة فوق المحاريب الثلاثة والأبواب الشمالية الغربية الثلاثة .

النوافـذ :

بدمج مايتبقى من النافذتين على جانبي الركن الغربي (لوحة ٤٦) وأخرى في طرف الحرم الجنوبي الغربي في القسم الثاني من الصحن يمكن إعادة تصميم نوافذ رائعـة تعود إلى عام ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) كمـا يلي : الفتحة المقنطـرة محاطـة داخلياً وخارجياً بأعمدة صغيرة مبنية من الآجر المصنوع خصيصا ، والـذي أعدت له فجوات خاصة ، وقد وضع عمود رخامي قزم ، على كل من جانبي الفتحة مطمور جزئياً بالقائمة ، وتـرك تجويف في الآخر لذلك ، وضعت ثلاث قطع كبيرة من الخشب في كـل جانب ، عمودية على سطح الجدار ، ترتكز جزئياً على العمود ، ومطمورة جزئياً في الآجر ، ويرتكز عليها بزاوية قائمة خمس قطع متشابهة تمتد في الجدار إلى الخلف والقطعة المركزية منها تمتد عبر الفتحة كعارضة وصل، وتستخدم كدعامة للمصبّعة الجصيـّة التي يبلغ سمكها ٤سم تقريباً والتي ملأت قلب مقص القوس بينما ملأت مصبّعة مشابهة مستطيلة الشكل ، الجزء الأسفل من النافذة (شكل ٤٨) .

والقوس مؤلف من ٤ حلقات من الآجر ، مرصوفة كما هو ظاهر : الحلقة الداخلية مرتدة لتستوعب الاطار الخشبي الدائم المؤلف من قالب داخلي وقالب خارجي ، كل منهما مؤلف من ٣ قطع من الخشب موصولة مع بعضها ، ومحافظة على مسافة فاصلة ثابتة بواسطة دعامات معشّقة فيهـا .

والخشب مزخرف كما يلي جانب العارضة مغطى بشريحة رقيقة من الخشب محفور عليها افريز اقانتوس متموج (لوحـة ٣٦) يذكرنا فوراً بسلسلة كاملة من الزخرفة المشابهـة بدءاً مـن القرن السادس في البارا

ومجلايا والبوابة الذهبية في القدس ، وأطناف عوارض في قبة الصخرة (لوحة ٣) والألواح الجدارية العديدة في المسجد الأقصى والتي تعود لعام ٧٨٠ م (لوحة ٤٢) . هذا الأفريز يدخل إلى مرتدات النافذة ويستمر عبر الرافدة العرضانية ثم يخرج ثانية ويمتد حتى يلتقي بالقوس الثاني (شكل ٤٩) . وفوق ذلك – في الجزء الداخلي – يوجد طنف من الأقانثوس الشوكي ، الذي لا يمتد على سطح الجدار ، بل ينتهي على مسافة حوالي ٢٥ سم من طرف النافذة بإطار عمودي عريض .

إعادة تصميم الداخل :

بين عام ١٩٢٦ وعام ١٩٣٤ حفرت عدة خنادق تجريبية في مسجد عمرو ، وقد أعطت دليلا حاسما لعدد وموضع واتجاه صفوف أقواس المسجد . فقد وجد أولا أن صفا من الأساسات الآجرية بعرض ١ر٢٥ امتد موازيا تقريبا لواجهة الحرم الحالية ، مبرهنا على أنه في الأصل تضمن ٧ أروقة كما تنبأت . ووجد أيضا أن صفوفا مشابهة من الأساسات بعرض ١ر٢٥ مترا ، امتدت من العضائد ذات الأعمدة نصف الظاهرة في الطرف الأيمن من الحرم ، إلى العضائد على الجدار الشمالي الشرقي موازية للصف الأول المذكور . ووجد أن الأعمدة لم ترتكز على هذه الأساسات بل انحرفت عنها أكثر فأكثر كلما اقتربت من الطرف الشمالي . وقد حفر خندق آخر في الصحن مواز للجدار الشمالي الشرقي وعلى بعد ١٢ مترا عنه اكتشف ١٤ أساسا جداريا وهي بالاضافة إلى أساسات الحرم السبعة – تبرهن أن ٢١ صفا من الأقواس ، امتدت من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي . ولكن عرض الأساس الرابع من الشمال الغربي بلغ مترين مقابل ما يقارب من ١ر٢٥ مترا للبقية . فماذا كانت أهمية ذلك ؟ يخبرنا المقريزي[1] « زاد فيه صالح بن علي بن عبد الله بن

عباس وهو يومئذ أمير مصر من قبل ابي العباس السفاح في مؤخره أربع أساطين وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومائة» وفي الجانب الشمالي الغربي . ولكي يقوم بذلك لا بد أنه هدم جدار قرة بن شريك الشمالي الغربي ، حتى مستوى الأرض ، واستعمل ما تبقى كأساس للصف الأول من أعمدته ثم أضاف ٣ صفوف أخرى بالعرض الطبيعي .

كانت هناك طريقة واحدة لاختبار نظريتي . إذا كانت صحيحة فان ذلك يعني أن الأساس يجب أن يستمر حتى الخط المركزي للمسجد ، وبعدها يستمر بعرض أقل بكثير عبر الجزء الذي أضافه عبد الله بن طاهر . والحفريات الأخرى أدت إلى كشف جدار أساس يمتد من وسط الجانب الشمالي الغربي باتجاه المحراب .وكان هذا بالطبع أساس الجدار الجنوبي الغربي لمسجد قرة بن شريك ، وفي جزئه الشمالي جدار أضافه صالح بن علي عام ٧٥٠ . وجدران الأساسات السبعة الأولى الممتدة من الجانب الشمالي الشرقي للمسجد كلها تلاقت مع هذا الجدار ثم امتدت وراءه إلى الجدار الجنوبي الغربي ، ولكن الجدار الرابع ـ بدلا من المحافظة على عرض مترين ـ نقص عند هذه النقطة .

وهكذا ليس هناك أدنى شك في أن لدينا الأساسات الأصلية (١) لمسجد قرة (٢) لاضافة صالح بن علي (٣) لاضافة عبد الله بن طاهر . والقياسات الداخلية لكل هذه يمكن أن نذكرها الآن بدقة كما يلي :

(١) ٢ر٩٨ مترا شمال شرق ، ٨٥ر٩٥ مترا جنوب غرب ، ٥٠ مترا شمال غرب ، ٥٥ر٥٧ مترا في الجانب القبلي .

(٢) ٥٥ر١٢٠ مترا ، ٧ر١١٧ مترا ، ٥ر٤٩ مترا ٥٥ر٥٧ مترا .

---

(١) المقريزي الخطط ص ٢٤٩ دار المثنى بغداد الجزء الثاني .

(٣) نفس القياسات الحالية .

ويستتبع من الأساسات ، أن صفوف أقواس الرواق الشـمالي الشرقي ، امتدت عمودية على الصحن وهو نظام غير ملائم جرى علـى أساسه تلقي ضغط الأقواس بعوارض ربط . ولكن مفاجأة أخرى كانت في الانتظار . فجدار الأساس ، الممتـد موازيا لواجهة الحرم ، كشف لمسافة طويلـة ، ووجد أن جدران أساسات الرواق الجنوبي الغربي امتدت عمودية عليه وموازية لجانب الصحن ، حتى انتهت مقابل جدار الأساس السابع في الجانب الشمالي الغربي للمسجد . وبالتالي فان عبد الله بن طاهر شيد أقواسه على نفس المبدأ الذي تبناه ابن طولون بعد ٥٠ سنة . وخندق آخر كشف الجانب المقابل من الصحن ، وقد أظهر أن أبعاده كالتالي : جنوب شرق ١٥ر٥٢ مترا ، شمال غرب ٥٨ر٥١ مترا ، شمال شرق ٣٣ر٤٢ مترا ، شمال غرب ٢ر٤١ مترا .

الخلاصة :

مسجد عمر كما وسعه في النهاية عبد الله بن طاهر ، كان يتألف من مساحة كبيرة غير منتظمة، عرضها حوالي ١١٠ أمتار ، وعمقها حوالي ١٢٠ مترا ، ومحاطة بجدار من الآجر ارتفاعه ٩ أمتار . وكـل من الجدران الجانبية فيها ٢٢ نافذة ، تضيء ٢٢ رواقا ، وبين كل نافذتين من الخارج انحناء ضئيل ذو غطاء فيه أخاديد ومرتكز على أعمدة صغيرة من الآجر .

على جانب القبلة والجانب المقابل له كانت توجد ١٧ نافذة فقط على الأرجح ، لأنها حذفت فوق المحاريب الثلاثة والمداخل الشمالية الغربية الثلاثة . وعتبات هذه النوافذ ارتفعت عن الأرض حوالي ٥ر٥ مترا . كانت هناك ٧ صفوف من الأقواس في الحرم ، ممتدة بصورة موازيـة

لجدار القبلة ، و٧ أخرى في الرواق المقابل . وكل من الصفوف الأولى مؤلف من ١٩ قوسا فوق ٢٠ عمودا ، بينما تتألف الثانية من ٢٠ قوسا فوق ٢١ عمودا ، والعمود الأخير في كل طرف مربوط بعضادة جدارية بواسطة ساكف خشبي ، محفور عليها افريز من النمط الهيلينستي المتأخر . وأقواس هذه الصفوف كلها مترابطة بواسطة عوارض ربط مزخرفة . وسلسلة من ٧ صفوف في كل منها ٤ أقواس مرتكزة على ٥ أعمدة شكلت الرواق الشمالي الشرقي . تنتهي هذه الصفوف عند الصحن ولا بد أنها استندت مقابل صف من الأقواس يشكل الحد الجانبي للصحن . ولا بد أنها منعت من الضغط على هذا الصف الخارجي بواسطة عوارض ربط تلقت ضغطها . والرواق الجنوبي الغربي، شيد بصورة مختلفة ، إنه يتألف من أربعة صفوف في كل منها ٨ أقواس ـ ممتدة بموازاة الصحن . وبالرغم من شكل المسجد اللامنتظم ، فان الصحن كان متسطيلا كاملا محدودا بـ ١٠ أقواس في الشمال الغربي والجنوب الشرقي و٨ أقواس في كل من الجانبين الآخرين .



الفصل الثالث عشر

تاريخ المسجد الكبير

القيروان ـ ١

في عام ١٥٥ هـ (٧٧٢ م) هدم يزيد بن حاتم المسجد ـ كما وسعه بشر بن صفوان ـ باستثناء المئذنة ، والمحراب ، وأعاد بناءه في عام ١٥٧هـ (٧٧٣ ـ ٧٧٤ م) .

وهدم زيادة الله ـ الحاكم الثالث من العائلة الأغلبية ـ مسجد يزيد وأعاد بناءه في عام ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) يقول البكري : « فلما ولي زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب هدم الجامع واراد هدم المحراب فقيل له ان من تقدمك من الولاة توقفوا عن ذلك لما كان واضعه عقبة بن نافع ومن كان معه فلج في هدمه لئلا يكون في الجامع اثر لغيره حتى قال له بعض البناة أنا أدخله بين حايطين ولايظهر في الجامع أثر لغيرك فاستصوب ذلك وفعله فهو على بنائه إلى اليوم والمحراب كله ومايليه فبني بالرخام الابيض من أعلاه إلى أسفله فحرم منقوش كله،منه كتابة تقرأ،ومنه تدبيج مختلف الصناعة يستدير به اعمدة رخام في غاية الحسن والعمودان الاحمران المذكوران يقابلان المحراب عليهما القبة المتصلة بالمحراب وعدد ما في الجامع من الاعمدة أربع ماية واربعة عشر عمودا وبلاطاته سبعة عشر بلاطاً وطوله

مايتان وعشرون ذراعا وعرضه مايةوخمسون ذراعا»[1] والجزء الآخرمن نماذج مختلفة من الرقش العربي . وتوجد اعمدة رخامية حول المحراب في غاية الجمال . والعمودان الحمراوان اللذان ذكرناهما قائمان أمـام المحراب ، يستخدمان لحمل (نصف) القبة التي يشكلان جزءا منها .

اعمال ابو ابراهيم احمد عام ٢٤٨ هـ (٨٦٢ ـ ٨٦٣ م)

حسب رواية ابن ناجي ، زخرف أبو ابراهيم المحـراب بألواح رخامية ، ووضع القيشاني على واجهته ، كما وضع المنبر الجميل . تاريخ هذا العمل الذي سنبحثه أدناه يذكره ابن العـذاري على أنه في ٢٤٨ هـ (٨٦٢ ـ ٨٦٣ م) .

إضافات ابراهيم الثاني بن احمد :

ويتابع البكري قائلا : « ولما ولي ابراهيم بن أحمد بن الاغلب زاد في طول بلاطات الجامع وبنى القبة المعروفة بباب البهو علـى آخر بلاط المحراب وفي دورها اثنان وثلاثون سارية من بديع الرخام وفيها نقوش غريبة وصناعات محكمة عجيبة يشهد كل من رآها أنه لم ير مبنى أحسن منه »[2] .

إنه لا يذكر تاريخ الانتهاء ولكن ابراهيم الثاني حكم من عام ٨٧٥ إلى ٩٠٢ . وبعد عام ١٠٤٣ م بقليل ، تحدى الحاكم المعتز بن باديس علناً خليفة مصر الفاطمي بالدعاء للخليفة العباسي بعد صلاة الجمعة . وثـأر

---

(١) المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب البكري ص ٢٣ ـ ٢٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤ .

الخليفة الفاطمي ثأراً شيطانياً ، بتشجيع مختلف فـروع قبيلة الهلاليين البدوية ، بمعدل دينار لكل شخص على عبور النيل والاستيطان في برقة . وبالتالي وصلت أعداد كبيرة من البدو إلى جوار القيروان . التي تم له الاستيلاء عليها فنهبها في عام ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ ـ ١٠٥٥ م) وذبح سكانها وأحرق بيوتها ، وقطـع أشجارها المثمرة وحجب قنوات الري فيهـا . وهرب المعتز ونهبت ودمرت المنطقة كلها . ويقول المراكشي أن المدينـة كانت لا تزال خراباً عندما زارها في عام ١٢١٧ م .

والحادثة التالية التي تخص المسجد . هي الترميم الذي تم في ظل العائلة الحفصية في عـام ٦٩٣ هـ (١٢٩٤ م) وهي مسجلة في نقشين : الاول على باب لالا رجانا . والآخر على جانب البهو الأيمن في الجانب الغربي .

وصف وتحليل المسجد الكبير :

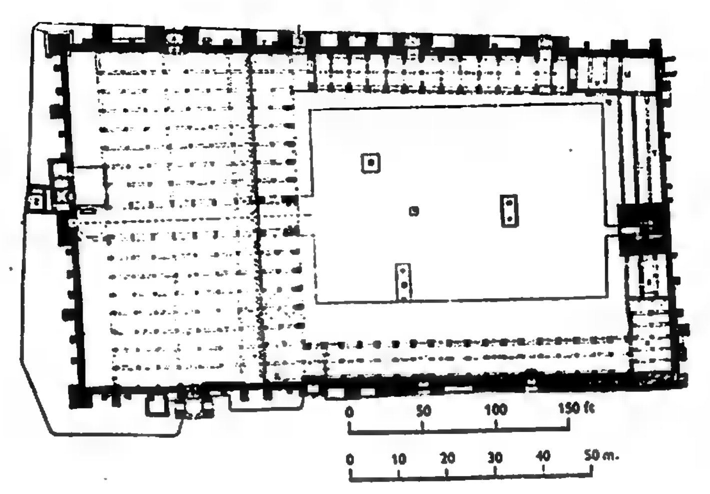
يتألف المسجد من بناء مستطيل كبير ، محوره الرئيسي يتجه تقريبا إلى الجنوب الشرقي (واتجاه مكة الصحيح هو ٢٠ درجة و ٤٣ ثانية جنوب شرقي) والأبعاد الداخلية هي : شمال غرب ٣ر٦٥ متراً ، جنوب شرق ٢٨ر٧٠ متراً ، شمال شرق ٨ر١٢٠ متراً ، جنوب غـرب ٥ر١٢٠ متـراً .

الخـارج :

إن منظره غاية في الانتظام والجمال (اللوحتان ٤٧ ـ ٤٨) . إذ أن منظره الكفافي تتخللـه الدعائم من مختلف الاحجام والاشـكال ، بالاضافة الى عدم انتظام توزيعها . والأبواب في الجانب الجنوبي الغربي متركزة بين دعامتين في معظم الحالات ، وهناك رواق في الفراغ بينهما . والكل مغطى بآثار متعددة من الطلاء الكلسي ما عدا الدعائم في الجانب

القبلي . وبما أن الأرض تنحدر من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي فإن الجدران تختلف في الارتفاع من ٨ أمتار إلى حـوالي ١٠ أمتار . والسمات الجيـدة الوحيدة من الخارج هي القباب الخمسة . والمئذنة الهائلـة .

والجزء الوحيد من البناء كله ، الذي يقترب من الاوابـد ، هو الجدار القائم في الجانب القبلي . ورغم أن الدعائم تختلف هنا في الحجم إلى أنها من طراز واحد : عضادة مستطيلة غير مشطوفة القمة . كما يبدو انها تتبع إيقاعاً معيناً : دعامتان أو ثلاث دعائم صغيرة تتناوب مع عضادة ضخمة . وهنا لحسن الحظ دعامتان هائلتان من التعميد بالطلاء الكلسي (لوحة ٤٧ آ) ومن الممكن أن نرى أنهما مبنيتان بنفس القطع الصغيرة من الحجارة كالمئذنة (لوحـة ٢٥) . وبقايا هـذا النظام من الدعائم الصغرى والكبرى ذات القمم المسطحة يمكن أن نراها حول الجانبين حتى الطرف الشمالي من الحرم . وبعدها تظهر القمم المائلة . ولكن ليست



شكل ٥٠ ــ القيروان ــ مخطط المسجد الكبير

هناك دعامتان لهما نفس العرض ، وكلها تختلف في مستوى بداية الميل الخلفي .

هذه الدعائم ذات القمم المائلة ، هي من صنع أيادٍ كثيرة وتدل على المحاولات المؤقتة المختلفة لمنع الجدران من الانهيار . ليست هناك أية إمكانية للخلط بين نوعين أو عصرين . لنأخذ على سبيل المثال الدعامة على يمين المدخل المسدود في الجانب الشرقي من الحرم (لوحة ٤٧ ب) ، ونقارنها مع الدعامة المجاورة لها من جهة اليسار . فالأولى وثيقة الصلة مع الدعائم الصغيرة للجدار القبلي ، بينما الأخيرة وثيقة الصلة بالدعائم المائلة القمة في الجانب الغربي . والآن لنتفحص الباب المسدود المقابل وهنا أيضاً ــ وبالرغم من الكسوة والطلاء الكلسي ــ نستطيع أن نميز النوع العمودي الصغير على الجانب الأيسر من الباب ، وعلى نفس البعد عنه أما بالنسبة للدعائم الأخرى في هذا الجانب ، والتي هي عميقة وعريضة جداً فإن سبب وجودها واضح لأن الجدار الذي تدعمه منحرف عن العمودي في معظمه مقدار ٢٠ ــ ٢٥ سم . والنوعان يكادان يتراكبان قرب الباب الغربي للحرم وهذا يكفي للبرهان على أنهما ينتسبان إلى فترتين ، حتى لو تناسينا تنوع الأحجام والأشكال والتوزع اللامنتظم للنوع المائل القمة وأخيراً فإن تراكب إحداها مع الباب المسدود في الجانب الغربي من الحرم حاسم في هذا الشأن . أعتقد أن الجدار الشمالي بكامله حديث نسبياً . ويقول سلادين أنه قيل له أن الجزء الأعظم من الجدار الشرقي (الذي لايميل نحو الخارج) ، أعيد بناؤه في الثامن عشر .

المداخل :

توجد ثمانية مداخل ، أربعة في الجانب الشرقي وأربعة في الجانب

الغربي وواحد من هذه المداخل فقط في الجانب الشرقي له بهو . أما الرابع فهو من الشمال المعروف باسم باب الله رجانا المنسوب ــ حسب النقش ــ إلى أبي حفص في عام ٦٩٣ هـ (١٢٩٤ م) ، والثلاثة الأخرى قائمة في ارتدادات مقنطرة ضحلة مختلفة العمق ومحاطة بأعمدة نصف ظاهرة . أقواس المدخلين الأولين متشابهة تماماً . كلاهما ذو قالب زخرفي ممتد حولها ويشكل عقدة في القمة . ثم يمتد حتى يشكل إطاراً مستطيلاً والنتيجة هو أنه يشكل نسخة طبق الأصل عن قوس باب الله رجانا . ولذلك استنتج أنهما يعودان إلى نفس الفترة . أما الثالث فإن حجارته مستورة تماماً بالطلاء الكلسي ولكن قوسه من النوع المدبب البسيط . الذي لا يشبه بأي شكل أقواس الجزء القديم من المسجد .

في الجانب الغربي كل الأبواب أمامها بهو صغير مقنطر في الباب الأول والرابع وآخر متصالب والأخير بسيط مؤلف من العوارض الخشبية . والباب الوحيد الخالي نسبياً من الكسوة والطلاء الأبيض هو المدخل الرئيسي للحرم المعروف باسم باب السلطان مقابل باب الله رجانا .

وهنا نجد نفس القولب الزخرفي الذي يشكل إطار القوس وله عقدة في القمة ولذلك فإنها من نفس التاريخ ما عدا زخارف القمة التي تناظر هندسة قرية (ولي) . والملاحظة نفسها تنطبق على الباب الأول من الشمال . أما بالنسبة للثاني والثالث فإنهما أبسط بكثير .

البابان الأصليان :

إلى الجنوب من الباب في الجانب الغربي يوجد ارتداد غريب متراكب جزئياً مع دعامة . إنه يبدو للوهلة الأولى كنافذة مسدودة . وفي نفس المكان في الجهة المقابلة يوجد ارتداد آخر بعرض ٢٫٧٥ متراً يعلوه

قوس دائري حدوي • إنه بكل وضوح مدخل مسدود (لوحة ٤٧ ب) • والتفحص الدقيق لسطح الجدار على الجانب الداخلي من الارتداد الآخر أظهر أن خط الحشوة ظاهر تماماً •

هذان المدخلان لابد وأنهما كانا على جانبي الواجهة القديمة للحرم،كما رأينا في دمشق وقرطبة الخ • حتى تشكل البهو بتحديد رواقي الحرم في عهد ابراهيم الثاني بعد عام ٨٧٥ عندما ــ بحسب استنتاجي ــ فتحت مداخل جديدة في منطقة المدخل الثالث الحالي من الشمال ، ليكون بجانب الواجهة الجديدة • والآن لنلاحظ أن هذين المدخلين المسدودين مجرد فتحتين بسيطتين على مستوى الجدار ، كما كانت دائماً مداخل المساجد حتى بداية القرن العاشر • وإليكم التسلسل فيها : مسجد واسط الكبير • مسجد قصر الحلابات ، حرّان • قرطبة • مسجد عمرو • سوسه ، سامرا ، أبو دلف ، ومسجد ابن طولون • ثم يأتي المدخل التذكاري ــ مسجد المهدية الكبير ــ الذي تم في عام ٣٠٨ هـ (٩٢١ م) ولذلك اعتبر هذين المدخلين المسدودين، بأنهما الوحيدان اللذان يعودان إلى أيام زيادة الله •

الصحن والأروقــة :

لندخل المسجد الآن من المدخل اليومي المعتاد ــ الثالث من الشمال في الجانب الغربي • والصحن ــ كالمسجد ــ ذو شكل شبه منحرف ومرصوف بكامله بالرخام (شكل ٥٠ ولوحة ٤٩) • يبلغ جانبه الشرقي ٦٧ر١٨ متراً ، والجانب الغربي ٦٦ر٩٨ متراً ، وعرضه المجاور للحرم ٥٢ر٤٦ متراً • ولكن عرضه في جانب المئذنة ٥٠ر٢٣ متراً فقط •

ويشير سلادين إلى ان الواجهة الشمالية بكاملها أعيد بناؤها مؤخراً

في أوقات مختلفة (لوحة ٥٠ آ) والواجهات المطلة على الصحن ، لها نفس الارتفاع تقريباً ، باستثناء الواجهة الجنوبية الأكثر ارتفاعاً إذ تبلغ ٨ر٨٠ متراً حتى قمة حاجز السقف . وترتكز الأقواس في الجانب الشمالي على أعمدة ، بينما ترتكز الأقواس الأخرى على دعائم . متشابهة ، مؤلفة من عضائد مستطيلة ،وعمودين حرين مرتبطين بسطحها الامامي . والاعمدة تعلوها وسادة من عدة مداميك حجرية صغيرة ، تتوج كلا العمودين . وعندما نتمعّن في فحص الأروقة نجد فروقات أخرى بينها . فالأقواس الداخلية للبهو الجنوبي ، على سبيل المثال من النوع المدبب قليلاً ومن نوع حدوة الفرس تقريباً ، وهي مختلفة الشكل أيضاً عن أقواس الواجهة والحرم نفسه التي تعتبر امتداداً له ، باستثناء الأقواس التي تضاعفت في الرواق المركزي . والرواق الشرقي يختلف داخلياً عن الرواق الغربي ، لأن في الأول يوجد صف من الأعمدة المزدوجة . يمتد في الوسط ، بينما يوجد في الثاني صف من الاعمدة المنفردة ، تقطعه صفوف تبدأ من عمود قائم خلف كل عضادة من الواجهة . وترجع إلى الجدار الخارجي حيث توجد عضادة جدارية ضيقة ، ذات عمود نصف ظاهر لاستقبالها .

رأينا أن ابراهيم الثاني بن أحمد وسّع أروقة الحرم نحو الشمال وبذلك لا يمكن أن تكون الأعمدة الداخلية (المتعامدة) للرواق الجنوبي أقدم من حكمه (٨٧٥ ــ ٩٠٢ م) . وهذا يناسب جداً شكل الأقواس لأن شكلها المدبب قليلاً والحذوي قليلاً أيضاً هو الشكل الذي نجده في الأقواس الحاملة للقبة أمام المحراب والتي ــ كما سنرى ــ لابد أن يكون تاريخها عام ٢٤٨ هـ (٨٦٢ ــ ٨٦٣ م) وأقواس الصفوف الداخلية في الرواق المركزي ، التي يجب أن تكون من نفس التاريخ ، وأقواس جامع تليتابيبان ، التي يعود تاريخها إلى عام ٢٥٢ هـ (٨٦٦ م) .

ولكن ماعساناً نقرر بشأن الصف العرضاني ، المجاور للصحن ، ليس هنا فقط بل في الأروقة الأربعة كلها . كل قوس محاط بقالب زخرفي ضيق ، ، يشكل عقدة في القمة ، ويمتد يميناً ويساراً ، ويشكل إطاراً كما رأينا في بعض مداخل الجانب الشرقي . المعالجة المذكورة أعلاه ، لايمكن أن تعود الى القرن التاسع . الذي بناه أبو حفص في عام ٦٩٣ هـ (١٢٩٤م) وحتى في مسجد تونس الكبير فان أقواس الجانب الشرقي من الصحن الذي يعود لعام ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ ــ ١٢٥١ م) تفتقر الى هذه السمة .

لذلك يبدو أن هذه الأقــواس المحيطة بالصحــن . هي جزء من الترميم الذي قام به أبو حفص بعد دمار مدينة القيروان بأكثر من قرنين كنتيجة لنهب القبائل الهلالية لها عام ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ ــ ١٠٥٥ م) .

يتألف الرواق الجنوبي من ١٧ جناحا يشكلها ١٦ صفا في كل منها عمودان ، عدا الدعائم الجانبية للقبة ذات القوس الواحد . كل هــذه الصفوف تستند إلى صف داخلي عرضاني . يحتوي على ١٧ قوسا ، تقوم على أعمدة . كل هــذه الأقواس ذات قــوالب زخرفية خارجية تقطعها ، وتسترها جزئيا العمارة ، التي تملأ اسبندلات أقواس البهو . وهذا يرينا أن البهو بني فيما بعد ، أي أنه ليس سوى الجزء الــذي أضافه ابراهيم الثاني الذي « وسع أروقة الحرم » . أمام هذا لا بد أن الواجهة القديمة للحرم امتدت بدون انقطاع من أحد جانبي المسجد إلى الآخر . وهذا يثبت أنه لم تكن في الأصل أروقة جانبية ، كما في مسجد عبد الرحمن الأول في قرطبة ــ وفيما بعد ــ المسجد الكبير في تونس . عندما أعيد بناؤه في عام ٢٥٠ هـ (٨٦٤ م) . فأقواس هذا البهو ــ كما ذكرنا سابقا ــ هي من نوع حدوة الحصان المدبب ، وهذا ما يتوافق مع فترة ٢٦١ ــ ٢٨٩ هـ (٨٧٥ ــ ٩٠٢ م) .

الحرم :

انه قاعة حقيقية من الأعمدة (٥٠ ــ ب) ينقسم إلى ١٧ جناحا ، بواسطة ١٦ صفا من الأعمدة المتعامدة مع الجدار الخلفي دون أن تصل إليه ، لأن صفا عرضانيا يمتد على بعد ٦ أمتار منه . وعلى هذا الأخير تستند الصفوف الستة عشرة . كل من هذه الصفـوف يتألف من ٧ أقواس مترابطة بواسطة صفين عرضانيين ، يمتدان خلالها بين القوسين الأول والثاني ، والقوسين الرابع والخامس من الواجهة الأصلية على الصحن . ولكن الصف الأخير لا يخترق الرواق المركزي . ويبلغ متوسط ارتفاع الأعمدة ٣٫٥٥ مترا . ويتراوح قطرها بين ٣٤ و ٤٤ سم . وتيجان هذه الأعمدة من أنواع مختلفة . بعض الأعمدة لها قواعد ، ولكن معظم الأعمدة ليس لها قواعد . وأعمدة الصف الذي يبطن الجناح المركزي يبلغ متوسط ارتفاعها ٤٫٢٣ مترا ، والأعمدة التي تحمـل القبة أكثر ارتفاعا ، إذ تتراوح بين ٤٫٦٨ و ٤٫٨٦ مترا . والأعمدة الأخيرة ، هي أجمل ما في الحرم بعضها من الرخام الملون الجميل ، وبعضها من الرخام الغرانيت ، أو الرخام السماقي .

وأقواس هذه الصفوف كلها بما في ذلك الصفوف العرضانية من نوع حدوة الفرس الدائري ، مع التواء طفيف باستثناء أقواس الصفوف الداخلية في الجناح المركزي ، والأقواس الحاملة للقبة من نوع حـدوة الفرس المدبب . إن صورة قديمة في مجموعتين مأخوذة قبل ٦٠ سـنة ترينا أن هذه الصفوف كانت مترابطة طوليا وعموديا ، بواسطة عوارض ربط خشبية استبدلت منذ ذلك الوقت بقضبان حديدية، ما عدا العوارض بين الصف العرضاني والجدار القبلي .

السقف الاصلي :

وأزيلت بعض العوارض المركبة لسقف الجناح العرضاني عام ١٩٣٥ م . وكانت تتألف من جذوع أشجار اسطوانية تقريبا مغطاة من ثلاث جهات بألواح من خشب السرو . وكانت على الوجه الخارجي لبعضها زخارف ملونة من القرن الحادي عشر ، ولكن ستة من الألواح كانت أقدم من غيرها ، وقد تم قلبها وَوُجِدت عليها زخارف ملونة أكثر قدما ، وربما تعود الى زيادة الله . وقام مارسيه بنشرها .

الجناح المركزي :

هذا الجناح أعرض من البقية . محاط بصفين متلاصقين . أقواس هذين الصفين المزدوجين يفصلها فراغ يبلغ عدة سنتمترات . ممتلىء بالاسمنت . لا يمكن أن يكونا قد بنيا معا . للأسباب التالية : أقواس الصف الخارجي في كل جانب من نفس نوع بقية الأقواس ، ولكن أقواس الصف الداخلي من النوع الحدوي المدبب والتواؤه أكثر قليلا من السابقة ، بالاضافة إلى ذلك ، فإن وسائد لصفين مستقلة . ومختلفة الحجم لأن وسائد الصف المبطن أعرض وأحيانا أعلى . فلو بني هذان الصفان معا فمن الصعب أن نصدق أن البنائين لن يربطوا زوج الأعمدة معا . بصورة أضمن بجعل كتلة حجرية واحدة تشكل وسادة واحدة لكل زوج أو على الأقل شيدوها من نفس النوع من المداميك الحجرية . كما فعلوا فوق زوج الأعمدة في الصف الخلفي . وبالاضافة إلى ذلك . لو بني هذا الزوج من الأعمدة معا فمن المستحيل أن نصدق أن البنائين لا يشيدون كل زوج من الأقواس كقوس واحد فوق قالب واحد ،بدلا من استعمال قالبين ذي خطين كوفيين مختلفين . وهكذا فإن المرء مجبر

على الاستنتاج ، بأن الصف الداخلي هو تبطين (تدعيم) أضيف في وقت لاحق، إلى جناح مركزي قائم سلفا وأعرض قليلا .

إذا كان هذا الاستنتاج صحيحا ، فما هي النتائج التي تترتب عليه؟ إحدى هذه النتائج الهامة جدا هي أن الأقواس التي تحمل القبة لايمكن بناؤها ، إلا بعد أن تضاعفت صفوف الجناح المركزي ، لأن العمودين اللذين تنبثق منهما الأقواس الشرقية والغربية ، التي تحمل القبة قائمان بشكل مركزي تماما . بالنسبة إلى هذين الصفين ، حتى يمكن أن يتحمل كل نصف من الصف المضاعف ضغط القوس الكبير . وما هو أكثر أهمية هو أن قوس القبة الأمامي ، لا بد وأنه أيضا شيد عند تبطين الجناح المركزي . والأقواس الثلاثة الحاملة للقبة والقوس الجداري أيضا ،هي من نفس النـوع المـدبب الذي نجده في الأقـواس الداخلية للجناح المركزي .

المحراب (والقبة) القائمة امامه :

تعود كلها إلى عـام ٢٤٨ هـ (٨٦٢ — ٨٦٣ م) . وسـنأتي على وصفها وبحثها فيما بعد .

النتائج :

كان المسجد — كما أعاد بناءه زيادة الله في عام ٢٢١هـ (٨٣٦ م)— من نفس حجم وشكل البناء الحالي ، كانت الأبواب محاطة — ليس بعدد من العضائد من مختلف الأحجام والأشكال كالبناء الحالي — بل بنظام منتظم . في الجانب القبلي تناوبت دعامتان أو ثلاثة . مساحتها حوالي متر مربع واحد مع عضادة كبيرة ، وكانت هناك عضادة ضخمة في كـل ركن . وكانت كل هذه الدعائم مسطحة القمة . وكان الجانب الشرقي

والغربي من المسجد على ما يبدو محاطين بدعائم من النوع الصغيرفقط، كما عولج الجدار الشمالي على الأرجح بنفس الطريقة . كان الحرم مؤلفا من ١٦ صفا من الأقواس ، في كـل منها ٧ أقواس ترتكـز على أعمدة رخامية وتمتد عمـوديا على الجـدار الخلفي ولكنها تنتهي ـ قبل أن تصله ـ مقابل صف عرضاني عليها . وهكذا تشكل ١٧ جناحا ، ولكن الجناح المركزي لم يكن محاطا ـ كما هو الآن ـ بزوج من الأقواس المضاعفة بل بأقواس منفردة فقط . ولذلك كان أعرض بمقدار ٢ر١مترا من الجناح الحالي . وتشكلت واجهة الحرم بواسطة الصف العرضاني ، الذي يمتد الآن من أحد جانبي المسجد إلى الجانب الآخر ، وراء البهو الجنوبي . وكما كانت الحال في مسجد عبد الرحمن الأول في قرطبة ، لم تكن هناك أروقة تحيط بالصحن .

وباستثناء القالب الزخرفي على الأقواس ، التي شكلت واجهـة الحرم ، وعوارض السقف المغطاة بالرسوم فإن كل المسجد من الـداخل والخارج ، بما في ذلك المداخل التي يبدو أنها كانت في غاية البساطة .

* * *

الفصل الرابع عشر

سامراء ـ ١

مقدمة تاريخية

عين هارون الرشيد ـ وهو لا يزال على قيد الحياة ـ الأمين وليا للعهد وهو ابن زبيدة حفيدة المنصور . كان على حساب المأمون الذي كان ابنا لامة فارسية وكان أكبر من الأمين بعدة أشهر . مات هارون الرشيد عام ٨٠٩ وفي عام ٨١٣ استولى المأمون على بغداد . وقتل أخاه الأمين بعد أن أصابت المدينة الدائرية أضرار فادحة .

قام المأمون بحملات ضد الامبراطورية البيزنطية ، ولهذا الغرض جلب عدة آلاف من الأتراك سنويا من آسيا الوسطى . يقول اليعقوبي: « اعلمني جعفر الخشكبي قال كان المعتصم يوجه بي في أيام المأمون الى سمرقند الى نوح بن أسد في شراء الاتراك فكنت اقدم عليه في كل سنة منهم بجماعة فاجتمع له في أيام المأمون منهم زهاء ثلاثة آلاف غلام فلما أفضت اليه الخلافة ألح في طلبهم واشترى من كان ببغداد من رقيق الناس كان ممن اشترى ببغداد جماعة جملة . وكان أولئك الاتراك العجم اذا ركبوا الدواب ركضوا فيصدمون الناس يمينا وشمالا »[١] .

---

(١) اليعقوبي : البلدان ط ليدن ١٨٩١ ص ٢٥٥/٢٥٦ .

هذه المتاعب التي سببتها القوات التركية، جعلت المسلمين يغادرون بغداد ، ويؤسسون عاصمة جديدة على نهر دجلة شمال بغداد - واختير موقع سامراء في عام ٢٢١ هـ .

وكما كانت الحال في بغداد ، فإن أول مهمة هي الكتابة « من أجل العمال البنائين ، والصناع المهرة مثل الحدادين والنجارين وغيرهم ، وخشب الساج والأنواع الأخرى وجذوع النخل من البصرة ... وعمال الرخام ، والعمال الخبراء في رصف الرخام . كما أقيمت ورشات تصنيع الرخام في اللاذقية ، وأمكنة أخرى .

ولم يكتف المأمون بجمع الصناع من كل أنحاء الامبراطورية ، بل جلب المواد أيضا على الأقل من مصر لأن سفيروس بن المقفع يقول : أنه أرسل رجالاً الى مصر وأمرهم بأخذ الأعمدة والرخام من الكنائس في كل مكان ، وبعد نهب كنائس الاسكندرية ، ذهبوا إلى كنيسة سانت ميناس في مريوط إلى الغرب من القاهرة ، وبدأوا العمل على تجريد الكنيسة من رخامها الملون ، وأرضيتها الفريدة متنوعة الألوان والتي لم يكن لها مثيل . لم يكن هذا كل شيء . فالمعتصم فتح عمورية في عام ٨٣٨ ونقل بوابتها إلى سامراء .

جوسق الخاقاني او قصر المامون :

جرى تحري آثار هذا البناء الهائل على يدي فيوليت في عام ١٩٠٧م قام فقط بعدة تنقيبات تجريبية ، ولكن بعد ذلك بوقت قصير جرت تنقيبات واسعة ، بواسطة البعثة الألمانية برئاسة زارة وهرتزفلد .

كان هنالك حوض كبير مساحته ١٢٧ م٢ في الأراضي المنخفضة

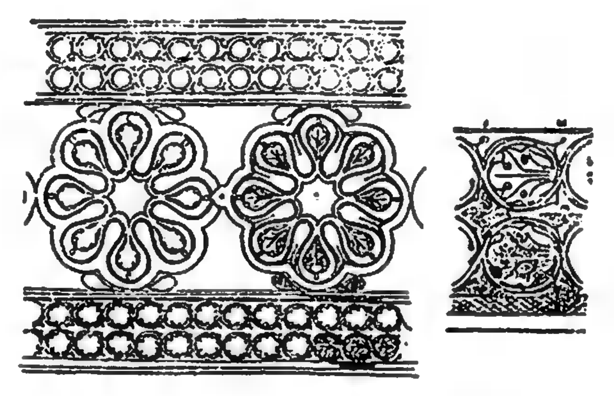
القريبة من النهر . ومن هذه الأرضية يرتفع درج كبير (أو انحدار) عرضه ٦٠ مترا يؤدي الى الأرضية الأعلى أمام باب العامة .

باب العامة :

إنها أفضل جزء قائم حتى الآن . وهي تتألف من واجهة عظيمة ثلاثية الأقواس . ارتفاعها ١٢ مترا تقريبا تتكون بواسطة ثلاث غرف متوازية ذات عقود اسطوانية ، تطل على دجلة (لوحة ٥١) . والغرفة الوسطى تشكل ليوانا عظيما عرضه ٧٫٨٦ مترا ، وعمقه ١٧٫٥ مترا ، وارتفاعه ١١٫١ مترا ينفتح بكامل عرضه على ضفة دجلة ، ما عدا الجزء الذي تستره العضادتان اللتان تحملان القوس الأمامي . هذا القوس له نفس شكل بوابة بغداد في الرقة . ويوجد في الجزء الخلفي من الليوان مدخل ، عرضه ٤ مترا ، وارتفاعه ٧٫١ مترا وفوقه نافذة . والليوانان الجانبيان عمقهما ١١٫٤ مترا فقط والجزء الواقع خلف القوس الأمامي مغطى بنصف قبة قائمة على عقود الزوايا . إنهما يتألفان من نصف اسطوانة منخفضة ، تعلوها نصف قبة ، الأولى مبنية من الآجر في مداميك أفقية، ولكن نصف القبة مبنية من الحجر ، نظرا لصعوبة بناء مثل هذا السطح المنحني بآجر مربع مسطح . وكل من هذين الليوانين الجانبيين . يشكل مدخلا تذكاريا إلى غرفة خلفه ذات عقد اسطواني . لها نفس العرض . إن الغرفتين ليستا على اتصال بالليوان الكبير . ولا يمكن الدخول إليهما الا من الأمام . ويستنتج هرتزفلد أن النية كانت نحو استعمالهما للحرس أثناء الاستقبالات الرسمية في الليوان الكبير .

كان داخل الليوانات مزينا بالزخارف الجصية ، التي لا يزال جزء

منها في موضعه ، وبعضها وجده فيوليت وبعده هرتزفلد بين الأنقاض . وكان الجانب الداخلي من القوس الأمامي لليوان مزينا بشريط مركزي عريض ، وشـريطين ضيقين مجاوريـن بعرض ٣٢٫٥ سم . والشريطان الضيقان يتألفان من سيقان الكرمة الصاعدة التي تشـكل صفا مضاعفا من العقد ، تحتوي كل واحدة منها ورقة عنب ذات فصوص ، تفصلهـا ثقوب ـ كالعيون ـ محاطة بأخاديـد متحدة المراكز . عرض الشريط المركزي ـ ٩٥ سم ـ كان مملـوءا بوردات بثمانيـة فصوص وعلى ما يبدو متشابكة في نقاط تماسها (شكل ٥١) .



(شكل ـ ٥١) سامراء ـ باب العامة

وكان يوجد في داخل الليوان كعب (وزرة) ، أعاد تصميمه هرتز فلد ببراعة خارقة كمـا نرى (في الشكل ٥٢) مـن قطع جصية وجد فيوليت جزءاً منها . إنه ـ كما يشير هرتز فلد ـ ذو صلة وثيقة بواجهة المشتى الشهيرة ، ولكنني أعتقد أن القطع التي شكلت منهـا المربعات ، تخص في الحقيقة وجه القوس . وفي هذه الحالة يجب تعديـل التصميم حتى تأتي وردة سداسية الفصوص . داخل كل مثلث . وهـذا يجعل التشابه مع المشتى أكثر صلة .

وكانت قمة الجدار مباشرة تحت انبثاق العقد مزخرفة بإفريز جميل من النقوش البارزة ، المؤلفة من تناوب عنصر زخرفي كبير وآخر صغير ، والعنصر الكبير هو كأس محززة مملوءة بزهرة ثلاثية التويجات قريبة الشبه بزهرة الزنبق .

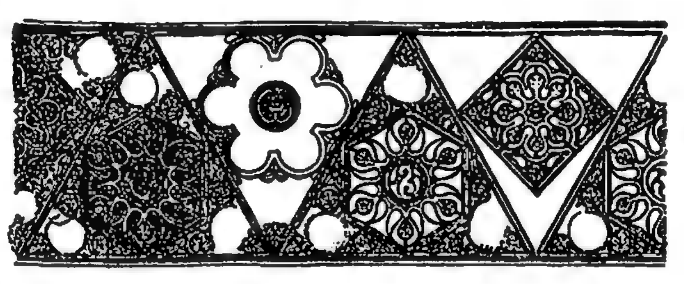
والمدخل في مؤخرة الليوان ينفتح على ٦ قاعات ، ذات عقود متصالبة يجب اعتبارها كسلسلة من غرف الانتظار .... وبعدها يأتي صحن مربع ، فيه نافورة محاطة بالتناظر في كل جانب بثلاث غرف يجري فيها تصنيف الزوار . وباتجاه الشمال يصل المرء إلى غرف الخليفة التي تتمركز حول ٣ صحون . وفي الجنوب يوجد جناح الحريم الموسّع بملحق جنوبي كثير التقسيمات ، أما الحمام فيطل مباشرة على الصحن . وبالتقدم مباشرة يجتاز المرء قاعة انتظار أخرى ليصل إلى بهو الشرف الكبير ، التي كان جدارها الشمالي والجنوبي بسيطين ، بينما يظهر على الجانب الشرقي واجهة قاعة العرش ذات المداخل الثلاثة .

قاعة العرش :

كانت تتألف من قاعة مركزية مربعة وهناك تأكيد بأنها كانت مغطاة بقبة تتفرع عنها أربع قاعات ، كل منها مبنية كبازيليكا ثلاثية الأجنحة ، وبذلك تشبه قاعة العرش في المشتى متكررة ٤ مرات . ويشير هرتز فلد إلى سبب بناء هذه القاعات على شكل بازيليكات ، هو الحاجة للحصول على النور بواسطة المناور وقد وجدت قطع من افريز رخامي جميل في القاعة الرئيسية المربعة . وبين ذراعي الصليب وجدت قاعات أصغر ذات وزرة من الألواح الرخامية ومسجد الخليفة فيه محراب ووزرة جصية (لوحة ٥٢ آ) .

جناح الحريم :

يمتد محور مركزي متصالب عبر الغرفة الرئيسية ، والغرف ذات شكل T في الشمال والجنوب . لم يكتشف بعد الا الامتداد الجنوبي . وأمام القاعة الجنوبية « توجد قاعة عريضة بعرض صحن الحريم بأكمله . وجناح الصحن الغربي والشرقي توجد فيه غرف جلوس صغيرة متعددة التعديلات ، وكلها مزودة بالماء بواسطة أنابيب رصاصية جزئياً وأنابيب فخارية صقيلة وأنابيب فخارية عادية كما توجد غرف الغسيل والمراحيض . ومقابل قاعة العرش على الجانب الجنوبي من الصحن ، على كامل العرض توجد غرفة مربعة غربية وهناك أولا ممر طوله ٢١م على الجوانب الاربعة



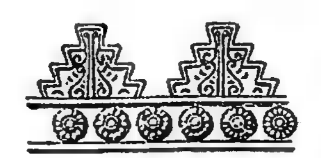
(شكل ـ ٥٢) سامرا ـ باب العامة

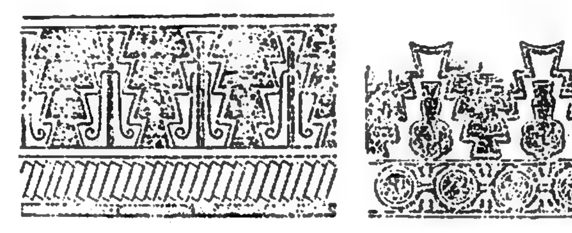
ثم غرفة مربعة ذات أربعة مداخل عريضة في المحاور ، وفيها ٤ أعمدة رخامية في زوايا الحوض . والغرفة كانت مزينة برسوم الأشخاص .

الملعب الكبير :

أمام القاعة البازيليكية لمجموعة قاعة العرش ، توجد قاعة كبيرة أخرى عرضها ٣٨ متراً وعمقها ٤ر١٠ متراً تؤدي إلى الملعب الكبير عبر ٥ أبواب . انه ساحة كبيرة طولها ٣٥٠ متراً وعرضها ١٨٠ متراً ، وهو

مقسم بقناة الى جــزء غربي مرصوف ، فيه نافورتان وجزء شرقي غــير مرصوف ، تتخلله الأقنية الصغيرة . وجداره المجزأ . تعلوه الزخارف التي نراها (في الشكل ٥٣) .





(شكل ــ ٥٣) سامرا ــ قمة الملعب الكبير « الاسفل الى اليمين »

السرداب الصغير :

إذا مشى المــرء نحو الشرق من الملعب الكبير ، فإنــه يصل الى السرداب الصغير في المحور الأصلي للقصر . ويشكل المدخل غرفة مربعة على جدرانها افريز مــن الجمال الراحلة ، ذات الســنامين ، مرسومة بالقيشاني،فيها نافورة دائرية،ودرجات مدخل السرداب في الجانب الغربي طول ضلعه ٢١ متراً وعمقه ٨ أمتار . وفي كل جدار من جدران الحفرة الغربي من البناء العلوي . والسرداب بنفسه كهف محفور في الصخور . ٣ مغارات متصلة ببعضها بواسطة ممرات وعلى أرض الكهف حوض ماء وهناك بهو ملحق بالجانب الشرقي من المسجد . محيط بالبناء . ويفصل مجمّع السرداب بهوين متشابهين ، كما أن هناك سرادق ذي قاعة على شــكل T على جانبيه الشمالي والجنوبي . كان السرداب محاطاً تماماً

بصفوف متوازية من الغرف ، من المفترض أنها اصطبلات .

ملعب البولو :

يوجد في وسط الفناء الشرقي شرفة ، يطل منها المرء على باحـة عريضة عرضانية ، طولها أكثر من ١٨٠ متراً ، وعرضها حوالي ٦٥ متراً.. ولا بد من الاعتراف بأن هذه الباحة هي ملعب البولو . والاصطبلات هي لخيول البولو والشرفة للمتفرجين ، وبهذا نصل الى الطرف الشرقي من القصر الذي يلامس منطقة الصيد . ويعلو سرادق كبير مقابل الشرفة على المحور الرئيسي للقصر ، يطل على كل من ملعب البولو وحلبة سبق منطقة الصيد ، التي يبلغ طولها حوالي ٥ كم ، وتختفي في البعد . ويقع المحور المركزي من السرادق في القصر على نهر دجلة وعبر حوض الدرج التذكاري ، وباب العامة ونواة القصر والملعب الكبير والسرداب الصغير الى السرادق على حلبة السباق يبلغ ١٤٠٠ متراً .

السرداب الكبير :

إنه مربع منفصل ومحاط بجدار ، طول ضلعه ١٨٠ مترا ، ويلامس الركن الشمالي الشرقي لنواة القصر، بينما يمتد جانبه الجنوبي على الجدار الشمالي للملعب الكبير . يتألف من كهف مربع عميق ، طول ضلعه ٨٠ متراً ، محفور في الصخر وذو امتدادات متصالبة على محورية تبلغ ١١٥ متراً . وتوجد في أرضية هذه الحفرة حفرة دائرية أخرى ، يبلغ قطرها ٧٠ متراً . ولابد أن هذه الحفرة الأخيرة كانت حوضاً ، لأن قناة عميقة تحت الارض تؤدي اليها . وتقوم على المستوى العلوي غرف كثيرة ، غير منتظمة حول الجانب الداخلي للجـدران . عدد من هـذه الغرف مسقوف بعقود متصالبة ... والى الشرق توجد مجموعات مختلفة من

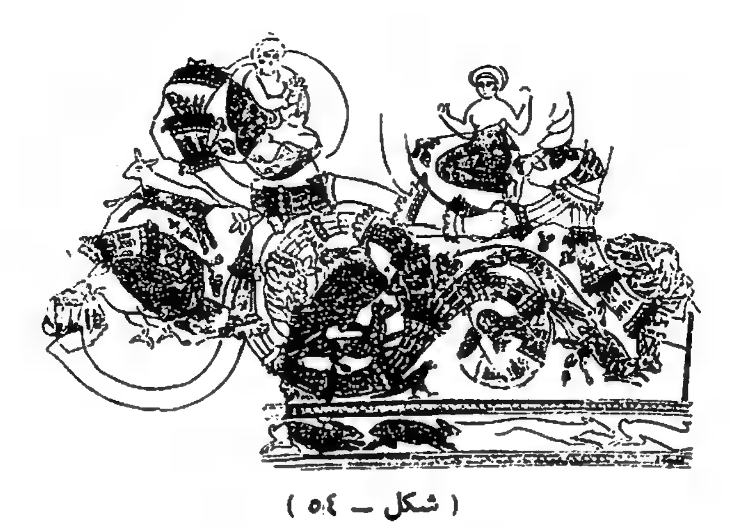
الابنية . قائمة على امتداد الجدار الشمالي ترتفع كل منها فوق الأخرى بينما تتخذ قاعة الاستقبال التي شكل T لها قبة بدلاً من الجناح المتصالب .

ويصل هرتز فلد الى النتيجة التالية : « إن روعة زخارف القصر متوافقة مع بنيته ، التي ما وجد مثلها في أي مكان آخر . فوزرات الجدران في كل مكان مزينة بالزخارف الجصية .

في غرف العرش استبدلت النعال الجصية بنعال رخامية مشابهة محفورة . وتوجد في الغرف التي تقع بين جناحي الصليب كسوة من الالواح الرخامية فوق النعل . والجزء العلوي من جدران جناح الحريم مزخرف برسومات الفريسكو للاحياء والتي اكتشفت منها بقايا هامة .. وكل الأعمال الخشبية والابواب والعوارض والسقوف من خشب الساج المحفور والمزين بالصور . أو المذهب جزئياً والمصور جزئياً . وقد زاد في تأثير هذه الزخارف المسامير المتقنة الصنع من البرونز المذهب . وبين المكتشفات الكتابية يجب أن نذكر بقايا الكتابات على عوارض الساج . وتواقيع الكثير من الصناع المهرة باليونانية والسريانية والعربية .

الرسوم الجدارية :

لا بد أن لفائف الأقانتوس المؤلفة من الكؤوس الموضوعة داخل بعضها ، ستذكرنا فوراً ببعض لفائف الأقانثوس في قبة الصخرة . باستثناء ان الكؤوس هنا تعالج كقرون الخصب في نفس البناء ، حتى على شريط النقاط البيضاء المتصالب . وهذا بكل وضوح نسخ لأقراص عرق اللؤلؤ (شكل ٥٤)



(شكل ـ ٥٤)

سامرا ـ الرسم الذي يزين القاعة المقببة من جناح الحريم

★ ★ ★

الفصل الخامس عشر

سوسه

مسجد بو فطاطة

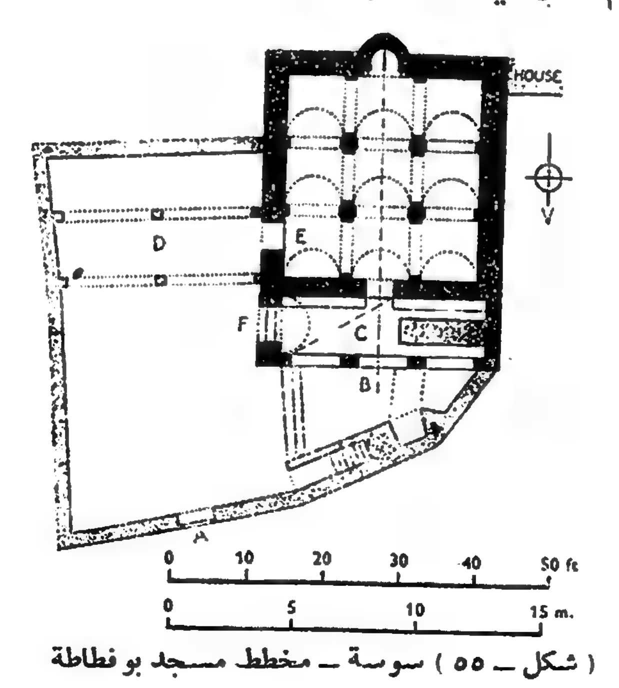
لو دخل المرء بوابة سوسة الجنوبية (على خليج قابس) ، وتقدم نحو الشمال ، لوصل بسرعة الى هذا المسجد الذي لايعرفه إلا القليل (شكل ٥٥) . لدى دخول الباب A في جدار حديث يرى المرء مباشرة الواجهة الشمالية B المتوجه بنقش كــوفي ، باسم أغلب بن ابراهيم الذي حكم من عام ٢٢٣ هـ الى عام ٢٢٦ هـ (٨٣٨ ـ ٨٤١ م) . وهناك ثلاث عضائــد قصيرة وغليظة بارتفاع ٩٠ سم ، بما في ذلــك قوالبها الزخرفية المفلطحــة ، وهي تحمل ثلاثة أقواس حدوية يبلغ انبثاقها ½ نصف القطر تحت مركزها . وعلى ارتفاع ٣٫٣٤ متراً تبرز الواجهــة حوالي ١٠ سم . ويبلغ الارتفاع الاجمالي للواجهة ٤٫٧ متراً فقط . وفي قمتها يمتد شريط من الكتابة الكوفية داخل إطار عرضه ٤٨ سم ، وعلى جانبيه قالب زخرفي مفلطح بعرض ١٨ سم .

الداخل :

تنفتح الأقواس على رواق مقنطر بالعقود الاسطوانية C ، عرضه ٢٫٢٤ متراً ، يمتلىء نصفه الأيمن بكتلة حجرية ، الغرض منها تدعيم العقد لدى بناء المئذنة الحديثة نسبياً . والمدخل بساكفه وقوسه الدائري

الحامل في مؤخرة هذا الرواق ، يؤدي الى الحرم الذي يبلغ عرضه ٧٫٧١ متراً ، وعمقه ٧٫٨٦ متراً . إنه يتألف من ٣ أروقة يشكلها صفان من الأقواس الممتدة من الشمال الى الجنوب . وكل منها مقسوم الى ٣ أقسام (بوائك) بواسطة صفين من الأقواس الممتدة من الشرق الى الغرب . هذه الأقواس تبرز من ٨ عضائد جدارية و ٤ عضائد بشكل صليب منخفضة قائمة في نقاط التقاطع . والأقواس الجانبية ذات التواء بسيط بينما الأقواس المتصالبة، هي نصف دوائر مرفوعة. ويبلغ ارتفاع الاولى ٣٫١٥ متراً بينما يبلغ ارتفاع الثانية ٣٫٦٥ متراً . وتقوم الاقواس العرضانية بدور الدعائم للعقود الاسطوانية . ويبلغ ارتفاع مداميك البناء ٥٠ سم .

ونظام العقود في هذا المسجد هو المثال الثالث من نوعه في الاسلام



(شكل ــ ٥٥) سوسة ــ مخطط مسجد بو فطاطة

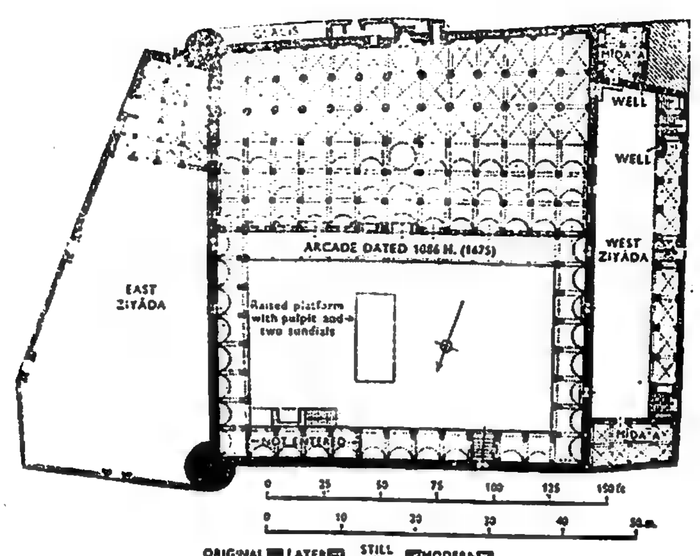
إذ أن الأول في بئر الرملة (١٧٢ هـ/٧٨٩ م) والثاني في المسجد الواقع في الطابق العلوي من رباط سوسة (٢٠٦ هـ ٨٢١ ــ ٨٢٢ م) . وسنرى أنه استخدم ثانية ــ بعد حوالي ١٠ سنوات ــ في الآبدة التاليــة التي سندرسها .

هذا المسجد هام أيضاً (١) لأنه ثاني أقدم مسجد في شمال أفريقية (٢) لأنه الآبدة الثانية (بعد قبة الصخرة) ذات النقش الكتابي ، الذي يشكل وحدة مع العمارة والزخرفــة . (٣) لأنه المثال الوحيد علــى المساجد الذي يوجد فيه ما يمكن أن نسميه رواق المقدمــة ، باستثناء مسجد الصالح الطلائع في القاهرة المبني عام ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) .

مسجد سوسة الكبير :

يحتل مسجد سوسة الكبير (لوحة ٥٤) جزيرة قرب باب البحر في الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة . إنه يتخذ شكلاً مضلعاً يبلــغ حوالي ٦٠ × ٩٠ مترا . لدى التفحص الدقيق نجد أن المسجد نفســه يتألف من مستطيل منتظم يبلغ ٤٩٫٣٩ × ٥٧٫١٦ متراً من الداخــل ، بالاضافة الى ملحقات على يمينه ويساره (شكل ٥٦) .

ينفتح البابان المستعملان يومياً على الملحق الغربي . الذي يتألف من بهو عرضه حوالي ثمانية أمتار ، وطوله أكثر من ٤٣ مترا ، ونهبط اليه بحوالي متر واحد وتوجد في الجانب الشرقي ثلاثة أبواب . لها أساكف وأقواس حدوية حاملة ، تؤدي الى رواق المسجد الغربي . يبلغ الصحن تقريباً ٣٢٫٢٥ × ٤١ متراً ، وهو محاط على جوانبه الثلاثــة بأقواس حدوية قليلاً ، ترتكز على عضائد قصــيرة وثخينة على شــكل T وتوجد ستة أقواس من الشرق الى الغرب واحدى عشر من الشمال الى



(شكل ـ ٥٦) سوسة ـ مخطط المسجد الكبير

الجنوب . لكن الاقواس في الجانب الجنوبي مدببة وترتكز على أعمدة ، أما البقية فهي تشبه أقواس مسجد بو فطاطة .

يبلغ ارتفاع الواجهة في الطرف الشمالي والجنوبي من الجانب الغربي ٦٫٤٨ متراً ، و ٦٫٦ متراً بالترتيب . وكما رأينا في مسجد بو فطاطة ، فهي متوجة بإفريز كتابي بالخط الكوفي البسيط . وأقصى ارتفاع للحروف ٢٨ سم أما الشريط المنقوش عليه عرضه ٦٨ سم . وينحني الى الامام حتى ١٠ سم ، ليعوض عن تقصير الحروف وبالتالي ليساعد المشاهد عند مستوى الارضية . وهذا أول مثال أعرفه لهذا الاسلوب . لقد استقدمه الفاطميون الى مصر . حيث يظهر للمرة الاولى في الأفاريز الجصية تحت قبة مسجد الحاكم (٣٨٠ ـ ٤٠٣ هـ / ٩٩٠ ـ ١٠١٣ م) . هذه الكتابة تمتد حول الصحن كله . عدا الجانب الجنوبي

حيث رأينا أن الاقواس ترتكز على أعمدة . ولكن الفحص الدقيق يرينا أن الكتابة تمتد عبر الجدار الخلفي للبهو ، الذي يشكله هذا الصف من الاقواس . وعبر طرفيه . أي أن هذا الصف من الأعمدة قد اضيف فيما بعد (ومؤرخ لعام ١٠٨٦ هـ / ١٦٧٥م) ولا بد أن افريز الكتابةالكوفية كان ظاهراً بامتداده المستمر قبل هذه الاضافة . في ذلك الوقت لا بد وأن الصحن كان محاطا في الشرق والغرب بسبعة أقواس ، بدلا من ستة . ويبلغ أكثر من ٢٦ مترا من الشمال الى الجنوب .

وتختلف الأروقة الثلاثة في العمق من ٤٫٠٨ مترا الى ٤٫٢٧ مترا ، ويمتد قوس بن كل عضادة على شكل T الى الجدار الخلفي ، حيث يوجد عمود لاستقباله . وهذه الأقواس تقوم بدور الدعائم للعقود الاسطوانية التي تغطي كل قسم (معزبة) .

الحرم :

يتألف الحرم من ١٣ رواقا ، يشكلها ١٢ صفا من الأقواس في كل منها ستة أقواس ، تمتد من الشمال إلى الجنوب ، وكل منها مقسوم الى ستة أقسام (معازب) بواسطة صفوف أخرى من الأقواس الممتدة من الشرق إلى الغرب . كل هذه الأقواس تبرز من عضائد بشكل صليب منخفضة وقائمة في نقاط التقاطع ، وهي من النوع الحدوي باستثناء الأقواس العرضانية التي تبرز على مستوى أعلى من البقية أي ٢٫٨٢ مترا ، بدلا من ١٫٣٥ مترا . ويبلغ ارتفاع المجموعة الأولى حوالي ٣٫٧ مترا ، بينما يبلغ ارتفاع المجموعة الأخيرة ٤٫٨ مترا في الأقسام الثلاثة الأولى المتجهة إلى الجنوب ، ولكن نجد الاقواس الجانبية والعرضانية في الأقسام الثلاثة الأخيرة من نفس الارتفاع ولنقل حوالي

٥٫٩٣ مترا . والاقسام الثلاثة الاولى المتجهة جنوبا مغطاة بعقود اسطوانية ، تنبثق من الأعمدة الجانبية المنخفضة، مدعمة بأقواس عرضانية أعلى منها مثلما رأينا في مسجد بوفطاطة ، والمسجد الموجود في الجزء العلوي من رباط سوسه القريب . وبئر الرملة الأقدم منهما(لوحة ٤٣).

والاستثناء الوحيد هو القسم الثالث في الرواق المركزي ، الذي يعالج بشكل مختلف : فالجدار فوق الأقواس الجانبية المنخفضة . يرتفع حوالي ٥٥ سم ، لينتهي بطنف بسيط يشكل الطرف السفلي من البانوه ذي القوس المدبب المزين بالمربعات ـ مثل الرقاقات ـ الموضوعة داخل معينات مزينة بعناصر زخرفية بدائية ـ وردات داخل إطارات مثمنة الرؤوس تشكلها خطوط مربعات متقاطعة وتصاميم نباتية، تذكرنا بصورة تقريبية بالأشكال الكلاسيكية . الخ وهو عبارة عن نسخة بدائية عن أنواع أقدم (لوحة ٥٣) . فوق هذا البانوه يوجد قالب زخرفي بسيط على ارتفاع ٦٫٥١ مترا ، يشكل الطرف السفلي للكتابة الكوفية البسيطة ، التي تمتد عبر الجوانب الأربعة . وفوق الكتابة مباشرة توجد ٨ كتيفات في كل جانب ، اثنتان يوجد فوقها على ارتفاع ٧٫٢٣ مترا السقف الخشبي الذي يعود إلى القرن السابع عشر ، وفوق هذا السقف الخشبي توجد قبة كما نرى في اللوحة ٥٤ .

وبالقياس مع مسجد القيروان الكبير لوحة (٦٣) . يمكن أن نكون متأكدين أن ثمانية أعمدة صغيرة تحمل ٤ أقواس اسقنشية[1] ترتكز على هذه الكتيفات .

---

(١) اسقنشق : هو الحامل الواصل ما بين زاوية مربع الشكل الحامل للقبة فما بينهما من تقوير من جهة القبة وضلعين من جهة المربع يسمى اسقنشق .

والأقسام الثلاثة التالية باتجاه الجنوب مغطاة بعقود متصالبة على مستوى أعلى قليلا من مستوى العقود الاسطوانية . وهنا أيضا نجد القسم الثالث من الرواق المركزي ، أي القسم الواقع أمام المحراب مغطى بقبة أيضا بقي داخلها حتى وقت قريب مستورا بسقف خشبي .

من الواضح أن المسجد توسع باتجاه الجنوب . وأن الأقسام (المعازب) الثلاثة الأولى هي الجزء الأصلي ، والقبة الاولى تحدد القسم الواقع أمام المحراب وأن الجدار الخلفي القديم ، قد اخترق كما في قرطبة . وأن الحرم قد توسع مقدار ثلاثة أقسام باتجاه الجنوب .وبالتالي لا بد من وجود انقطاع في بناء الجدران الجانبية عند اتصال القسمين الثالث والرابع باتجاه الجنوب ، ونظرا لوجود الكسوة الجصية والطلاء الكلسي ، فمن المستحيل تمييز أي شيء .

ويوجد باب على يمين المحراب . وعندما طلبت فتحة رأيت ـ ويا لدهشتي ـ غرفة صغيرة عرضها ١٣ر١ مترا ، وعمقها ٩ر٢ مترا ، فيها منبر له دواليب ، وهو خفيف بامكان شخص واحد أن يجره . ورغم أن المنبر ليس قديما جدا فانه ذكرني مباشرة « بكرسي الملك المنصور » في قرطبة ، الذي يذكره أمبر وزيو دي موراليز في عام ١٥٧٥ م والمنبر القديم جدا ذي الدواليب في مسجد تونس الكبير ، ومنبر آخر تاريخه ٤٩٠ هـ (١٠٨٢ م) في مسجد الجزائر الكبير . من الواضح أن لدينا هنا خصوصية مغربية . أيمكن أن تكون فكرة العرش القديم بقيت في الاسلام الغربي المحافظ لمدة أطول من أي مكان آخر ، ولأن المحراب اعتبر رمز الملكية والسلطة فقد اعتبر من المستحسن الحفاظ عليه في غرف مغلقة الى أن تدعو الحاجة للاستعمال الرسمي .

البرج أو المعقل :

في الركن الشمالي الشرقي من المسجد نفسه يوجد برج دائري ، يشكل بروزا في الواجهتين الشمالية والشرقية (اللوحة ٥٤ إلى اليسار). وأنشيء فوق هذا البرج سرداق مثمن مقبب ، لا بد وأنه من فترة لاحقة ويصعد إليه بدرجتين من سطح الرواقين الشمالي والشرقي ، وتحت هذا السرادق توجد غرفة في قمة البرج نفسه يمكن دخولها من السطح نفسه. وقبل اضافة الجزء العلوي لا بد وأن قمة البرج كانت مسطحة مفتوحة للاذان .

وهناك برج مشابه في الركن الجنوبي الشرقي للجزء الذي أضيف إلى الحرم ، لكنه غير مغطى بسرادق مقبب ، بل يبقى في حالة أعتقد أنها الحالة الأصلية للآخر .

شرفات المتاريس :

في قمة الجدار الشرقي قرب البرج ، يمكن أن نرى من الملحق الشرقي خطا كفافياً من الشرفات ذات القمم الدائرية ، مطمورة في بناء الدرج إلى السرادق المقبب .

التاريخ :

تنتهي الكتابة الكوفية التي تمتد حول جوانب الصحن الثلاثة ، وتستمر خلف الرواق المضاف في الجانب الجنوبي بالكلمات التالية : « ... الامير أبو العباس بن (الاغلب) ... » في عام ٢٣٦ هـ (٨٥٠ ـ ٨٥١ م) .

الخلاصة : شكل المسجد الكبير في سوسة مستطيلا يبلغ عرضه

٥٧ مترا وعمقه ٥٠ مترا . والصحن (عرضه ٤١ مترا ، وعمقه ٢٥ر٢٢ مترا تقريبا) أحيط بأحد عشر قوسا حذويا في الشمال والجنوب وثمانية في الشرق والغرب . قائمة على عضائد اسقنشية على شكل T ومتوجة فوقها بكتابة كوفيـــة ، امتدت حوله وانتهـــت بالتاريخ . وخلف هذه الاقواس في جوانب البهو الثلاثة،وجدت أروقة عمقها معزبة واحدة وكل معزبة مغطاة بعقد اسطوانية عمودية على الصحن . وفي الجانب الجنوبي من الصحن المؤلف من ١٢ صفا من الأقواس . في كل صف ٣ أقواس حذوية وممتدة من الشمال إلى الجنوب على شكل ١٣ رواقا . مغطاة بعقود اسطوانية مدعمة بصفين عرضانيين ـ العضائد على شكل صليب الشكل والرواق المركزي أعرض قليلا من بقية الأروقة . والقسم الواقع أمام المحراب كان مغطى بقبة قائمة على أقواس اسقنشية ، مدعمة بثمانية أعمدة صغيرة قائمة على كتيفات صغيرة .

كانت هناك ثلاثة مداخل في الجانب الغربي ومدخل واحد في الجانب الشرقي ، وربما مدخل واحد في الجانب الشمالي . أما الحصن الدائري القائم في الركن الشمالي الشرقي فقد استخدم كمئذنة .

* * *

الفصل السادس عشر

مسجد سامراء الكبير

توفي الخليفة المعتصم عام ٢٢٧ هـ (٨٤٢ م) ، وخلفه هارون الواثق ، مات الواثق عام ٢٣٢ هـ (٨٤٧ م) فخلفه المتوكل الذي بنى المسجد الكبير .

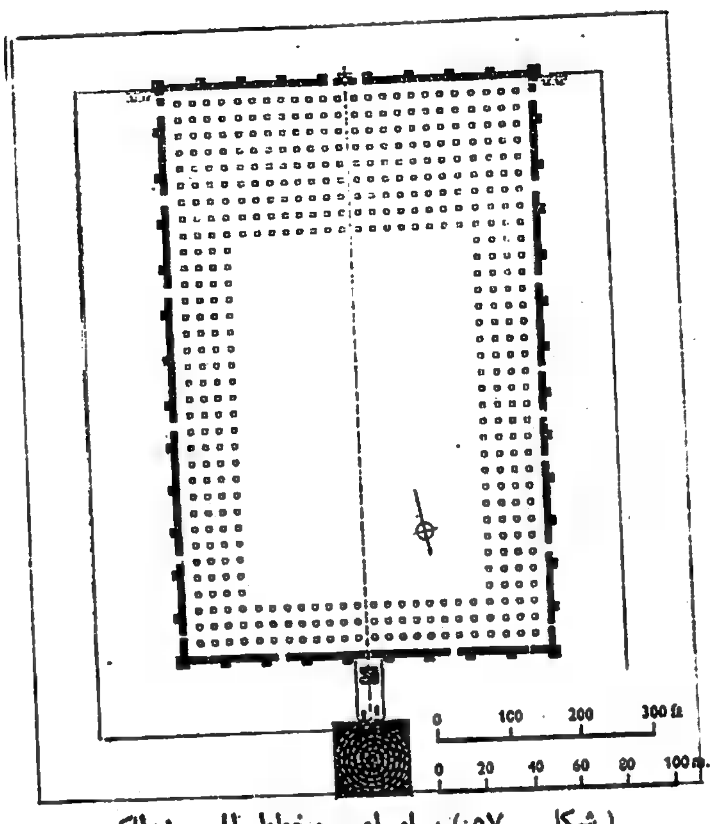
الجدران الخارجية :

يشكل المسجد الكبير (لوحة ٥٥) مستطيلا كبيرا ، له جدران محصنة من الآجر المشوي بطول ٢٤٠ وعرض ١٥٦ مترا من الداخل (أي أن النسبة هي ٣ إلى ٢) ولذلك فان مساحته ٣٨٫٠٠٠ م٢ تقريبا وبالتالي فانه أكبر مسجد في العالم . ويبلغ حجمه بدون الزيادات نصف حجم مسجد ابن طولون مع زياداته (٢٦٫٠٠٠ م٢) . ولم يبق منه إلى الجدران الخارجية شيئا لان السقف والدعائم التي كان يرتكز عليها قد اختفت . هذه الجدران التي يبلغ سمكها ٢٫٦٥ مترا ، مبنية من الآجر الاحمر الفاتح ، بمساحة ٢٥ – ٢٧ سم٢ ، وسماكة ٧ سم . والابراج المحصنة نصف دائرية تقريبا ، يبلغ قطرها حوالي ٣٫٦ مترا وسطيا ، كما يبلغ بروزها ٢٫١٥ مترا ، ويبلغ طول الجدران بين هذه الابراج ، ١٥ مترا وسطيا . هناك ؛ أبراج ركنية و١٢ برجا في الشرق والغرب و٨ أبراج من الشمال إلى الجنوب أي ما مجموعه ٤٤ برجا (شكل ٥٧)

هذه الابراج قامت فوق قواعد مستطيلة بارتفاع ٢ ـ ٣ مدماكا مـن الآجـر .

المداخل :

كان هناك ١٦ مدخلا بعرض مختلف جدا .وفي كل حاله ـ باستثناء وسط الجانب الشمالي ـ سقط آجر الابواب . ولكن يبدو من تفحص قوائم الابواب الباقية أن الفتحات كانت مسـقوفة بعوارض خشبية يعلوها قوس حامل من الآجر . ولكن فوق هذا كله ـ في المدخل الجنوبي



(شكل ـ ٥٧) سـامراء ـ مخطط المسـجد الكبير

في الجانب الغربي ـ يوجد شريط من الآجر الصقيل ، يبرز قليلا أمام جانب المدخل تحته ويمتد عبر الباب . ونستطيع أن نرى في الباب المقابل على الجانب المقابل بروز قوس صغير جدا ، يشكل جزءا من العقد الذي يمتد عبر الجدار . وهذا يعني أنه كانت هناك عدة نوافذ صغيرة ذات أقواس (ربما ٣) فوق كل باب .

الافريز :

الابراج في غاية البساطة ، لكن كل جدار مزخرف بافريز مؤلف من ستة مربعات مرتدة (غائرة) وأطراف مشطوفة ما عدا الطرف الجنوبي في كل جانب ، حيث توجد خمسة مربعات فقط . في كل مربع يوجد صحن ضحل عمقه حوالي ٢٥ سم ، لا يزال في بعض الحالات مغطى بالجص (وهذا يثبت أن البناء الآجري لم يكن عاريا في الاصل) . وارتفاع الجدران الآن يصل إلى حوالي ١٠,٥ مترا . وفي معظم الجدار يوجد أخدود عمودي احتوى ـ بدون شك ـ على أنبوب من السطح المنبسط .

النوافذ :

الجزء العلوي من الجدار الجنوبي تحت مستوى الافريز فيه ٢٤ نافذة ومن الواضح أن موقعها حددته محاور أروقة الحرم الخمسة والعشرين (حيث لم يكن هناك فراغ لنافذة فوق المحراب) كانت هناك نافذتان إضافيتان في كل جانب تنفتح على الحرم وتجعل العدد الاجمالي ٢٨ نافذة . في الخارج توجد فتحات مستطيلة ضيقة مثل مرمى السهام ولكنها داخليا محاطة بعمود اسقلوبي (محاري مروحي) له خمسة فصوص ينبثق من الاعمدة الصغيرة نصف الظاهرة والكل محاط باطار مستطيل غائر (لوحة ٥٦ آ) .

الداخل :

كل دعائم السقف أزيلت منذ وقت طويل من أجل موادها ولكن يتضح من الخنادق المتبقية أن الحرم انقسم إلى ٢٥ رواقا بواسطة ٢٤ صفا من الأعمدة وبحيث يبلغ متوسط عرض الرواق ٤ر٢ مترا تتوافق مع محاور النوافذ وأن الرواق المركزي كان أعرض قليلا من البقية . كما يتضح أيضا أن السقف ارتكز مباشرة على هذه الدعائم بدون أقواس إذ لا يمكن رؤية أية آثار لانبثاق الأقواس على أي من الجدران .

وأكدت تنقيبات هرتزفلد وجود ٢٤ صفا في الحرم في كل منها ٩ دعامات و٣ دعائم في الرواق الشمالي . وتألف كل من الأروقة الجانبية من ٢٢ صفا يحتوي كل منها على ٤ دعائم تمتد موازية للصحن . وهكذا كان العدد الاجمالي ٤٦٤ دعامة .

وقد بقيت آثار كافية من العضائد لتجعل من الممكن تحديد شكلها . فالقواعد مربعات ضلعها ٠٧ر٢ مترا وعلى القاعدة ارتكزت عضادة مثمنة من الآجر وأعمدة رخامية في الزوايا الأربعة . ونظرا لأن طول الأعمدة كان مترين فقط تطلب ذلك ثلاثة أعمدة فوق بعضها في كل مرة موصولة بواسطة الرصاص والأوتاد المعدنية كما رأينا في مسجدي الكوفة وواسط . وقلب الآجر مكسو بالجص ومدهون لتقليد الرخام . والارتفاع حتى عوارض السقف يبلغ ٣٥ر١٠ مترا .

المحراب :

ظهر أن فتحة في وسط الجدار الجنوبي هي المحراب المحفور في الجدار . لم يكن محرابا دائريا بل مستطيلا كما رأينا في الأخيضر وكما

كانت القاعدة في الأيام المبكرة في العراق وإيران فعرضه ٢٥٩ر٠ مترا وعمقه ١٧٥ر١ مترا . وعلى طرفي المحراب زوجان من الأعمدة من الرخام الوردي من عينتاب ولها قاعدة وتاج على شكل ساعة وقد ارتكز عليها قوسان مشتركان في المركز قائمان في إطار مستطيل تقريبا بارتفاع المسجد الخالص . وقد وجدت آثار فسيفساء مذهبة في السبندلات .

الزخرفة

يقول المقدسي أن المسجد نافس مسجد دمشق وأن جدرانه كانت مزخرفة بالمينا . وقد اقترح هرتزفلد أن هذه الكلمة تعني الفسيفساء وقد أكدت تنقيباته ذلك لأنه وجد بقايا كثيرة من الفسيفساء الزجاجي .

الزيادة :

من الواضح أن جدارا امتد من الطرف الجنوبي للجدارين الجانبيين ويمكن أن يعني انبثاق العقد الضحل فقط أن هذا الجدار كان مزينا بالأقواس المزيفة مثل بهو الشرف في الأخيضر . وقد أظهرت الصور الجوية أن هذه الجدران شكلت جزءا من الفناء الكبير الذي أحاط بالمسجد من الشرق والشمال والغرب . هذا المستطيل الكبير قائم أيضا في وسط فناء أكبر أحاط به من كل الجهات لكي يترك ثلاث فسحات مفتوحة في الجوانب الشرقية والجنوبية والغربية وفسحة أضيق كثيرا في الجانب الشمالي . كانت جدران هذه الزيادات من الآجر الذي أزيل معظمه . وقد بلغت أبعاد المستطيل الخارجي ٣٧٦ × ٤٤٤ مترا أي أن مساحة المسجد والزيادات بلغت تقريبا ١٧ هكتارا .

وبالقياس مع مسجد ابن طولون في القاهرة يتوقع المرء أن يجد أبنية تحتوي على المراحيض وأماكن الوضوء في هذه الزيادات ولكن ـ لسوء الحظ لم يتوفر لهرتزفلد وزرة الوقت الكافي للتنقيب هنا .

المئذنة :

إنها تعرف بمئذنة الملوية . انها تقوم لوحدها على بعد ٢٥ر٢٧مترا من الجدار الشمالي للمسجد وبالضبط على محوره المركزي . هـذه القاعدة المربعة التي يبلغ ضلعها ما يقرب من ٣٣ مترا متصلة بالمسجد بواسطة رأس طوله ٢٥ مترا وعرضه ١٢ مترا ـ بقايا منحدر ينتهي بجرف صغير ويؤدي إلى قمة القاعدة بطريقة شـديدة الشبه بمدخل زقورات بابل . وعلى هذه القاعدة التي يبلغ ارتفاعها حوالي ٣ أمتار يرتكز برج حلزوني وله درج عرضه حوالي ٣ر٢ مترا ، يبدأ وسط الجانب الجنوبي ويلتف حول البرج بعكس اتجاه عقارب الساعة حتى يتم خمس دورات كاملة (لوحة ٥٦ ب) . وعلى قمة هذا الجزء طابق اسطواني مزخرف بثماني ارتدادات متشابهة ذات أقواس مدببة وكل واحد منها داخل إطار غائر قليلا وله قوس مدبب يرتكز على زوج مـن الأعمدة الآجريـة . والحنية الجنوبية تشكل مدخلا ينتهي عنده الدرج . وينفتح على درج شديد الانحدار مستقيم أولا ثم حلزوني يؤدي إلى سطيحة القمة التي ترتفع ٥٠ مترا فوق القاعدة . ويمكن رؤية ٨ ثقوب في هذه السطيحة وقد استنتج منها هرتزفلد وجود سرادق صغير هنا قائم على ٨ أعمدة خشبية .

ويزداد انحدار الدرج كلما ازداد ارتفاعه نظرا للرغبة في جعـل الطوابق متساوية الارتفاع . وبما أن محور كل دورة يتناقص عن سابقه مع تناقص القطرفذلك يوجب زيادةالانحدار للحصول علىنفس الارتفاع في كل دورة كسابقتها .

يقول الثعالبي : « اعتاد المتوكل أن يصعد مئذنة سامراء على حمار من صعيد مصر وأنّدرجات المئذنة كانت فيالطرف الخارجي وأن ارتفاعها ٩٩ ذراعا » .

الاصول المعمارية للمسجد الكبير

المئذنة :

إن مبدأ الدرج الحلزوني المسجد في مآذن سامراء وأبي دلف يرجع ان الزقورات البابلية أو برج بابل وهذا مقبول عموما . ولكن الزقورات لم تكن من نوع واحد فقط . والنوع الأكثر انتشارا يتألف من برج مدرج مؤلف من طوابق متناقصة وذات وجوه عمودية ويتم الوصول إلى قمة الطابق السفلي بواسطة درج منفصل وشديد الانحدار يرتفع بزوايا قائمة وسط الجانب الجنوبي أو الجنوبي الشرقي . ويتم الوصول الى الطوابق الأخرى بامتداد هذا الدرج . ليس هذا النوع هو الذي كان أصل برج الملوية بل نوع آخر مربع وذو درج خفيف الانحدار يمتد حوله ويقوم بدورات كاملة حتى يصل القمة . ومن الغريب أن مثالا واحداً من هذا النوع قد تم العثور عليه وهو زقورة خورساباد الذي نقب عنه بلاس قبل مئة عام . وقد وجد ثلاثة طوابق سليمة وبقايا طابق رابع . يقول أنه بدلا من البناء المستدير الذي كان يتوقعه وجد مربعا تاما طول ضلعه ١ر٤٣ مترا . وقد بدأ درج خفيف الانحدار من الركن الجنوبي واستمر بطول ضلع بكامله ثم التف حول الزاوية بتصاعد مستمر ودار حول كل الزوايا بالتتالي حتى وجد المنقبون أنفسهم في نفس نقطة البداية وعلى مستوى أعلى بمقدار ١ر٦ مترا . واستمر الدرج بالالتفاف حول البرج بعكس اتجاه عقارب الساعة كما في سامراء . وقد ثبت وجود ثلاثة طوابق كل منها بارتفاع ١ر٦ مترا وبقايا طابق رابع .

وبالاعتماد على الوصف الذي يذكره هيرودت لزقورة معبد بعل في بابل استنتج أن البرج كان مؤلفا من ٧ طوابق أي بارتفاع ٤٢ر٧ مترا (كل طابق ٦ر١ مترا) ، ورغم عدم اكتشاف أي مثال آخر من هذاالنوع فان الوصف الذي يذكره هيرودوت دليل حاسم على وجود الأبراج ذات الدرج اللولبي ، وإليكم ترجمة رولنسن .

« في وسط المنطقة يوجد برج من البناء الأصم يبلغ قطره حوالي ١٩ر٨ مترا وفوقة يقوم برج آخر وفوق الثاني يقوم برج ثالث وهكذا حتى الثمانية ، والصعود إلى القمة من الخارج بواسطة ممر يلتف حول كل الأبراج » .

ويلاحظ أن هيرودوت يقول بوجود ٨ طوابق ، بينما يقدم بلاس في ترميمه لزاقورة خورسباباد ٧ طوابق فقط ، ولكــن نقش ايساجيلا الذي وجده سميث يحتوي على وصف لزاقورة بعل نفسها ذات الطوابق المتناقصة الأبعاد والتي يبلغ عددها ٧ طوابق .

وأخيرا لا يمكن القول بعدم وجود نموذج لملوية العراق في القرن التاسع الميلادي لأن زقورة بابل رآها في النصف الثاني من القرن الثاني عشر بنجامين التوديلي الذي يذكر صراحة أن الدرج يلتف حولها ، وبعد تأكيد هذه النقطة من الواضح أن التجديد الوحيد الذي قام به مهندسو المتوكل هو جعل البرج دائريا بدلا من كونه مربعا .

التيجان الساعاتية :

أقدم الأمثلة من هذه الخصوصية المعروفة لدي هي تيجان الأعمدة نصف الظاهرة في زوايا الآبدة الساسانية في بادكولي العائد إلى نارسيه في القرن الثالث الميلادي .

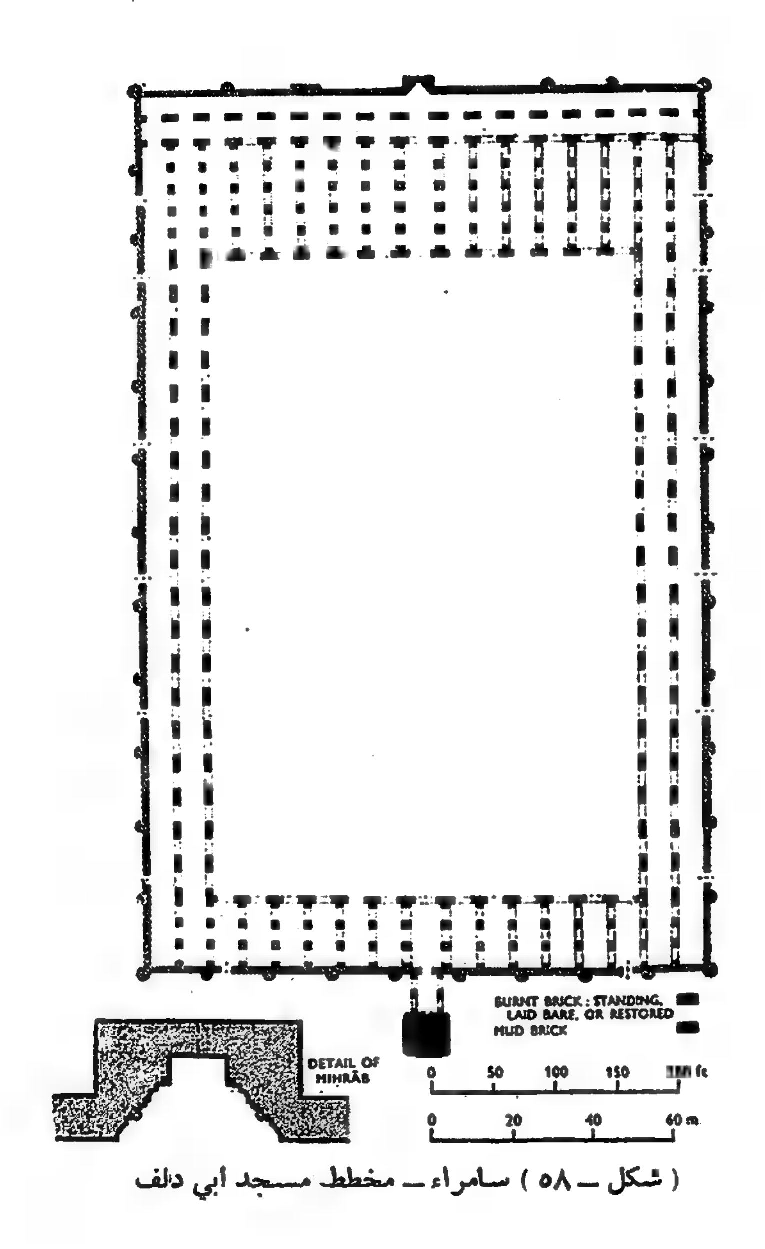
مسجد أبي دلف

مقدمة تاريخية :

بعد بناء مسجد سامراء الكبير بعدة أعوام ، قرر المتوكل بناء مدينة جديدة شمال سامراء واختار موقعا لها في مكان يسمى الماحوصة . بدأ العمل في عام ٢٤٥ هـ (٨٥٩ ـ ٨٦٠ م) ولذلك امتد الشارع العظيم في سامراء لحوالي ثلاثة فراسخ لكي يصل إلى قصره . في ١ محـرم ٢٤٧ (١٧ آذار ٨٦١ م) انتقل الى مدينته الجديـدة التي سميت الجعفرية وعندما جلس في مجلسه قال : « الآن أعرف أنني ملك حقا لأنني بنيت لنفسي مينة وأعيش فيها » .

وبقايا قصر الجعفرية تتألف من فناء كبير يغطي مساحة ١½ كم² محاط بجدران محصنة بالآجر الطيني (لوحة ٥٧) . ولم تجر التنقيبات في القصر بعد . يقول اليعقوبي : « عاش المتوكل في قصره ٩ أشهر و٣ أيام فقط وقتل في قصر الجعفرية (أكثر القصور شؤما) في ٣ شوال ٣٤٧ (١١ كانون الأول ٨٦١ م) وخلفه محمد المنتصر الذي عادي إلى سامراء وأمر جميع السكان بالعودة أيضا . وبأن يهدموا الأبنية ويعيدوا مواد البناء إلى سامراء . وسرعان ما حل الخراب بقصور الجعفرية وبيوتها ومساكنها وأسواقها . والموقع الآن يباب . » .

وحالة مسجد أبي دلف الذي بني كمسجد لمدينة الجعفرية الجديدة هي عكس حالة مسجد سامراء : ففي الأخير لا تزال الأسوار والجدران



(شكل ـ ٥٨) سامراء ـ مخطط مسجد ابي دلف

قائمة بينما الداخل خال أما في مسجد أبي دلف فالداخل في حالة جيدة في حين الجدران الخارجية المبنية من الآجر الطيني لم يبـق منها سوى جروف طويلة باستثناء الجانب الشمالي حيث بقي قائما حتى ارتفاع ٦ ـ ٧ أمتار (لوحة ٥٧) .

الداخل :

إنه أصغر حجما اذ يبلغ امتداده من الشمال الى الجنوب ٢١٣ مترا وامتداده من الشرق الى الغرب ١٣٥ مترا . ويبلغ الصحن ١٥٥ر٨ × ١٠٣ر٩٣ مترا ومحاط بالأروقـة وتمتد كل صفوفه مـن الشمال إلى الجنوب . والحرم مقسوم الى ١٧ رواقا بواسطة ١٦ صفا في كل منها ٦ أقواس يبلغ متوسط باعها ٣ر١٣ مترا (شكل ٥٨) . وبدلا من امتدادها حتى الجدار الجنوبي فان هذه الصفوف تنتهي بعضائد على شكل T تحمل صفوفا متصالبة في كل منها ١٧ قوسا تمتد موازية للجدار الجنوبي على بعد حوالي ١٠ر٤٥ مترا عنه . كما أن ١٢ من هذه الصفوف تنتهي إلى عضائد على شكل T في الشمال أيضا . وهذه العضائد تحمل صفا متصالبا من ١٣ قوسا يشكل الواجهة الجنوبية للصحـن . والأقواس الأخيرة يبلغ متوسط باعها ٤ر١٦ مترا ماعدا القوس الأوسط حيث يبلغ باعه ٥ر١٩ مترا . وعمق الحرم بما في ذلك الأقواس المتصالبة يبلـغ ٢ر٢٩ مترا . فلو أضفنا ١٠ر٤٥ مترا إلى ذلك لحصلنا على ٣٩ر٦٥مترا وهو العمق الاجمالي للحرم . في وقت من الأوقات شكل هذا الجناح العرضاني مشكلة ولكن ـ اكتشف ـ بواسـطة التنقيب ـ عضادتين مستطيلتين بحجم ٣ر٨ مترا × ١ر٥٥ مترا أظهر أنه كان هنـاك صف عرضاني قسم هذا الجناح الكبير إلى قسمين كل منهما بعرض ٤ر٥ مترا.

والصفان في الطرفين يمتدان حتى جدار المسجد الشمالي مشكلان بذلك الرواقين الجانبيين بعمق ١٤ مترا . ويطل ١٩ من هذه الأقواس على الصحن ويبلغ متوسط باعها ٤ر١٥ مترا (مثل أقواس واجهة الحرم) ما عدا القوس المركزي في الجانب الغربي (ولكن القوس المقابل له قد اختفى) الذي يبلغ ٩١ر٤ مترا . والعضائد التي تحمل هذه الأقواس في الأروقة الجانبية من النوع المستطيل متوسطها ٠٣ر٤ مترا × ٥٧ر١ مترا بينما عضائد الحرم والرواق الشمالي أقرب إلى المربعة متوسطها ١ر٢ مترا × ٧٣ر١ مترا و١٨ر٢ × ٥٢ر١ مترا بالترتيب . وكل العضائد مبنية من الآجر المشوي .

وفي الرواق الشمالي يوجد بالطبع ١٦ صفا كما في الحرم ولكن كل صف يحتوي على ٣ أقواس فقط متوسط باعها ١ر٣ مترا . وهي تنتهي مقابل الصحن بعضائد على شكل T ولكنها تنتهي في الشمال بعضائد جدارية بسيطة من الآجر المشوي أيضا وهي مترابطة مع الجدار المبنى من الآجر الطيني حتى عمق ٢٥ سم . ورواق الحرم المركزي أعرض من بقية الأروقة إذ يبلغ عرضه ٣ر٧ أمتار مقابل عرض وسطي قدره ٦ر٢ لبقية الأروقة . والجناح المركزي في الرواق الشمالي يعالج بنفس الطريقة .

والنصف العلوي من كل العضائد المواجهة للصحن مزخرف ببانوه غائر يحتوي على ارتداد ضيق له قوس . والأقواس كلها مبنية من حلقتين من الآجر المربع حيث آجزات الحلقة الداخلية مرصوفة ووجهها نحو الخارج بينما آجرات الحلقة الخارجية مرصوفة رأسيا كما في بوابة بغداد في الرقة (لوحة ٣٣) ما عدا أن كل حلقة تتألف سماكتها من ١½ آجرة بدلا من آجرتين .

ولكن أعمال الآجر أقل جودة من أعمال مسجد سامراء الكبير والآجر يتراوح في الحجم من ٢٥ سم٢ الى ٢٩ سم٢ وكلها بسماكة ٧سم.

ومن الواضح أن سقف المسجد كان منبسطا مثل سقف مسجد سامراء بارتفاع لايتجاوز ٨ أمتار على ما يبدو .

الجدران الخارجية :

الجدران في أحسن حالاتها الحالية هي بسماكة ٦ر١ متر . والقياس المباشر ممكن في الطرف الشمالي من الجناح الثالث من الشرق حيث تم كشف الجدار الآجري الطيني والكسوة الجصية على وجهيه . وكما في سامراء دعمت الجدران بحصون نصف دائرية ويمكن رؤية ثلاثة منها حتى الآن في الجانب الجنوبي . يبلغ عرضها حوالي ٣ أمتار وتبرز عن الجدار مقدار ٢ر١ متر والجزء الخارجي من الجدار مؤلف من الآجر المشوي كما في الرقة . كان هناك ٤ أبراج ركنية و ١١ برجا في الشرق والغرب و٨ أبراج في الشمال وعدد غير مؤكد ـ ربما ٦ أبراج ـ في الجنوب وبذلك يبلغ العدد الاجمالي ٣٨ برجا وبذلك يبلغ طول الجدران الفاصلة ١٤ مترا . وفي بعض الاماكن في الجدار الشمالي يمكن تمييز اخاديد لانابيب مياه الامطار عمقها ٢٠ سم وعرضها ١٨ سم تشبه أنابيب المسجد الكبير في سامراء .

كانت هناك ٦ أبواب في الشرق والغرب و٣ أبواب في الشمال وبذلك يصل العدد الى ١٥ بابا قوائمها من الآجر المشوي لا يزال بعضه قائما . وقد أقيمت لتكون على نفس محاور أقواس الرواق المقابلة وليست هناك أية محاولة لاقامتها في أواسط الجدران الفاصلة .

الزيادات :

المسجد نفسه محاط بفناء عرضه ١٠٨ خطوة وهذا الفناء محـاط بقاعات عمقها ٤٢ خطوة مبنية من الآجر الطيني ، ويمكن تقصي آثارها بصعوبة ، ولكن تنقيبات زرة وهرتزفلد في (١٩١٢ ــ ١٩١٣) أعطتنا مقاييس أكثر دقة فوجد أن أبعاد المجمع بكامله هي ٣٥٠ × ٣٦٢ مترا ، ولسوء الحظ لا نزال بانتظار نشر المخطط الذي رسم في ذلك الوقت .

المئذنة :

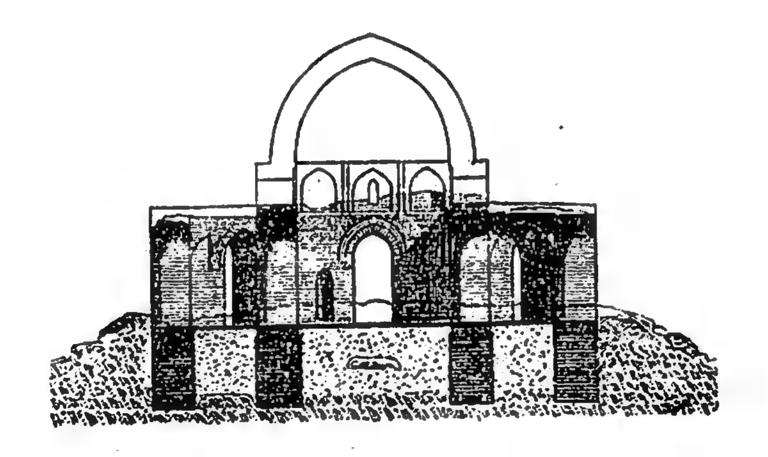
روس هو أحسن من وصف هذه المئذنة بأنها ملوية مصغرة ، إنها تقوم في الزيادة الشمالية على المحور الشمالي ــ الجنوبي على بعد ٩ر٦ أمتار عن جدار المسجد الشمالي ، يبلغ ارتفاع القاعدة حوالي ٥ر٢ متر ومساحتها حوالي ٢ر١١ م٢ وكانت مزينة بصف من ١٣ ــ ١٤ حنية صغيرة في الشمال والشرق والغرب بينما لايوجد سوى ١٠ انحناءات في الجنوب بسبب مدخل المنحدر ، فوق هـذه القاعدة يقوم الجزء اللولبي ، أو المدخل الذي يبلغ عرضه ١٧ر١ متر فانه يقع في وسط القاعدة ، والممر ينعطف مباشرة نحو اليمين ويبدأ بـدورانه اللولبي ، بحيث نجد ربع الدورة الاولى محفورا في آجر القاعدة ، وذلك الممر متهدم جدا لدرجة أنه سيستحيل صعوده عما قريب ، ويبلغ ارتفاعه الحالي ١٦ مترا ، كما يبدو أنه كان يتألف من ٣ دورات كاملة بعكس اتجاه عقارب الساعة .

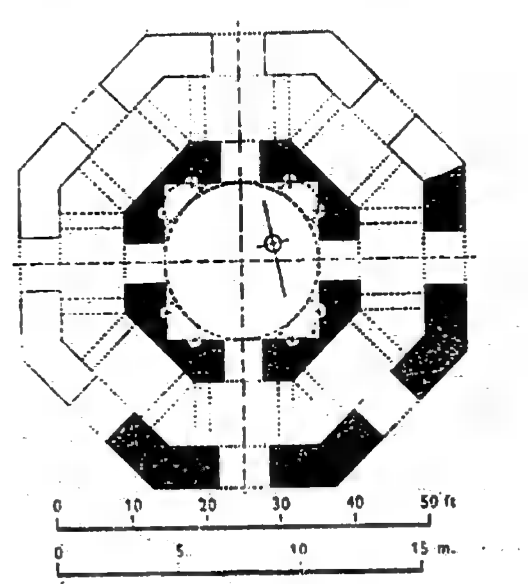
التاريخ :

رأينا أن المتوكل بدأ مدينته الجديدة في آذار ٨٦٠ ، وأنه دخلها في آذار ٨٦١ ، ولذلك فان المسجد بني بين هذين التاريخين ، وقـد هجر نهائيا في ١٧ كانون الاول من نفس العام .

بيوت سامراء

تقول رواية هرتزفلد ما يلي : « بنيت بيوت سامراء حسب مخطط محدد . فالمدخل المسقوف يؤدي من الشارع أو الحارة إلى بهو مستطيل واسع نسبته المفضلة ٣ إلى ٢ . في نهايته تقع القاعة الرئيسية على شكل ـــلـــ والغرفتان الاصغر منها تقعان في الزاويتين . هذا الترتيب يتكرر أحيانا في بهو ثان وعلينا اعتبار هذين القسمين السراي والحريم . ولكن عندما يتكرر الترتيب في الجهتين المتقابلتين ، من نفس البهو ، فانهما يعتبران القسمين الصيفي والشتوي . وبقية البهو محاط بصفوف من الغرف المستطيلة للعيش والمؤونة . في معظم البيوت يوجد عدد من الممرات الجانبية الصغيرة وغرف المؤونة . وفيها دائما حمامات وتمديدات [للمياه والمجاري] ونادرا ما توجد فيها آبار وفي احدى الحالات تم اكتشاف ترتيبات لا يمكن استخدامها لاي غرض سوى لتحضير القهوة . أحيانا نجد قاعات مفتوحة على أعمدة وسراديب للعيش مزودة بنظام للتهوية . وفي أحد المنازل صف طويل من الدكاكين المنفصلة عن الشارع وهي لا تختلف كثيرا عن المنازل في مدينة بومبي . فكل المنازل مؤلفة من طابق واحد ... وقد يصل عدد الغرف في المنزل إلى ٥٠ غرفة . ومواد البناء المستعملة هي عادة الآجر الطيني وأحيانا التراب المتصلب . وعلى العكس من ذلك فان الآجر المشوي يستعمل فقط لتمديدات المياه والمجاري على شكل تربيعات كبيرة (تصل إلى ٥٠ سم٢) ولارضية البهو والغرف . وكل السقوف بلا استثناء خشبية منبسطة ، والابواب في معظم الحالات مسقوفة أفقيا .





(شكل ــ ٥٩) سامراء ــ مخطط ومقطع قبة الصليبية

وقلما نجد أقواسا مدببة فوقها • ونجد النوافذ المملوءة بأقراص كبيرة من الزجاج الملون البارز (قطرها ٢٠ ــ ٥٠ سم) • في بعض المنازل نجد القاعات على شكل ــلــ وبعض الغرف الخاصة مزخرفة ، بينما في البعض

الآخر كل الغرف مزخرفــة ، أما في البهــو فالزخرفــة هي الاستثناء والجدران الخارجية غير مزخرفة نهائيا . والقسم السفلي من الجدران مزخرف حتى ارتفاع متر واحد ، وكذلك إطارات (ملابن) الابواب . وزوايا الجدران العليا وأحيانا وجوه أقواس المداخل . وفوق القسم السفلي المزخرف من الجدران (وأحيانا في هذا القسم نفسه) توجـد انحناءات صغيرة محفورة ومؤطرة على الطراز الباروكي ، كما هي الحال في منازل الشرق المعاصرة ، والتي تسمى طاقشاه بالفارسية . ومــادة زخرفة الجدران هي جص خالص تماما مع قدر بسيط من التراب » .

* * *

قبـة الصليبية

على الضفة الغربية لنهر دجلة ، وعلى قمة هضبة ، على بعد حوالي ميل واحد إلى الجنوب من قصر العاشق ، توجد بقايا بناء مثمن . إنه يتألف من مثمن داخلي . لا تزال جوانبه سليمة ، ومثمن خارجي ، تهدم أكثر من نصفه . وبين الاثنين : ممر عرضه ٢٫٦٢ مترا . لا بد أنه كان مسقوفا بعقد اسطواني ، لانه بامكاننا رؤية نقاط انبثاق الأقواس الستة عشر المتصالبة التي ارتكز عليها العقد منها اثنان في طرفي كل جانب من المثمن الداخلي . وهناك مدخل مقنطر عرضه ٢٫١٣ مترا في كل من الأوجـه المتبقية من المثمن الخارجي ، ولكن : فقط بعرض ١٫٦ مترا على وجوه المثمن الداخلي التي تقابل النقاط الأساسية الأربعة . ولدى الدخول إلى الداخل يدهش المرء ليجد أن الغرفة الداخلية ــ بدلا من كونها مثمنة أيضا ــ مربعة متوسط أضلاعها ٦٫٣١ متر . وأركان المربع الأربعـة تنفذ تقريبا إلى وجوه المثمن وبذلك تضعفه كثيرا (شكل ٥٩) . وبجانب كل مدخل انحناءة نصف دائرية عرضها ٦٣ سم . ويبقى من المنطقـة الانتقالية في الركن الجنوبي الشرقي ، ما يكفي لاظهار أن المربع حول إلى مثمن بواسطة الاسقنشات ومن ذلك نستطيع الاستنتاج بكل اطمئنان أنه كان مسقوفا بقبة . والبناء بكامله مبني من نوع الحجر الاصطناعي على شكل آجر مساحته ٣٢ ــ ٣٣ سم² وسمكه ١٠ سم . إنها تتألف في غالبيتها من الطين مخلوط مع الكوارتز القوي إنه قوي كالحجارة .

الماهية والتاريخ :

من الواضح أن هذا البناء ـ ببنيته ومواده ـ يرجع إلى نفس فترة الآثار الأخرى في سامراء كما أن هذا النوع الغريب من الحجر الاصطناعي المستعمل ، يظهر أنه يعود إلى فترة لاحقة لأن هذه المادة مستعملة في قصر العاشق . ولكنه لم يستعمل في الأبنية السابقة . دعونا نرى الآن ما إذا كانت أية من الحقائق المعروفة ، حول دفن أي من الخلفاء الذين عاشوا في سامراء يتناسب معها . فالأول المعتصم دفـن في الجوسق الخاقاني والواثق في القصر الهاروني، وأم المتوكل في المسجد الكبيرفي الجعفرية (مسجد أبي دلف) والمتوكل نفسه في القصر الجعفري ، والمنتصر أول خليفـة عباسي يعرف قبره عموما لأن والدته اليونانيـة طلبت الإذن (وحصلت عليه) لاقامة ضريح له . إنه يقع بجوار قصر الصوامع،كمادفن فيه أيضا المعتز والمهتـدي . وقد اقترح هرتزفلـد ــ على ضوء هذه الحقائق ــ أن قبة الصليبية هي مدفن هؤلاء الخلفاء الثلاثة . في كانون الأول عام ١٩١١ نقب تحت الأرضية فوجد ٣ قبور إسلامية . ويمكن اعتبار ذلك دافع لاقتراحه الذكي بأن هذاالضريح هو الذي شيدته والدة المنتصر بعد موت ابنها في حزيران ٨٦٢ . ولذلك فانه ليس فقط أقدم ضريح قائم في الاسلام ولكنه على الأرجح أول ضريح تم بناؤه .

ورغم معرفتنا بالأضرحة المثمنة الأخرى فليس هناك أي مثال آخر على الضريح ذي الممر المثمن في الشرق الأوسط . والقطر الوحيد الذي شاع فيه هذا النوع . في يوم من الأيام هو الهند .

زخارف سامراء

عندما اكتشف زخارف سامراء لأول مرة ، تم تقسيمها إلى هـذه المجموعات ، التي تسمى الطراز الأول والثاني والثالث ،ويبدو من المرجح الآن — لو كانت هناك أية أولويات زمنية لتطورها أنها كانت بترتيب معكوس ولذلك أقترح تسمية طراز هرتزفلد الثالث بالطراز A ،وطرازه الثاني بالطراز B ، وطرازه الأول بالطراز C .

الطراز A :

الخصوصية المميزة للطراز A ،هي زخرفة الكرمة التي رأيناها سابقا في قبة الصخرة والمشتى . ولكن حدث تغير في أوراق الكرمة التي تبقى عموما ذات خمسة فصوص كالسابق (أو أحيانا ذات ثلاثة فصوص) ولكن فيها الآن أربع « أعين » جريئة بين الفصوص التي تحيط بهـا حواف متحدة المركز ، ومن المغري جدا أن نعتقد أن هذه الخصوصية الجديدة تطـورت عندما صنعت « العيون » بدفـع وتد في الزخارف الجصية الطرية مما يسبب صنع حافة متحدة المركز على الأقل . ولا بد من ذكر تغييرين آخرين الأول حبات العنب الثلاثة ، المركزة على الورقة لدى اتصالها مع الساق ، لا تظهر الآن . الثـاني الازدياد بكثافة ملء الخلفية (لوحة ٥٨ ب) . ويظهر هذا الطراز بكامل تطوره في باب العامة، وهي أقدم بناء في سامراء .

الطراز B :

(لوحة ٥٨ T) تطورت في هذا الطراز كثيرا العناصر النباتية المركزية ، مثل الورود من البراعم ولكن ليست هناك زخرفة عربية ، وفوق كل شيء ليست هناك سوق نباتات . ولذلك ليس هناك نمو نباتي ، لأن كل عنصر مستقل وله نهايات منفصلة . وينتهي كل نمو مع نهاية كل عنصر ومحيط كل شجرة . كما نجد شجيرة النخيل وقد تقلصت إلى قمة الشجرة ، الأغصان العليا فقط . أي أن خصائص هذا الطراز هي في الغالب غير طبيعية . وتلعب الخطوط الملفوفة لولبيا دورا كبيراً فيها . وأجمل خصائص الطرازين C و B ، هي أنها تنقلب إلى مجموعات ورود كبيرة دائرية ، أو ذات فصوص وملء مناطق الأشكال المختلفة ـ المربعة والمثمنة الخ .

الطراز C :

صنعت نماذج هذه المجموعة ـ ما عدا القليل من الحواف البسيطة ـ بواسطة القوالب . فالنقش دائما ، هو قليل العمق ، يمثل الحفر الرقيق . إنه رقيق جدا ، وضئيل جدا لدرجة أنه لا يترك خيالا ، بل ظلا فقط باستثناء الضوء العمودي ، الذي لا يحدث من الناحية العملية . والمسافات ضمن النموذج دائما صغيرة جدا بالنسبة إلى ارتفاعها . والعناصر متكررة بسرعة الواحد بعد الآخر مثل صف من الألواح الصغيرة ... فالمرء في البداية يصنع نموذجا من اللوح الخشبي ، ثم ينسخ عنه صورة من الطين ويشويه ، ومنه يصب الزخارف الجصية . واستعمال القوالب طريقة جعلت من الممكن زخرفة سطوح كبيرة بسرعة عظيمة . أما العناصر فمتنوعة جدا : عناصر على شكل الزجاجة ، نباتات

ثلاثية الأوراق ، وشجيرات النخيل الزخرفية العربية ، اللولبيات ، الخ.
والتصميم تسيطر عليه فكرة ملء الفراغ التام . وليس هناك أي أثر
للخلفية الزخرفية . فالخطوط بالمعنى الهندسي ـ حواف السطح ذي
البعد الواحد ـ تفصل كل تصميم عن الآخر . ولذلك فالعمل مقصور
على إقامة هذه الخطوط الحديدية ، بدلا من السطوح . إنها وسيلة توفر
العمل ، مما يجبر المرء على التفكير بأن هذا المبدأ ـ(ولهذا السبب)ـ
اتسع نفوذه نظرا لاقتصاده في العمل المطلوب ، لحل مشكلة بناء سامراء
وهي المشكلة الفريدة المستعصية .

* * *

الفصل السابع عشر

القيروان ــ ٢

احواض القيروان

على بعد حوالي كيلو متر واحد من البوابة الشمالية للقيروان ، المعروفة باسم باب تونس يوجد حوضان دائريان كبيران (لوحة ٩ج) . يتلقى الحوض الصغير الماء من وادي مرج الليل ، عندما يفيض إذ أن حافة الحوض أدنى من مستوى قاعدة الوادي . هذا الحوض ــ رغم أنه دائري عمليا ــ الا أنه في الحقيقة مضلع لأنه يتألف من ١٧ ضلعا مستقيما متوسط طوله ٦٫٢٥ مترا . وكل ركن منه مدعم ــ من الداخل والخارج ــ بدعامة دائرية . هذا الحوض هو حوض الصفق حيث يترسب الطين . وأحد أضلاعه لصيق بأحد أضلاع الحوض الكبير ، الذي توصل إليه قناة اتصال اسطوانية عبر الجدار الفاصل بينهما ، تعلو بضعة أمتار فوق القاعدة . هذا الحوض الكبير له ٤٨ ضلعا ودعامة دائرية في كل زواياه الداخلية والخارجية . وبالاضافة إلى ذلك هناك دعامة خارجية في وسط كل ضلع . ويبلغ عمقه حوالي ٨ أمتار ، وقطره الداخلي أقل من ١٣٠ مترا بينما يبلغ قطر الحوض الصغير ٣٧٫٤ مترا . والبناء من الدبش المغطى بطبقة صلبة من الاسمنت . هذان الحوضان

لهما طابع الأوابد . وفي الجانب المقابل للحوض الصغير ، يوجد حوضان مستطيلان مسقوفان يصل اليهما الماء من الحوض الكبير من فتحات تعلو عدة أمتار فوق القاعدة . وبهذا يصفى الماء للمرة الثانية .

الماهية والتاريخ :

يقول البكري[1] : « وخارج مدينة القيروان خمسة عشر ما جلا للماء سقايات لاهلها ... وأعظمها شأناوأفخمها منصبا ماجل أبي ابراهيم أحمد بن محمد بن الاغلب بباب تونس وهو مستدير متناهي الكبر ... ويتصل بهذا الماجل من قبلية أقباء طويلة معقودة أزاجا علـى أزاج .. وبجوفي هذا ماجل لطيف متصل به يسمى الفسقية يقع فيه ماء الوادي إذا جرى ينكسر فيه شدة جريان الماء ثم يدخل منه إلى الماجل الكبير اذا ارتفع الماء في الفسقية قدر قامتين على باب الماجلين يسمى السرح » .

أما التاريـخ الحقيقي فيقدمه لنا إبن العـذاري الذي يقول أنه اكتشف في عام ٢٤٦ هـ (٨٦٠ــ ٨٦١ م) وتم في عام ٢٤٨ هـ (٨٦٢ ــ ٨٦٣ م) .

---

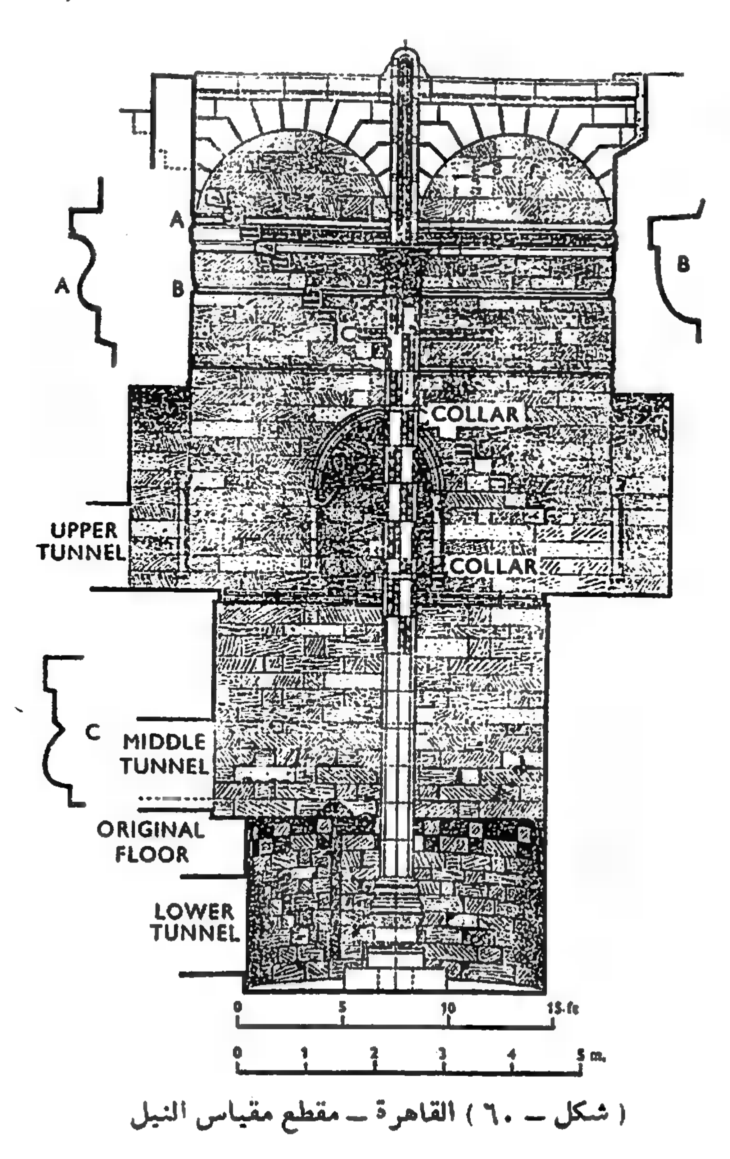
(١) البكري : ص ٢٦ .

مقياس النيل في جزيرة الروضة

يتألف مقياس النيل الشهير في الطرف الجنوبي في جزيرة الروضة، من عمود مثمن طويل مدرج يستعمل كأداة قياس وينتصب في حفرة مبطنة بالحجارة ، مساحتها حوالي ٦ر٢ مترا وفيها درج يصل إلى القاعدة (لوحة ٦٠) . ويتم الاتصال بنهر النيل بواسطة ثلاثة أنفاق تنفتح كلها على الجانب الشرقي، أما الدرج فيبدأ في الطرف الجنوبي من الجانب الشرقي. فنهبط ٢٤ درجة لنصل إلى بسطة في الزاوية الجنوبية الغربية . ثم نستدير إلى اليمين وبعد أربع درجات نصل الى ضفة تشغل بقية الجانب الغربي . وتوصلنا قلبتان من الدرج (الأولى تحتوي على ٨ درجات والثانية . درجات بالترتيب) إلى بسطة في الزاوية الشمالية الشرقية . وبعد درجتين أخريين في الجانب الشرقي نصل إلى نهاية الجزء المربع ؛ وبداية الجزء الدائري من الحفرة . الذي يبلغ قطره ٣٥ر٤ مترا ، وعمقه ٩ر٢ مترا . وتؤدي الدرجات الثمانية إلى القاع محفورة في القطاع الجنوبي الشرقي .

ويحمل جوانب الحفرة الأربعة ارتدادات مقنطرة، في نفس مستوى البسطة في الجانب الغربي . وكل ارتداد مغطى بعقد ذي قوس مدبب ؛ يرتكز على زوج من الأعمدة الصغيرة نصف الظاهرة ذات التاج والقاعدة المخروطيتين . وتوجد في الجانب الشرقي من الحفرة وفي نفس المستوى بسطة عرضها ٤٩ سم وارتداد مشابه للارتداد المقابل ، عرضه ٨٤ر١ مترا ، وعمقه ٨٥ سم . ونجد في الخلف فتحة النفق من النيل . وترينا

القياسات الدقيقة أن الأقواس المدبية لهذه الارتدادات أقيمت من مركزين ، يبعدان عن بعضهما مقدار ⅕ الباع ، أي أن هذه الأقواس ، هي ما يسميه المهندسون القوطيون « نقطة النسق » ، ولكنها أقدم من المثال



(شكل ــ ٦٠) القاهرة ــ مقطع مقياس النيل

القوطي بثلاثة قرون . وتوجد تحت هذا الارتداد فتحة النفق الثاني من النيل . أما النفق الثالث من النيل ، فعرضه ٥٢ سم ، وارتفاعه ٣٥ر١مترا، وينفتح على القسم الدائري على ارتفاع ٢٦ سم عن القاع (شكل ٦٠).

عمود القياس واقسامه :

عمود القياس هو ساق مثمن طويل ، طول ضلعه حوالي ١٨ سم ، وقطره ٤٨ سم. وفي قمته تاج مركب.إنه مقسم إلى ١٦ ذراعا (بمتوسط ٥٤ر٠٤ سم لكل منها) بواسطة خطوط عرضانية . كما أن كلا من الأقسام العشرة العليا مقسم بدوره إلى ٢٤ قيراطا ، بواسة ، ٢٤ علامة . وتشكل كل أربعة أقسام مجموعة بعد أخرى بالتناوب ، على أحد جانبي خط عمودي . والعمود مكسور في مكانين (١) في الذراع الثاني عشر مما أنقص طوله إلى ٥ر٢٢سم ، وذلك بين عام ١٧٩٨ وعام ١٨٥٣ (٢)عند اتصال الذراعين السادس عشر والسابع عشر مع بقاء طولهما على حاله دون تغيير .

يرتكز العمود على قاعدة ، مساحتها ٨٣ سم^{2} . وارتفاعها ١٧ر١ مترا . وهذه ترتكز بدورها على رحى طاحونة صواني . قطره ٥ر١ مترا، وسمكه ٣٢ سم في وسطه ثقب مربع لتثبيت محور خشبي لدفعه فيما لو استعمل للغرض الأصلي منه . والارتفاع الاجمالي ١٩ ذراعا للعمود قبل انكساره والقاعدة (١٧ر١ مترا) ورحى الطاحون (٣٢ سم) .

والغرض من هذا الرحى ، هو توزيع ثقل العمود فوق الأرض المصنوعة من الخشب . وهناك زوجان من الجذوع المحضرة جزئيا . التي يبلغ مقطعها ٦٥ × ٣٣ سم ، مثبتة ومعشقة بالتصالب . وقد صنعت حافات على الوجوه العلوية لهذه العوارض من أجل أطوال قصيرة من

الألواح الخشبية ، سمكها ٧ سم وبهذا تتشكل أرضية مستوية دائرية. وعلى السطح الخارجي لهذه الألواح بني جدار الأسطوانة الحجرية بارتفاع ٢٫٠٩ مترا . وهو يشكل الجزء السفلي من الحفرة . وقد أرسلت نماذج من الخشب (تفوح من شظاياها رائحة خشب الأرز) إلى كيو ، حيث تقرر أنها من خشب تين الجميز (الدلب).

العارضة :

إن مهمة الحفاظ على العمود في وضع شاقولي ، تماما ، كانت في الأصل تؤديها عارضة رآها فورمنت (١٧٤٧ ــ ١٧٥١) في مكانها . وقد قال ما يلي « وعلى سماكة هذه العارضة والجانبين توجد كتابة باللغة العربية نقرأ فيها أن هذا البناء شيد في عام ٢٤٧ هـ (٨٦٢ م) » .

وصف ابن خلكان :

يقدم لنا ابن خلكان[1] في كتابه (وفيات الأعيان) وصفا لأبي الرداد . وهو هام جدا لتأريخ البناء الحالي . يقول أنه كان مسؤولا عن « مقياس النيل الجديد » ويضيف إن « مؤسسه هو أحمد بن محمد الحاسب بناء على أوامر المتوكل » . كتب الخليفة المتوكل يقول بوجوب نقش آيات من القرآن مناسبة لمقياس النيل وكذلك اسم الخليفة . ويأتي بعد ذلك الكتابات التي نقشت على مقياس النيل . وأهم نقش (مبتدىء حول الجوانب الأربعة للحفرة قرب طرفها العلوي) بدأت بالآية ١٤ــ٣٧ سورة ابراهيم وانتهت «مقياس السعادة والنعمة والخلاص الذي أمر ببنائه عبدالله جعفر الإمام .. على يدي محمد الحاسب في عام ٢٤٧هـ

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان .

(٨٦١ ـــ ٨٦٢ م) » ولذلك فان مقياس النيل تأرخ ذات مرة بالتحديد في عام ٢٤٧ هـ بالنقش على العارضة والكتابة التي امتدت على جدران الحفر الأربعة . وقد تم التلاعب لأن الجزء التاريخي قد أزيل واستبدل بآيات قرآنية رغم أنه لا يزال بالامكان رؤية الجزء الأول على الجانبين الشرقي والشمالي من الحفرة . ولما كانت الحروف الكوفية في الجزء التاريخي مشابهة للبقية رغم قلة اتقانها ، فمن المرجح أنها ليست بعدها بفترة طويلة . ولما كان من المعروف أن ابن طولون قام ببعض الأعمال في مقياس النيل في عام ٢٥٩ هـ (٨٧٢ ـــ ٨٧٣ م) ؛ ولما كان قــد رفض الاعتراف بسلطة الخليفة وأصبح حاكما مستقلا لمصــر في هذه الفترة تقريبا ، لذلك أقترح أن إزالة الجزء التاريخي من النقش واسم الخليفة يعود إليــه .

ولا حاجة بنا للقول بأن مقياس النيل هذا لا علاقة له بالمقياس ، الذي بناه أسامة في عهد الخليفة الوليد (٧١٥ م) لأن يوتيكيوس الذي كتب في عام ٩٣٩ م يسميه « المقياس الجديد » لأن القــديم قد توقف استعماله . وكذلك يقول ابن الداية وياقوت والمقريزي الذي يقول بان المقياس الذي انشأه اسامة قد جرفه الماء .

مسجد القيروان الكبير

اعمال ابو ابراهيم احمد في عام ٢٤٨ هـ (٨٦٢ ـ ٨٦٣ م) :

علينا الآن أن ندرس ذلك الجزء من المسجد ، الذي نسبته أعلاه إلى عام ٢٤٨ هـ ، أي المحراب والقبة التي أمامه .

المحراب (لوحة ٦١) :

إنه ارتداد عرضه ١٫٩٨ مترا ، وعمقه ١٫٥٨ مترا ، وقوسه حدوي ، على جانبيه عمودان من الرخام الأحمر البرتقالي . وقوسه الأمامي مرتفع ومدبب قليلا ، ويبرز من ارتفاع ٢٫٩٣ مترا ويصل إلى ارتفاع ٤٫٥٦ مترا . وزخرفته الداخلية والخارجية رائعة وفي بعض النواحي مزيدة .

لنبدأ بالارتداد المكسو بسلسلة من الألواح الرخامية (بعضها نقش مخرم) المجموعة في أربعة أنساق ، يبلغ ارتفاعها ٢٫٧٢ مترا (لوحة ٦٢ ب) . وهناك ٧ ألواح رئيسية في كل نسق ، تفصلها ٦ أشرطة عمودية بعرض ١١ سم . وعلى طرفيها الأيمن والأيسر عند العمودين الجانبيين شريطان ، بعرض ٢٣ سم . ولذلك هناك ٢٨ لوحا رئيسيا ، سماكة كل واحد ٤ سم ، وهي ليست مرصوفة على مسافة بضعة سنتمترات عن الظهر المنحني للمحراب السابق ، كما تريدنا قصة البكري أن نعتقد . في الحقيقة تم عن قصد ترك فراغ مجوف خلف هذه المواضع ، حيث يوجد لوح مخرم النقش لزيادة تأثيره . ولكن على أطراف مثل هذه الألواح ، نرى الآجر ملاصق لرخام الكسوة . فلذلك لو أزيل

الرخام ، لوجدنا سطحا منحنيا متوافقا معه ، وبقعا مفرغة حتى عمق حوالي ١٥ سم في تلك الأماكن ، التي تقابل اللوح المخرم النقش .

ومن الواضح أن الناس بدأوا، تدريجيا بالاستنتاج أن هذا الجدار القديم في الخلف ، كان محرابا قديما ولذلك ــ كما يقول مارسيه ــ فان الجدار القديم « الذي يراه المرء في الظلام دون الوصول إليه أصبح جدارا مقدسا ، وأن أسطورة محراب عقبة تطورت بطريقة مبتذلة . » وأدت إلى قصة البكري . وبالاضافة إلى ذلك فمن المستحيل أن يكون لمسجد عقبة (عام ٥٠ هـ) محراب مقعر .

والقبة المماثلة ذات بانة خشبية ، مغطاة بكسوة من نوع ما ، تعلوها الزخرفة الملونة المؤلفة من لفائف الكرمة التي تشكل العقد ، والمملوءة في معظم الحالات بورقة عنب خماسية الفصوص ، وعنقود من العنب وهذا يذكرنا على الفور بالمشتى . ونجد في حالته الراهنة التصميم بلون بني صفراوي ، فوق خلفية سوداء .

البلاط اللماع :

وجه قوس المحراب والمستطيل المحيط به (بعرض ٥ر٦ مترا وارتفاع ٧ر١ مترا) ، مزين بالبلاط اللماع من الصلصال الأبيض الصفراوي الجميل ، بمساحة ١ر٢١ سم² وسماكة سنتمتر واحد . هناك ١٣٩ بلاطة كاملة وحوالي ١٦ قطعة . والبلاطات المكونة للاطار مرصوفة على هيئة معينات ، لكي تشكل نموذج لوحة الشطرنج المائلة ولكن البلاطات التي تزخرف وجه القوس مرصوفة بدون انتظام . والكثير منها معكوس ومن الواضح أنه لم يقصد منها أن ترصف كما هي الآن ، وليست مصنوعة لشغل المكان الذي تشغله الآن .

وهي تنتمي إلى صنفين متميزين أحدهما يمكن وصفه ، تقريبا ، بأنه متعدد الألوان، والثاني وحيد اللون، ونصادف أحيانا بعض العناصر الزخرفية التي تذكرنا بزخرفة سامرا .

إن مارسيه هو الذي حسم نهائيا السؤال المختلف عليه بشأن تاريخها . فهو يشير إلى أن ابن ناجي في كتابه معالم الايمان ينقل عن النجيبي (الذي مات عام ١٠٣١ م) ما يلي : « صنع [الأمير] المحراب . لقد استوردوا له هذه البلاطات الثمينة لقاعة الاستقبال ، التي كان ينوي بناءها ، واستوردوا له من بغداد خشب الساج لصنع الأعواد ، التي صنع منها منبر المسجد الكبير . وقد أمر بإحضار المحراب من العراق على هيئة ألواح من الرخام وقد أقام هذا المحراب في مسجد القيروان الكبير ، ووضع على وجه المحراب بلاطات القيشاني . »

والأمير الذي يتحدث عه هو أبو ابراهيم أحمد (٨٥٦ــ٨٦٣م) . ولقد علمنا من ابن العذاري أن أحمد أتم الأعمال في المسجد في عام ٢٤٨ هـ (٨٦٢ ــ ٦٨٣ م) ، ولذلك يمكن اتخاذ هذا العام كتاريخ مضمون لزخرفة المحراب بالألواح الرخامية والبلاطات والمنبر نفسه . وهكذا تتخذ هذه البلاطات مكانها كأقدم أمثلة معوفة من الفخار اللامع (السيراميك او القاشاني) الذي يود لتاريخ محدد .

القبة امام المحراب :

إنهاترتكز على ثلاثة أقواس حرة وقوس جداري (لوحة ٦٤) . وتنبثق الأقواس على ارتفاع ٧٧ر٥ مترا وترتفع الى ١٥ر٩ مترا . والمربع الذي ينتج عن ذلك ينتهي بطنف ترتفع حافته العليا عن الأرض ٨٣ر١٠ متراً . والأقواس الحاملة للقبة مدببة وحدوية قليلاً ، ويبلغ أقصى باعها

٥٫٩٥ متراً عند مستوى الانبثاق • وكل سبندل مملوء بحنية مقنطـرة مزخرفة بعناية يتناقصان بصحنين في الحجـم مـع استدقاق السبندل • ويوجد فوق ذلك افريز خشبي بعرض ١٥ سم • مزخرف بالكتابة الكوفية باللون الأحمر •

والمنطقة الانتقالية المثمنة التي يبلغ ارتفاعها ٢٫٥١ متراً تتشـكل بواسطة أقواس نصف دائرية تنبثق من أعمدة نصف مطمورة • ترتكز على ركائز صغيرة مغمورة في الطنف (لوحة ٦٣) • والمثمن يقترب من الدائرة بواسطة ٤ اسقنشات جنينية • والأقواس الثمانية تشكل بانوهات قليلة العمق والاربعة التي تقع فوق الزوايا تخترقها اسقنشات محاريـة ذات ٩ فصوص ، وكفافهـا ذو الفصوص التسعة يتكـرر في البانوهات الأربعة التي تتناوب معها • وفي كل إطار ينتج عنها توجد نافذة ذات ٦ فصوص •

والرقبة التي يبلغ ارتفاعها ١٫١٩ متراً مؤلفة من ثمانية نوافـذ ، مقنطرة ارتفاعها ٩٧ سم ومن ١٦ بانوهاً مقنطراً من نفس الارتفاع مرتبة ترتيباً زوجياً بين النوافذ • وتنتهي هذه المنطقة بطنف على ارتفاع ١٤٫٥٣ متراً عن الأرض •

وقطر القبة يبلغ ٥٫٨٠ متراً وقد بنيت من ٢٤ ضلعاً ، كل منها ينبثق من ركيزة صغيرة وبين الأضلاع قطع مقعرة ، لا يقل عمقها عن ٣٠ سم في القاعدة تتلاشى إلى لاشيء في القمة • وفي الخارج فإن منطقة الانتقال محاطة بمستطيل من البناء ، مساحته ٧٫٦٢ م٢ ، وارتفاعه ٢٫٩٥ متراً ، وأطرافه محمولة بأربع بانوهات قليلة العمـق ذات رؤوس حدويـة • وتوجد فوق هذه الكتلة الرقبة التي تعامل على أساس مثمن ذي جوانب مقعرة ، قليلاً ، بدلاً ، من كونهـا دائرية كما رأينا في سوسة قبـل ١٢

عاماً . وتعامل القبة خارجياً مثل بطيخة صفراء ذات ٢٤ ضلعاً محدبـاً جداً (تقابل الأخاديد الداخلية المقعرة) تنتهي إلى لا شيء في القمة .

التاريخ :

رأينا سابقاً أن القبة أمام المحراب ، لابد وأن تعود إلى نفس تاريخ الأقواس التي « تبطن » الجناح المركزي . والحقائق ، والتي يذكرهـا مارسيه لتأييد نسبتها إلى زيادة الله في عام ٢٢١ هـ (٨٣٦) كلها تناقض ذلك . انه يقول : « الطراز هو فعلاً طراز الحفر على ألواح رخام حنية المحراب [وقد رأينا أن هذه الألواح أتت مـن العراق في عـام ٢٤٨ هـ (٨٦٢ ــ ٨٦٣ م)] ، والحفر على العوارض والأطناف المائلة في الجناح الجنوبي في الحرم [رأينا أن أجنحة الحرم ، مددها ابراهيم الثاني بعـد عام ٢٦١ هـ (٨٧٥)] . وهو أيضا الـذي يسود في مسجد الأبـواب الثلاثة » .

والأخير مؤرخ بعام ٢٥٢ (٩٦٦ م) . وهكذا فإن الحقائق الثلاثة التي يذكرها مارسيه كلها ، تشير إلى تاريخ لاحق لعام ٢٢١ هـ ، وتـدل على أبي ابراهيم أحمد في عام ٢٤٨ هـ (٨٦٢ ــ ٨٦٣ م) .



مسجد الابواب الثلاثة في القيروان

في منتصف المسافة تقريبا بين بوابة القيروان الجنوبية والمسجد الكبير ، يوجد مصلى صغير ، يعرف باسم جامع تليته بيبان أو مسجد الأبواب الثلاثة بسبب واجهته التي تتألف من أقواس تحيط بثلاثة مداخل تنفتح مباشرة إلى الشارع (لوحة ٦٥) . يبلغ ارتفاع هذه الواجهة ٦٫٩ مترا وهي في نفس الوقت واجهة المسجد وواجهة الحرم لعدم وجود صحن . وتتألف الأقواس من أحجار طويلة ضيقة ، تتشعب من نقطة تحت المركز . وتنبثق الأقواس على ارتفاع ٢٫٧٨ متراً من أعمدة نصف ظاهرة ، فوقها كتل المستقر ذات قوالب زخرفية مفلطحة السطح في الأعلى والأسفل ، وتذكرنا بأقواس حرم المسجد الكبير ، وهي مدببة وحدوية قليلاً مثل الأقواس الحاملة للقبة في المسجد الكبير وتلك التي تبطن الجناح المركزي

والسبندلات مملوءة بأوراق شبه نخلية داخل عقد ، تشكلها حلقات تعلق النباتات ولكن من الواضح أن الطرف العلوي من هذه الزخرفة قد اعتراه التشويه . وكما يشير مارسيه فإن القسم العلوي قد أزيل لافساح المجال للكتابة المؤرخة في عام ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ ــ ١٤٤١ م) . والتي تمتد عبرها . وفوق هذا توجد ثلاث أشرطة من الزخرفة القائمة بين قوالب زخرفية الأول والثالث تشغلها كتابة كوفية ، تاريخها ٢٥٢ هـ (٨٦٦ م) والكل متوج قائم بطنف على ٢٥ ركيزة . تذكرنا بالركائز فوق المداخل

الجانبية في مسجد سوسة الكبير .

ولكن لو تراجعنا إلى الوراء ، ونظرنا الى الواجهة ككل ، نلاحظ أنها خضعت لتغييرات أكبر لأن كل الزخرفة المذكورة أعلاه ــ كما يشير ماسيه ــ قد نقلت إلى اليمين عند بناء المئذنة .

أما الداخل فلا طابع مميز لــه ، وهو حديث على ما يبدو . عندما كتب ماسيه كان له سقف خشبي ، ولكنه الآن مقنطر بالآجر .



الفصل الثامن عشر

اعمــال احمد بن طولون

كان طولون ــ والد أحمد ــ عبدا تركيا ، أرسله حاكم بخاري إلى الخليفة المأمون عام ٢٠٠ هـ (٨١٥ ــ ٨١٦ م) ، وتلقى والده أحمد ــ الذي ولد في عام ٨٣٥ ــ ثقافة استثنائية بالنسبة لولد في مثل وضعــه وأغدق عليه الخليفة أفضالا كثيرة ، وقــد أرسله زوج أمه من سامراء إلى مصر عام ٨٦٨ لحاكم مدينة الفسطاط عاصمة الاقليم وليس حاكمــا للاقليم ، وفي عام ٨٦٩ آلت إليه حاكمية مصر كلها .

تاسيس القطائع :

وجد أحمد ــ الذي سكن حتى الآن في دار إمــارة العسكر ــ أن الفسطاط ودار الامارة صغيرة جــدا بالنسبة للعــدد الكبير من جنوده وأتباعه ، ولذلك أقدم على إنشاء ضاحية جديدة في عام ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) والمساحة التي غطتها ، تتوافق تقريبا مع المنطقة الحالية ، التي تحدهــا من الشرق القلعة ومن الشمال شارع الصليبية الذي يمتد من القلعة الى السيدة زينب ومن الغرب قلعة الكبش ، ومن الجنوب هناك خط يمتد من الشرق إلى الغرب شمال القناة الكبرى .

قصر الميدان :

في نفس الوقت أمر ابن طولون ببناء قصر بالاضافة الى ميــدان

اللعب الصولجان . عرف باسم الميدان
في رأي ابن دقماق والمقريزي ، هو ما يعرف الآن بميدان الرميلة تحت التل الصخري الذي بنيت عليه القلعة فيما بعد ، وأمامه ميدان يمتد حتى المسجدالذي بدأ بناءهقبل بضعة سنوات.كانت هناك ٩ بوابات للقصر سميت إحداها باب الصلاة ، تنفتح على طريق عريض يؤدي الى مسجد ابن طولون ، على بعد حوالي ٦٠ متراً ،كما كانت هناك بوابة ثلاثية سميت باب الميدان . وعندما كان الجيش يخرج ، كان ابن طولون يمتطي جواده ويخرج وحده من القوس الأوسط . بينما يخرج الجيش من القوسين الجانبيين .

وفي عام ٢٥٩ هـ (٨٧٢ ـ ٨٧٣ م) أنشأ ابن طولون مستشفى مخصصا للمدنيين وأوقف عليه الأموال . وأنشأ قناة للماء لاتزال قائمة : وبنى برجها الآجري في قرية البساتين الواقعة على بعد ميلين من القلعة إنه بناء مجوف من الآجر يبلغ ٢٠ر٥ متراً من الشرق الى الغرب . و ١٠ر٢٤ مترا من الشمال الى الجنوب ارتفاعه ١٠ر٥ مترا (أي نسب مكعب مضاعف) . والحفرة المركزية تبلغ ٤ر٧٤ × ٤ر٠٧ مترا ، والمنبسط يكفي لثورين يجران راويتين .. والقناة التي تتجه نحو الشمال هي الآن في حالة سيئة .

مسجد الميـــدان

أو مسجد أحمد بن طولون

هذا المسجد الهام ــ أعظم أعمال ابن طولون ــ لايزال قائماً حتى اليوم بحالـة جيدة . في يوم مـن الأيـام كنـا نعتمد على المقريزي (١٤٢٤) . وبدرجة أقل على ابن دقماق من أجل تاريخ المسجد . ولكن لدينا الآن مصوراً أقدم بكثير وهو كتاب البلوي المسمى سيرة أحمـد بن طولون ، المكتوب في أوائل القرن الحادي عشر ، والذي نشـره في دمشق المرحوم كرد علي في عام ١٩٣٩ م .

التاريخ :

بعد أن تذمر الناس بأن ليس هنـاك مكـان كاف « في المسجـد القديم » ، أي مسجد عمرو في أيام الجمعة قرر ابن طولون بناء مسجد جديد واختار بروزا صخريا يسمى جبل يشكور كموقع له . وكان بناء المسجد بالعضائد تجديدا أنتج تفسيرين ، شائعين ، ويعطيـنا ابن دقماق والمقريزي أحد التفسيرين ، الذي يقول إنه من الآجـو لأن الأعمـدة والمقريزي أحد التفسيرين ، الذي يقول إنـه من الآجـر لأن الأعمـدة الرخامية لا تستطيع تحمل النيران . ولكن البلوي[1] يقول إنه قيـل لابن طولون أن المسجد يحتاج الى ٣٠٠ عمود « ما تجدها أو تنفـذ الى إلى الكنائس في الارياف وفي الضياع الخراب ، فتحمل اليك . فأنكره ولم يختره ، وتعذب قلبه بالفكر في أمره ، وبلغ النصراني وهو في المطبق

---

(١) البلوي سيرة احمد بن طولون ١٨٢ تحقيق محمـد كـرد علي طبعة دمشق ١٣٥٨ .

الخبر فكتب اليه يقول : أنا أبنيه للأمير أيده الله ، كما يحب ويختار ، بلا عمود ، إلا عمودي القبلة ، فأمر أحمد واحضره فادخل اليه قد شعث شعره حتى سقط على وجهه ، فقال له ما تقوله ويحك في بناء الجامع ؟ فقال له : أنا أصوره للامير حتى يراه عيانا بلا عمودي القبلة ، فأمر بأن تحضر له الجلود وصوره له » ويتابع البلوي قائلا ان ابن طولون « أعجب به واستحسنه فأطلقه وخلع عليه واطلق له النفقة »[1] .

هذه القصة تتمتع بكل مظاهر الأسطورة الموضوعة ، لتفسير استعمال العضائد ، الذي كان تجديدا في مصر بينما يفسر استعمالها أن ابن طولون جاء من سامراء حيث رأينا استعمالها في مسجدين كبيرين ، يقومان على زوج من الاعمدة قبل سنوات قليلة فقط .

الفوارة :

توجد في وسط الصحن نافورة يصفها ابن دقماق كما يلي : « وكانت الفوارة في وسط مشبكة من جميع جوانبها وفوقها قبة مذهبة على عشرة عمد رخام وسته عشر عمود رخام في جوانبها كلها مفروشة كلها بالرخام وتحت العتبة قصعة رخام فتحتها أربعة اذرع في وسطها فوارة تفور بالماء وعلى سطحها علامات للزوال وسطحها بدرابزين ساج »[2]

هذه الفوارة احترقت عام ٣٧٦ هـ (٦٨٦ م)، ويبدو من الوصف السابق أنه كانت هناك قبة خشبية ترتكز على دائرة مؤلفة من ١٠ أعمدة

---

(١) أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي : : سيرة احمد بن طولون تحقيق كرد علي ط دمشق ١٣٥٨ ص ١٨٢ .

(٢) ابن دقماق : كتاب الانتصار لواسطة عقد الامصار الجزء الرابع ص ١٢٣ .

وحولها سقف منبسط قائم على الدائرة الخارجية ذات الأعمدة الستة عشر

الميضاة :

خلف المسجد (أي في الجزء الشمالي الغربي بنى ابن طولون ميضأة ، ويبدو أن الناس تذمروا من موقعها خارج المسجد ، ولكن ابن طولون قال أنه بناها هناك عن قصد لكي يبقى المسجد طاهراً . هذه المعلومات ترينا أن الغرض من الفوارة لم يكن الوضوء كما يمكن أن تتخيل . وإنما الغرض جمالي بحت .

دار الإمارة :

يقول المقريزي[1] : راح أحمد بن طولون ونزل في الدار التي عملها فيه للامارة وقد فرشت وعلقت وحملت اليها الآلات والاواني وصناديق الاشربة وما شاكلها فنزل بها أحمد وجدد طهره وغير ثيابه وخرج من بابها إلى المقصورة المجاورة للمحراب والمنبر [هذا الباب لايزال قائماً] .

التاريخ :

يبدو أن بناء المسجد بدأ في عام ٢٦٣ هـ (٨٧٦ — ٨٧٧ م) رغم أن هناك روايات أخرى ، ولكن ليس هنالك شك حول الانتهاء منه . لأن هذا مذكور في نقش الأساس رمضان ٢٦٥ هـ (نيسان — مايس ٨٧٩ م) .

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٢٦٦ .

التاريخ اللاحق :

بحلول النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، أصبح المسجد مهملا تماماً ، واستخدم كمعسكر لحجاج شمالي أفريقيا في طريقهم إلى مكة . في عام ١٢٩٦ عندما قتل لاجين السلطان الأشرف ، هرب واختبأ في المسجد لمدة عام كامل . يقول المقريزي[١] « وصار لاجين يتردد بمفرده من غير أحد معه في الجامع وهو حينئذ خراب لا ساكن فيه » .

ويقول ابن لاجين[٢] « لكونه لما قتل الملك الاشرف هرب واختفى فيه سنة فلما من الله عليه بالخلاص نذر ان أعطاه الله حكماً ومالا عمر هذا الجامع واوقف عليه وقفا جيدا فلما من الله عليه بالمملكة وفى بنذره واهتم في عمارته »

الوصف العام :

يدهش مسجد ابن طولون المرء بحجمه الكبير، وبساطة مخططه الرائعة. ويصعد المرء المنحدر ليصل إلي أبوابه ، كما يصعد بضع درجات ليدخل الزيادات ومن الزيادة يصعد في قلبه درجات أخرى ، ليصل المسجد نفسه . هذا التدرج المتتالي في المستويات يذكرنا بقصر بلكوارا في سامراء .

وعند الدخول يشعر المرء بجو من الهدوء والسكينة والعزلة التامة عن ضوضاء الشارع ، بزخرفته البسيطة وجوه التعبدي . كما أن

(١) المقريزي : الخطط جزء (٢) ص ٢٦٨ .
(٢) هو الملك حسام الدين لاجين المنصوري .
(٣) ابن دقمان : مصدر سابق ص ١٣٤ .

مصبعات نوافذه ـ في ظل الأروقة ، تنتصب تجاه السماء كأعمال الزركشة الدقيقة وتضيف إلى فتنته ويمكن رؤية ترتيب المسجد من المخطط (شكل ٦١) ، والمنظر العام (لوحة ٦٦) المأخوذ من مئذنة مدرسة الأمير صار غيتميش يتألف المسجد من صحن مساحته حوالي ٩٢ م٢ محاط بالأروقة التي يبلغ عمقها ٥ أجنحة في الجانب القبلي ، وجناحان في الجوانب الثلاثة الأخرى • هذا الجزء ـ أي المسجد نفسه ـ محاط بجدار خارجي ذي زخارف علوية رائعة ، ويشكل بالتالي مستطيلا عرضه ١٢٢٫٢٦ متراً وبعده ١٤٠٫٣٣ متراً • وهو محاط بفناء خارجي أو زيادة ، ماعدا الجانب الجنوبي الذي ـ كما رأينا ـ كان مشغولا بدار الإمارة هذه الزيادة الخارجية يبلغ عرضها ١٩ متراً تقريباً ، وجدرانها الخارجية أكثر انخفاضا من جدران المسجد نفسه • وبمجموعه يشكل مستطيلاً بعده ١٦٢ متراً ، وعرضه ١٦٢٫٤٦ متراً ،ولذلك فإن مساحته تبلغ ٢٦٣١٨ م٢ •

المواد :

المسجد بكامله مبني من الآجر الأحمر الممتاز بحجم ١٨ ـ ١٩ × ٨ ـ ٨٫٥ × ٤ ـ ٤٫٥ سم ، وملاط سمكه حوالي ٢٫٥ سم وكلها مكسوة بجص أبيض صقيل وصلب حفرت عليه الزخارف • والرباط الآجري هو المعروف لدى المعماريين الانجليز « بالرباط الانجليزي » أي مداميك من الرؤوس تتناوب مع مداميك من الأطوال .

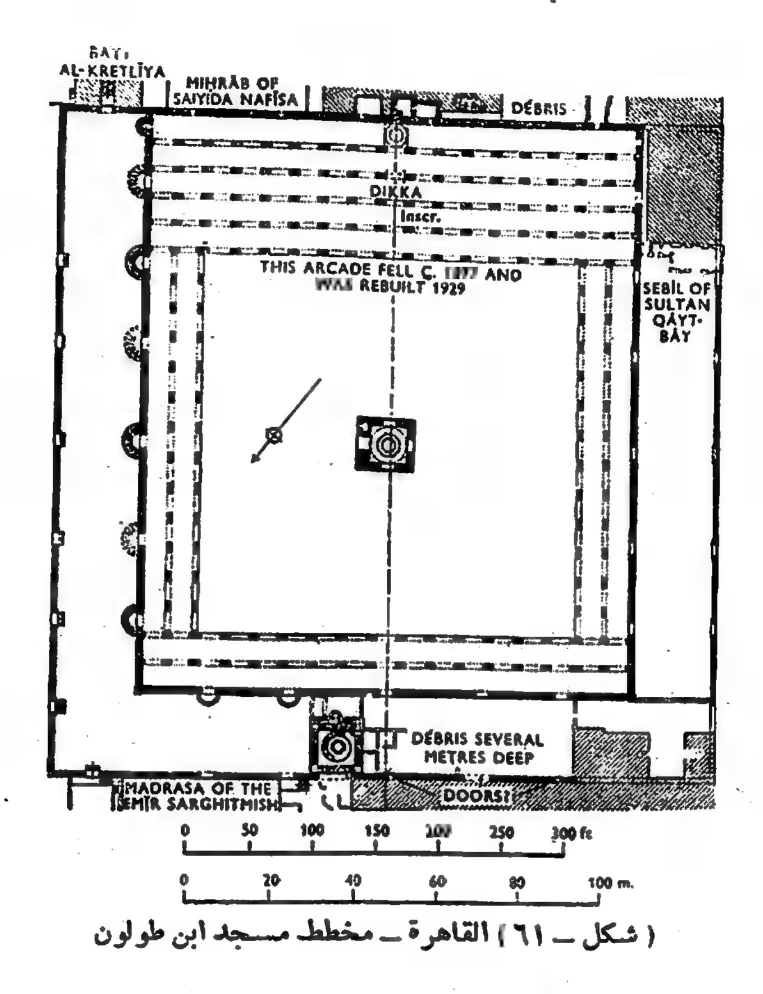
الزيادات :

يعرف كل جانب من الفناء الخارجي للمسجد نفسه بالزيادة ؛ والغرض منها حماية المسجد نفسه من التماس المباشر مع الأبنية الدنيوية

للمدينة . وقد رأينا سابقاً أنها كانت تحتوي على مراحيض وميضآت الخ ولكن البناء الوحيد فيها حالياً هو المئذنة الرائعة والجدران الخارجية ارتفاعها حوالي ٨ متراً وسمكها ١٫٣٢ متراً ولا بد من ذكر ميزة بارزة وهي أن الجزء المركزي من جدار الزيادة الشمالية الغربية الذي يقابل المسجد نفسه أعلى من البقية بمقدار ١٫١٣ متراً .

هذه الزيادات يجب اعتبارها مماثلة للفناء الخارجي لمعابد الساميين والتي شاهدها الفاتحون العرب عندما دخلوا دمشق . والغرض من هذا الفناء الخارجي هو بلا ريب فصل المعبد نفسه عن الأبنية الدنيوية في المدينة . والمخطط العام للمدن الهيلينستية في سورية ، هـو أن تلتقي الشوارع الأربعة الرئيسية الممتدة في الاتجاهات الرئيسية في مركـز الجوانب الأربعة للمعبد . وبصورة مشابهة في أقدم المساجد الإسلامية ، كما في الكوفة مثلا التقت الشوارع الرئيسية في جوانب المسجد الثلاثة ، لأن الجانب القبلي بالطبع تشغله دار الإمارة . ونفس الوضع نجده في مسجد عمرو ومن الواضح من أسماء بواباته أنها كانت في نهاية الأسواق (بوابة بائعي الشراب) ـ بوابة الحلوانيين ـ بوابة سوق الغزل ـ بوابة صانعي العباءات) .

ولذلك على المرء أن يستنتج أن أبواب مسجد ابن طولون الخارجية هي نهاية الأسواق المتعامدة على جدرانه الخارجية ، وأن هذه الزيادات استخدمت لعزل المسجد عن الاتصال بها . ولذلك فـإن اخـلاء منطقة واسعة ـ قبل حوالي ٣٠ سنة ـ حول المسجد والتي كلفت أموالاً طائلة لكي يتم فصل جدارن الزيادات قائم على تصور خاطىء ولا يمثل الوضع الأصلي بحال من الأحوال



(شكل ــ ٦١) القاهرة ــ مخطط مسجد ابن طولون

المداخل الخارجية :

إنها مجرد فتحات مستطيلة في الجدران ، لأن المداخل التذكارية للمساجد لم تظهر بعد هذه الجدران الخارجية بسيطة جداً ، ماعدا زوج من العصابة (الكورنيش) يعلوها صف من الدوائر داخل المربعات وعندما تحررت الزيادات على بعد أكثر من متر من بقايا البنائين قبل أكثر من ثلاثين سنة وجد أن عتبات أبواب المسجد نفسه تعلو عن مستوى

الزيادة بمقدار ١٫٤٦ ــ ١٫٨ متراً وأن الوصول إليها في الأصل كان يتم بواسطة حنية درج نصف دائرية ، لأن بقايا أدني درجتين من هذه القلبة كانت لاتزال قائمة أمام الباب الثالث من اليسار . وقد تم بناء معظم هذه الدرجات فيما بعد حسب وضعها الأصلي .

واجهة المسجد نفسه :

المخطط كما يلي : الجزء السفلي من الجدار (الذي يخترقه باب صغير و٦ أبواب كبيرة) بسيط تماماً ، لأن قوائم الابواب على مستوى الجدار . يبلغ متوسط عرض الابواب الكبيرة ٢٫٣ متراً وارتفاعها ٤٫٢ متراً . وفوق هذه الابواب صف من ٣١ نافذة ،ذات أقواس مدببة ،وترتفع عتباتها ٥٫٧ ــ ٥٫٨٦ متراً فوق أرض المسجد (لوحة ٦٧) وفي المكان الذي تلتقي فيه أجنحة المسجد الخمسة ورواقا الجانب الشمالي الغربي، بالوجه الداخلي للجدار ، وكان من الضروري زيادة ارتفاع النوافذ من ٨٫٣ مترا إلى ٦٫٦ مترا . وقد أعيد التوازن ، وبدا مظهر الانتظـــام . بصنع ارتدادات بسيطة نصف دائرية . لها . نفس شكل النوافذ . ولكن حجمها أصغر قليلاً .

وترتكز أقواس هــذه النوافذ الإحدى والثلاثين . والانحناءات السبعة على أعمدة قصيرة وبدنينة نصف ظاهرة وبدون تيجان . وما عدا ذلك ليست فيها أية أطراف زخرفية . والمسافات بين النوافذ والارتدادات تشغلها انحناءات أصغر ذات أغطية أخدودية مبنية بشكل يجعل قممها على خط واحد مع قمم النوافذ . والجدار متوج بعصابتين على ارتفاع ١٠٫٠٣ متراً وفوقهما صف من الدوائر المثقوبة في مربعات . تماماً كما في حالة الجدار الخارجي . يبلغ عرض هذا الشريط بقوالبه الزخرفية متراً واحداً وهو متوج بزخارف مخرمة غريبة تضيف ٢ متراً إلى الارتفــاع .

بحيث يبلـغ الارتفاع الإجمالي ١٣٫٠٣ متراً فـوق عتبات الأبواب . ويبدو أن المهندس وصل إلى تصميمه بتنصيف الواجهة أفقياً ثم اتخـذ خط الوسط كمستوى لعتبات النوافذ .

المداخل :

مداخل المسجد نفسه بسيطة جداً . مثل المداخل الخارجية . كانت هناك ٧ مداخل في الجانب الشمالي الشـرقي والجانب الجنوبي الغربي و ٥ في الجانب الشمالي الغربي ، وبذلك يبلغ عددها الإجمالي ١٩ مدخلا قائمة بشكل تتوافق كلها مع باب في الجدار الخارجي باستثناء الأبواب الصغيرة في أطراف الجناح الخلفي للحرم . والفتحة مسقوفة بصف من جذوع النخل ، منشورة في الوسط ، وموضوعة وطرفها الدائري نحو الأعلى ، وبعدهـا مغلفة بالخشب ذي الجوانب البسيطة ، بينما تغطي الزخرفة المحفورة الوجه السفلي . وقد بقيت الزخرفة المحفورة الأصلية في ٤ أماكـن فقط : في الباب الأول والثاني الكبير في طرفي الحـرم (لوحة ٦٨) . وفوق هذا الساكف المركب يوجد قوس حامل من الآجر كما في سامراء . وهناك ٤ أبواب أيضاً في الجانب القبلي .

الداخل :

يتألف من صحن مساحته ٩٢ م٢ تقريباً و ١٣ قوسا مدببا في كل جانب (لوحة ٦٩) . أما الحرم فيتألف من ٥ صفوف في كل منها ١٧ قوساً تصل حتى الجدران المقابلة بينما يتألف الرواق المقابل من صفين فقط .

ولكن أقواس الأروقة الجانبية تستند على أقواس الحرم الخارجية وأقواس الرواق الشمالي الغربي وبالتالي تتألف من ١٣ قوساً فقط . هذه الأقواس ترتكز على عضائد عرضها ٢٫٤٦ متراً وعمقها ١٫٢٧ متراً

على مسافات ٤ر٦ متراً . وعضائد الحرم ترتفع أكثر قليلا من ٤ر٤ متراً أما بقية العضائد فينقص ارتفاعها حوالي ٥ر٠ متراً . وتستعمل ألواح خشبية بتعشيقات ضفيرية حـول قمم هذه العضائد لتقويتها . ويبلغ ارتفاع الأقواس المدببة ذات الانعطاف الطفيف ٧ر٣ متراً .

تيجان العضائد :

هذه التيجان ــ باستثناء وحيد ــ تختلف فيمـا بينها بالتفاصيل الصغيرة فقط . إنها مشتقة من التيجان الكورنثية المتأخرة ولكن طبقتي الأقانثوس استبدلتا بأوراق الكرمة التقليدية من سامراء . كما أن لفائف التيجان قد استبدلت بالورقة ذات الفصوص الثلاثة (لوحة ٧٢ آ) .

وحدة القياسات المستعملة :

وجدت أن الوحدة التي استعملها مهندس ابن طولون في بنـاء المسـجد هي ذراع مقياس النيـل ٥٤ر٠٤ سم لأن الأبعـاد الأساسية مضاعفات صحيحة له كما يلي :

الجهة	الذراع	الطول المفروض	الطول الفعلي	الفرق
الجانب الشمالي الشرقي	٣٠٠	١٦٢ر١٢ متراً	١٦٢ر٠٠ متراً	١٢ سم
الجانب الشمالي الشرقي من المسجد نفسه	٢٦٠	١٤٠ر٥٠	١٤٠ر٣٣	١٧ سم
المسجد نفسه من الشرق إلى الغرب	٢٢٥	١٢١ر٥٩	١٢١ر٦٤	٥
الصحن ــ الجانب الشمالي الشرقي	١٧٠	٩١ر٨٧	٩١ر٨٦	١
الصحن ــ الجانب الجنوبي الغربي	١٧٠	٩١ر٨٧	٩١ر٨٧	—
متوسط عمق الزيادات	٣٥	١٨ر٩١	١٩ر٠٦	١٥
متوسط باع الأقواس	٨ر٥	٤ر٥٨	٤ر٦١	٣
متوسط عرض الدعائم	٤ر٥	٢ر٤٢	٢ر٤٦	٤
متوسط سمك جدار الزيادة	٢ر٥	١ر٣٥	١ر٣٢	٣
متوسط جدار المسجد	٣	١ر٦٢	١ر٦١	١

شكل الاقواس :

كل الأقواس مدببة ومرفوعة والجزء المرتفع عموماً ذو انعطاف بسيط ورغم ذلك فإن من الخطأ وصفها بأنها على شكل حدوة الفرس . وبعد استعمال صورة مكبرة وجد أن الأقواس تتوافق بدقة مع الشكل الذي يمثله إقامة النصفين من مركزين يتباعدان مقدار ⅓ الباع وهذان المركزان يقعان بالطبع على خط الانبثاق الذي يقدر بـ $\frac{١}{٥}$ إجمالي الارتفاع فوق الدعائم .

زخرفة واجهات الصحن :

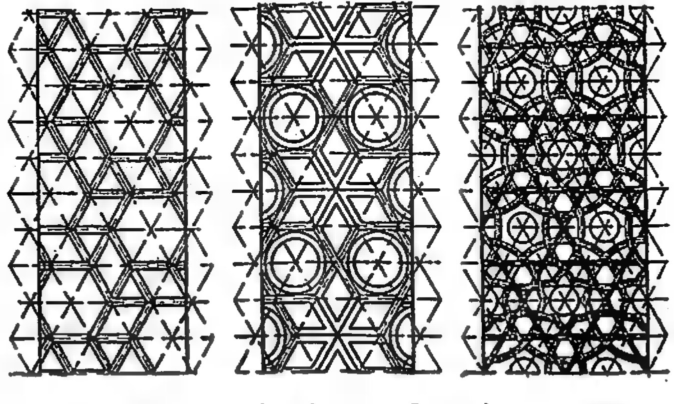
الأقواس محاطة بشريط مستمر من الزخرفة ينعطف بزاوية قائمة عند انبثاق القوس ويمتد عبر قمة العضادة ثم ينعطف بزاوية قائمة أيضا ليمتد حول القوس التالي . والجدار فوق كل عضادة يخترقه مندبب صغير يرتكز على أعمدة صغيرة نصف ظاهرة من الآجر . وفي السبندلات بين هذه الأقواس والاقواس الكبرى توجد وردة محفورة ذات ثمانية فصوص (لوحة ٦٩) .

وفوق هذا كله يمتد افريز من الورود الجصية كل واحدة منها ضمن إطار مثمن . وتظهر الصور القديمة أنه كانت توجد شرفات فوق هذا الافريز .

زخرفة سطوح الاقواس الداخلية :

باطن الأقواس مزينة بأشرطة من الزخرفة لا تزال ١٠ أشرطة منها قائمة بحالة جيدة على الأقواس الخارجية للرواق الجنوبي الغربي وعدد

آخر في أمكنة أخرى . وكل هذه الأشرطة تتألف من شريط مركـزي عريض محصور بين حافات ضيقة (لوحة ٧١) . والشريط الرئيسي في كل مرة يتألف من إطار هندسي تمتلىء فرجاته بعناصر مختلفة تنتمي إلى الطراز B في سامراء وهذا دليل كاف على أن هذه الزخرفة ترجع إلى تاريخ بناء المسجد . هذا الاطار يتألف (في الجنوب الغربي ٤ والجنوب الغربي ٥) من تصاميم مختلفة تماماً وكلاهما موضوع فوق شبكة من المربعات المرسومة بزاويــة ٤٥° . ولكن الجنوب الغربي ٨ والجنوب الغربي ٩ والجنوب الغربي ١٠ ترينا تصاميم مختلفة أيضا وكلها موضوعة فوق شبكة من المثلثات المتساوية الزوايا (شكل ٦٢) وعدد التصاميم (بعضها مكون من الخطوط المستقيمة وبعضها من الدوائـر المتداخلة) التي يمكن وضعها فوق نفس الشبكة كبير . وإحدى مصبعات النوافذ في



(شكل ـ ٦٢) القاهرة مسجد ابن طولون اساكف الاقواس

دمشق (لوحة ١٦ آ وشكل ١٢) وضعت فوق هذه الشبكة . في الحقيقة يستطيع المرء أن يتحدث عن مجموعتين كبيرتين من نماذج ٤٥° ونماذج ٦٠° .

زخرفة الاقواس الداخلية :

إنها شيء مختلف نوعا ما (لوحة ٧٢ آ) توجد نفس الفتحات ذات الاقواس بين العضائد ولكن وردات السبندلات غير موجودة . وعلى وجهي الاقواس شريط زخرفي مستمر عرضه ٤٦ سم ينعطف بزاوية قائمة عند الانبثاق ويمتد عبر قمة العضادة ثم ينعطف بزاوية قائمة ليمتد حول القوس التالي . وهناك حافة ضفيرية تمتد عبر الطرف الخارجي أيضا أما الافريز نفسه فهو متبادل يتشكل من ساقين قصيرين متماوجين طرفاهما العلويان متلاصقان . والخلايا التي تتشكل بهذه الطريقة مملوءة بالتناوب كما يلي : (١) في المركز ورقة مدببة تبرز من قمتها ورقة ثلاثية ومن تحت الورقة الاولى يخرج ساقان يلتفان ويشكلان العقد التي يوجد في داخل كل منها ورقة كرمة ذات ضلع مركزي بارز كما يشار إلى مفاصلها بثقوب والفراغ الباقي في الاسفل مملوء بعنقود عنب (٢) تقف ورقة مدببة في المركز على ساق طويل ينقسم في الاسفل ثم يلتف وينتهي بقرن الوفرة المشهور من طراز سامراء وله سطح منقّر . وهكذا نجد هنا مزيجا من طراز A وطراز B .

هذه الأفاريز عموما تنتهي فجأة مقابل بعضها في الزوايا ولكن في



(شكل ـ ٦٣)

القاهرة مسجد ابن طولون

افريز جصي حول الاقواس

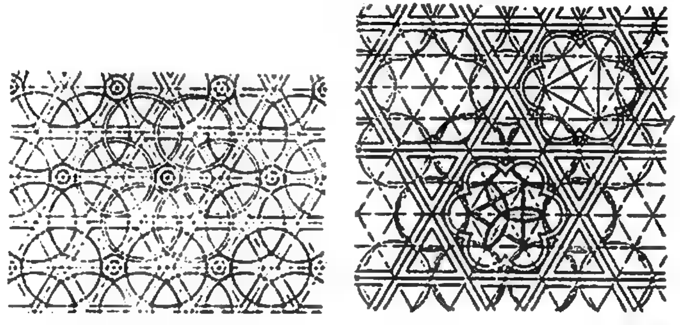
أقواس الحرم الداخلية التي زخرفها على ما يبدو رجال مختارون (لأن التنفيذ هنا أفضل منه في أي مكان آخر) توجد أمثلة حيث يتم تجنب هذا الانقطاع المفاجىء بتركيب منحرف (شكل ٦٣) .

والافريز مختلف تماما . إنه يتألف من شريط من الزخرفة الجصية يمتد فوق قمم أشرطة الزخرفة التي تمتد حول كل الاقواس (لوحة ٧٢ ب) . وفوق هذا بحوالي ٢٠ سم توجد الكتابة الكوفية الشهيرة على الخشب بطول أكثر من ٢ كم ممتدة على بعد حوالي ٣٠ سم تحت السقف .

النوافذ :

هذه النوافذ التي تبرز تجاه السماء مثل المخرمات الدقيقة تشكل أحد أجمل خصائص المسجد . توجد ١٢٨ نافذة ترتفع عتباتها ٧ر٥ ـ ٨٦ر٥ متراً فوق سطح الأرض وعرضها الوسطي ٨ر١ متراً بينما متوسط ارتفاعها ٣ر٢ متراً . لقد أشرت في مكان آخر أن ٣ أو ٤ على الاكثر من مصبعات النوافذ الحالية هي أصلية . وهذه تبرز متميزة على البقية لأنها مركبة عموماً باستعمال الفرجار : دوائر وأقسام دوائر . وقد صنعت كلها بطريقة مشابهة لتلك الطريقة المستخدمة لصنع إحدى المصبعات الرخامية الاصلية في المسجد الكبير بدمشق (لوحة ١٦ ب) وبما أن هذا النوع من الصنعة لايوجد بعد القرن العاشر فليس هناك أي شك في أن هـذه المصبعات تعود إلى أيام إقامة المسجد .

ولرسمها لا بد لنا من إنشاء شبكتنا المعتادة من المثلثات المتساوية الاضلاع وبتجميع ٦ منها نستطيع تشكيل مسدسات عند الضرورة . في الجنوب الشرقي ٦ ننشىء مسدسات متماسة الرؤوس كما نرى (في



(شكل ـ ٦٤) القاهرة ـ مسجد ابن طولون تحليل مصبعات النوافذ

الشكل ٦٤) ومن زوايا كل مسدس نرسم دائرة وفي مركز واحد من اثنين نرسم دائرة صغيرة مماسة للسابقة . والجنوب الغربي ٥ أكثر تعقيداً فهنا علينا أن نستخدم مسدسات موحدة المركز فقط لتعطينا مراكز الدوائر المطلوبة لأن المسدسات الداخلية لا تظهر في التركيب التام . أما زوايا المسدسات الداخلية فتستخدم كمراكز للعنصر المركزي السداسي الفصوص . وبالاضافة إلى ذلك توصل ٣ مراكز متناوبة لتشكل مثلثاً كما تنشأ منها أيضا أقسام دوائر كما يظهر (في الشكل ٦٤) . وزوايا المسدسات الخارجية تستخدم كمراكز للدوائر الخارجية .

السقف :

كان هذا السقف مؤلفا من جذوع النخيل التي تتباعد ١٫٢٥ متراً (من المراكز إلى المراكز) ومغطاة بألواح خشبية وبذلك تتشكل عوارض مغطاة بالألواح عرضها ٥٠ سم وعمقها ٣٨ سم . ولم يتبق من ذلك إلا القليل قبل الأعمال الحديثة إذ أنها استبدلت الآن بتقليد لها .

الفوارة :

رأينا أعلاه أن الفوارة أو النافورة قامت في وسط الصحن وأنهـا احترقت عام ٣٧٦ هـ (٩٨٦) . هذه النافورة الأولى لا يمكن أن تكون ميضأة لأن الناس اشتكوا ــ عندما افتتح المسجد لأول مرة ــ من عدم وجود أي مكان للوضوء . أما البناء الحاضر في وسط الصحن فهو يعود إلى عام ٦٩٦ هـ (١٢٩٦) ولذلك فانه لا يهمنا .

المئذنة (لوحة ٦٦) :

إنها مبنية من الحجر الكلسي ومقسمة إلى أربع طوابق السفلي منها مربع الشكل تقريباً وارتفاعه ٢١٫٣٥ متراء ولها درج في الطرف الخارجي يدور دورة كاملة بعكس اتجاه عقارب الساعة . وفوقها طابق آخر دائري الشكل ارتفاعه ٨٫٨٢ مترا بما في ذلك جدار المتراس (٦٩ سم) وله درج خارجي يدور أقل من نصف دورة حول المئذنة . وفوقـه كشك مثمن صغير من طابقين وبذلك يبلغ ارتفاع التاج ٤٠٫٤٤ متراً عن سطح الارض والمنبسط الثاني للدرج متصل بسقف المسجد بواسطة جسـر خشبي محمول على قوسين متوازيين على شكل حدوة الفرس يبلغ ارتفاعهما ٤٫٠٤ متراً هذان القوسان متصلان بواسطة عقد اسطواني . وهذا الجسر يستند على المسجد بطريقة مشوهة تماما ويمتد عرضه من وسط النافذة الثانية عشره إلى وسط النافذة الثالثة عشره من اليمين .

وكل من الأوجـه الأربعة للطابق السفلي مزخرفـة ــ في نفس المستوى ــ بنافذة مسدودة يقسمها عمـود يستخدم كدعامة مركزيـة لزوج من الاقواس الحدوية المستديرة القائمـة داخل إطـار مستطيل

مزخرف بالجص . وعلى ارتفاع كبير في الوجه الجنوبي الشرقي توجد نافذة مسدودة أخرى .

يقول المقدسي[1] (الذي كتب عام ٩٨٥) : « ومنارته من حجر صغيره درجها من الخارج » ويقول القضاعي (الذي كتب في القـرن التالي) إنها نسخة عن مئذنـة سامراء . ولكن ابن دقمـاق والمقريزي يكرران أسطورة صغيرة مفادها أن ابن طولون وهو يلعب في أحد الأيام بقطعة من الورق بلفّها حول إصبعه لولباً وعندها أمر مهندسه أن يتخذها نموذجاً لمئذنته . هذه القصة تعود إلى القرن التاسع لأنها موجودة بين أوراق اليعقوبي وقد طبعها دي غوجه في نهاية كتاب جغرافية البلدان .

لكن هذا لا يتوافق مع مئذنة ابن طولون في شكلها الحالي ولذلك يبرز السؤال:هل تعرضت مئذنته للتغيير ؟ في البداية رأينا أن الجسر لابد وأنه يعود لتاريخ أحدث من المسجد وأن المئذنة تشكل من حيث بنائها وحدة واحدة مع الجسر . هل تعود إلى أيام لاجين ؟ وحالاً تبرز ظاهرتان متميزتان كأساس للمناقشة : القوسان : الدائريان للجسر وهما على شكل حـدوة الحصان والأزواج الخمسة من الاقواس الحدويـة المسدودة الموجودة في أوجه المئذنة . مثل هذه الاقواس تظهر في مصر للمرة الاولى في مدرسة وضريح السلطان قلاوون عام ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ ـــ ١٢٨٥) وبعد بضعـة سنوات في مدرسة وضريح سـلار وسنقر الغولي عـام ٧٠٣ (١٣٠٣ ـــ ١٣٠٤) . وهكذا نستطيع أن نفترض أن تغييرات كبيرة في المئذنة حدثت كجزء من الاعمال التي قام بها لاجين في المسجد في عـام ٦٩٦ (١٢٩٦) .

---

(١) المقدسي : المصدر السـابق ط ليدن ١٨٧٧ ص ١٩٩ .

هذه هي النقطة التي توصلت إليها في عام ١٩١٩ وتمسكت بالفكرة القائلة بأن الطابق المستدير الثاني كان جزءاً من المئذنة اللولبية الاصلية المنسوخة عن الملوية في سامراء وأنها شكلت جـزءاً داخلياً امتد حتى الارض وأن جزءها الأسفل تهدم وأن الطابق المربع الحالي هو مجرد جزء خارجي ينسب إلى لاجين وأن الجسر قد بني في نفس الوقت •

في عام ١٩٢٠ قرر بار تيكولون رئيس المهندسين المعماريين في لجنة المحافظة على الآثار أن يختبر هذه النظرية • بدأ العمل في الجزء الخلفي من الارتداد في الجانب الجنوبي الغربي وحفـر سبراً أفقياً في البنـاء بطول ١٫٨ متراً وعرض ٩٠ سم وعمـق ٢٫٢٥ متراً والـذي يجب أن نضيف إليـه عمق الارتداد وقدره ٦٠ سم • وثبت أن البناء مؤلف من مداميك ولم يجد أي أثر للاتصال الدائري في تصميمه أو أي انقطاع في البناء رغم الوصول إلى نقطة ليست فقط ضمن المنطقة التي يتوجب أن يمر فوقها الطرف الخارجي للدرج اللولبي فيما لو هبط إلى الارض ولكن على الأقل على مسافة نصف متر من القلب الدائري الذي يدور حوله درج الطابق العلوي الحالي • هذا الاكتشاف ذو أهمية جوهرية • إنه يرينا أن الجزء السفلي ليس مجر غلاف ولكنه يشكل وحـدة مع المئذنة بكاملها التي ــ طبقاً للمميزات التي ذكرناها سابقاً ــ لا يمكن أن يكون قد بناها سوى لاجين •

اصول المسجد المعمارية

المخطط :

كلمات القضاعي التي يستشهد بها ابن دقماق والمقريزي القائلة بأن مسجد ابن طولون بني حسب طراز مسجد سامراء هي بالتأكيد غير صحيحة لأنه لايشبه على الاطلاق مسجدي سامراء ماعدا اشتراك الثلاثة في ظاهرة الزيادات . إنه يختلف عن مسجد سامراء الكبير في عدد أجنحته (٥ ــ ٢ ــ ٢ ــ ٢ بدلاً من ٩ ــ ٤ ــ ٤ ــ ٣) . أما مسجد أبي دلف فإن أجنحته تمتد عمودية على جدار القبلة بدلاً من موازاتها له . كما أن مسجد ابن طولون يختلف أيضاً عن مسجد سامراء الكبير في أن سقفه يرتكز على أقواس بدلاً من الارتكاز مباشرة على العضائد دون وساطة الاقواس . وعضائده فقط هي التي تذكرنا بعضائد سامراء بينما عضائد الأول مربعة وفيها أعمدة رخامية نصف ظاهرة في الزوايا أما عضائد مسجد ابن طولون فهي مستطيلة والأعمدة الركنيه من الآجر .

ومن جهة أخرى فإن مخططه المربع يكرر مخطط المسجد الكبير في البصرة والكوفة وواسط وبغداد .

نظام واجهة المسجد نفسه :

هذا النظام لايذكر بأي من المسجدين في سامراء لأنه لا يتضمن أبراجاً محصنة والظاهرة الوحيدة التي تذكر سامراء هي صف الدوائر في المربعات تحت الشرفات . ونوافذه لا تشبه أبداً نوافذ المسجد الكبير

ذات الأقواس المفصصة داخلياً والتي تعامـل خارجياً على أنهـا مرمى للسهام . فنوافذ مسجد ابن طولون التي تحتوي على زوج من الأعمدة نصف الظاهرة في وجهها الداخلي والخارجي ـ على العكس من ذلك ـ تشبه نوافذ مسجد عمر ولكن تنقصها العارضة العرضانية والأعمـال الخشبية . وبتعبير آخر فإن واجهتنا ذات اتصال وثيق بواجهة مسجد عمر وكما كانت عام ٢١٢ هـ (٨٢٧) .

الزخرفـة :

هناك اتفاق إجماعي على أن زخرفة مسجد ابن طولون مشتقة كلياً من سامراء ولكن بينما في سامراء نجد النماذج الثلاثة ـ(A - B - C) منفصلة أما في مسجد ابن طولون فهي متحدة ومختلطة وورقة الكرمـة ذات الضلع الأوسط المرن فقط هي الموجودة وليس النوع ذو الحواف المتحدة المركز والواضحة المعالم .

إن مسجد ابن طولون غريب مبدئياً فيما يختص بزخرفته وعضائده « بناء عراقي مغروس في التربة المصرية ولا بد أن عدداً كبيراً من الصناع العراقيين قد استخدم للزخرفة الخشبية والجصية . وهذا لايدهشنا لأن ابن طولون قدم من سامراء وقد تبعه بدون شك آلاف العراقيين عندما سمعوا أنه قد وصل إلى السلطة . ولكن الكثيرين كانوا قد سبقوه لأن ابن الداية يخبرنا أن أحد أعوان المستنصر ـ عندما هرب إلى مصـر متنكراً في عام ٢٤٧ هـ (٨٦١) وجد الكثيرين من البغداديين في الفسطاط وبذلك شعر بخطر انكشاف أمره .

إن زخرفة مسجد ابن طولون (وزخرفة ديـر السرياني في وادي النطرون عام ٩١٤) هما أقصى مثالين باتجاه الغرب لفن الامبراطوريـة العباسة الذي ساد فوق منطقة كبيرة من أفريا سياب قرب سمرقند إلى نيسابور والبحرين .

الفصل التاسع عشر

خاتمة القسم الثاني

مع سقوط العائلة الأموية انتقل مركز الخلافة من دمشق إلى بغداد وكان لهـذا الانتقال اثر مشابه للتغيير الـذي تم عندما انتقلت عاصمة الامبراطورية الرومانية من روما إلى القسطنطينية . في تلك الحالتين تغير مركز ثقل الامبراطورية وأصبح الجو الفكري والفني شرقياً أكثر . بظهور الاسلام استبدلت التأثيرات الهيلينستيه في سوريا بالتأثـيرات الساسانية في إيران والعراق التي لا تزال حيّة حتى الآن وقد عدّلت جوهرياً في الفن والعمارة وهذا أدى إلى ولادة فن سامراء الذي امتد أثره في أحد الاتجاهات إلى مصر حيث يشهد مسجد ابن طولون على ذلك وباتجاه معاكس إلى البحرين ونيسابور وأفرسياب (قـرب سمرقند) حيث تم من خلال التنقيبات العثور على زخارف جصية من طراز سامراء .

وتختلف مساجد هـذه الفترة كثيراً من حيث التصميم حتى في العراق . فطراز الأبدان ــ الطراز الذي يرتكز فيه السقف مباشرة على عضائد أو أعمدة خشبية بدون واسطة الأقواس ــ انتشر بشكل واسع في (الكوفة ــ واسط ــ بغداد ــ سامراء ــ الخ) ومع ذلك فان المساجد التي ترتكز اسقفها على أقواس تظهر في الرقـة والجعفرية (مسجد أبي دلف) وفي مصر (مسجد عمرو عام ٨٢٧ ومسجد ابن طولون) . والمخطط

المربع للمساجد العراقية (الكوفة ــ واسط ــ بغداد ــ الخ) تم التخلي عنه في مسجدي سامراء ومع ذلك فقد جلبه ابن طولون إلى مصر • كما نجد لدينا المساجد المقنطرة : مسجد قصر الأخيضر وطارق خانة في دمغان ومسجد رباط سوسة ومسجد بومظاطة في سوسة والمسجد الكبير في سوسة • ولا يمكن أن تكون المساجد ذات القبة أمام المحراب ظاهرة ذات أصول عراقية ــ فارسية لأن الأمثلة الوحيدة لدينا ــ خلال الفترة التي يشملها هذا الكتاب ــ هي مسجد دمشق الكبير (٧٠٥ ــ ٧١٥) والمسجد الأقصى (٧٨٠) ومسجد سوسة الكبير (٨٥٠) ومسجد القيروان الكبير بعد تغييره (٨٦٢ ــ ٨٦٣) والمسجد الكبير في تونس (٨٦٤) •

ولا بد من التأكيد على أن هذه الظاهرة لاتظهر في المسجد المعروف بطارق خانة في دمغان ولا في الرقة ولا في سامراء • والقبة في المحراب في مسجد ابن طولون تعود إلى أواخر القرن الثالث عشر • ونقطة هامة أخرى : في مساجد ثلاثة قديمة : في قرطبة ٧٨٧ ــ في القيروان ٨٣٦ ــ وفي تونس ٨٦٤ ــ الصحن لايحاط بأروقة ماعدا الحرم على الجانب القبلـي •

كما يجب أيضا ذكر ظاهرتين أخريين (١) الأقواس العمودية على جدار القبلة وهي خصوصية أول ماظهرت في سورية في المسجد الأقصى الذي بناه المهدي (٧٨٠) ثم في مسجد قرطبة الكبير (٧٨٧) ثم في مسجد القيروان الكبير كما بناه زيادة الله (٨٣٦) • (٢) المئذنة المربعة وهي نوع مشتق من أبراج الكنائس السابقة على الاسلام في سورية • وقد بقيت الطراز الثابت للمئذنة في سورية حتى أوائل القرن الثالث عشر • وقد انتقل هذا الطراز إلى القيروان وقرطبة وأصبحت الطراز النموذجي في

كانت هناك اختلافات ملحوظة في عمارة القصور بين قصور الأمويين والعباسيين تعود في جزء منها إلى الاختلاف في مراسم البلاط التي كانت في ظل الأمويين تبتعد عن الرسميات ومحكومة بالأفكار البدوية عن المساواة . بينما سادت التأثيرات الفارسية في ظل العباسيين وتبنى الخليفة مراسم البلاط الفارسي الذي ألّه الملك إلى حد بعيد . ولذلك نجد قاعات العرش المعقدة والتي تعلوها القباب عموماً من أجل الاستقبالات الخاصة ويتقدمها الايوان المقنطر (أو الايوانات الاربعة المروحية) للاستقبالات العامـة .

كما أن البيوت مختلفة لأنها من طراز بيوت قصر شيرين وليست من الطراز السوري في المشتى وقصر الطوبة أما المقياس فهو كبير جداً . ففي الأخيضر يبلغ مجمع العقد ١١٢ × ٨٧ متراً بينما يبلغ قصر الخليفة المعتصم في سامراء (مع السرداب الكبير والسرداب الصغير وبلاط الحديقة وملعب الصولجان) حوالي ١٤٠٠ متراً في محوره الرئيسي . والتخطيط المحوري ظاهرة ملحوظة في قصور هـذه الفترة (مرو ـ الأخيضر ـ سامراء) .

هذه القصور الهائلة التي يجب بناؤها بسـرعة البرق وفق أهواء الخلفاء الاستبداديين لايمكن أن تبنى بنفس العناية والاتقان المعتادين في سورية كما أن الحجر السوري لم يكن متوفراً . وأفضل الموادالمتاحة هي الآجر المشوي من النوعية الأدنى من الآجر المستعمل فيما بعـد في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . ولكن الجزء الأكبر من قصور سامرا مبني من أسوأ المواد ـ الآجر الطيني ـ المستور بطبقات سميكة من

الجص . ويسمي هرتز فلد هذه القصور « الارتجال الكبير » ولاشك في أنه محق عندما يشير الى أن طراز (القطع المنحني) (الذي سميته طراز C) مرده إلى الاقتصاد العظيم في العمل والسطوح الكبيرة التي يمكن أن تزخرف به في فترة قصيرة من الوقت .

تقتصر الزخرفة في هذه القصور على الوزرات الجصية وقوائم الابواب وساكفاتها والسقوف . والفسيفساء التي شاع استعمالها خلال العصر الاموي استعملت أحياناً في مسجد سامراء الكبير وقصر بلكوارا ومسجد المدينة .

ولم يصل إلينا إلا اثنان من الأضرحة . وهذا عائد بلاشك إلى أن المسلمين في هذه الفترة لم يكونوا متلهفين لبناء الأوابد فوق قبورهم كما أصبحوا في وقت لاحق . وبالاضافة الى ذلك فان كثيراً من الخلفاء العباسيين ــ نظراً للطبيعة القلقة لتلك الفترة ــ لم يكونوا راغبين في أن تعرف قبورهم . وعلى سبيل المثال تم حفر ١٠٠ قبر عندما مات المنصور . والمنتصر هو أول خليفة عرف قبره لأن أمه اليونانية استحصلت على إذن لبناء ضريح له (قبة الصليبية) . وربما كان هذا هو التفسير لشكله الثماني وغرفة القبر المقببة ومع ذلك فمن الصعب تقديم تفسير مقنع لخصائصه المعمارية . وليس لهذا الضريح امثلة إلا في الهند . والضريح الآخر ــ ضريح اسماعيل الساماني ــ يبدو أنه تقليد لنوع من البناء كان يستعمل في عصور الساسانيين لمعابد النار . إنه بناء العصر وقد حدد الشكل العام للأضرحة الاسلامية لعدة قرون قادمة .

والزخرفة الهندسية في هذه الفترة المبكرة من تاريخ الاسلام لم تكن الميزة الرئيسية كما أصبحت فيما بعد ، إذ أنها استعملت في مصبعات

النوافذ رغم أن الشبكات الهندسية المملوءة بالرقش العربي استعملت على مقياس ضيق في سامراء (خصوصاً المثمنات المتماسة الأضلاع) ولكنها استعملت على مقياس أوسع في مسجد ابن طولون . وعندما استعملت في مصبعات النوافذ كانت في عمومها أو كلها مؤلفة من دوائر متداخلة أنشئت من زوايا شبكة من المسدسات كما رأينا أعلاه . هذا النوع الجميل من المصبعات لايوجد بعد القرن العاشر . أما المصبعات المؤلفة كلياً من الخطوط المستقيمة المتشابكة والتي عمّت فيما بعد لايبدو أنها استعملت في هذه الفترة .

ويظهر نوع جديد من القوس المدبب : قوس المراكز الأربعة . وأول مايظهر هذا النوع في الرقة في عام ٧٧٢ رغم تسميته بالقوس الفارسي . ولابد من التأكيد على هذه الحقيقة وخصوصاً بالنظر لقيام المحاولات اللاعلمية في السنوات الأخيرة لادعاء أصل فارسي للقوس المدبب . ولا نعرف سوى بناءين فارسيين يعودان إلى القرون الاسلامية الثلاثة الأولى (١) طارق خانة في دمغان في نهاية القرن الثامن (٢) ضريح اسماعيل الساماني في بخارى قبل عام ٩٠٧ . ففي الأول معظم الاقواس اهليلجية وعدد قليل فقط منها ميل بسيط الى الشكل المدبب وفي الثاني الاقواس من نوع القوس الثنائي المركز المعروف سابقاً في سورية (٥٦٤ قصر ابن وردان ــ ٧٠٥ / ٧١٥ المسجد الكبير بدمشق ــ ٧١٢ / ٧١٥ قصير عمره .. الخ) .

وأقدم اسقنشات قائمة في الاسلام ــ وهي خصوصية مأخوذة من ايران الساسانية ــ تعود إلى هذه الفترة مثل الاخيضر ٧٧٨ وسامرا ٨٣٦ ومسجد سوسة الكبير ٨٥٠ ومسجد القيروان الكبير بعد تعديله ٨٦٢ ــ ٨٦٣ ومسجد تونس الكبير ٨٦٤ .

وأحد أهم الابتكارات هو استعمال البلاط اللماع الـذي صنع أولاً في العراق . وأول مثال يمكن تأريخه بالتحديد لهذا الفن الذي قدر له أن يتمتع بمستقبل رائع هو البلاط اللماع الذي جلب من العراق في عام ٢٤٨ هـ (٨٦٢ ـ ٨٦٣) والذي يحيط الآن بمحراب المسجد الكبير في القيروان .

وقدتم عادة إبراز أشرطة الكتابة بإعطائها خلفية زرقاء مثل مقياس النيل في عام ٨٦١ ومسجد ابن طولون في عام ٨٧٩ كما أن الافريز الذي نقشت عليه جعل منحنيا الى الامام لتصحيح تقصير الخطوط مثل مسجد سوسة الكبير فيعام ٨٥٠ ـ ٨٥١ .

أما في التحصين فقد حصل تقدم على الاسلوب الاموي في بغداد والرقة . في كلتا هاتين المدينتين نجد جدرانا مزدوجة مخاطة بأبراج نصف دائرية كما أن بوابات بغداد الأربعة كانت مداخل منحنية وهي طريقة لم تكن معروفة لدى الرومان أو البيزنطيين قبل ذلك التاريخ . وقد حدث تقدم آخر في الأخيضر في إيجاد طريقة للنار الهابطة من شرفات الجدار تقريباً في كل الدارة المحيطة بالبناء وفي المداخل ذات الأساليب المعقدة في الدفاع عنها بواسطة الشعريات الحديدية والشقوق في القناطر فوق ممر الدخول . وبعكس المدخل المنحني فإن هذا النوع من المدخل كان معروفاً لدى الرومان . في شمال أفريقيا وفي اسبانيا تأثرت التحصينات كثيراً بالطريقة البيزنطية السابقة مثل قلعة مريدا وجدران سوسة حيث كل الأبراج مربعة رغم أن رباط سوسه هو استثناء .

ولكن أثـر هذا الفن الامبراطوري في الدولة العباسية ـ رغـم انتشاره ـ لم يشمل جميع ديار الاسلام . فالفن الاسلامي بقي مفعماً

بالحياة في سورية كما هو ثابت من الألواح الخشبية في المسجد الأقصى وطراز ذلك البناء كما أعاد بناءه المهدي حوالي عام ٧٨٠ . وفوق ذلك فإن الفن الأموي قد ازدهر في اسبانيا حيث حمله عبد الرحمن ـ آخر الأمويين ـ والجماعات السورية التي هاجرت إلى تلك البلاد .

ونفس التأثير الأموي السوري ظهر أيضا في تونس مثال ذلـك نظام العقود في رباط سوسة وفي مسجد سوسة الكبير (الذي يذكرنا ببئر الرملة) وفي زخارف قلب المقص تحت قبة الأخير .

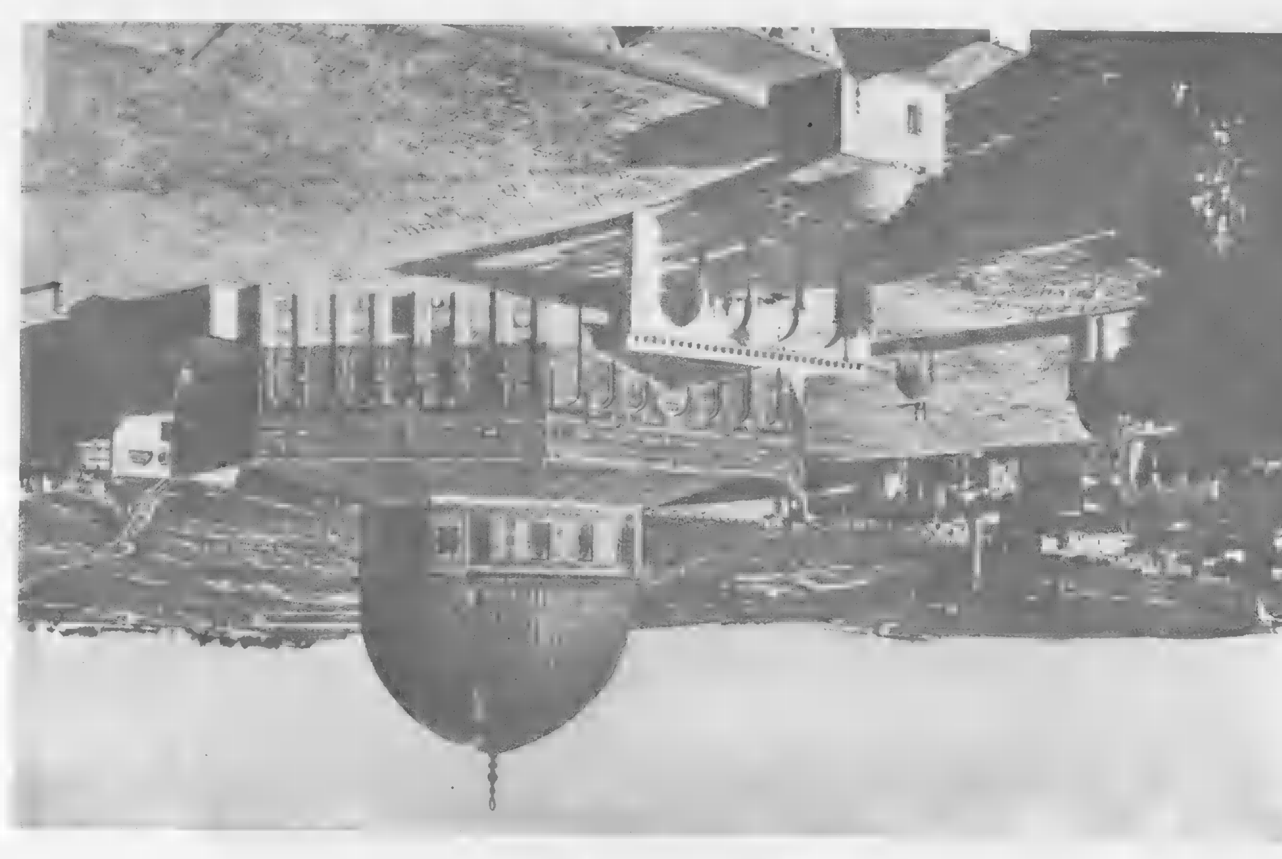
وقد وصلت إلينا خمسة من الأعمال الهامة من هذه الفترة وهي بئر الرملة الشهير ذي العقود الاسطوانية التي ترتكز على ٣٨ قوساً مدبباً والمنارة في سوسة وآبار الأغالبة في القيروان ومقياس النيل بقوالبـه الزخرفية وإفريز الكتابة الكوفية الرائع وقناة البساتين .

* * *

الفهرس

* * *

لوحات الكتاب



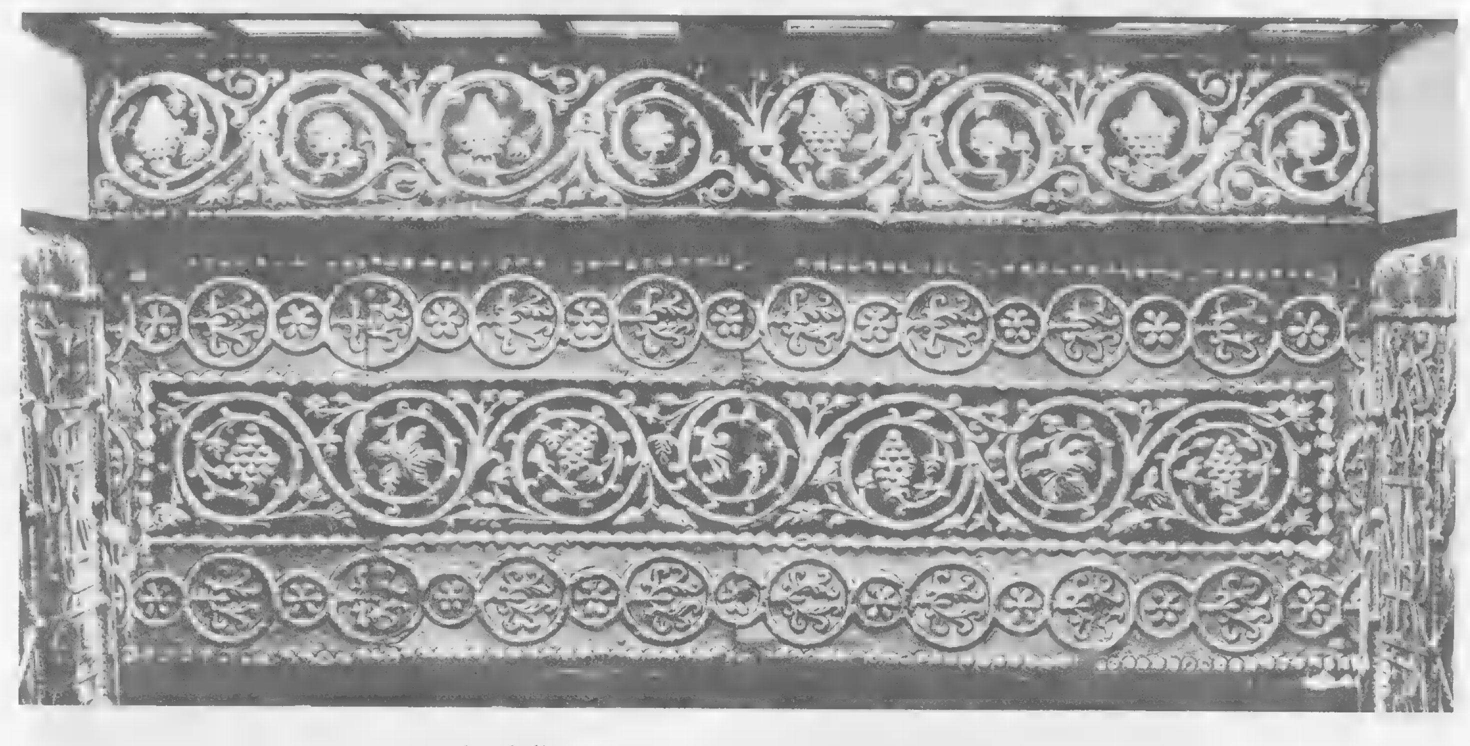
القدس – قبة الصخرة



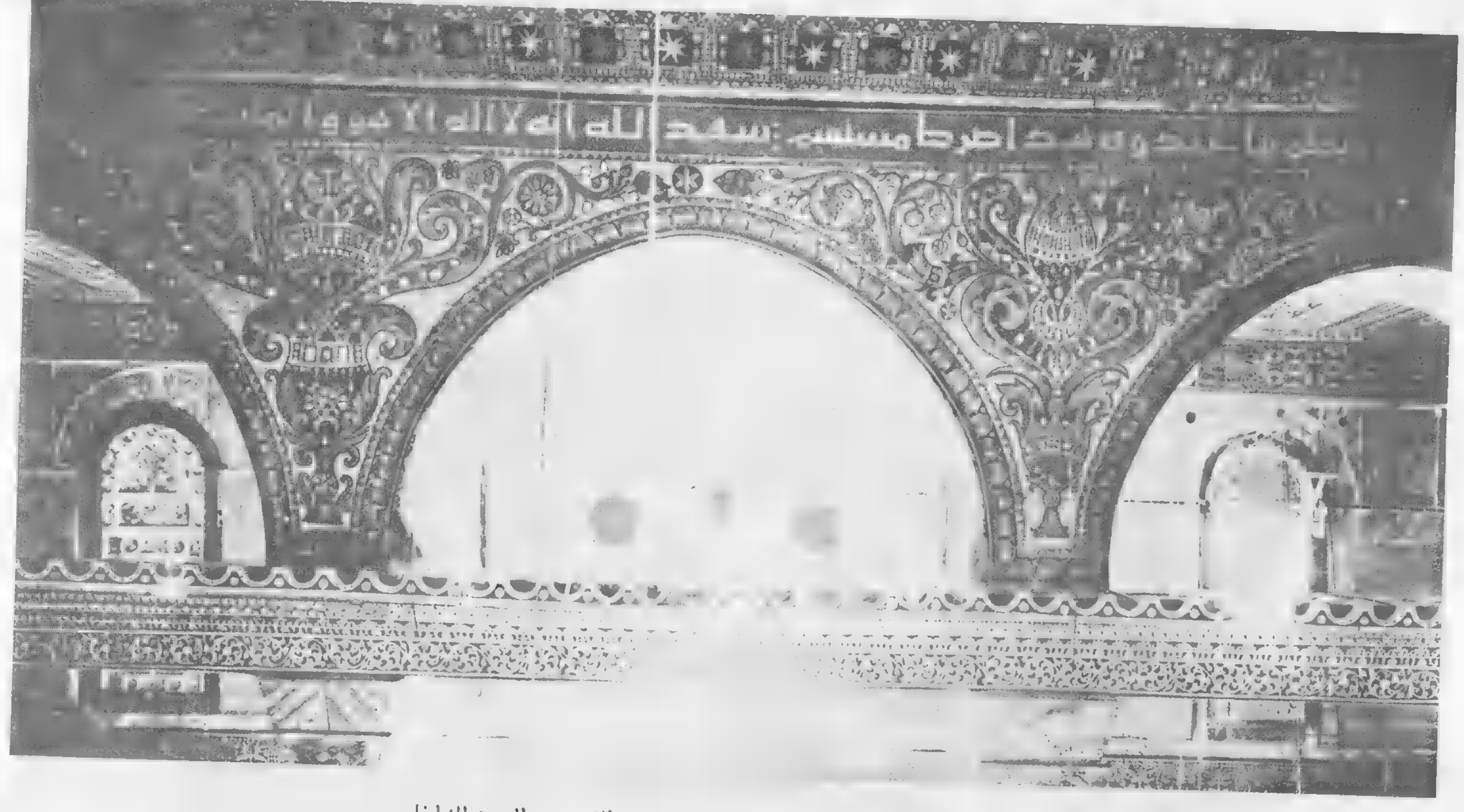
القدس ـ قبة الصخرة ـ الرواق الداخلي



القدس ـ قبة الصخرة ـ الجزء المركزي تحت القبة



القدس – قبة الصخرة – باطن قوس الباب الجنوبي المغطى بالبرونز



القدس ـ قبة الصخرة ـ الرواق المثمن ـ الجانب الغربي ـ الوجه الداخلي



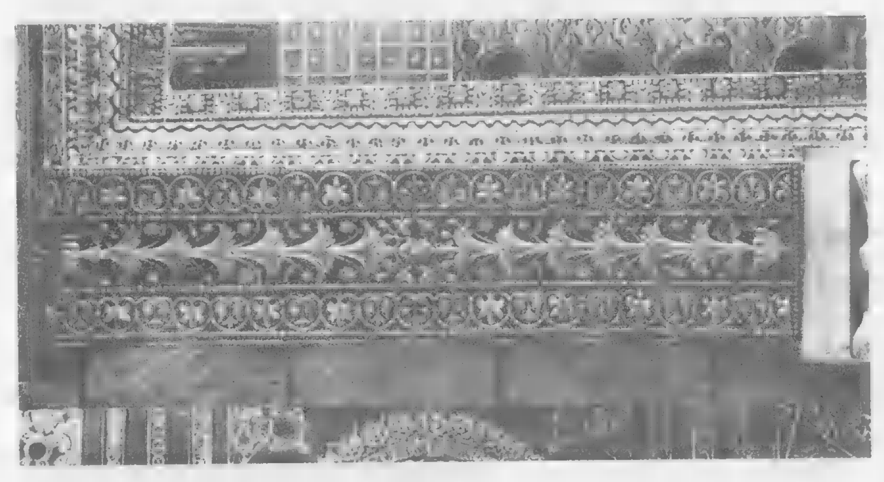
القدس – قبة الصخرة – الوجه الداخلي للعمود الشمالي الغربي من الرواق المثمن .



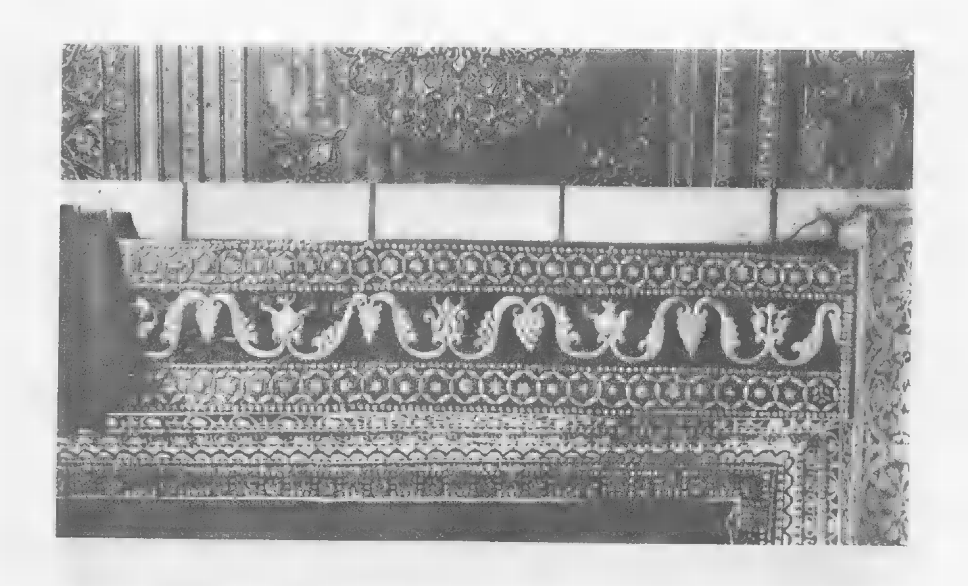
القدس – قبة الصخرة – الوجه الداخلي للعمود الشمالي الغربي من الرواق المثمن .



آ   القدس ـ قبة الصخرة ـ باطن قوس الرواق المثمن .



ب   القدس ـ قبة الصخرة ـ عارضة ربط قوس الرواق المثمن

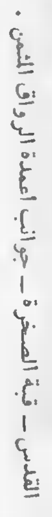




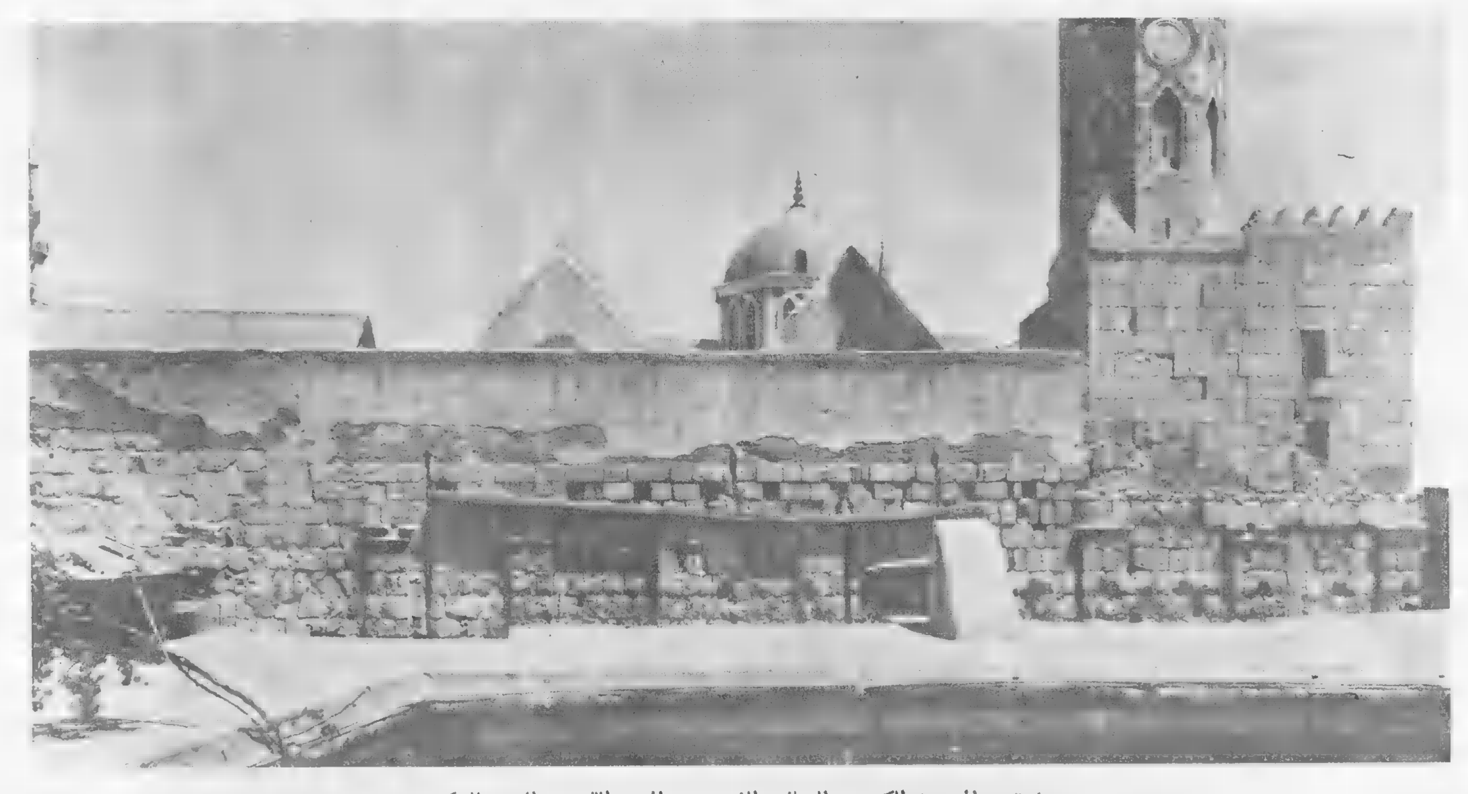
القدس ـ قبة الصخرة ـ عوارض ربط أقواس الرواق المثمن .







القدس – قبة الصخرة – جوانب اعمدة الرواق الثمن .



دمشق ـ المسجد الكبير ـ الجانب الغربي من المعبد القديم والبرج الركني



دمشق المسجد الكبير – الجانب الجنوبي



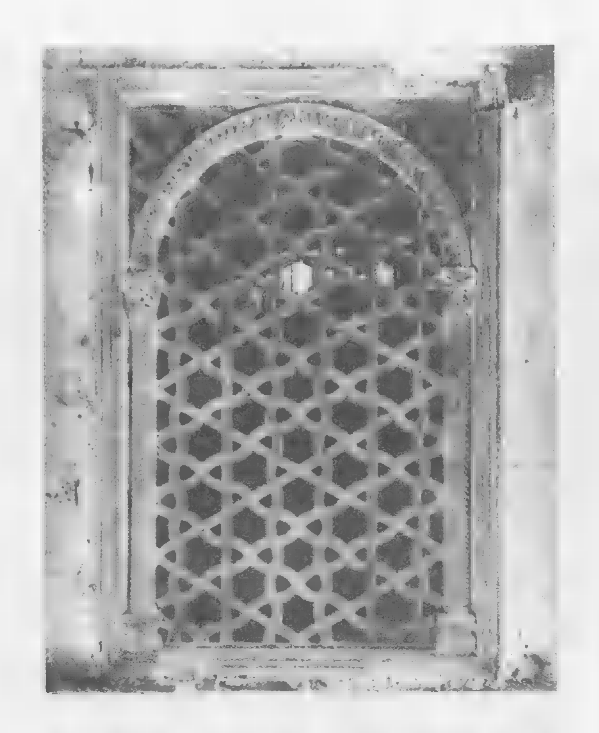
دمشق ـ المسجد الكبير ـ الداخل باتجاه الغرب

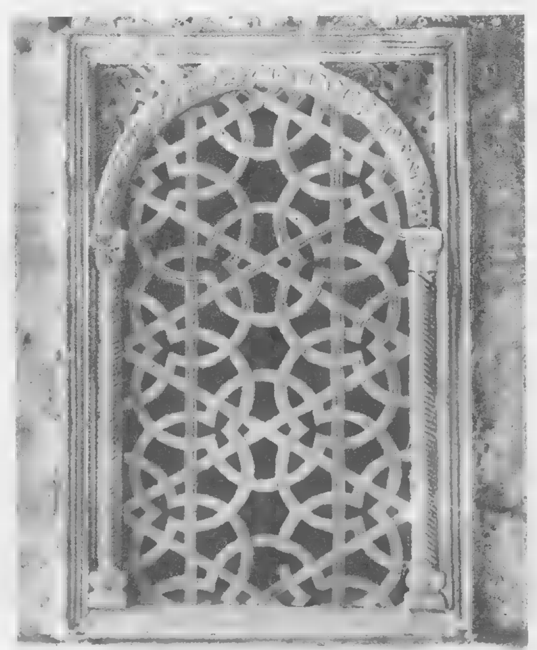


دمشق – المسجد الغربي واجهة المصلى



دمشق – المسجد الكبير – الرواق الغربي

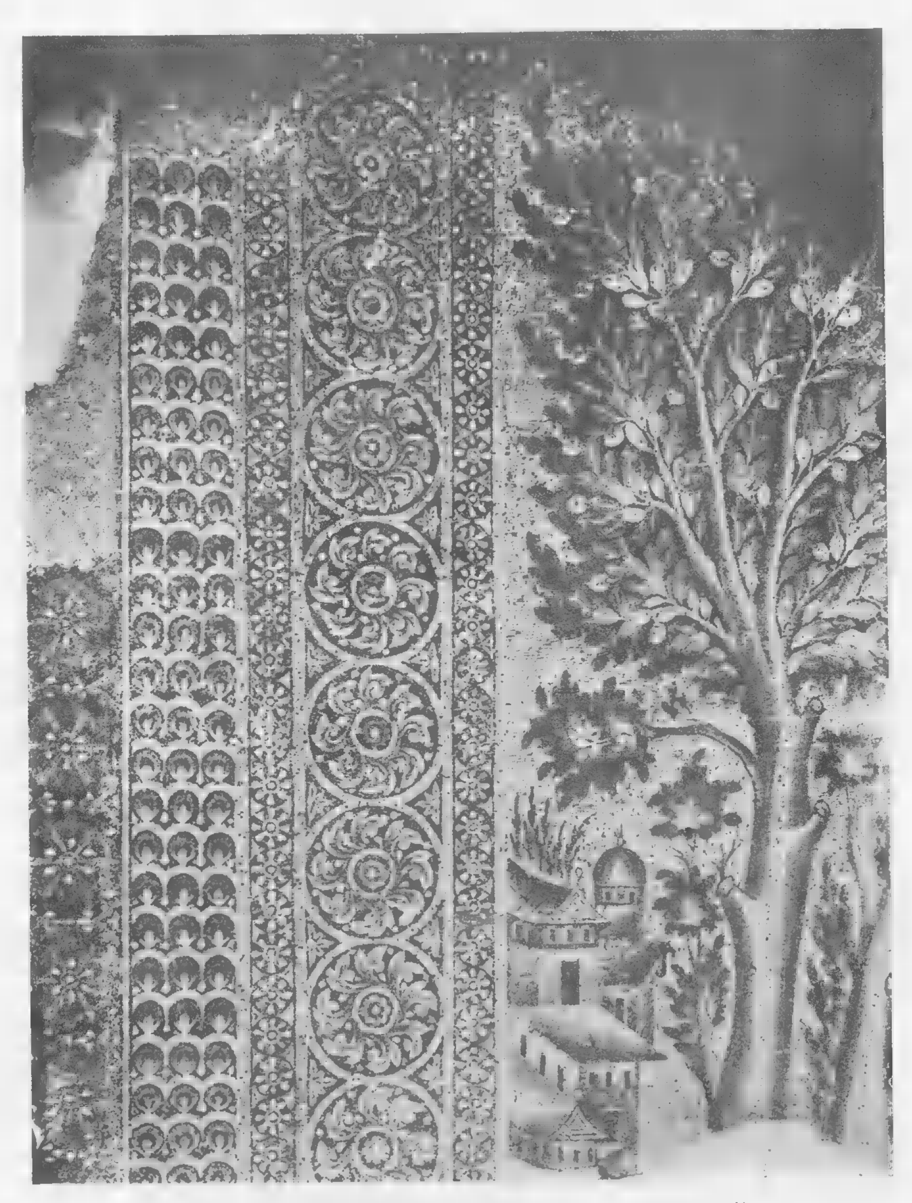




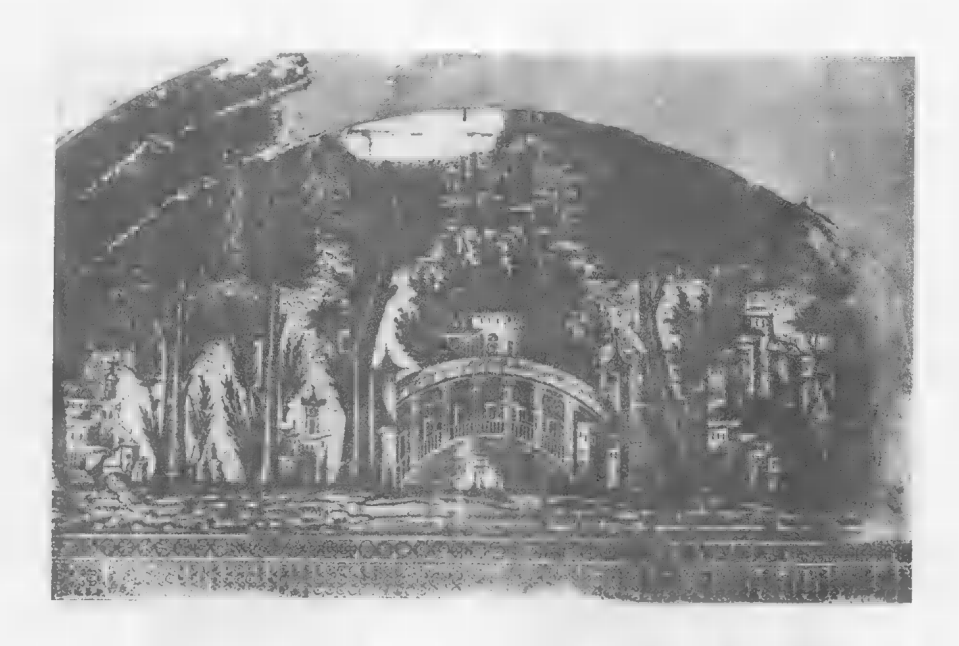
دمشق ــ المسجد الكبير ــ مصبعة ــ رخامية في الدهليز الغربي



دمشق ــ المسجد الكبير ــ بقايا الالواح الرخامية المربعة .

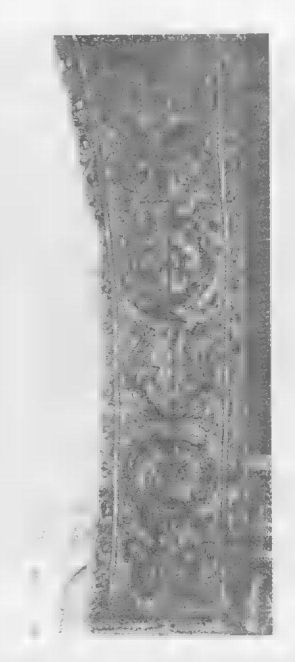


دمشق ـ المسجد الكبير ـ الطرف الايسر لزخرفة الفسيفساء تحت الرواق الغربي

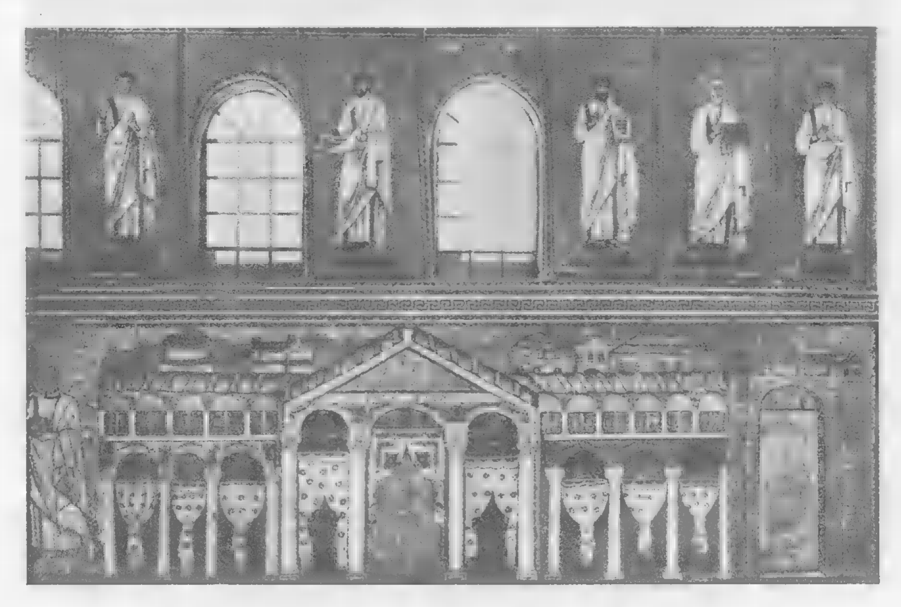




دمشق ـ المسجد الكبير ـ الفسيفساء تحت الرواق الغربي

آ+ب دمشق ـ المسجد الكبير ـ زخرفة فسيفساء على باطن الأقواس للدهليز والرواق الغربي



ج رافينا ـ فسيفساء في سانت ابوليناري نوفو تظهر قصر ثيودوريك



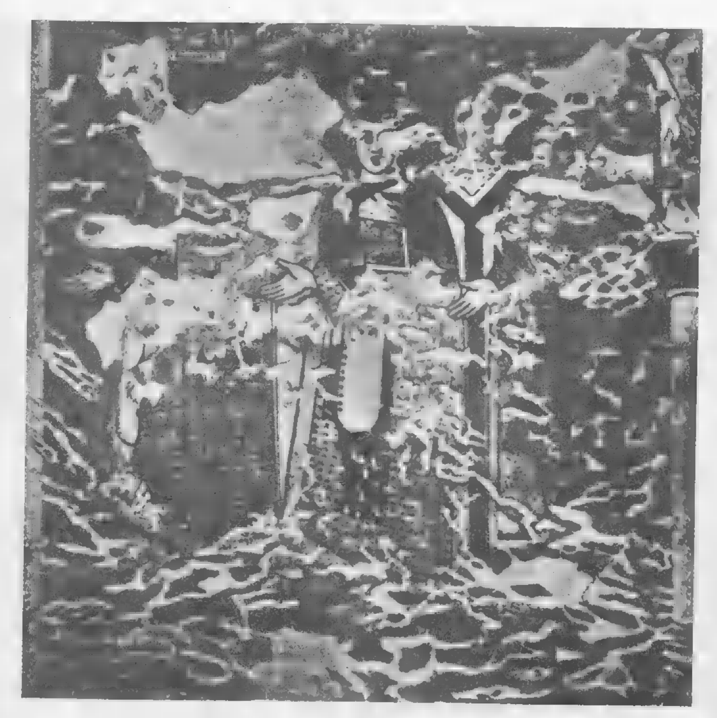
آ قصير عمرة من الشمال الغربي



ب قصير عمرة ـ داخل قاعة الاستقبال



قصير عمرة ـ حورة



أ قصير عمرة ـ صورة أعداء الاسلام



ب حمام الصرح



القدس ـ المسجد الأقصى



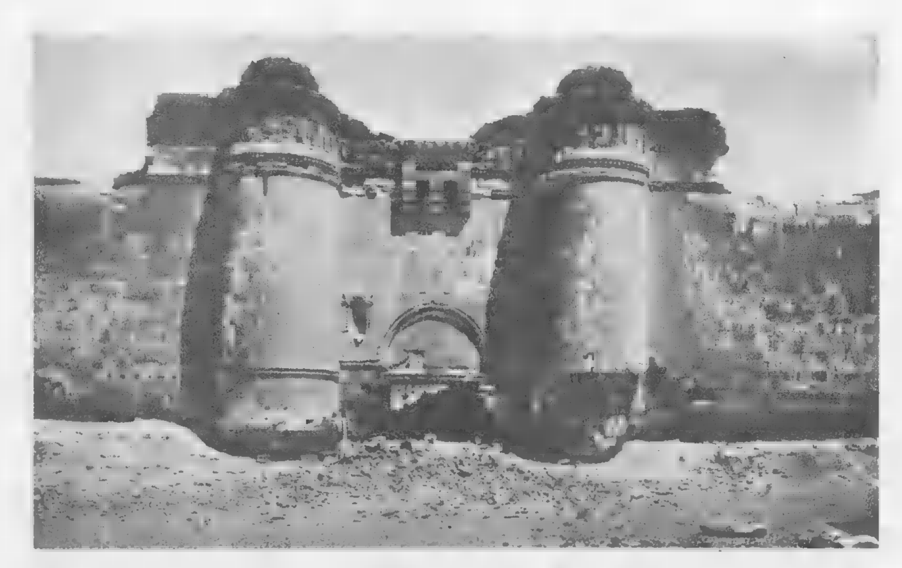
القيروان ـ مأذنة المسجد الكبير



آ   قصر الحير الشرقي ـ الفناءان من الجنوب



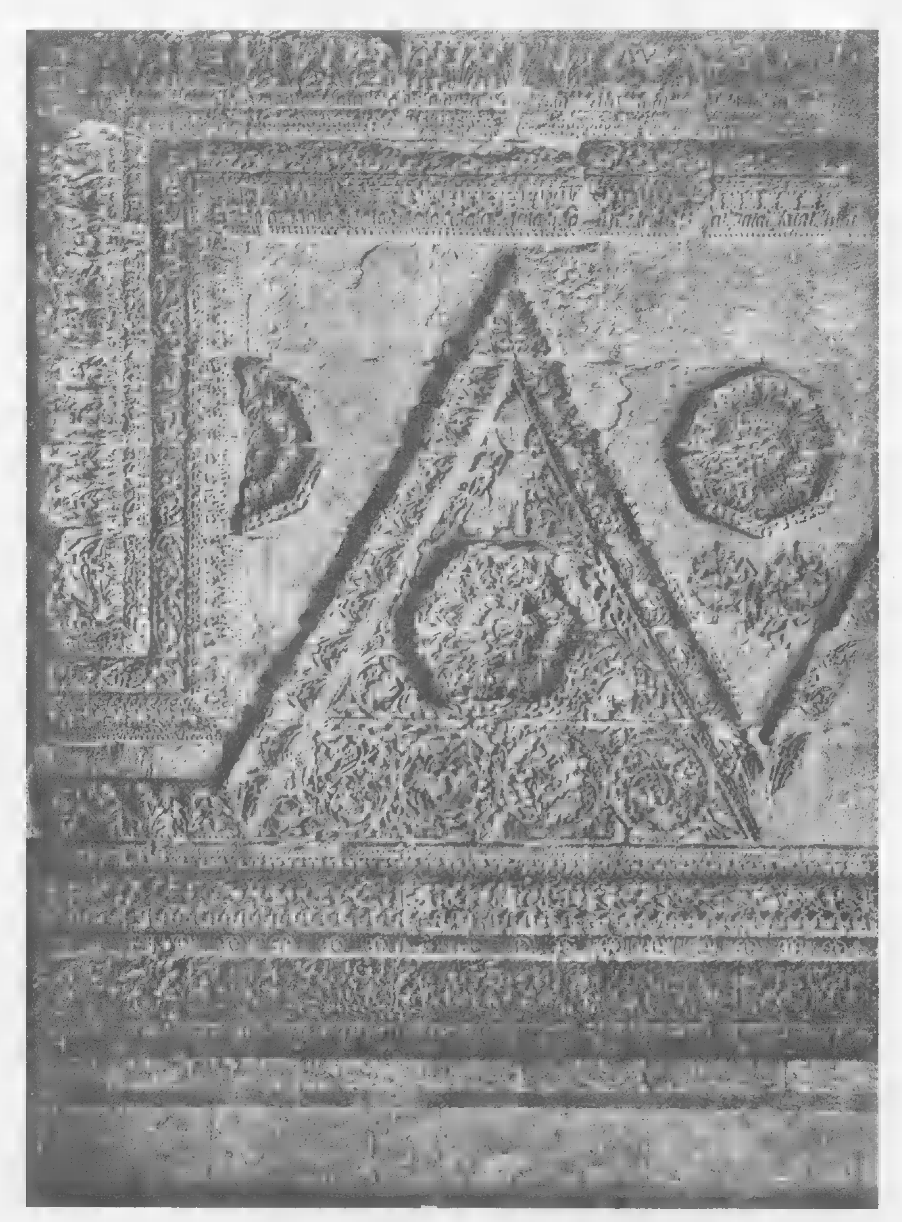
ب   قصر الحير الشرقي ـ الفناء الصغير



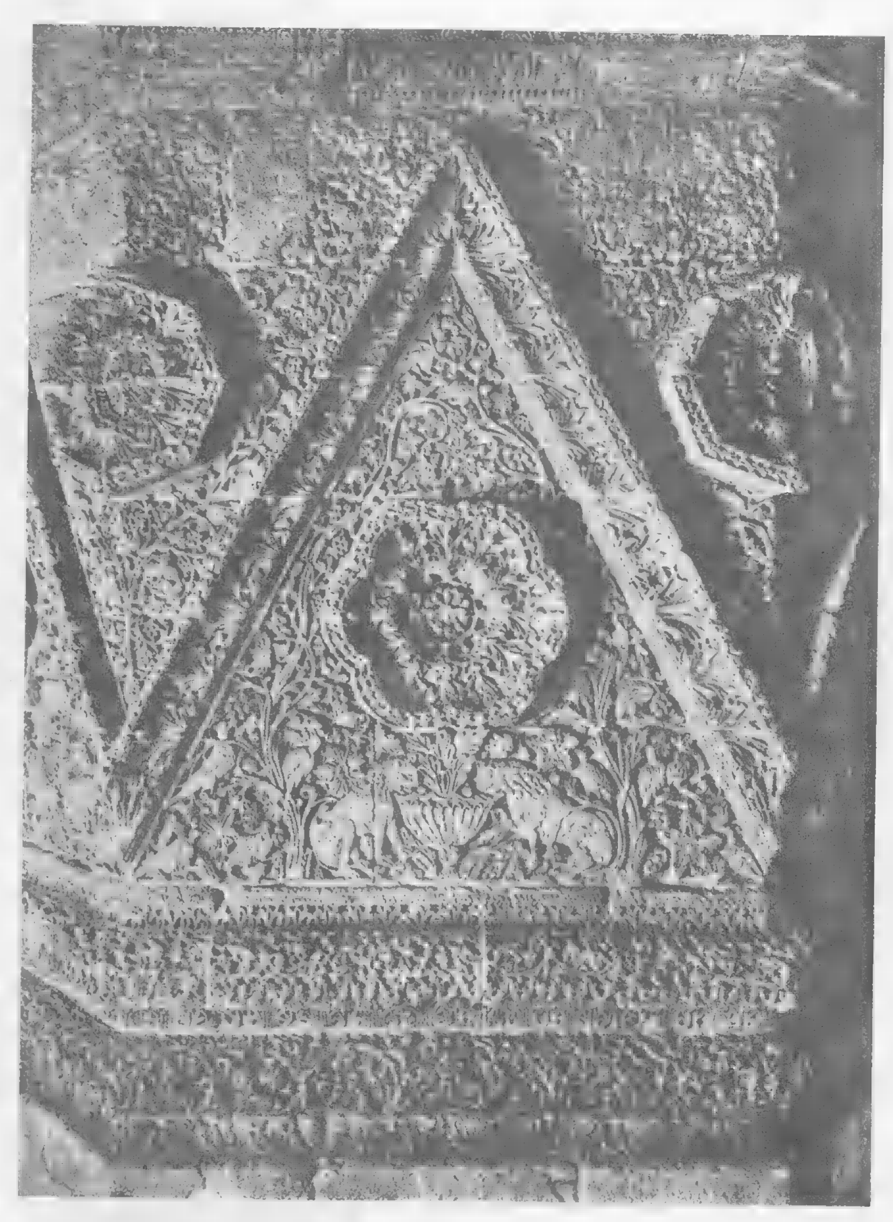
آ   قصر الحير الشرقي مدخل الفناء الصغير



ب   قصر الحير الشرقي ـ المسجد في الفناء الكبير



المشتى واجهة للمدخل الغربي ـ المثلث الاول



المشتى ـ البرج الجانبي على جانب المدخل الغربي ـ المثلث الثالث



المشتي – مجمع غرفة العرش

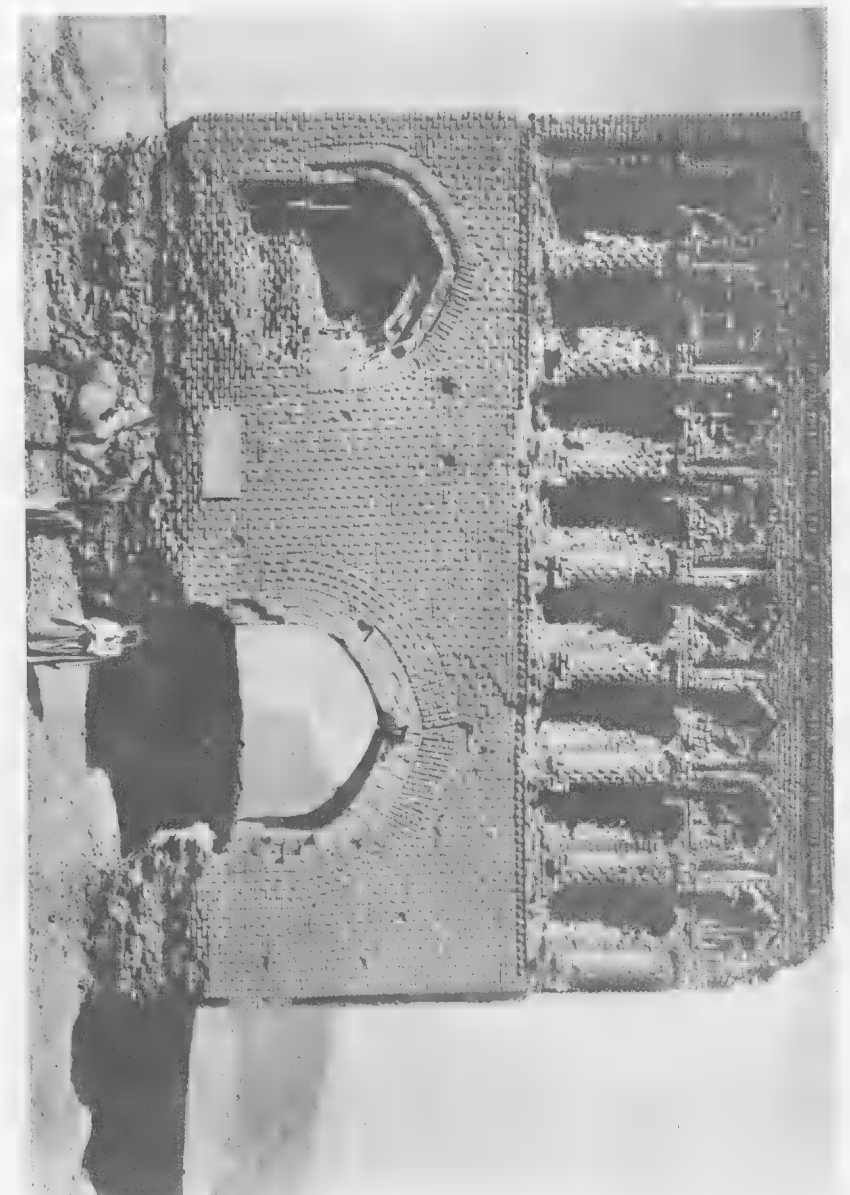


ب   المشتى – غرفة العرش المثلثة المحاريب

آ قصر الطوبة ــ ساكف البوابة



ب قصر الطوبة ــ الواجهة الشمالية ــ النصف الايمن



الرقة – بوابة بغداد – الوجه الخارجي



الرقة – بوابة بغداد – الوجه الخلفي وبرج ركني في الجدار الرئيسي



آ الأخيضر – البوابة الشرقية



ب الأخيضر زخرفة قمة المعزبة الأولى شرق البوابة الشمالية



آ الاخيصر قاعة المدخل



ب الأخيضر – الممر المتصالب



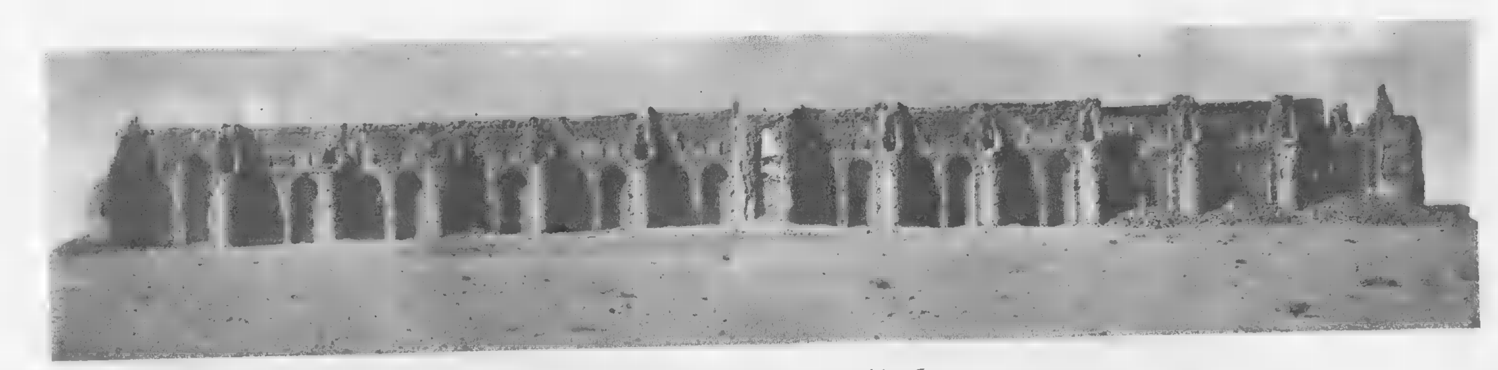
الأخيضر القاعة الكبرى باتجاه الشمال



آ الأخيضر ـ قاعة الشرف ـ الجانب الشمالي



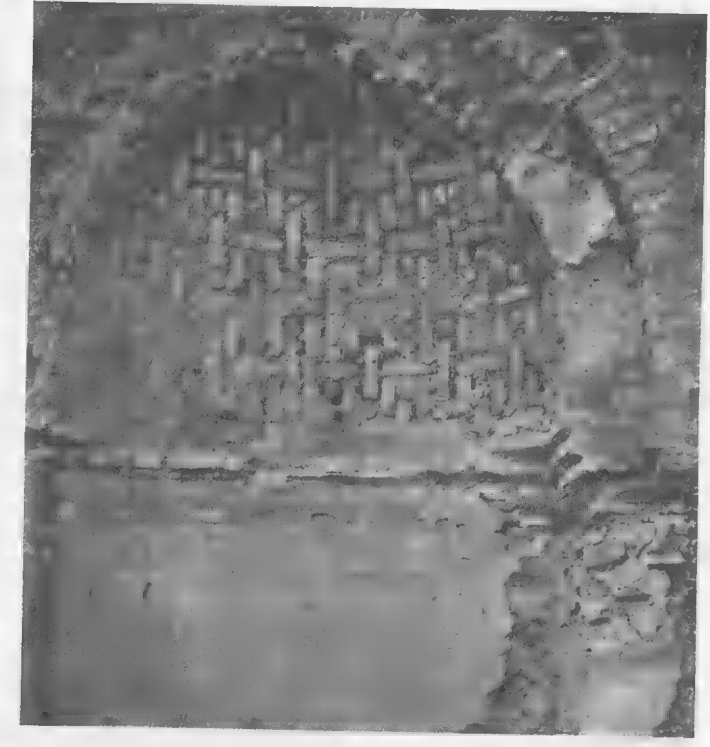
ب الأخيضر ـ قاعة الشرف ـ الجانب الجنوبي



آ   الأخيضر ـ الواجهة الشرقية



ب   الأخيضر ـ البيت ـ د



آ الأخيضر – لوح من الزخرفة الهندسية بالآجر في الجانب الجنوبي من قاعة الشرف



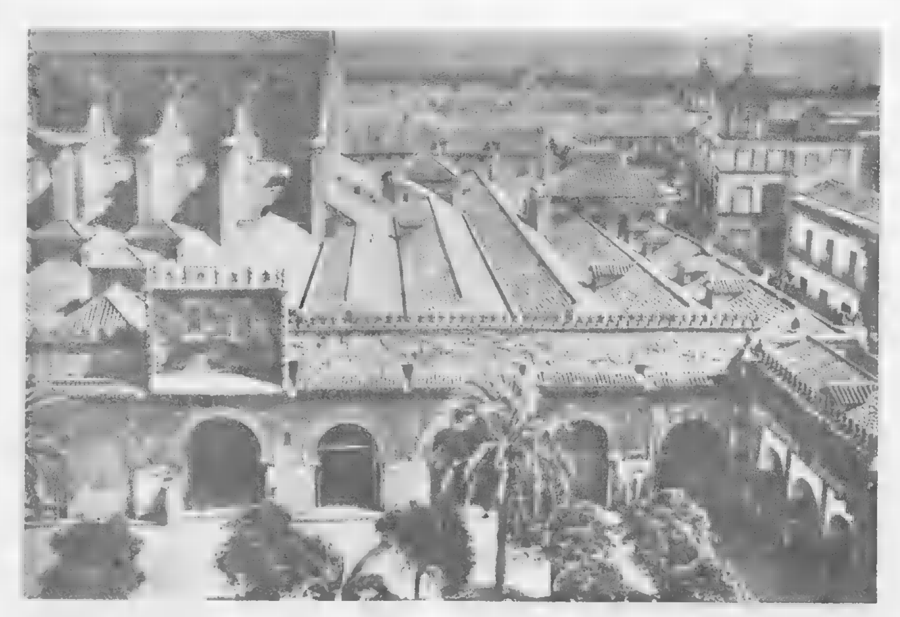
ب الأخيضر – غرفة ٣٢



آ قرطبة ـ المسجد الكبير ـ الواجهة الغربية



ب قرطبة ـ المسجد الكبير ـ بوابة سان استبان



آ قرطبة ـ المسجد الكبير ـ واجهة المصلى

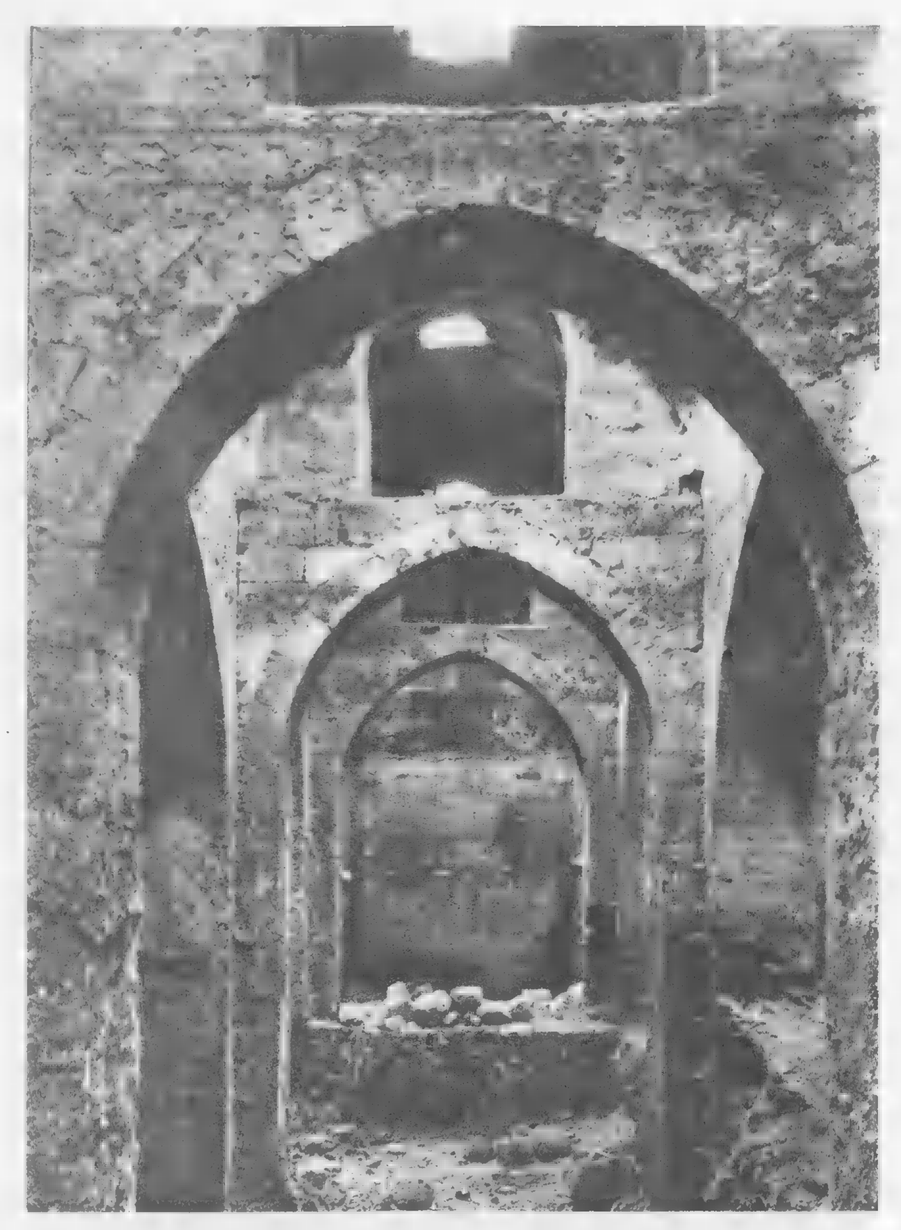


ب قرطبة ـ اروقة المصلى





القدس ــ الواح جدران المسجد الاقصى



الرملة بئر العنيزية



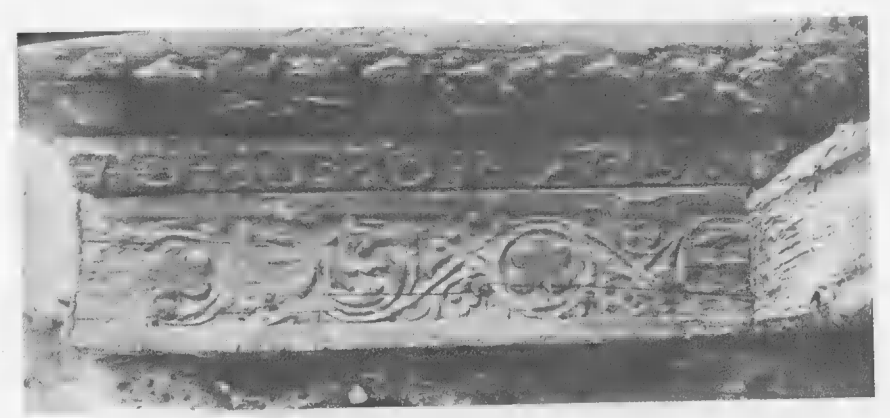
مسجد عمرو الطرف الشمالي من الجانب الغربي



آ مسجد عمرو ـ ساكف خشبي مزخرف



ب مسجد عمرو ـ المصلى ـ الطرف الغربي



آ مسجد عمرو ــ الزخرفة الخشبية للنافذة الاولى في الجانب الجنوبي الغربي



ب مسجد عمرو ــ الزخرفة الخشبية للنافذة الغربية في الجانب الشمالي الغربي



آ القيروان ـ المسجد الكبير ـ الجايب الجنوبي



ب القيروان ـ المسجد الكبير الجانب الشرقي ويظهر باب أصلي (الى اليسار) وباب لاحق



القيروان ــ المسجد الكبير من الشمال الشرقي



القيروان ـ المسجد الكبير من المئذنة



آ القيروان ـ المسجد الكبير ـ الصحن باتجاه الشمال



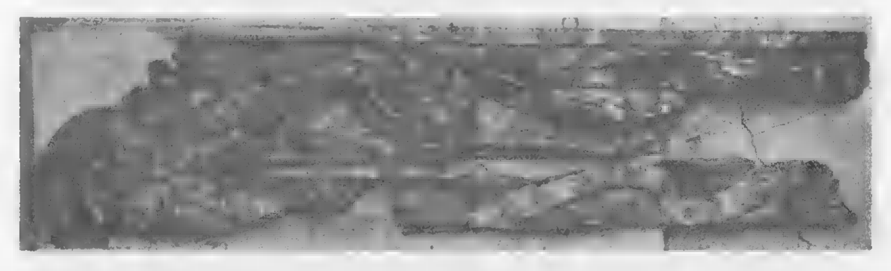
ب القيروان ـ المسجد الكبير ـ المصلى باتجاه الشرق





سامراء ـ الجوسق الخاقاني / باب العامة

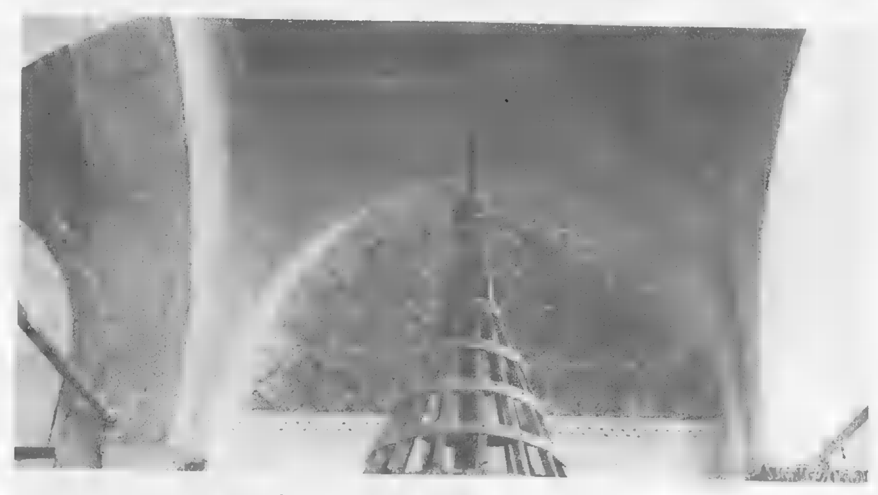
آ   سامراء ـ الجوسق الخاقاني ـ الوزرة الجصية



ب   سامراء ـ الجوسق الخاقاني ـ لوح خشبي من غرفة العرش



آ سوسة ـ المسجد الكبير ـ المعزبة تحت القبة الأولى



ب سوسة ـ المسجد الكبير ـ قلب المقص المزخرف



سوسة ـ المسجد الكبير



سامراء – المسجد الكبير



آ سامراء ـ المسجد الكبير ـ احدى النوافذ من الداخل



ب سامراء ـ المسجد الكبير ـ الملوية



سامراء ـ الجعفرية ومسجد ابو دلف



آ   سامراء ـ زخرفة من طراز / ب



ب   سامراء ـ زخرفة من طراز / آ



آ   القيروان ـ آبار الأغالبة



ب   القيروان ـ البئر الكبير



القاهرة ـ مقياس ماء النيل



القيروان ـ المسجد الكبير ـ المحراب



آ القيروان ــ المسجد الكبير ــ القيشاني في زخرفة المحراب



ب القيروان ــ المسجد الكبير ــ الالواح الرخامية التي تغطي المحراب



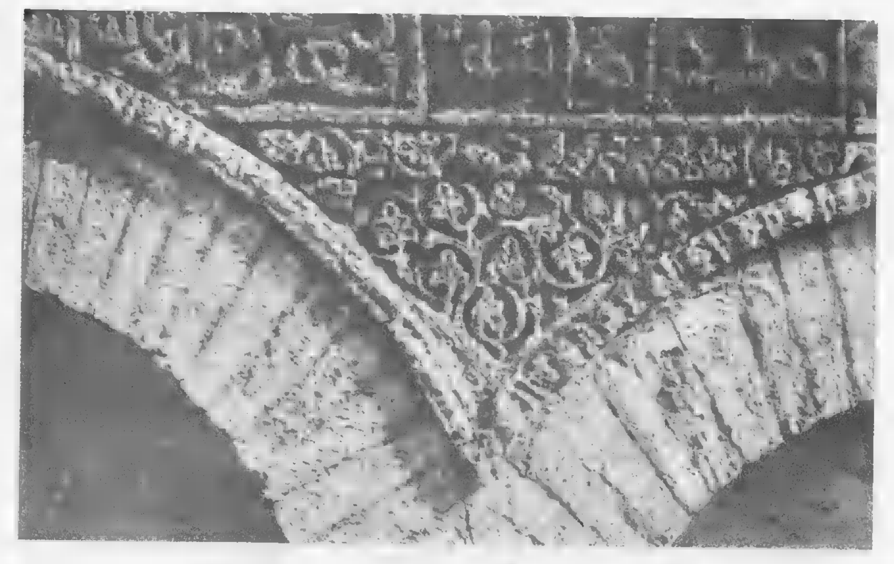
القيروان – المسجد الكبير – وضع القبة امام المحراب



القيروان ـ المسجد الكبير ـ المصلى



آ القيروان ـ مسجد الابواب الثلاثة ـ واجهة الشارع



ب القيروان ـ مسجد الأبواب الثلاثة ـ تفاصيل زخرفة المقصات



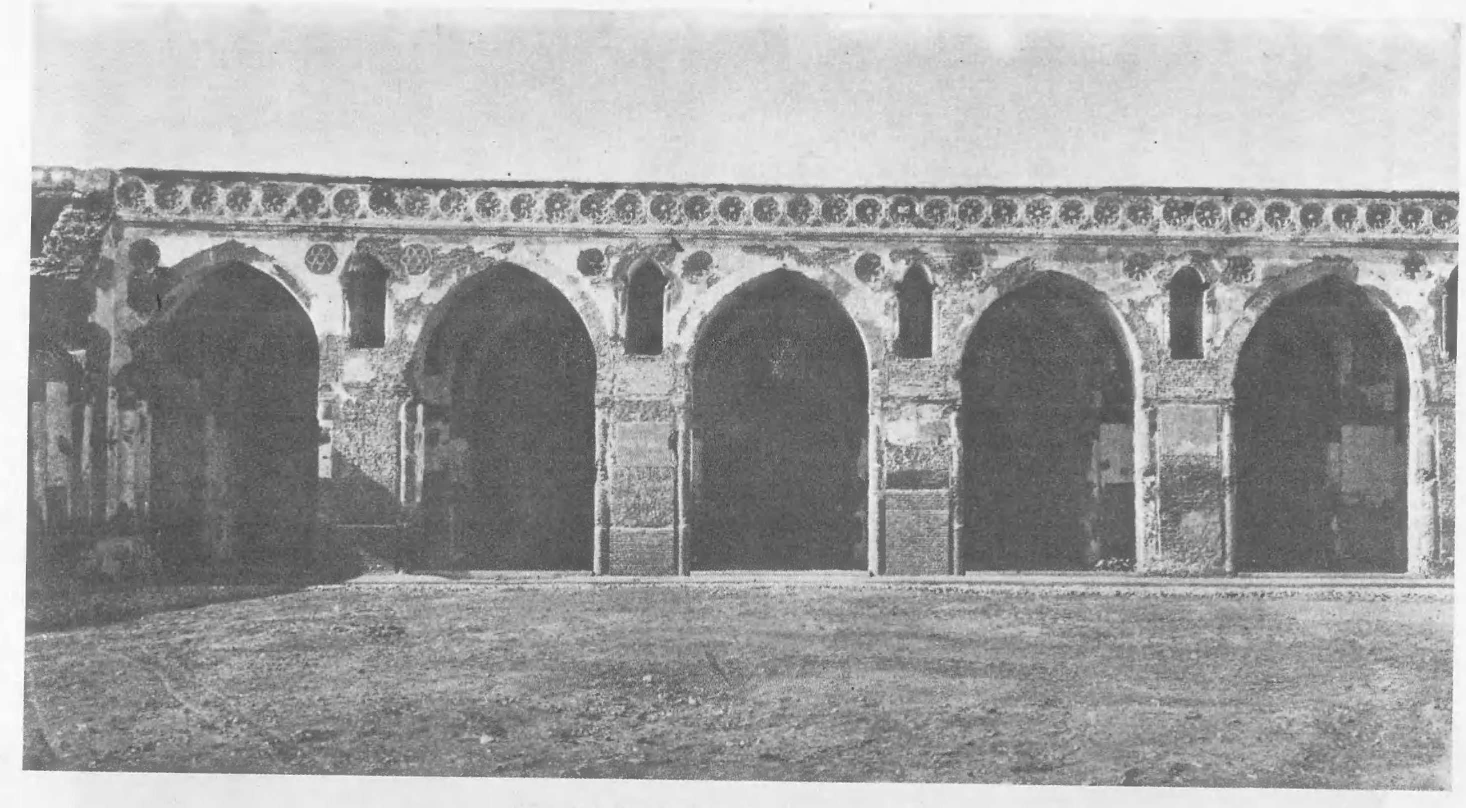
مسجد ابن طولون



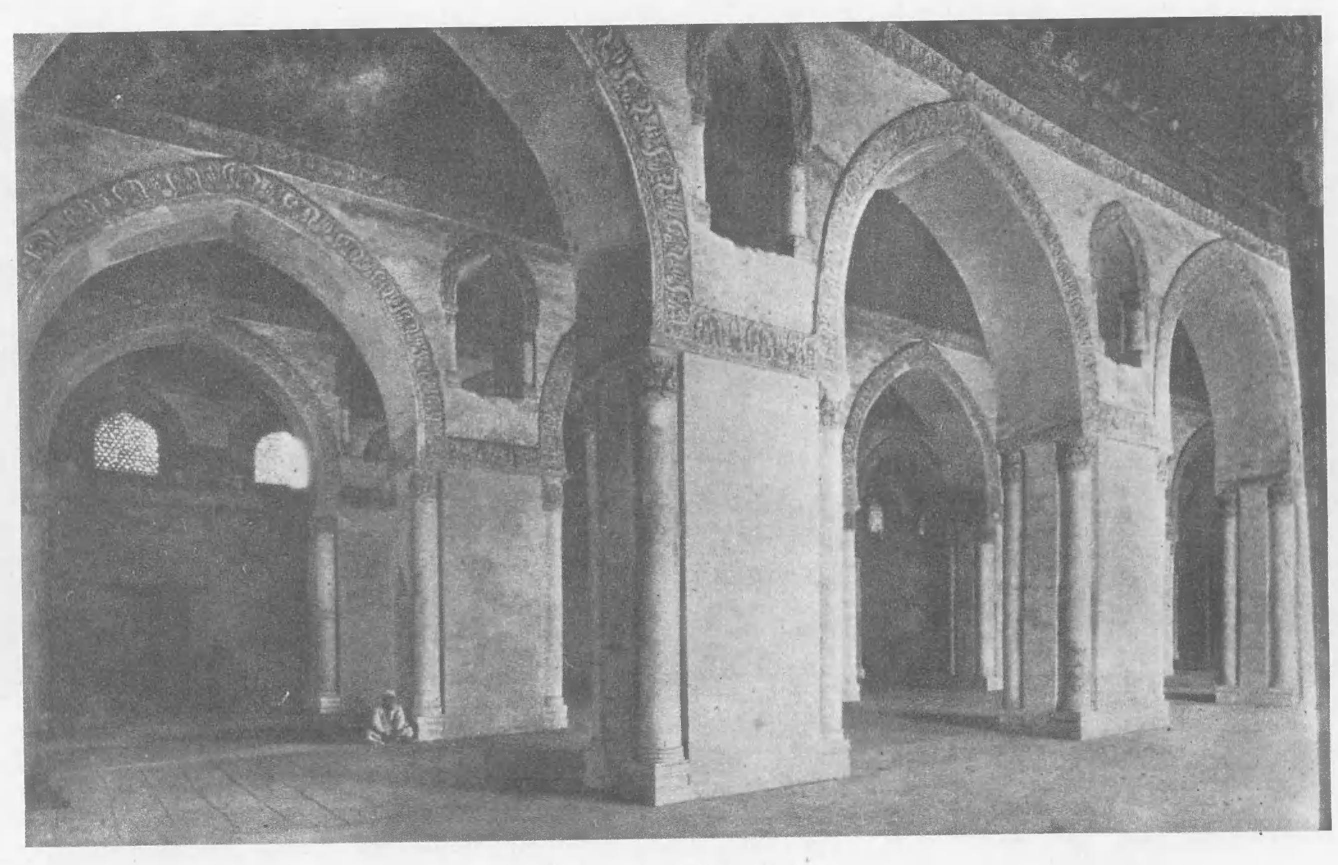
مسجد ابن طولون ــ الزيادة الشمالية الشرقية



مسجد ابن طولون – باطن قوس الباب

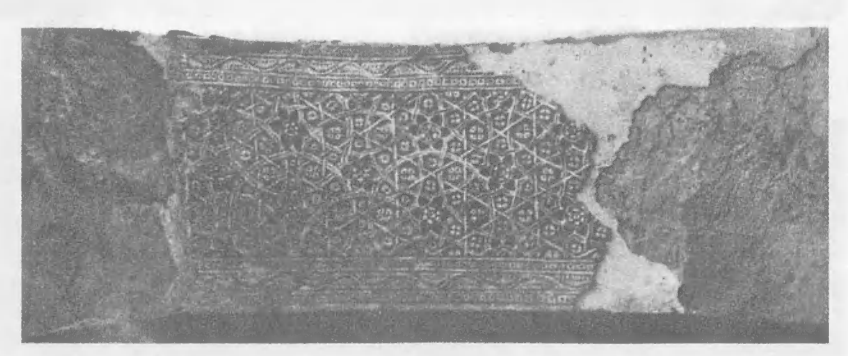


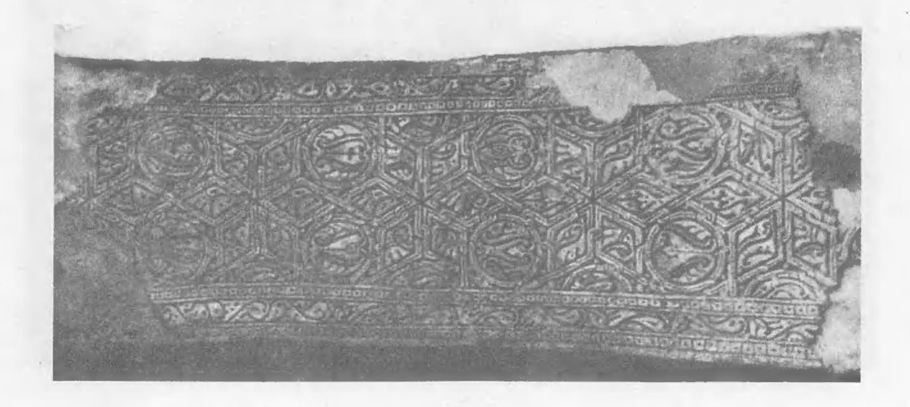
مسجد ابن طولون ـ واجهة الرواق الشمالية الشرقية

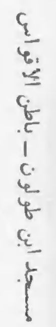


مسجد ابن طولون – اروقة المصلى

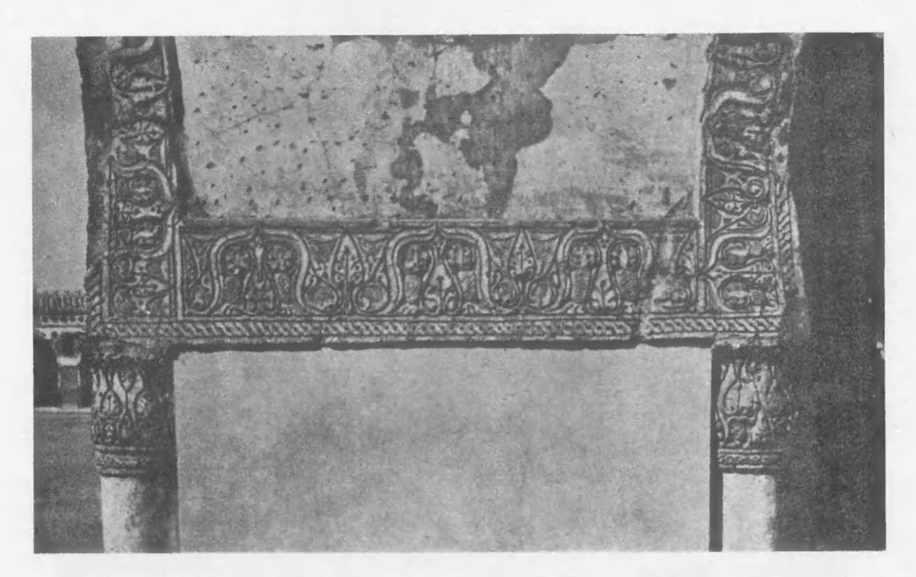




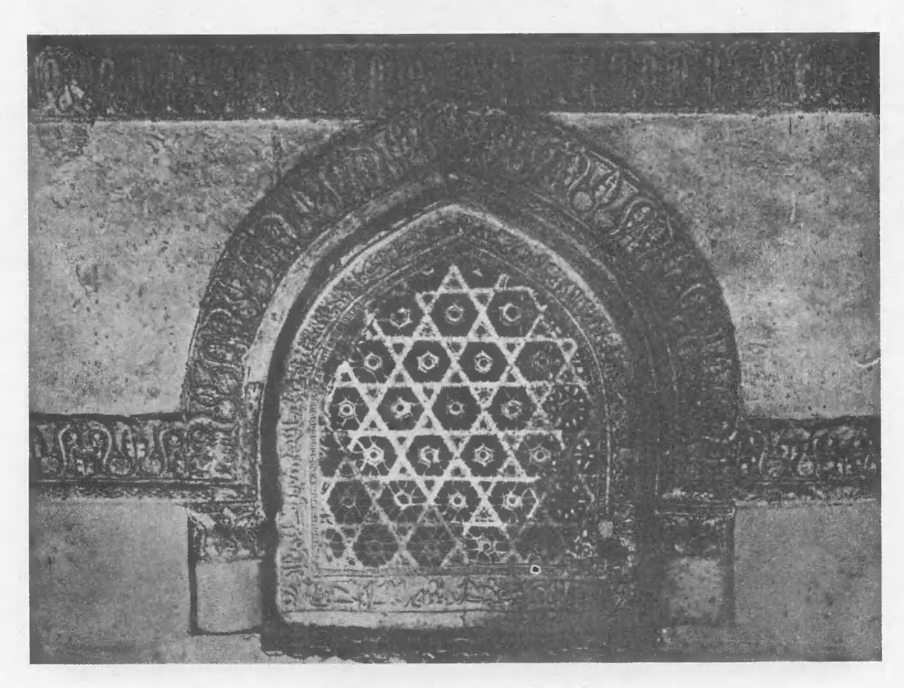




مسجد ابن طولون – باطن الأقواس



آ   مسجد ابن طولون ـ تفاصيل زخرفة الاقواس



ب   مسجد ابن طولون ـ النافذة السادسة من اليسار في الجانب الجنوبي الشرقي